جيفري S.H.M

أصول التشيع الإسلامي وتطوره المبكر
(المعارضة)

ترجمة:
مهيب عيزوقي

- أصول التشيع الإسلامي وتطوره المبكر (المعارضة)
- تأليف: جيفري S .H .M.
- ترجمة: مهيب عيزوقي
- التدقيق اللغوي: حسين محفوض
- الطبعة الأولى ٢٠٠٨

- الناشر: دار الكنوز الأدبية - بيروت - لبنان
  - تلفاكس ٧٣٩٦٩٦ - ٠١
  - ص. ب ٧٢٢٦ - ١١

دار حوران للطباعة والنشر والتوزيع

سورية - دمشق

تلفاكس: ٦٧١٣٠٧٩

ص. ب: ٣٢١٠٥

جيفري S.H.M

أصول التشيع الإسلامي وتطوره المبكر

(المعارضة)

ترجمة:

مهيب عيزوقي

الإهداء

إلى أستاذي الكبير الذي علمني حب التاريخ د. عباس همداني.

وإلى محبي البحث عن الأصول للارتقاء بالفروع.

المترجم

تقديم المحرر

اتجه انتباه الرأي العام العالمي منذ بعض الوقت إلى العالم العربي للواقع الاستراتيجي للبلدان العربية، والنفط الذي تنتجه، وتحررها السريع وظهورها كدول مستقلة وثوراتها والانقلابات العسكرية. كل ذلك كان موضع اهتمام رجال الحكم والسياسيين ورجال الأعمال وأساتذة الجامعات والصحفيين وكذلك الرأي العام.

وكل ذلك جعل فهم مشاكل العالم العربي الحالية ومطالب جيرانه المباشرين ضرورياً من النواحي الجغرافية والخلفية الاجتماعية والتيارات الرئيسية الحالية وتاريخها السياسي والثقافي والديني وذلك لفهم القضايا المعاصرة. فالعرب كانوا موجودين قبل ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي بزمن بعيد، ولكن الإسلام جعلهم قوة عالمية. ونشر الحضارة العربية التي نتجت عن اتصال العرب بثقافات الشعوب الأخرى، وبخاصة بعد تحقيق دولتهم الكبرى التي جعلتهم قوة عالمية والتي وصلت ذروتها في القرون التاسع والعاشر والحادي عشر الميلاديين والقرون التالية وعلى رقعة واسعة من العالم.

وهذه السلسلة من الكتب التاريخية المخصصة للناطقين بالإنكليزية تحاول توضيح ماضي العرب التاريخي، وتحليل المشاكل المعاصرة. وقد جاء المساهمون في هذه السلسلة من أنحاء متعددة من العالم، وكلّ منهم متخصص في مجاله. وهذه السلسلة من المقاربات والمواقف المتنوعة تقدم لقراء الإنكليزية صورة فريدة للعالم العربي.

نيقولا زيادة
أستاذ التاريخ في الجامعة الأمريكية. بيروت
محرر سلسلة خلفية العرب

تنويه المترجم:

في ربيع عام ٢٠٠٢ وبعد أن تصفحت *بحث كتاب* S.H.M. جيفري The Origins and Early development of Shia' Islam أصول التشيع الإسلامي وتطوره المبكر. رأيت أن أترجمه وأضعه بين يدي القراء العرب الذين كثيراً ما ظلموا الشيعة والتشيع لأسباب غير ذات صلة بأصول التشيع. وكلها سياسة، قائمة على تفسيرات متأخرة لأصول قسرت نصوصها وحملت ما لا تحتمل. وهذا يصح على المتشيعين كما يصح على سواهم. "نكايات بـ نكايات"

رأيت أن استشير مرجعاً احترمه (مؤرخاً). وكان جوابه: "برغم أن هذا البحث قديم، فلا بأس بترجمته." وللحق أقول أن إجابته أدهشتني لأن هذا البحث صدر عام ١٩٧٩ إذا كان بحث عمره ثلاثة عقود أو أقل صار قديماً، فماذا نقول عن كتب صار عمرها قروناً؟ وأية علوم نجني منها، ونحن نتعلق بها أكثر من تعلقنا بالبحوث المعاصرة؟ وعرفت عندها لماذا نعيش في القرن الحادي والعشرين بعقلية القرون الخالية.

رغم ما قيل عن الكتاب، وما قد يقال، ورغم أنني لا أتفق مع كل فقرة فيه، فإنه ما يزال بحثاً جديراً بالعناية والدراسة والاستناد إليه؛ لاسيما وقد قبله نقولا زيادة.

المؤلف: ولد المؤلف في لوكناو، الهند عام ١٩٣٦ ودرس العلوم الإسلامية في مدرسة تقليدية. ثم حصل على شهادتي دكتوراه: الأولى من جامعة لوكناو، والثانية من جامعة لندن مدرسة الدراسات الأفريقية والشرقية. ثم درّس في جامعة مالاي في كوالالمبور ثم الجامعة الأمريكية في بيروت حيث شغل كرسي الشيخ زايد للدراسات الإسلامية، وصار رئيس قسم الدراسات الدينية. مثل د. جيفري الجامعة الأمريكية في

العديد من المؤتمرات العلمية العالمية، وكتب في مختلف فروع الدراسات الإسلامية، وساهم في دائرة المعارف الإسلامية. وهو الآن معاون رئيس تحرير مجلة همدارد الإسلامية في باكستان (مجلة فصلية).

المعلومات قديمة مأخوذة عن غلاف الكتاب باللغة الإنكليزية أي منذ عام ١٩٧٩

إقرار: لابد من التنويه إلى أن المحرر اللغوي الأستاذ حسين محفوض قدم إلى جانب التحرير اللغوي نصائح مفيدة في الترجمة ذاتها؛ أما أسلوب الترجمة فيقع على عاتق المترجم بالذات، لأنه يصرّ على بناء الجملة المترجمة بطريقة قد لا تروق للعروبيين تماماً؛ ولكنها على كل حال لا تخالف قواعد اللغة. لذلك أرجو من الأخ حسين أن يتقبل فائق تقديري واحترامي لكل ما أبداه نحوي ونحو هذا العمل.

كما أن شكري يجب أن يصل للأخ علي اليازجي الذي تضد هذا الكتاب على الحاسوب وأخرجه بأناة وصبر كبيرين على سوء خط المترجم وغلاظته في المعاملة.

كما أسدي شكري لكل المساهمين في إخراج هذا العمل إلى الوجود

كانون الثاني ٢٠٠٣

ميهب عيزوقي

الفصل الأول

أسس المفاهيم

جرى تفسير انقسام الجماعة الإسلامية إلى فرعين: السنة والشيعة بأنه اختلاف سياسي. ونسبت أصوله إلى ولاءات سياسية في الأساس فيما يخص قيادة الجماعة، تلك الولاءات التي انفجرت على شكل حرب أهلية بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان. هذه الحرب لم تحدد وصول الأمويين إلى السلطة فقط، بل بداية التشيع بصفته حركة دينية منفصلة عن الكتلة الرئيسية للمؤمنين أيضاً. هذا التفسير العام بسّط بشكل كبير موقفاً معقداً جداً. وهؤلاء الذين يؤكدون الطبيعة السياسية للتشيع ربما كانوا يرغبون في تبني المفهوم الغربي الحديث في التفريق بين الكنيسة والسياسة ويسقطونه على ما جرى في مجتمع الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي، في حين أن هذا المفهوم ليس غريباً فحسب، بل إنه غير مفهوم أصلاً. وهذا التفسير يعني أيضاً أن التشيع ظهر بشكل تلقائي، ولم يكن ظهوره متدرجاً وتطور داخل الجماعة الإسلامية. وأما رأي الاستغراب –عكس استشراق– بأن التشيع "هو حركة روحانية" فهو استثناء. لقد التصق الدين وعلى مر العصور بكل جوانب حياة الإنسان في المجتمع، ولم يكن محدداً بالسياسة. حتى تعليم عيسى المسيح الديني النقي – كما ينظر إليه – لا يفتقد صلته بالسياسة.[1]

ولقد كان النبي محمد/ص/ معلماً دينياً وروحياً بشكل أساسي ورسول الله، وفي الوقت عينه، وبفضل الظروف قائداً دليوياً ورجل دولة، وهكذا كان الإسلام منذ ظهوره الأول تربية دينية وحركة سياسية، كما يمكن

القول. كان ديناً بفضل مقام النبي بصفته رسول الله اصطفاه وأرسله ليبلغ رسالته إلى البشرية، وسياسيّاً بفضل المناخ والظروف التي نشأ وتطور فيها. وعلى هذا الأساس فإن التشيع في طبيعته الأصلية الموروثة كان دائماً ديناً وسياسة جنباً إلى جنب، والحالتان موجودتان عبر تاريخه الطويل. وهكذا فإن من الصعوبة الهائلة الحديث عن وجوده وعلى أي مستوى بإحدى صفتيه دون الأخرى. وخلال الثلاثة أو الأربعة قرون الأولى من التطور المؤسساتي والديني لا يمكن للباحث أن يتجاهل أن المناقشات بين المسلمين كانت ذات صلة بالقضايا السياسية والاجتماعية. عندما نحلل العلاقات الممكنة المختلفة التي انطوى عليها الإسلام ونقارن بعضها ببعض، نجد مطالب شيعة علي واتجاهاتهم العقائدية تميل إلى مفاهيم دينية أكثر منها سياسية، لذلك يبدو من غير المقبول أن يُلصق الأصل السياسي بالفئة – الشيعة – ذات التوجه الروحي والاعتبارات الدينية أساساً – وكما سنشرح لاحقاً –.

إن مصطلح "شيعة" هو كما تطور تاريخياً يعني – ويجب أن يؤخذ كذلك في هذا الفصل– الأتباع والجماعة والحزب والأنصار والمؤيدين،[2] وباختصار المؤيدون. وترد كلمة شيعة بهذه المعاني في القرآن الكريم.[3] وبهذه المعاني بصفتها تخص أولياء علي وأهل بيته جرى استخدامها وهي بذلك تميزهم عن السنّة. في سنوات الإسلام الأولى لم يكن بمقدور المرء الحديث عن ما يقال سنة "أرثوذكس" أو شيعة "منحرفة" – بل عن وجهتي نظر غير محددتين بدقه – ومتباعدتين باستمرار إلى حدٍ لم يعد التصالح ممكناً فيه. ومن هنا، فإن هدفنا في هذا العمل هو تأصيل خلفية

مؤيدي عليّ وتقصّي أصولها في المجتمع العربي منذ ظهور الإسلام. وبالتالي فإن هذا العمل يبين كيف اتضح هذا الموقف منذ وفاة النبي محمد.

يجب أن تكون نقطة بداية كل دراسة للإسلام الشيعي، من حيث الضرورة التاريخية، من طبيعة وتشكيل الجماعة الإسلامية التي قامت في المدينة تحت قيادة محمد. لم تكن هذه الجماعة متجانسة لا في التقاليد ولا الخلفية ولا المؤسسات السياسية الاجتماعية. وتوحيد شعوب مختلفة أو جماعات من شعب في نظام جديد لا يعني إزالة أو حتى تغيير بعض تقاليدهم وقيمهم المتجذرة بعمق. وهكذا فإن من الطبيعي أن قيماً أو أفكاراً أو ميولاً معينة لمختلف أفراد الجماعة، تنعكس في وجهات نظر معينة للنظام الديني الجديد. وبالتالي، وبدلاً من مقاربة متجانسة أو وجهة نظر واحدة تجاه كل القضايا، وبخاصة التي ليس لها طبيعة أصولية، أو جوهرية فإن على المرء أن يتوقع وجود مقاربات وأراء عديدة ضمن الأمة، إلا فيما يخصّ نبوة محمد ورسالته (الشهادتين) فهما عاملان أصليان جوهريان يوحدّان الجماعات المختلفة ضمن الأمة الإسلامية.

كان ميل بعض العرب من جماعة صحابة النبي لتأييد علي نتيجة لازمة لما هو موجود مثلاً من أفكار منتشرة بين قبائل عربية عديدة أسست الجماعة الإسلامية في المدينة. هذه الجماعة تألفت من قريش البطاح (وهم سكان مكة حول الكعبة) وقريش الظواهر (هم سكان ضواحي مكة) والمدنيين (نسبة إلى المدينة المنورة) وكانوا منقسمين إلى الأوس والخزرج وكلا القبيلتين من عرب الجنوب ويحتفظون بكثير من الميزات الشخصية لبلادهم الأصلية، ومن بعض العرب مما حول المدينة، وبعض العرب وغير

العرب من أماكن بعيدة مثل بلال الحبشي من أثيوبيا وسلمان الفارسي من فارس. وكلهم شكلوا جماعة واحدة تحت علم الإسلام، ولكن عندما ننظر إلى أية قضية جماعية في داخل هذه الجماعة، فإن علينا أن نراعي الأمزجة والميول المتنوعة لكل فريق، وليس لفريق واحد بعينه من قبيلة واحدة أو بلد بعينه. علينا أن نفترض أن العرب من أصول وخلفيات اجتماعية وثقافية مختلفة فهموا الإسلام، على الأقل في بداياته بحسب مُثلهم الاجتماعية والأخلاقية.

كان المجتمع العربي بفرعيه البدو والحضر منظماً على أسس قبلية، ومن أهم الروابط الاجتماعية هو الولاء للقبيلة "العصبية" وشكّلت هذه العصبية إلى جانب مفاهيم أخرى في الحياة القبلية أهم التعابير التي جرى تأكيدها باستمرار في شعر العرب ما قبل الإسلام. وأسس النظام القبلي على النسب الفعلي أو المزعوم لجد أفراد القبيلة، وهو ما حدد الوضع الاجتماعي والأخلاقي لأفرادها. ومن لم يكن قادراً على الفخر بأجداده كنموذج للعظمة نظر إليه على أنه وضيع، وكثيراً ما كان عرضة للازدراء. وكانت معرفة الجد الأعلى والوعي بمكانته قضية مركزية في الوجدان الاجتماعي العربي، فشرف ومجد قبيلة ما بالمقارنة مع شرف ومجد قبيلة أخرى هو أساس الفخر. وكان أي ادعاء بالهيبة والشرف لأفراد القبيلة يعتمد إلى حدٍّ بعيد – على ما كان منه للأجداد. والمصطلح الذي استخدمه العرب للتعبير عن ذلك هو "الحسب" الذي فسّره اللغويون العرب على أنه تعداد الأعمال المشهورة للأجداد.[٤] وهذا الحسب لم يقتصر على الأجداد من طرف الآباء فقط بل شمل أيضاً النسب من طرف

الأمهات. فإذا كانت الأعمال العظيمة عديدة لدرجة يمكن أن يذكرها ويفخر بها الأبناء فإن ذلك يجعل حسبهم أو شرفهم أعظم كما اصطلح على تسميته بالحسب أو الشرف الرفيع. مما يعني أن نبلهم أعظم وأقوى بحسب الأعمال العظيمة التي قام بها الأجداد وتوارثها الأبناء جيلاً بعد جيل[٧] وهذا ما ردده الشاعر العربي النابغة الذبياني:

أبوه قبلـــه وأبو أبيـــه بنوا مجد الحياة على إمام[٨]

والقبيلة الكبيرة العدد ولكن بقليل من أسباب الفخر بأعمال أجدادها لم تكن تعد قليلة القيمة اجتماعياً فحسب بل وكانت موضوعاً للهجاء والازدراء من طرف ذوي الحسب الرفيع. وهكذا نرى الشاعر ضمرة يقول:

وما جمعا من آل سعد ومالك وبعض زناد القوم غلث وكاسد[٩]

في نظام قبلي صارم كما هو عند العرب، شهرة الأجداد بأعمالهم العظيمة تصبح المصدر الأهم للفخر وإدعاء التفوق، وجعل نبل قبيلة ما عاملاً جامعاً لادعائها التفوق في علاقتها بالقبائل الأخرى. وأما ضمن القبيلة فإن الفخذ "الفرع" الذي يستطيع تعداد الأعمال العظيمة لاجداده ويفخر بها كان يحوذ السيادة على الفروع الأخرى الأقل نبلاً منه ضمن القبيلة الواحدة. وكان هذا النبل لا يشمل كل الفرع بالتساوي، بل وجد تميز بين الأفراد كان مهمّاً لشرف فرد واحد أيضاً. فقد سأل النعمان بن المنذر ملك الحيرة عامر بن أحيمر بن بهدلة الذي ادعى المقام الأسمى في مجلسٍ: "هل أنت أنبل العرب جميعاً فيما يخص قبيلتك؟" فأجاب: "تميز

معد بالشرف والعدد، ومن بينهم نزار، ومن بينهم مضر، ومن بينهم خندف، ومن بينهم تميم، ومن بينهم عوف ومن عوف عائلة بهدلة. ومن لا يرضى ذلك فلينازلني" [١١]

ما كان العرب يعتبرون أن الميزات الجسدية هي وحدها التي تورث فحسب،[١٢] بل كانوا يعتقدون أن سمات النبل تؤرّث أيضاً في سلالة بعينها. وبما أن السمات الأخلاقية هي موضوع تحول جيني، فإن أفضل قيم فرد ما تنتقل بالوراثة من الآباء إلى الأبناء. وميّز العرب بين الشرف الموروث والشرف الذي يحوزه فرد ما، ورأوا أن الشرف الموروث هو مصدر عظيم للمكانة الاجتماعية، بينما الشرف المكتسب أقل قدراً منه. وبكلام آخر فإن شهرة شخص ما وكفاءته تضمن له مكانة مميزة لكنها أقل بالمقارنة مع الشهرة والكفاءة الموروثة التي تضمن شهرة وهيبة في المجتمع.[١٣] وفي الشعر العربي مما قبل الإسلام ما يؤكد ما قلناه من أن النبالة الموروثة تضمن المقام العالي لذرية الأشراف،[١٤] وكان من الشناعة على الوارثين تخريب ذلك الشرف.[١٥] وكان من واجب الأبناء المحافظة على ما ورثوه من شرف. وبهذا المعنى فإن مصطلح "سنة" صار يتداول منذ زمن بعيد فيما قبل الإسلام.[١٦] واستمر استخدام هذا المصطلح متداولاً بقوة كما كان قبلاً، ولكن مضمونه تغيّر جذرياً وحلّ مكانه السنة النبوية. مع أن معاني أخرى استمرت في طابعها القديم عند بعض العرب على الأقل حتى ضمن الجماعة المسلمة.

وكان الفرد الأنبل بين العرب، حيث نشأ الإسلام، هو الذي يمكن أن يفخر بأن قدره أن آباءه لم يتركوا له شيئاً بصفته "سنة" مما يحط من

مكانته. والمصطلح الذي استخدم للتعبير عن فكرة النبل الموروث من الأجداد هو "عرق وجمعها أعراق وعروق" ومعنى عرق أصل ومصدر. وهكذا تم التعبير عن المكانة الاجتماعية بأقوال مثل "له نصيب موروث في الكرم والنبل"[١٧]، أو "دم نبيل يعود لأجداده" [١٨]

إن من الواضح أن تقوى الآباء وأعمالهم النبيلة وميزاتهم الأخلاقية بصفتها سنة قامت بدور هام في وجدان العرب الديني. ودين العرب الذي تباين من منطقة إلى أخرى من حيث القوة والأهمية في كل أنحاء شبه الجزيرة العربية كان بالأصل عبادة الرموز القبلية، الذي تم تعريفه من خلال قوى الطبيعة، وشخص بآلهة متعددة. ورمز لآلهة القبيلة بأحجار مقدسة سميت أنصاب، ودعيت "رب المعبد" أما الله وهو الإله الأعظم للمكان المقدس عند المكيين فقد وصفوه بأنه "رب الكعبة أو رب هذا البيت" [١٩] ومن المهم أن نلاحظ أن كلمة رب كانت لا تشير إلى "إله" وإنما للشخص المسؤول عن المعبد.

لم يكن هناك مؤسسة دينية منظمة، لكن بطوناً محددة قامت بدور العناية بالمعابد. وهذه المهمة تم توريثها للأبناء من جيل إلى جيل يليه متدافقة بصيت من القداسة الموروثة.[٢٠] وأصل هذه القداسة مأخوذ من القوة السحرية للصنم الذي اهتم به هؤلاء المكلفون بالعناية به، وصارت قداستهم مرتبطة بفكرة شرف عرقهم ومرادفة لشرفهم الموروث من أجدادهم. ومثّلت نبالة العرق الموروثة، وشرف القداسة الناتج عن خدمة الصنم الرب: الأرستقراطية في جزيرة العرب قبل الإسلام. وآثار هذه الأرستقراطية موجودة في عقائد العرب وخاصة الجنوبيين منهم، حيث

نعثر على عائلات معينة لديها هذه الجاذبية الشخصية charisma أو المقدرة الروحانية أو الشرف. كما جرى العرف بأن العناية بمعبد "بيت" والشرف متلازمان. ولنتيجة لذلك، فإن الكهانة "العناية بمعبد" كانت غالباً من حق شيخ القبيلة أو الملك. ويمكن الذهاب إلى أبعد من ذلك لنقول أن القيادة السياسية في الجزيرة العربية كانت بالأصل ذات طبيعة دينية وكهانة. والمؤسسة الملكية في الجنوب العربي التي عرفت بـ "المقرّب" هي خير دليل على الملك – الكاهن الذي يجمع بين السلطة الدينية والدنيوية.

استطاعت البطون التي أفرزت الحكام السياسيين الاستحواذ على الشرف العظيم بعدما استولت أولاً على السلطة بوسائل سياسية، ومع ذلك لم تستطع مساواة نفسها بالسلالات الكهنوتية (التي تعتني بالمعابد)؛ مثلاً، عُدَّ ملوك كندة من حيث الشرف بعد البطون الثلاثة ذات الشرف العظيم المستمد من موقعها الكهنوتي. وهذه البطون "البيوت" الثلاثة هي: بعد "بيت هاشم بن عبد مناف من قريش"، ١– زرارة بن عداس من تميم، ٢– حذيفة بن بدر الفزاري من قبيلة فزارة، ٣– ذو الجدّين بن عبد الله بن همّام من قبيلة بني شيبان. أما فيما يخص كندة فلم تحسب من بين "أصحاب البيوت" مع كونهم ملوكاً. [٢٢]

ومن الواضح أن الوضع الكهنوتي لم يكن أساس القيادة السياسة، ولكن بعدما يحقق رجال القيادة السياسية موقعهم، كانت تمنح لهم مهمات دينية. وكانوا يقومون بدور الوسطاء بين الناس والآلهة. ونتيجة لذلك فإن القيادة القبلية وخدمة الإله أصبحتا مترادفتين. وأولئك الذين

يقودون القبيلة يصبحون بالضرورة حماة بيت القبيلة (المعبد الخاص بها). وبالتالي يصبحون "أهل البيت" [٢٣] وجميع البطون القائدة شكلوا نبلاء العرب أو بيوتات العرب. وإلى عهد متأخر، وحتى بعدما صار مصطلح أهل البيت مقصوراً على سلالة النبي، بقي مصطلح بيوتات العرب حيّاً إلى قرون متأخرة بصفته يمثل الأرستقراطية القبلية النبيلة. [٢٥]

وبناءً على هذه الخلفية نستطيع تقدير أهمية بني هاشم، لا ضمن المكيين فقط، بل في محيط أوسع بفضل صلاقم بالقبائل الأخرى من خلال سوق عكاظ والحج إلى الكعبة. بعض المستشرقين الغربيين تساءلوا هل كان أجداد محمد على هذه الدرجة من الأهمية والنبالة والتأثير كما توضح المصادر، ومن ثم يدّعون بأن أهمية بني هاشم بولغ فيها. ويبررون ذلك بأن العباسيين كانوا فعلاً من بني هاشم، في حين أن منافسيهم بني أمية المغلوبين كانوا من سلالة عبد شمس، وأن المؤرخين الذين دونوا تواريخهم تحت رعاية العباسيين حطّوا من قدر بني أمية. ولهذا السبب أدعى هؤلاء الغربيون أن أجداد الخلفاء العباسيين صوروا على قدر عظيم في كتابات المؤرخين أكثر مما كان لهم فعلاً. وهذا الافتراض، على كل حال، قابل للنقد بالتأكيد. إن فحصاً دقيقاً يبيّن أن ذلك لم يكن صحيحاً إلى أي مدى مقبول، وليس هناك أساس لافتراض أي مغالطة أو إدعاء مبالغ فيه عند عرض واقع حال أجداد محمد. [٢٦]

إننا لا نحتاج أن نعود إلى قصي والد عبد الدار وعبد مناف، هذين اللذين تبرزهما الشهادات التاريخية بأنهما استأثرا بأعلى سلطة سياسية ودينية بغير منازع. بعد وفاة قصي ورث ابنه عبد الدار سلطته، ولكنه مات

سريعاً، وكان أبناؤه صغاراً لا يستطيعون النهوض بحقهم في السلطة. لذلك فإن عبد مناف أخا عبد الدار الأصغر استحوذ على المسؤوليات الهامة التي كان قصي يقوم بها. وأخيراً ورث أبناء عبد مناف نفوذ والدهم، ومن بينهم هاشم ورغم أنه الأصغر فيهم منح مهمة شريفة تخص الكعبة وهي الرفادة والسقاية؛ وهي تزويد الحجيج بالطعام والماء. [٢٩]

وليس هناك أي أساس للشك بالروايات التي ذكرت أن هاشماً أحرز نجاحاً عظيماً و مجداً كبيراً خلال حياته بفضل أعماله الجليلة لخدمة مجتمعه و كرمه الرائع الذي أولاه للحجاج الذين زاروا الكعبة من مختلف أنحاء الجزيرة العربية. وعندما توفي هاشم خلفه أخوه المطلب. و يبدو أن حظ العائلة انحط تحت قيادة المطلب، و لكنه تعافى بقيادة عبد المطلب بن هاشم الذي تربى عند أخواله في يثرب، ثم أحضره عمه المطلب إلى مكة لتولي القيادة (ميراث أبيه). [٣١]

و نظراً إلى أن أولاد هاشم الآخرين توفوا بلا ذرية فإن عبد المطلب استحوذ على شؤون العائلة بكاملها، و هذا معناه إعادة الوحدة إلى عائلة هاشم و مهامها بقيادة عبد المطلب. ليس من المهم هنا مناقشة هل كانت العائلة في ذلك الوقت متألقة و فعّالة في مكة كما تعودت أن تكون أم لا.

المصادر التاريخية التي كانت غالباً موضع شك في عرض ظروف أجداد محمد بشكل مبالغ فيه، هي نفسها لم تتردد في رواية كيف واجه عبد المطلب تراجعاً خطيراً في بداية حياته. حققت مهمة الرفادة و السقاية لبني هاشم تأثيراً دائماً و قائداً، ويبدو طبيعيا أنه بفضل هاتين الوظيفتين انتشرت شهرة بني هاشم في كل الأنحاء، وجلب لهم الاحترام في مكّة.

كان عبد المطلب رجلاً صاحب مبادرة و قدرة[٣٣] وهما ضروريتان لكي يحقق المرء مكانته في مجتمع مكة التجاري الأرستقراطي. وعزز مكانته بحفر بئر زمزم المعروف منذ القدم. و بمرور الوقت أصبح عبد المطلب حامي الكعبة و نظر إليه بأنه قاض مشهور بحسب الأعراف السائدة يومئذ. ومن موقعه هذا بصفته الشخص الوحيد المسؤول عن الخدمات الأساسية لأقدس بيت في الجزيرة العربية، فقد أصبح أحد أهم، إن لم يكن الأهم بين شخصيات مكه. أخبرنا ابن سعد و ابن هشام: (أنه كان سيد قريش حتى وفاته) و أنه (نال شرفاً عظيماً و مكانة رفيعة لم يحظ بها أحد من آبائه قبله، لقد حاز على احترام عظيم إلى جانب حب شعبه).

وورث أبو طالب مقام أبيه بعد وفاته. و يبدو أن أبا طالب لم يُظهر أنه يمتلك طاقة و شخصية والده و أجداده، وبالتالي فقدت العائلة الهاشمية بعض مكانتها و قيادتها التي حازت عليها ضمن دائرة الأرستقراطية المكّية.[٣٤]

وسع ذلك فليس من الضروري أن تؤدي بعض الخسائر المادية في العائلة إلى فقدانها شرفها وأهميتها في ذاكرة الشعب. ولم يتلاش احترام آل هاشم الذي تكرس خلال ثلاثة أو أربعة أجيال فوراً، وبخاصة في عيون جماعات خارج مكة. فالكعبة بصفتها المعبد الرئيسي والقديم، كانت مهمة جداً ومعروفة بصفتها مركزاً للعبادة في كل أنحاء الجزيرة العربية،[٣٥] ومهمتا (السقاية وعمارة البيت) ذكرتا في القرآن الكريم.[٣٦] لقد كان تزويد الحاج بالماء عملاً مربحاً في مكة حيث الماء نادر، واشتراك القوافل التجارية التي تحط في مكة بماء زمزم إلى جانب الحاج زاد في أرباح

القائمين بالعمل ، أي بني هاشم،[٣٧] لقد سجل المؤرخون القدامى بالتفصيل أثر الكعبة عن طريق توسع اتصالات المكيين بالعالم الأرحب من خلال مكة بصفتها محطة القوافل التجارية القادمة من اليمن جنوباً، ومن دومة الجندل في أقصى الشمال ومن أماكن أخرى بعيدة وكذلك بسبب سوق عكاظ السنوي وهو أعظم أسواق (معرض) العرب يومئذ. وهكذا صار من الطبيعي أن الخدمة الشريفة المتصلة بالكعبة التي قدمها بنو هاشم لمدة طويلة قد وسعت انتشار شهرة وجلال العائلة مع مغادرة الحاج والقوافل التجارية لمكة. وهكذا نستطيع الاستنتاج أنه عند ظهور محمد كانت عائلته تحوز على مجد سلالة هاشم الكهنوتي العميق بعيداً في التاريخ رغم أنها فقدت بعض سلطتها السياسية وانحسرت ثروتها المادية. ومن الناحية النفسية على الأقل، فإن الأعمال والأفعال التي قام بها ثلاثة أجيال لا يمكن أن تختفي من وعي الناس البعيدين لمجرد التراجع المفاجئ في الثروة والسلطة السياسية للعائلة عندئذ. لقد نظر العرب إلى بني هاشم باعتبارهم حماة المعبد (أهل البيت) في مكة.[٣٨]

واعتماداً على هذه الخلفية فإن محمداً نهض بصفته رسول الله وأحيا الدين الحقيقي (سنة إبراهيم وإسماعيل)،[٣٩] التي أفسدها الناس وانحرفت عبر القرون الخالية. لم يقر العرب أن إبراهيم هو أبوهم وقائدهم القبلي فقط، بل ومؤسس معبد الكعبة المكيّة أيضاً. ولم تكن هذه أسطورة مسلمين. لو لم تكن هذه الحقيقة شائعة بين الناس قبل بعثة محمد بزمن طويل، لما كان القرآن ذكرها وأكدها، ولما كانت زوايا مهمة من الكعبة نسبت لإبراهيم وإسماعيل.[٤٠] كان محمد واعياً تماماً بهذا التقليد عميق الجذور

المتصل بعلاقة إبراهيم بالكعبة عند جميع العرب عامة، وعند الأجيال الأربعة السابقة عليه وعلاقة هذه الأجيال بهذا التقليد. أقرّ ابن خلدون أن توارث القيادة في أجيال أربعة على التوالي كان شيئاً أكبر من الوصف لعظمة شرفه.

عند مناقشة خلافة محمد يجب أخذ جميع العوامل التي تمت مناقشتها سابقاً بعين الاعتبار. وكما أشرنا ، هذه القضية لا يجوز أن تقتصر على المجتمع المكي في القرن السابع الميلادي، وذلك لأن الجماعة التي أقامها محمد كانت عند وفاته مؤلفة من خلفيات وقيم وأفكار متعددة قادمة من مختلف انحاء الجزيرة العربية. ولذلك كان من الطبيعي ان ينظر أتباع محمد إلى مسألة خلافته من زوايا متعددة. أما طريقة حل القضية في سقيفة بني ساعدة فسوف نعرض لها فيما بعد. إنما من المهم ملاحظة أن طريقة الحل كانت متوافقة مع تقليد عريق وممارسة جماعية عربية، وعلى الأقل جماعة منهم.

تألفت أمة محمد من جماعتين رئيسيتين من العرب الأولى من عرب الشمال ووسط الجزيرة العربية، وكانت من بينهم قبيلة قريش وهي الأهم والمسيطرة، والثانية من عرب الجنوب أصلاً من بني قيلة ممثلة بفخذيها الرئيسيين الأوس والخزرج وكانا يقطنان يثرب. وقد عرف عرب الجنوب (الأوس والخزرج) بالأنصار لأنهم قدموا الملجأ والمسكن لمحمد والاسلام في لحظات الشدة في بعثة النبي. والاختلافات في وجهات النظر جميعها تقريباً من الناحية الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والدينية والجغرافية وافتراضاً العرقية بين عرب الشمال وعرب الجنوب كانت

معروفة لا تحتاج إلى مزيد من الشرح والتفصيل. جولدزهير[42] وهاوزن [43] نيكلسون [44] وغيرهم من الأساتذة المعروفين درسوا هذا الموضـوع بعمق. وعلى كل حال، فإن اعتبار العرب جميعاً جماعة من ثقافة واحدة هو خطأ فادح. فما كانوا كذلك البتة. فقد كان عرب الشمال مقطوعين عن الوسط بصحراء، كما كان الجنوبيون منقطعين عن الوسط بـالربع الخالي. والاختلافات الجغرافية الواسعة والظروف الاقتصادية لعبت دوراً أكيداً في مختلف وجوه التطور للفرعين الأقربين.

فقد تطور عرب الشمال والوسط "الحجاز ومرتفعات نجد" بشكل مختلف عن عرب الجنوب اليمنيين من حيث الميزات الشخصية وأسلوب الحيـاة والمؤسسات الاجتماعية – السياسية والاجتماعية– الدينية. وكما تمايز الفرعان في كل مناحي الحياة فإنهما تمايزا كلٌ عن الآخر في الأحاسـيس الدينية والمشاعر. لقد ظهرت بين أكثرهم تقدماً وتحضراً مـن سـكان مناطق الجنوب أفكار دينية واضحة بينما كانت بين عرب الشمال قليلة. فمثلاً أمير من عرب الجنوب نقش على نصب تذكاري شكره للآلهة التي نصرته على خصومه، كما نذر المقاتلون إقامة نصب للإله الذي يساعدهم في تحقيق انتصارهم. وعلى العموم فإن الشعور بالامتنان والتسليم للآلهة هو المحور الرئيسي للنصب في جنوب الجزيرة العربية. بينما افتخر عرب الشمال بشجاعتهم البطولية وإقدام رجالهم. ولم يشعروا بأنهم مضطرون لشكر قوى إلهية عند نجاحهم، رغم أنهم لم يرفضوا أبداً وجـود هـذه القوى.[45] وحتى وجود شعور ديني فاتر بين عرب الشمال لا يمكن عزله عن تأثير عرب الجنوب الذين استوطنوا في الشمال [46] هذا الاخـتلاف

من حيث الأحاسيس الدينية ظهر في أسلوب القيادة القبلية. ربما كان هناك أحياناً اعتبارات أخرى مثل النبل والشرف الموروث لكنها في الشمال أقل منها في الجنوب فقد كان عرب الجنوب معتادين على نظام القيادة الوراثية المبنية على القداسة الموروثة وبفضل هذه الحقيقة أبرز عرب الجنوب من الأوس والخزرج في المدينة مناخاً قابلاً للفهم بصورة أكثر يسراً من الوجهة الدينية الهامة في قضية خلافة محمد وبذلك نعتقد بأن معظم عرب الشمال فهموا الإسلام باعتباره على الأقل في أيامه الأولى عندما قبلوه – نظاماً سياسياً – اجتماعياً مبنياً على دين علّمه النبي، فبدوا فاترين تجاه الأوامر الدينية. أما عرب الجنوب الأوس والخزرج فقد فهموا الإسلام بصفته مبدأ دينياً مقروناً بحركة اجتماعية – سياسية، ذلك لأنهم في ماضيهم الثقافي – برغم بعده – كانوا حساسين جداً بالدين. لقد كانت مسألة تأكيد في المقاربة والفهم – على الأقل – في الاستجابة الأولى.

عندما توفي محمد فهمت قضية خلافته على أنها تجمع الناحيتين: القيادية السياسية والدينية، وهذا المبدأ (مبدأ الجمع) كان معروفاً جداً لدى العرب، وطبيعياً مع تركيز متباين بين الناحيتين لهذه الجهة أو تلك. فبعضهم أراد التركيز على الناحية السياسية، وبعضهم الآخر أراد التركيز على الناحية الدينية أكثر من السياسية. الأغلبية من المسلمين، الذين قبلوا أبا بكر بسهولة، ركزوا أكثر على الجانب الاجتماعي– السياسي– بمعنى أنهم قبلوا بذلك بحسب الإجراءات المعتادة في الخلافة لمركز القيادة الشاغر مع تفسير جديد قدمه الخليفة الأول(أبو بكر)، كما نبحثه فيما

بعد. فهم أهملوا إلى حدّ بعيد، إن لم يكن كلياً، المبدأ الديني وفكرة القداسة الموروثة في بيت(سلالة) معين. هذا الافتراض يؤيده بقوة ما قاله عمر بن الخطاب لابن عباس : (إن القوم لا ترضى أن تجتمع النبوة والخلافة في بطن)[47]

علينا أن نفترض أن عمر وأبا بكر كلاهما كانا واعيين لأهمية فكرة القداسة الموروثة التي تمسك بها الجزء الآخر من المسلمين. وفي الوقت عينه كانا متأكدين من أن ترك الباب مفتوحاً للجدل حول اختيار أبي بكر سيعرض وحدة الأمة لخطر أكيد وجسيم. ومع ذلك رأيا ضرورة التفريق بين الخلافة وكهانة(العناية) الكعبة، التي حفظت لبني هاشم بصفتها قداسة موروثة.

أما في الجانب الآخر من الأمة وبخاصة عرب الجنوب، فقد شعروا أن القيادة المكيّة مع حق الكهنوت(القيام بالشؤون الدينية) المقصور على الموروث في فخذ بني عبد مناف كان من حق الهاشميين [48] ذلك برغم أن بني أمية استولوا على المسائل السياسية أيام عبد المطلب. ولكن نهوض محمد بصفته نبي الله والسلطة الأعلى في الجزيرة العربية أعاد القوة والسلطة لبني هاشم، تلك هي الحقيقة التي أقر بها أبو سفيان حين استسلم للنبي يوم فتح مكة. وكان الخيار الطبيعي المنطقي- بناءً على ما تقدم- عند بعض الصحابة أن الخليفة يجب أن يكون هاشمياً آخر، وأن قضية الخلافة بكاملها كانت عندهم هي مشكلة ذات طبيعة وأهمية دينية عظيمة. وبالإضافة إلى الفرصة السياسية السانحة، فإن اعتبارات دينية متجذرة بعمق يجب أخذها بالحسبان كما رأى بعض الصحابة. هؤلاء

الذين ندعوهم بذوي الميول القانونية، لم يكن بإمكانهم الموافقة على التفسير الذي قدمه أبو بكر ومعاونوه، لأنهم - كما سنرى فيما بعد- فهموا قيادة الأمة على أنها منصب ديني فوق كل شئ. فهم فهموا أن محمداً كان مجدد دين ابرهيم واسماعيل الحقيقي، ومعه وصلت القداسة الموروثة في عائلته ذروتها العليا. هذه الفكرة يؤيدها القرآن بقوله: (إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين.)[٤٩] وقد أجمع مفسرو القرآن على أن محمداً إبراهيمي النسب وهو المقصود بهذه الآية. وهكذا عندما توفي محمد فإن خليفته يجب أن يكون من العائلة ذاتها ويمنح الميزات عينها التي كانت لمحمد بموجب المبادئ عينها

على ضوء هذا الذي ذكرنا - ثمة ما يدعونا لملاحظة المفهوم القرآني للعائلات المفضلة وذات المقام الرفيع - والتي جاء فَضْلُها عند الله من الأعمال الصالحة والخدمات التي قدمها أفرادها في سبيل الله. وفي كل العصور كان الأنبياء مهتمين بشكل خاص بأن يضمنوا فضل الله لهداية البشر، وان تبقى هذه المهمة (الهداية) في ذريتهم. ويردد القرآن حديث الأنبياء وهم يدعون الله لذريتهم ويسألونه أن تستمر هدايته في ذريتهم. وإجابة لهذه الأدعية فإن آيات القرآن تشهد ببساطة أن فضل الله بقي في ذريتهم المباشرة، ودعتهم الآيات لحفظ عهد آبائهم وليبقوا قدوة لأتباعهم في تجسيد تقوى آبائهم وليتابعوا خطى الأنبياء أجدادهم. واستخدم القرآن للتعبير عن فضل الله في الذرية مصطلحات مثل ذرية، والأهل، والقربى.

لقد استخدمت كلمة ذرية في اثنتين وثلاثين آية من آيات القرآن الكريم. وقد وردت إما بشكل مباشر لتعبر عن حرص الأنبياء علـــى أن تبقـــى ذريتهم على الصراط المستقيم، وإما لكي تستمر هدايتهم في ذريتـــهم. وغالباً ما استخدمت هذه الكلمة في آيات حيث قـــال الأنبيـــاء أن الله اصطفاهم كي يكونوا قدوة في التقوى المبنيّة على أساس أهـــم ســـلالة مباشرة لأنبياء سبقوهم. وورد اهتمام الأنبياء بذريتهم في الآيـــة رقـــم ١٢٤ من سورة البقرة حيث يبلغ الله إبراهيم بقوله:(إني جاعلك للناس إماماً).

عندها طلب قائلاً:(ومن ذريتي ؟) أجاب الله "لا ينال عهدي الظالمين" وفي آية أخرى نجد إبراهيم يدعو ربه قائلاً (ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وأرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون). وقد أجـــاب الله هذا الدعاء حين قال: (أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين مـــن ذرية أدم، وممن حملنا مع نوح، ومن ذريّةِ إبراهيم وإسرائيل وممن هـــدينا واجتبينا.) سورة مريم آية ٥٨

أما مصطلح (الآل) الذي يعني القرابة القريبة مثل الأولاد المباشـــرين للأب أو الأحفاد، أو أحفاد الأحفاد، فقد استخدمه القرآن ستاً وعشرين مرة فيما يخص سلالة الأنبياء أو خلفاءهم في هداية البشرية وبفضل خاص من الله.

أما فيما يخص محمداً وكونه من ذرية إبراهيم كما اقتبسنا سابقاً وهو (إن الله اصطفى ...) فنجد جوابه في الآية ٥٤ النساء (أم يحسدون الناس على

ما آتاهم الله من فضله، فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وأتيناهم ملكاً عظيماً.)

أما مصطلح (الأهل) الذي استخدم مرات عديدة في القرآن فهو تقريباً بمعنى الآل مع توسع قليل، فهو يشير إلى أهل القربة أو جماعة، أو القوم أو الأتباع. أما عندما استخدمه بإضافته إلى البيت، فهو يشير إلى السلالة المباشرة لعائلة. وفي هذه الحالة، أي عندما يرد بصيغة (أهل البيت) فهو يعني ذرية محمد المباشرين نجد ذلك حين يقول: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) الآية ٣٣ سورة الأحزاب. وقد أجمع مفسرو القرآن على أن أهل البيت المقصودين بهذه الآية هم: فاطمة بنت محمد وابن عمه عليّ بن أبي طالب وحفيدا محمد المفضلان الحسن والحسين.

أما المصطلح الرابع "قُربى" فهو يعني قرابة الدم "الأبناء" وكما هي الحال مع مصطلح أهل البيت، فإن قربى استخدم ليدل على ذرية محمد المباشرين. يقول تعالى: (وذلك الذي يبشّر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات، قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودّة في القربى.) الشورى ٢٣

ومرة أخرى نواجه بإجماع المفسرين بأن "ذوي القربى" هم: فاطمة بنت محمد وعلي والحسن والحسين. والفارق الوحيد هو أن المفسرين السّنة دمجوا زوجات النبي مع ذوي القربى، بينما استبعد المفسرون الشيعة الزوجات. ويصل مجموع الآيات القرآنية التي تذكر فضلاً خاصاً طلبه مختلف الأنبياء لذريتهم وأجيبوا إليه إلى ما فوق مائة آية قرآنية. وبناءً على ذلك يمكن أن نصل إلى استنتاجين: إذا قبل المرء أن القرآن أوحي

بمصطلحات مفهومة في المناخ الثقافي للجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي، فإنه يصبح من الواضح أن فكرة القداسة في عائلة النبي كانت مبدأ مقبولاً في ذلك الوقت. والأهم من ذلك هو أن حقيقة تكرار القرآن لهذه الفكرة ترك انطباعاً بين بعض المسلمين بأن عائلة محمد تمتعت بحق ديني خاص بها فوق الآخرين.

وبما أنه لم ينسب أي فضل ديني لفخذ بني تيم بن مرة القرشي وهي عائلة أبي بكر، ولا لبني عدي بن كعب عائلة عمر بن الخطاب، فإن الذين أخذوا بالمبدأ الديني لا يمكنهم قبول ترشيح أي من أبي بكر وعمر لخلافة محمد، والمرشح المقبول يجب أن يأتي من الهاشميين وأبرزهم علي بن أبي طالب. فهو ولد حفيد هاشم وعبد المطلب وابن أبي طالب عم النبي الذي ربى وأحب وقدم لمحمد الرعاية الأبوية التي افتقدها النبي قبل مولده. وكان علي هو الأقرب للنبي الذي اعتنى به خلال القحط الذي ضرب مكة، وتبناه بصفته أخاً له قبل وبعد الهجرة.[٥٠] كان علي أول المسلمين من الذكور،[٥١] وخديجة زوج النبي أول النساء، وكان زوج فاطمة بنت الرسول الوحيدة التي عاشت بعده، وأم الحسنين حفيدي النبي وريحانتيه.

وهكذا يبدو أن هذه الميزات الشخصية الموروثة وفضائل الأعمال ضمنت لعلي مقاماً فريداً متقدماً على جميع عائلات الصحابة، وجعلت جماعة من الصحابة يؤيدونه بحماسة خاصة ويخلصون في دعمهم له حتى خلال حياة النبي. وربما لهذا السبب ظهرت دعوى أن التشيع وجد خلال حياة النبي، وهذا ما يقوله بوضوح سعد الأشعري والنوبختي وهما من أوائل كتّاب الفرق.[٥٢] ودعم فكرة أحقية علي بالخلافة سلسلة أحداث

حصلت خلال حياة النبي أظهر النبي على أثرها اعتبارات خاصة لعلـــي. نعرض هنا لأهمها وهي التي تشير لتصاعد هيبة وفضل علي:

١ في أوائل البعثة، وبالتحديد بعد ثلاث سنوات من بدايتها وحين أنزل الله على نبيه محمد أمره "وانذر عشيرتك الأقربين" الشـــعراء ٢١٤ جمع محمد ذرية عبد المطلب، وأخبرهم بالمهمة التي اختير لها، وطلب منهم التأييد والمساعدة لتعزيز دعوته، وبدلاً من ذلك تلقى محمـــد السخرية والازدراء منهم باستثناء علي، الذي برغم كونه في الثالثة عشرة من عمره قدم تأييده الخالص بحماس.[٥٣]

٢ إن الأخوة الدينية الخاصة جداً بين محمد وعلي التي ذكرناها ســـابقاً يجب أخذها بعين الاعتبار في سلسلة الأحداث هذه. فقد تبني النبي هذه الأخوة قبل وبعد الهجرة وما من مؤرخ كتب تلك الحقيقة.

٣ إن موقف علي رفع من مكانته في أعين الصحابة حين عيّنه النبي لحمل رايته في موقعتي بدر وخيبر وغيرهما.[٥٤]

٤ إن تعيين علي باعتباره نائب النبي ﷺ على المدينة عند غـــزوة تبـــوك، أكسب علياً مزيداً من الثقة. ففي هذه المناســـبة ورد الحـــديث النبوي: "يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا إنـــه لا نـــبي بعدي"[٥٦] وقد أورد هذا الحديث جميع المؤرخين والمحدّثين تقريبـــاً، وعندما نرى محمداً يومئ إلى نفسه وبعثته بالمقارنة مع الرسل الكبار فإننا لا نجد حرجاً في قبول هذا الحديث. وفي سياقات عديدة مـــن القرآن نجد ما يناسب هذا الموضوع. مثلاً سأل موســـى ربـــه أن:

"واجعل لي وزيراً من أهلي. هارون أخي. أشدد به أزري. وأشركه في أمري." طه ٢٩-٣٢ إن مقارنة محمد نفسه بموسى لا تكتمل بدون هارون، ومن الواضح أن ذلك كان علي بن أبي طالب.

٥ وهناك حدث آخر على قدر كبير من الأهمية وهو سورة براءة. في العام التاسع للهجرة عين النبي أبا بكر لقيادة الحجاج إلى مكة، وبعد مغادرته نزلت سورة براءة التي تتحدث عن العلاقة مع المشركين، سأل أناس النبي إن كان سيرسل هذه السورة إلى أبي بكر ليبلغها بالنيابة عن النبي أجاب النبي: "لا لن أرسلها إلا مع رجل من أهل بيتي." بعد ذلك دعا النبي علياً وقال له ارتحل على ناقتي إلى مكة حالاً وابلغ أهلها ما أوحي فيهم.

ليس ثمة خلفية جدية للشك بصدق هذه الأحداث، التي دونها كتّاب من مختلف المدارس الفكرية، والتي تبدو مقنعة في سياقها. ومهما كان المرء حذراً وشكاكاً، فلا يمكنه تكذيب هذه الأحداث في فضل عليّ لأنها كانت منتشرة وسجلها معظم المؤرخين والمحدثين منذ زمن مبكر. ومن بين هذه الأحداث وأشهرها حديث غدير خم — ومع أنه موضوع جدل- والشيعة تنظر إليه ببالغ الأهمية، ولكن جرى تجاهله عن قصد. وغدير خم هو عبارة عن بركة ماء أو مستنقع وحوله بعض الأشجار، ويقع على بعد أميال قليلة على طريق مكة المدينة، ومنه يغادر الحاج كلٌ نحو غايته. عندما كان محمد عائداً من حجة الوداع، توقف في غدير خم يوم ١٨ ذي الحجة ١٠ آذار مارس ٦٣٢م ليعلن أمام الحجيج الذين رافقوه من مكة، والذين كانوا يستعدون ليتفرقوا كلّ إلى غايته. وبأمر من محمد

كُسح له شجيرات وأقيمت فيما يشبه المنبر. وبعد صلاة الظهر صعد النبي على المنبر وخطب في الجمع في آخر خطاب عام له قبل وفاته بثلاثة اشهر. ثم أخذ بيد علي وسأل أتباعه قائلاً: "ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟" فأجابوه: بلى يا رسول الله. عندئذٍ أعلن قائلاً: "من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه، وعاد من عاداه."

أما فيما يخصّ مصداقية هذا الحدث فمن الصعب إنكارها أو مسألتها حتى من طرف أكثر السلطات السنيّة محافظة وهم الذين أوردوا هذا الحدث. ومن بينهم الإمام أحمد بن حنبل في مسنده والترمذي والنسائي وابن ماجة وأبو داوود وغالبية المحدثين السنّة مثل ابن الأثير في أسد الغابة وابن عبد البر في الاستيعاب وتبعهم آخرون من كتاب السير وحتى ابن عبد ربه في العقد الفريد والجاحظ في رسالة العثمانية.[٥٨] وأحاديث الغدير رويت في معظم المصادر وشهد بصحتها مئات من الرواة من مختلف المذاهب، ومن العبث الشك في مصداقيتهم. فابن كثير[٥٩] وهو من أكثر المتحمسين لتأييد وجهة النظر السينة خصص لهذا الحديث سبع صفحات وجمع عدداً وفيراً من الأسانيد التي روت الحديث. ويخبرنا ابن كثير أن المؤرخ الشهير الطبري دوّنه في "كتاب الفضائل" وهو من جزأين لم يكتملا وذكر ذلك أيضاً ياقوت في "الإرشاد" في فصل فضائل علي بن أبي طالب وذكر فيه حديث غدير خم. وسجل الأستاذ المعاصر حسين علي محفوظ في بحوثه الأخّاذه عن حديث غدير خم وبتوثيق دقيق أن الحديث روي من طرف ١١٠ صحابياً و٤٨ تابعين و٣٥٥ عالماً و٢٥ مؤرخاً و٢٧ محدّثاً و١١ مفسِّراً و١٨ متكلماً و٥ لغويين. ومعظمهم يحسبون من السنّة.

ودرس كلٌ من هورروفتز[٦١] وجولد زيهر[٦٢] حديث الغدير وقالا بأن أقدم دليل على هذا الحديث هو أبيات الكميت بن زيد توفي ١٢٦ هجرية ٧٤٣م ولا يسائلان صحة الأبيات. ويرفض هذان الدارسان أي دليل قبل أبيات الكميت على أساس افتراضهم المشكوك فيه بأن أبيات شاعر النبي حسّان بن ثابت التي قالها تلقائياً يوم الحدث ربما لم تكن أصلية. وعلى كل حال، فالمصادر الشيعيّة وبعض المصادر السنيّة تزعم أن أقدم دليل على صحة الحديث بيت حسان بن ثابت الذي قاله على رضا من رسول الله،[٦٣] حين كان المسلمون يهنئون علياً بتلك المناسبة. ومن غير المعقول أن يمر هذا الحدث الهام من دون أن يسجله حسّان وهو الشاعر الملازم للنبي آخذين في الاعتبار أن حسّان كان يرافق النبي في أولى حجاته بعد الهجرة وحقيقة أن حسّان اعتاد أن ينظم الشعر ويلقيه في كل نشاطات النبي الهامة.

وعلى كل حال، فإن هذا الحديث والحدث لم يسجلا في المصادر المعتمدة عادة في دراسة سيرة النبي مثل سيرة ابن هشام والطبري وابن سعد. فهذه المصادر إما تصمت عن ذكر الحدث، أو تذكر توقف الرسول في غدير خم ولا تذكر الحديث. ويفسر فيشيا فاغليري موقف هؤلاء المؤرخين بقوله: "من الواضح أن هؤلاء خافوا من جلب عداوة الحكام السنّة عليهم إذا ذكروا روايات تدعم موقف الشيعة الذين يستخدمون هذا الحديث لدعم قولهم في حق علي بالخلافة. وبالتالي فإن المستشرقين الذين يؤسسون دراستهم على هذه المصادر الثلاثة المألوفة لديهم لم يذكروا شيئاً عن غدير خم. ومع ذلك فإن من المؤكد أن محمداً توقف في

غدير خم وقال ما ذكرناه، لأن حديث الغدير حُفظ بالنص كما ذكر بتفاصيل وافية لا من طرف اليعقوبي المتعاطف مع قضية علي، وإنما في صحاح الأحاديث المعتبرة وبخاصة مسند أحمد بن حنبل وروايات الحديث متعددة وبأسانيد كثيرة لدرجة أصبح من المستحيل رفضه.

لم يكن مثار الجدل بين السنّة والشيعة صحة حدث غدير خم، ولا إعلان الرسول حول ولاية علي – كما عرضنا سابقاً– وإنما كان الخلاف حول المعنى المقصود بكلمة "مولى" التي استعملها النبي. لقد فهم الشيعة وبدون لبس أو إبهام إن كلمة مولى تعني قائد وسيد ومهيمن patron وبالتالي وبوضوح "خليفة" النبي. أما السنة فقد فسروا مولى بمعنى الصديق والقريب والثقة. إن غنى المعنى في كلمة مولى، كما في كثير من معاني بعض الكلمات العربية وبالتالي السماح ببعض الإبهام، يسمح بقبول التفسيرين معاً. فبينما قبل السنة حديث الغدير، فسروه بأن ما قاله النبي يعني ببساطة حث أتباعه على تبجيل علي ومحبته باعتباره ابن عمه وزوج ابنته الوحيدة على قيد الحياة. وأكثر من ذلك، فسروا الظروف التي أوجبت فعل النبي بأنه رد على تذمر بعضهم من تعامل علي معهم بشدة وبدون تمييز بينهم عند تقسيم غنائم غزوة في اليمن التي حدثت تحت قيادة علي، ومن هناك عاد علي ومن معه لينضموا إلى النبي في مكة في موسم الحج. ولكي يزيل النبي هذا الإحساس السلبي تجاه صهره تحدث النبي بما قاله في غدير خم.[٦٦] وحتى مع قبولنا لهذا التفسير، فإن الحقيقة تبقى أن هذا الإعلان النبوي وبطريقة مدهشة وخارقة للعادة مساوياً بين علي ونفسه في السلطة يدعم أسس التفسير الشيعي.

إن تدقيق النظر في سمة الخلاف حول تفسير حديث غدير خم المـــذكور سـابقاً يمكن أن يفهمه بعض صحابة النبي ليعني إشارة واضحة لميل محمـــد تجاه علي برغم أنه لم يكن من الممكن جعل هذا الإعلان أكثر وضـــوحاً ربما بسبب عادة عرب الشمال في ترك اختيار القائد للأتبـــاع. ومـــن العوائق التي شاعت في وجه اختيار علي للخلافة كانت صغر سنّه يـــوم وفاة النبي. ولكن على كل حال، فإن مصادرنا تؤكد أنه بالرغم من أن "الندوة" وهي اجتماع وجهاء مكة قبل الإسلام لمناقشة الأمور الهامة، فإن هذه الندوة سمحت لذرية قصي بحضورها والمساهمة في المناقشة بغض النظر عن أعمارهم، وأعتبر ذلك حقاً خاصاً بهم. وفي وقت متأخر حدث تنازل ليبرالي صار عادة حين سمح لأبي جهل بحضور الندوة رغم حداثة ســـنه، وسمح للحكم بن حمزة بذالك وكانت سنه خمسة عشر أو عشرين عاماً.[٦٧] يخبرنا ابن عبد ربه: "ما كان هناك ملك في مكة في الجاهليـــة. لـــذلك فعندما كانت الحرب تنشب، كان شيوخ بطون قريش يجتمعون ويختارون زعيماً بغض النظر عن سنه شيخاً كان أم صبياً. وهكذا في يوم الفجـــار كان دور بني هاشم في القيادة ونتيجة المداولات أختير العباس وكان طفلاً وأُجلس في مقعد القيادة."[٦٨] أما يوم وفاة النبي فكان عمر علي ثلاثـــة وثلاثين عاماً، وبعض المصادر تثبت عمره بأنه ستة وثلاثون عاماً.

وفي الختام، إنِ فكرة خلافة محمد كانت بشكل أساسي دينية وليســـت سياسية، وكان التصور العام أن قداسة بني هاشم بالإضافة إلى الأحداث التي جرت خلال حياة النبي وفضل علي أدت إلى تبلور الرأي عند العديد من الصحابة بأن الأصلح لخلافة محمد هو علي وذلك لإبقاء العهد سليماً

غير مخترق. وفي المجادلات الحامية في سقيفة بني ساعدة لم يتردد هؤلاء الصحابة في الإدلاء بآرائهم. ونتيجة الخلاف في السقيفة التي سنناقشها الآن حددت بداية ما انتهى إلى تطور انقسام الأمة الدائم إلى السنة والشيعة.

مراجع الفصل الأول

١- مونتغمري وات. الفكر السياسي الإسلامي. ادنبره ١٩٦٨ ص٢٦ E
٢- معجم لين ج٦ ص ١٦٣٢ E
٣- سابقه ص ٦٩ و٩٣
٤- ابن قتيبة. رسائل البلاغة ص٣٦٠
٥- الأغاني ج١ ص٤٥
٦- الأغاني ج١ ص٧٢ وياقوت الحموي. معجم البلدان ج٣ ص٥١٩
٧- الأغاني ج٥ ص٣٠٠
٨- ديوان النابغة الذبياني. تح. د. شكري فيصل. بيروت ١٩٦٨ ص١٦٥
٩- المفضليات ٩٣ ج١٤ وفي موسوعة الشعر العربي- الشعر الجاهلي. شركة خياط. بيروت ١٩٧٤ ص١٧٠
١٠- المفضليات ٣١ ج٤
١١- ابن قتيبة. سابقه ص٣٤٨، العقد الفريد ج٣ ص ٣٣٢
١٢- الأغاني ج١ ص ٣١
١٣- عمر بن كلثوم. المعلقات، المفضليات، وزهير بن أبي سلمى. معلقات. والأغاني ج١ ص٣٠٠
١٤- لبيد. المعلقات وابن كلثوم. المعلقات أيضاً
١٥- الأغاني ج١٣ ص٣
١٦- لبيد. المعلقات
١٧- معجم لين ج٥ ص ٢٠٢٠
١٨- ياقوت ج١ ص٣
١٩- القرآن مذكور في النص
٢٠- ابن هشام ج١ ص١٢٦ والعقد الفريد ج٣ ص ٣٣٣

٢١- ر. سيرجنت. الحرم والحوطة (الأرض المقدسة في الجزيرة العربية) وأسياد حضر موت، مقال في مجلة مدرسة اللغات الشرقية. لندن عدد ٢١، ١٩٥٧ وابن دريد، الاشتقاق ص١٧٣ E-1

٢٢- ابن دريد ص٢٣٨ والأغاني ج١٩ العقد ج٣ ص ٣٣١

٢٣- ابن هشام ج١ ص ١٤٣ والعقد ج٣ ص ٣١٣ و٣٣٣

٢٤- دائرة المعارف الإسلامية. مقال "أهل البيت" وبيوتات العرب" E

٢٥- سيرجت

٢٦- مونتغمري وات. محمد في مكة. اكسفورد ١٩٥٣ ص٣١. سيرجت، اسياد حضر موت ص٧ E

٢٧- ابن هشام ج١ ص١٣١ الأزرقي، أخبار مكة ج١ ص٦٤، ابن سعد ج١ ص٦٩. القد ج٣ ص ٣١٢

٢٨- ابن سعد ج١ ص٧٤. الأزرقي ج١ ص٦٦ ويذكر أن عبد مناف لم يستلم السقاية والرفادة فقط بل وقيادة مكة.

٢٩- ابن هشام ج١ ص ١٢٣. ابن سعد ج١ ص ٧٨. الأزرقي ج١ ص٦٧ ويقول أن السقاية والرفادة ذهبت لهاشم أما القيادة فصارت لعبد شمس.

٣٠- ابن هشام الفهرس وابن سعد الطبقات

٣١- ابن هشام ج١ ص ١٤ ابن سعد ج١ ص ٨١

٣٢- وات. محمد في مكة ص٣١

٣٣- ابن سعد ج١ ص٨٥. ابن هشام ج١ ص ١٥٠

٣٤- دائرة المعارف الإسلامية، مقال "أبو طالب" E

٣٥- المعجم المفهرس لإلفاظ القرآن

٣٦- سابقه

٣٧- انظر محمد حميد الله، الدولة المدينة في مكة ١٩٣٨ ص٢٦٦

٣٨- ابن هشام ج١ ص١٤٥ الطبري ج١ ص٢٧٨٦

٣٩- القرآن ١١. ١٣٥-١٣٧

٤٠- القرآن ١١ ١٢٥

٤١- ابن خلدون من ترجمة كريم ج١ ص٢٨٩

٤٢- دراسات محمدية ترجمة ي. سترن وسي باربر لندن ١٩٦٨ ج١ ص٧٩ -١٠٠ E

٤٣- المملكة العربية وسقوطها ترجمة م. وير weir كلكتا ١٩٢٧ E

٤٤- تاريخ الأدب العربي. كامبردج ١٩٦٩ ص١ E

٤٥- جولد زيهر. دراسات إسلامية ج١ ص١٢-١٣

٤٦- سابقه ص١٤

٤٧- الطبري ج١ ص٢٧٦٩

٤٨- كان معظم مؤيدي أحقية علي بالخلافة من عرب الجنوب أصلاً وكانوا واضحين في دفاعهم عن قضيه علي على أساس ديني.

٤٩- آل عمران أية ٣٣

٥٠- ابن هشام ج١ ص ٢٦٢ البلازري ج١ ص٢٧٠ ابن حبيب، المحبّر ص٧٠

٥١- كان عمر علي عند بعثة محمد عشر سنوات، وكان أول من صلى مع محمد وخديجة. ابن هشام ج١ ص٢٦٢ أما البلازري فيقول إن الكتاب الأوائل الذين ذكروا أن أبا بكر كان أول المسلمين من الرجال قد فعلوا ذلك نظراً لأن علي كان بعد صغيراً. ج١ ص١١٢ أما ابن عبد البر في الاستيعاب فيروي عدة أحاديث بأسانيد مختلفة تؤكد الرأي القائل بأن علي أول ذكر اسلم وصلى مع النبي وخديجة إلا أن أبا بكر هو أول رجل أظهر اسلامه علناً. ج٣ ص١٠٩٠

٥٢- سعد الأشعري. الفرق ص١٥ النوبختي الفرق ص٢٣

٥٣- المسعودي، مروج الذهب ج٢ ص٢٧٧ وانظر أيضاً تفسير الطبري، وابن كثير، والثعالبي سورة ٢٦ آية ٢١٤

٥٤- ابن هشام ج٢ ص٢٦٤ وج٣ ص٣٤٥ والاستيعاب ج٣ ص١٠٩٧ والعقد ج٤ ص٣١٢

٥٥- ابن هشام ج٤ ص١٦٣

٥٦- ابن هشام. الفهرس. صحيح البخاري ج٢ ص١٩٤ النوبختي. الفرق ص١٩ العقد ج٤ ص٣١١ والاستيعاب ج٣ ص١٠٩٩

٥٧- ابن هشام ج٤ ص١٩٠ وردده المؤرخون والمحدثون.

٥٨- انظر فيشيا فاغليري في مقاله "غدير خم، دائرة المعارف الإسلامية. حيث يذكر جميع المصادر ما عدا العقد الفريد. E

٥٩- البداية والنهاية. القاهرة ١٣٤٨هـ ج٥ ص٢٠٨-٢١٤

٦٠- تاريخ الشيعة. كربلاء ص٧٧ وفي العصر الحاضر ثمة أعمال بمجلدات تتحدث عن غدير خم مثل الغدير للأميني في ٣٨ مجلد. والموسوي في عبقات الأنوار ٣٤ مجلد وكلها تتحدث عن رواة الحديث

٦١- مقال "الكميت" في دائرة المعارف الإسلامية. E

٦٢- مقال "غدير خم" في دائرة المعارف الإسلامية قائمة المصادر

٦٣- الغدير، الأميني ج١١ ص٣٢. والعاملي، أعيان الشيعة ج٣ ص٥٢٤-٥٣٢

٦٤- انظر الملاحظة رقم ٦٢

٦٥- ابن كثير. معجم

٦٦- سابقه

٦٧- الأزرقي. أخبار مكة ج١ ص٦٥ وابن دريد، الاشتقاق ص٩٧

٦٨- العقد الفريد ج٣ ص٣١٥

الفصل الثاني

السقيفة: الظهورات الأولى

في أية محاولة لتحديد أصول التشيع في الإسلام، على المــرء أن يحــاول فحص تفاصيل أقدم الأحداث المتزامنة مع هذه الأصول. وإن تاريخ أي شعب ومن كل الجوانب سواء أكانت سياسية أو ثقافيــة أو دينيــة أو تنظيمية هو استمرارية غير متقطعة، ولا يمكن فهم أي منظمة سياسية أو دينية بدقة ولا حتى أي رأي خاص ضمن تقليد ديني ما بدون الرجوع إلى ظهوره الأول الملموس. فمن الناحية التاريخية إن حدث السقيفة مرتبط بصورة وثيقة بظهور وجهة النظر الشيعية. السقيفة–كما سميــت بعــد الحدث– هي قاعة اجتماع قديمة في المدينة اعتاد الناس الاجتماع فيهــا لمناقشة وحل مشاكلهم الجدّية. وهناك اجتمع أهــل المدينــة لاختيــار قائد"أمير" فور وصول أخبار وفاة النبي. وقامت جماعة من المهــاجرين بإجبار الأنصار على القبول برغبتهم ومبايعة أبي بكر أميراً وحيداً للجماعة الإسلامية. وفي هذا الاجتماع ارتفعت الأصوات تأييداً لحــق علــي في الخلافة؛ ولذلك يجب اعتبار حدث السقيفة المولد الأصلي لأول انقسام بين المسلمين. وإن تجاهل هذا الحدث سيقود بالتأكيد إلى ســوء فهــم لأصول التشيع وإلى استنتاجات خاطئة. وهكذا فإن الإلزام التــاريخي يضطر الباحث إلى فحص مجريات السقيفة ومحاولة توثيق النقــاط الــتي أثيرت يومها وتجسدت في نهاية المطاف بتأسيس المبدأ الشيعي في الإسلام. ثمة مشكلة ذات طابع ناتج عن كتابات الفرق يجب أخــذها بالاعتبــار بصورة جديّة قبل أية محاولة لبيان الخطوط العريضة لحدث السقيفة. ربما

كان من المهم التساؤل عن مصداقية الروايات لتأكيد التفاصيل الصحيحة لما حدث في اختيار الخليفة الأول للنبي. إن الطبيعة الجدلية لهذا الموضوع نفسه والصعوبة الكامنة في مصادر الموضوع تجعل هذا البحث من الصعوبة بمكان وتصبح الصعوبة أكثر تعقيداً عندما نعرف أن الروايات الأقدم للحدث أعيدت كتابتها بعد قرن ونصف القرن من الهجرة، وذلك خلال حكم الخليفتين الأوّلين من خلفاء بني العباس(حكما ما بين ١٣٢-١٥٨ هـ). في هذا الوقت تعمق الانقسام في صفوف المسلمين ما بين سنّة وشيعة، وبدأ الطرفان يتهمان بعضهما بعضاً بالخروج على الإسلام الصحيح. في ظل هذه الظروف يبدو من المحتمل جداً أن مختلف الروايات التي تصف مجريات اختيار أبي بكر بدأت تظهر وتنتشر وكل منها كتب بحسب اهتمام وميول كاتبها. وبالتالي، ربما شك الباحث في روايات المؤرخين المتعاطفين مع وجهة النظر الشيعية مثل ابن إسحاق واليعقوبي والمسعودي، وبالمقابل في كتابات ابن سعد والبلاذري وحتى الطبري باعتبارهم يكتبون وجهة النظر السنيّة. ومع ذلك، فإن تدقيقاً عميقاً في المصادر المبكرة التي ذكرناها يُظهر أن حدث السقيفة روي بخطوطه الأساسية ونقاطه الجوهرية بتشابه قريب فيما عدا الاختلاف في بعض التفاصيل، وفي التأكيد على محتويات الرواية وأي الروايات أكثر دقة. هذه الاختلافات ناجمة عن ميول الكتّاب بشكل واضح أو عن ميول من أخبرهم الروايات، ويمكن تمييز ذلك لكن بصعوبة أكيدة. كما يسهل تمييز الكتابات المتحيزة بشكل واضح عند مقارنتها بروايات أخرى. ولدراسة من هذا القبيل سيكون من الأصح أخذ وفحص أقدم رواية

معروفة بتماسكها كأساس للمقارنة مع ما دُوِّن من روايات أخرى. إن أقدم رواية موجودة نقلت سلسلة أحداث السقيفة هي رواية محمد بن إسحاق بن ياسر (٨٥-١٥١ هـ ٧٠٤ - ٧٦٨م) "سيرة رسول الله" وهي كما يدل اسمها سيرة حياة النبي محمد. تقدم هذه الرواية -برغم قصرها وإيجازها- كل المعلومات الجوهرية تقريباً عن الحدث من غير تطرق إلى كثير من التفاصيل وإلى الروايات المتباينة التي دونها مؤرخون أعقبوا ابن إسحاق مباشرة. وقصر رواية ابن إسحاق يعود إلى أنها تتناول سيرة وأعمال النبي بشكل أساسي. وهكذا صار حدث السقيفة خارج نطاق السيرة، وإذا كان الحدث قد ورد في السيرة فالسبب يعود إلى أنه حدث قبل دفن جثمان النبي. وهذا الأمر واضح من ترتيب الفصول الأخيرة من السيرة التي ترد كما يلي: ١- مرض النبي. ٢- وفاته. ٣- أمر سقيفة بني ساعدة. ٤- تحضيرات الجنازة ودفن النبي.

بدأ ابن إسحاق روايته للحدث بأسطر قليلة، ومن غير ذكر سنده.[١] وهذه هي طريقة ابن إسحاق حيث يعمد إلى ذكر حديث جماعي بضم روايات مختلفة في حديث واحد بسيط يقوم بدور المقدمة للرواية التفصيلية التي تليه. وهو بذلك يثبت ولاءه لمعلمه الزهري الذي اعتاد ذكر الحديث الجماعي.[٢] (نص واحد مؤلف من عدة روايات) فالذي يظهر على أنه مقطع تقديمي في رواية السقيفة عند ابن إسحاق، ورواه الآخرون بروايات متعددة الإسناد (الإسناد هو سلسلة الرواة)، وبكلمات واستطرادات متغايرة. فبعد مقدمة ابن إسحاق الوجيزة روى كامل الحدث في رواية واحدة بإطالة ملحوظة، تصل إلى ثلاث صفحات ونصف

الصفحة تقريباً،[٢] وتغطّي جميع النقاط الجوهرية للحدث. وهذه الرواية تستحق بعض التحفظات.

أولاً: ترد الرواية كاملة بكلمات مقتبسة عن الخليفة الثاني عمـــر بـــن الخطاب في إحدى خطب الجمعة في جامع المدينة. وكان عمر دقيقـــاً في مراقبة الصيغ والأشكال الدينية، ومن الضروري أن صلاة الجمعة حضرها عدد كبير من أهل المدينة، وأن عرضه للموضوع انتشر بين المهـــاجرين والأنصار وهذا ما يجعل روايته عصيّة على التزوير في وقت لاحق.

ثانياً: هذه الخطبة رواها وأجمع عليها معظم المؤرخين الذين أعقبوا ابـــن إسحاق مثل الطبري وحتى البلاذري الذي كان يختار غالباً ما يدونه لكي يؤيّد وجهة نظر السنّة من معاصريه.

ثالثاً: من المؤكد أن عمر قام بالدور الأكثر أهمية في اللحظة الحاسمة، وأخذ المبادرة في تقرير مصير الحدث، وكان بالفعل القوة المحرّكة في اختيار أبي بكر. وقبلت روايته بالإجماع وبكلماته نفسه وصارت ذات أهمية تاريخية عظيمة. ولحسن الحظ بدأ ابن إسحاق روايته بتقديم كلماته: "فيما يخص أحداث السقيفة حدثني عبد الله بن أبي بكر   ويشير هذا إلى أن ابن إسحاق كان واعياً لروايات أخرى غير رواية عمر وأكثر تفصيلاً، ولكن للإختصار أخذ إحدى الروايات التي اعتقـــد أنها الأكثـــر مصـــداقية وتفاصيلها كافية لتغطية الحدث كاملاً.

إسناد حديث ابن إسحاق هذا إسناد مباشر وقصير ومعتمد على مخبرين من المدينة المنورة فقط، وبدأه ابن إسحاق بفعل توكيدي هو "حـــدثني"

وعلى اتصال شخصي مباشر. والإسناد هو كما يلي [٩]حدثني عبد الله بن أبي بكر عن (١) ابن شهاب الزهري عن (٢) عبيد الله بن عبد الله ابـن عتبة بن مسعود عن (٣) عبد الله بن عباس.[٥] وعبد الله بن أبي بكر(٤) ولد حوالي ٦٠ هـ ٦٧٩م وتوفي حوالي ١٣٠ هـ ٧٤٧م والزهـري ولد حوالي ٥١ هـ ٦٧١م وتوفي ١٢٤هـ ٧٤٢م كلاهما ينتمـي إلى الجيل الثالث (تابع التابعين) بعد النبي، والجيل الثاني من جيل المحـدثين. وكلٌّ منهما كان من رواد مدوني الوقائع الرسمية للمسـلمين، وتلقـى معلوماته من التابعين الذين كانوا من شهود الوقائع في سـني عمـرهم الأولى، أو تلقوا معلوماتهم من صحابة النبي. وبالعودة إلى بحوث نبيـة آبوت Nabia Abbott [٦]الحديثة في التاريخ الإسلامي وآخرين، تـوفر لدينا وبدون أدنى شك تاريخ لحياة وغزوات النبي معروف بشكل عـام بـ"سيرة"، وما تبعه من أحداث، صارت موضوعاً لبحث تاريخي بدأ مع الجيل الذي تلا جيل النبي (التابعون). ومن الأسماء ذات الصـلة بهـذا التاريخ ظهرت أسماء مثل أبان[٧] (٢٠-١٠٠ هـ ٦٤١-٧١٩) بـن الخليفة عثمان بن عفان؛ وعروة بن الزبير بن العـوام[٨] (٢٣-٩٤هـ ٦٤٤-٧١٢م)؛ ووهب بن منبه[٩] (٣٤-١١٠ هـ ٦٥٤-٧٢٨م) وآخرين. هذا الاهتمام بالتدوين التاريخي أدى إلى ظهور قـوة دافعـة عظيمة عند الجيل الثالث (تابعي التابعين) ووصل ذروته في أعمال السيرة أو المغازي لاثنين من الرواد ومعلمي ابن إسحاق هما عبد الله بي أبي بكر والزهري. والآن، أصبح من المعقول افتراض أن هذين الرائدين في كتابة تاريخ الإسلام اهتما بحدث السقيفة، الذي كان بدون شك أهم الأحداث

التي حصلت عند وفاة مؤسس الإسلام "محمد" وعلى المستوى ذاته يمكن افتراض أن ابن إسحاق فضّل أن يروي الحدث كما وصله من استاذيه المقربين والمحترمين بدلاً من أخذه من مصادر أخرى، وبخاصة لأن اهتمامه كان مقصوراً على الأحداث التي تتصل بوفاة النبي. كما أنه من المهم أن روايات هذين المصدرين (الزهري وابن أبي بكر) ظهرت في جميع الكتب التي تصف حدث السقيفة. فالبلاذري والطبري الذين لا يقصران اهتمامهما على حدث السقيفة ذاته وصلته بوفاة النبي، يقتبسان من هذين المصدرين عينهما في رواياتهما، ويعتبران حدث السقيفة الحدث الأهم في التاريخ الإسلامي.

إن مصدر رواية ابن إسحاق ورواية الزهري هو عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، وهو أحد أربعة معلمين محترمين وثقة عند الزهري. وهؤلاء الأربعة هم سعيد بن المسيب[11] (توفي ٩٤هـ ٧١٢م) وقد أمضى الزهري عشرة أعوام يتعلم منه، وعروة بن الزبير وأبان بن عثمان وعبيد الله بن عبد الله. وجميع هؤلاء الأربعة ثقات في الفقه والسير والمغازي. وغالباً ما أخذ عنهم الزهري معبراً عن تقديره العالي لهم، وقد وصفهم بأنهم "أركان العلم الأربعة"، و"بحار قريش الأربعة"[12] وأربعتهم – ما عدا أبان – هم أيضاً من بين الفقهاء السبعة المشهورين في المدينة. وجميع هؤلاء الأربعة عُدّوا ممن ترك أعمالاً مكتوبة للأجيال القادمة بالإضافة لما نقلوه شفهياً لتلامذتهم. واهتمامنا بهؤلاء المؤرخين اللامعين في التاريخ الإسلامي لا يعود إلى حقيقة أن أحدهم يظهر في إسناد ابن إسحاق فقط، بل لأن أسماءهم تتكرر في كثير من إسناد مؤرخين آخرين لحدث السقيفة.

ولابد من ذكر شيء يسير عن عبد الله بن عباس[١٣] (ولد قبل ثلاثة أعوام من الهجرة وتوفي ٦٨هـ ٦٨٧م)، وهو الذي يظهر بصفته المصدر الأخير في رواية ابن إسحاق، وفي كثير من روايات السقيفة التي نقلت رواية ابن إسحاق. ويكفينا أنه يبجل دائماً باعتباره أحد أصدق الثقات دائماً ومن طرف كل المذاهب الإسلامية، ليس في علم تفسير القرآن فقط بل وفي فروع المعرفة الأخرى التي نمت وتطورت في المدينة. ولقد كان في الحقيقة أحد المؤسسين المتميزين لمدرسة المدينة العلمية وأستاذها، وهي التي اهتمت بشكل أساسي بالعلوم الدينية. لقد قبل صدقه ونقل عنه كلٌّ من البخاري ومسلم وأبو داوود والترمذي والنسائي وابن ماجه (أصحاب كتب الحديث الصحاح الستة لدى الفريق المسلم السني) وكذلك آخرون. وفي بحثه المعهود منه جمع معلوماته الخاصة بحياة الرسول بسؤاله صغار senior الصحابة.[١٤] إنه لم يشهد حدث السقيفة حين كان يافعاً فحسب، ولكنه أيضاً حفظ ما سمعه من والده العباس عم النبي وهو بدون شك من الشخصيات الهامة التي شاركت بالجدل الحاد الذي عمَّ المدينة فور وفاة النبي. ولهذا فليس من العجب أن يظهر أسم عبد الله بن العباس في جميع الروايات التاريخية لأحداث تلك الفترة، وبخاصة الروايات التي تتحدث عن السقيفة.

والمؤلف الثاني المعروف والذي اهتم بحدث السقيفة هو عبد الله محمد بن سعد (ولد حوالي ١٦٨هـ ٧٨٤م) وهو صاحب الكتاب المنظم المشهور والواسع في التراجم، "الطبقات الكبرى"، وهذا الكتاب يتحدث عن سير الشخصيات الهامة بداية من شخصية النبي محمد وحتى وفاة المؤلف عام

٢٣٠هـ ـ ٨٤٥ م. وفي ترتيبه لمواد الكتاب يتحدث بالتفصيل عن حياة وأعمال الجيل الأول من المسلمين، وبخاصة الصحابة والمقربين منهم إلى النبي. ويتوقع المرء منه بينما كان يدوّن سيرة أبي بكر في إحدى وأربعين صفحة[١٥] أن يناقش حدث السقيفة بتفصيل أكثر مما فعل سلفه ابن إسحاق. ومع أن حدث السقيفة يبدو كما يتوقع الباحث أحد أهم وأخطر الأحداث في حياة أبي بكر كلها، فمن العجب أن ابن سعد يبدو غير مكترث بمجرياته البتة. لقد حاول طمس جميع الروايات التي تبيّن الجدل الذي دار يوم اختيار أبي بكر، وبعناية اختار الروايات التي تُعلي شأن أبي بكر فقط وتُظهر مؤهلاته لقيادة الأمة يوم وفاة الرسول. واستجمع كل أفكاره لمدح وتمجيد وتعداد ميزات وفضائل الخليفة الأول وخدماته للإسلام وكل ما يؤهله ليخلف محمد فوراً. وبالفعل، فإنه يستخدم التكتيك نفسه عندما يكتب سيرة علي ليظهر أن عليّاً كان أفضل مرشح للخلافة في زمانه (وقت اختيار علي للخلافة عقب مقتل عثمان). وبذلك برهن على أنه الممثل الحقيقي للتقليد السني في الإسلام خلال القرن الثالث الهجري، وكذلك ممثل تقوى أهل المدينة المنتسلمة وكلاهما أسس على عقيدة المرجئة. هذه العقيدة التي نُظمت ونُقيت وطُورت في القرن الثالث الهجري توجب على المسلم الابتعاد عن أية مناقشة تضر ببريق وسمعة واحترام وشرف شخصيات الإسلام الأولى وبخاصة احترام الصحابة. كل من يقرأ ما كتبه ابن سعد عن أبي بكر يدرك أنه اهتم بإبراز الصفات والفضائل التي استحوذ عليها أبو بكر.

وإن نظرة سريعة لما أدرجه ابن سعد في كتابة هذا الموضوع تظهر رغبته بالكيفية التي يريد لقارئه أن يرى أحداث السقيفة من خلالها.

يبدأ ابن سعد بكتابة صفحتين عن بني تميم الفخذ (البطن) من قريش الذي كانت أسرة أبي بكر تتزعمه وعن اسم أبي بكر وعائلته ولقبه. وفي هذه السيرة يركّز ابن سعد على لقبه "الصدّيق" ويدخل حديثاً يقول فيه أنه على أثر معراج محمد إلى السماء، خاف محمد تكذيب الناس معراجه، عندئذ تدخل الملاك جبرائيل وأكّد له أن أبا بكر سيقبل الرواية عن المعراج لأنه "الصدّيق" في المقطع الثاني يضع ابن سعد عنواناً يقول: "إسلام أبي بكر"،[17] يحتوي هذا المقطع على خمسة أحاديث تؤكد أن أبا بكر كان أول المسلمين من الرجال، ويتجاهل تماماً الأحاديث الكثيرة التي تؤكد أن علياً كان الأول. يتبع ذلك المقطع الثالث وعنوانه "وصف الكهف والهجرة إلى المدينة"،[19] ويورد ستة وعشرين حديثاً حوله. وهذه الأحاديث تؤكد الصداقة الحميمة بين أبي بكر ومحمد، حيث كان أبو بكر "أحد اثنين" حين التجأ محمد إلى غار ثور في طريق هجرته من مكة إلى المدينة، وهذا ما يعني أن خدمات أبي بكر كانت كبيرة جداً في اللحظة الحرجة. ثم بعد ذلك يروي عدة أحاديث تخص أبا بكر وإقامته في المدينة، ومؤاخاته مع عمر بن الخطاب في الإيمان، وإعلان النبي أن أبا بكر وعمر هما قائدا الرجال في الجنة فيما عدا الأنبياء والرسل. ثم يتبع ذلك بحديث ذكر فيه الفضل الذي أولاه محمد لأبي بكر حين أمره أن يبني بيتاً ملاصقاً لمسجد النبي في المدينة، حين منع الرسول الآخرين من فعل ذلك، وأن أبا بكر حمى الرسول في كل الغزوات، وكيف أن الرسول حمّله الراية في

غزوة تبوك. والأحاديث الخمسة الأخيرة في هذا المقطع تدور حول قول محمد: "لو كنت متخذاً خليلاً من أمتي لاتخذت أبا بكر خليلاً."و"سأل عمرو بن العاص قال: قلت يا رسول الله أي الناس أحب إليك؟ قال: عائشة. قلت: إنما أعني من الرجال، قال أبوها." أما المقطع الرابع فجعل له عنواناً: "ذكر الصلاة التي أمر رسول الله عليه وسلم أبا بكر بها عند وفاته."[20] ولعل هذا العنوان أهم إشارة إلى موقفه. ويروي ابن سعد عشرة أحاديث، الخمسة الأولى منها تصف إصرار النبي على أن أبا بكر لا غيره يجب أن يؤمّ الصلاة مادام محمد مريضاً. أما الأحاديث الثلاثة التي تليها فتصف طلب الرسول أدوات الكتابة ليكتب وصيته "لأكتب لأبي بكر كتاباً لا يُختَلف عليه. فذهب عبد الرحمن ليقوم فقال: اجلس أبى الله والمؤمنون أن يُختَلف على أبي بكر". وفي الحديث التاسع فيسير كما يلي: "عن أبي ملكيه قال سمعت عائشة وسئلت يا أم المؤمنين من كان رسول الله مستخلفاً لو استخلف؟ قالت: أبا بكر. ثم قيل لها من بعد أبي بكر؟ قالت: عمر. ثم قيل لها: من بعد عمر؟ قالت: أبا عبيدة بن الجراح." ثم صمت السائل. وينتهي المقطع بالحديث العاشر الذي يجري كما يلي: "عن أبي معشر عن محمد بن قيس قال: اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة عشر يوماً فكان إذا وجد خفة صلى، وإذا ثقل صلى أبو بكر." ومن الجدير بالملاحظة هنا أن الأحاديث العشرة ما عدا اثنين رويت عن عائشة ابنة أبي بكر ومنافستها لفاطمة بنت محمد وزوجها علي أشهر من أن تخفى.

إن كل من يقرآ هذا المقطع من ابن سعد سيدرك فوراً أن ابن سعد كان ينفذ مهمة موضوعة أمامه وبعهدته. لقد تم تخطيط كتابة هذا المقطع بعناية كي يظهر أن ما أبداه النبي من تفضيل لأبي بكر هو إشارة بعيدة عن الشك بأن أبا بكر هو المرشح الوحيد لخلافة النبي. ويغدو ابن سعد عجولاً حتى أنه تخلّى عن الموضوع الأساسي في الفصل، وفي الحديث الثاني الذي كان يجب أن يدرج تحت عنوان أحداث السقيفة فيصف جدال عمر مع الأنصار في فضل أبي بكر، والذي بناه عمر على أن أبا بكر أمّ الناس في الصلاة. ونص الحديث كما يلي: " لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت الأنصار: منّا أمير ومنكم أمير، قال فأتاهم عمر فقال: معشر الأنصار ألستم تعلمون أن رسول الله أمر أبا بكر أن يصلي بالناس؟ قالوا: بلى، قال: فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر؟ قالوا: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر."[٢١]

بعد هذا الفصل جاء ابن سعد إلى حدث السقيفة. وعلى خلاف المؤرخين سابقيه ولاحقيه لم يسم هذا الفصل "أمر السقيفة، وإنما دعاه: "ذكر بيعة أبي بكر" لن يخطئ المرء حين يرى أن ابن سعد أعد الفصول الأربعة السابقة لتهيئة القارئ نفسياً ليقبل روايته بأن بيعة أبي بكر تمت بغير جدل وعلى أساس جدارته وميزاته التي عددها ابن سعد في الفصول الأربعة السابقة. وفي موضوع السقيفة يورد ابن سعد خمسة عشر حديثاً[٢٢] منها ستة أحاديث ذات صلة مباشرة أو غير مباشرة بموضوع السقيفة. وفي الحديث الأول: "أتى عمر أبا عبيدة بن الجراح فقال: ابسط يدك فلأبايعك فإنك أمين هذه الأمة على لسان رسول الله، فقال أبو عبيدة

لعمر: ما رأيت لك فهّة(ضلالة) قبلها منذ أسلمت أتبايعني وفيكم الصديق وثاني اثنين؟" والحديث الثاني مماثل تقريباً. أما الحديث الثالث فهو مثال خاص بتعامل ابن سعد مع هذا الموضوع. في هذا الحديث يقتطف ابن سعد جملاً قصيرة من الحديث الطويل الذي رواه ابن إسحاق والآخرون على شكل خطبة عمر في مسجد المدينة. أما مقتطفات ابن سعد فهي: "سمعت عمر بن الخطاب، وذكر بيعة أبي بكر فقال: وليس فيكم من تُقطَعُ إليه الأعناق مثل أبي بكر" وفي الحديث الرابع لم يستطع ابن سعد تجاهل الجدل الذي دار حول المسألة، ولكنه عرض الجدل بأنه في فضل أبي بكر.[٢٣] والحديث كما يلي: "لما أبطأ الناس عن أبي بكر قال: من أحقّ بهذا الأمر مني؟ ألست أول من صلى؟ ألست ألست؟ قال فذكر خصالاً فعلها مع النبي." الحديث الخامس وهو الوحيد المروي عن حفيد أبي بكر القاسم بن محمد بن أبي بكر ويذكر فيه أمر السقيفة. وهو مختصر سريع في سبعة أسطر، وبقية الحديث تتحدث عن ما وزعه أبو بكر إثر مبايعته، أما الأحاديث الباقية فإن من الصعب أن تجد فيها شيئاً ذا صلة بشأن السقيفة، وإنما تتحدث عن فضائل أبي بكر وإخلاصه وتقواه.

لسنا بحاجة لمتابعة تعليقنا على تعامل ابن سعد مع حدث السقيفة. ويكفينا القول أن ما ورد في طبقات ابن سعد من ذكر الجدل في السقيفة كان بعيداً عن طبيعة البحث التاريخي. ومع ذلك لا يمكننا تجاهل ابن سعد بصفته من المؤرخين المبكرين في تاريخ المسلمين. إنه من المرجعيات التاريخية في وقته، ويمثل مدرسة في التراجم التقليدية ذات الأهمية البالغة؛ ولا يصح تجاهله عند دراسة شأن السقيفة. يبلغ ابن سعد أهميته أيضاً

عندما نلاحظ تمسكه المخلص بالتكنيك (الأسلوب) التقليدي، ونعلم أن مدوناته تبناها الذين جاؤوا بعده. إنه يمثل المدرسة التي سيطرت على تطور المفهوم السني للإسلام. إن عرضه لموضوع السقيفة يقود قارئه ليعتقد أن اختيار أبي بكر تم بيسر ومن دون أية معارضة أو جدل وأن اختياره جرى بتلقائية وقبله الجميع فوراً بما في ذلك عليّ بن أبي طالب الذي أقرّ بعلو مكانته وجدارته لهذه الخلافة.

نعود الآن إلى معاصر ابن سعد الأصغر أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري[٢٤] (توفي ٢٧٩هـ ـ ٨٩٣ م) وكتابه الضخم "أنساب الأشراف" وربما كان هذا الكتاب أهم عمل في التراجم التاريخية خلال القرن الثالث الهجري. فمن جهة أولى اتبع البلاذري تكنيك ابن سعد ونقل معظم رواياته، ومن جهة ثانية يتعمق أكثر منه ويجمع كل رواية يُحتمل أن تكون ذات صلة بحدث السقيفة ومن مصادر متنوعة ووجهات نظر مختلفة. فبينما اعتمد ابن سعد بشكل رئيسي على أخبار أهل المدينة، فإن البلاذري يجدهم غير مقنعين، لذلك يذهب أبعد وغالباً ما يقتبس المدائني الذي يتخذ موقفاً وسطاً بين المحدثين الكوفيين والمدنيين. كما أنه يروي عن ابن الكلبي وأبي معشر وأعوانا وفي حالتين على الأقل يروي عن شيعي هو أبو مخنف.[٢٥] وبذلك أراد أن يظهر اهتمامه التاريخي في تحري ما حصل في السقيفة وأهمية هذا الحدث في حوليات (التأريخ بالسنوات) التاريخ الإسلامي المبكر، والموقف الورع الذي كان يطغى على مدرسة المدينة وبخاصة عند الحديث عن الاختلافات بين كبار الصحابة الذي لم يكن بارزاً كثيراً عند

المؤلفين الكوفيين والبصريين ذوي الميول التاريخية. وكون البلاذري من هذا الرعيل يجعله ذا أهمية معتبرة لهذا البحث.

في خطة البلاذري لمعالجة موضوع السقيفة اتبع خطوات مماثلة لتلك التي درج عليها ابن سعد في متابعته للأحداث المرتبطة بوفاة النبي. فتحت عنوان "أمر السقيفة"، دوّن البلاذري ما مجموعه ثلاثة وثلاثون حديثاً. سبعة من هذه الأحاديث مطابقة تماماً لما ورد عند ابن سعد. ويظهر البلاذري بذلك احترامه الكبير لمعاصره الأسّن الذي يقتبسه بقوله: "حدثني" مشيراً بذلك إلى أنه لم ينقل عن الطبقات (كتاب ابن سعد)، بل استملى منه شخصياً. وتتحدث الأحاديث الستة والعشرون الباقية عن الجدل حول موضوع الخلافة والمناقشات الحامية التي حصلت في السقيفة، والمنافسة بين المهاجرين والأنصار، واحتجاج علي على الاختيار، ومعارضة بني هاشم وبعض الأنصار لأبي بكر، وقول أبي بكر نفسه بأنه لم يكن أفضل المرشحين، ولكنه قبل الخلافة لينقذ الأمة من الفتنة. وأخذ البلاذري أحد عشر حديثاً عن المدائني (واسمه علي بن محمد المدائني) الذي غالباً ما ينقل عن الزهري الذي أخذ عن "بحار قريش الأربعة" الذين ذكرناهم سابقاً.[٢٨]

والقضية المفيدة في هذه الأحاديث الستة والعشرين هي: ١- أنها تروي وتصف النقاش الجدلي الذي دار في السقيفة كاملاً، ٢- أن أبا سفيان الأموي عرض مساعدة علي الهاشمي؛ ٣- تورد عبارة أبي بكر التي تقول أنه لم يكن أفضل المرشحين ولكنه قبل الخلافة لتجنب الفتنة؛ ٤- تنقل جزءاً من خطبة عمر التي ذكر فيها: "كانت بيعة أبي بكر فلتة وقى الله

شرها"، كل ذلك رواه البلاذري عن ابن سعد مباشرة لقوله "حـــدثني" وعرف ابن سـعد هذه الأحاديث ووجدها هامة بما يكفـــي لينقلـــها إلى البلاذري، ولكنه هو نفسه كره أن يثبتها في طبقاته.

أورد البلاذري خطبة عمر الطويلة التي تصف السقيفة بكاملها بما في ذلك ما ورد في رواية ابن إسحاق، كما رأينا سابقاً، بـثلاث روايـات؛ أولاً الحديث قم ١١٧٣ عن ابن سعد ونصه: "سمعت عمر بن الخطاب وذكر بيعة أبي بكر، فقال: وليس فيكم من تمد إليه الأعناق – أو قال: تقطع إليه الأعناق مثل أبي بكر" وهي جملة قصيرة تبرر جدارة أبي بكر، وقد أثبتها ابن سعد في الطبقات؛ ومرة ثانية في الحديث رقم ١١٧٦ حيث أثبـت جزءاً من الخطبة فقط؛ ثم نقلها كاملة في الحديث رقم ١١٨١ كما هي في نص ابن إسحاق.

"ملاحظة نحبذ تدوينها في أسفل الصفحة، وهي "المؤلف يعتمـد طبعـة القاهرة ١٩٦٠ لأنساب الإشراف بتحقيق محمد حميد الله، لكن المترجم اعتمد الكتاب نفسه بتحقيق الدكتور سهيل زكار والـدكتور ريـاض زركلي. دار الفكر. بيروت ١٩٩٦ وهذه الطبعة لم تـرقم الأحاديـث، وأمر السقيفة يقع في الجزء الثاني ص٧٦٣-٧٧٧"

في الروايات الثلاث نجد أسماء الرواة الذين أخذ عنهم أحداث السـقيفة كما هم في "السيرة": عن الزهري عن عبيد الله بن عتبة بن مسعود عـن ابن عباس، أما رواية الذي أخذ عنه الرواية مباشـرة فإنهـا تـتغير. في الحديث رقم ١١٧٢ نجد السلسلة كما يلي: ابن عباس، عبيد الله، ابـن شهاب، صالح بن كيسان،[٢٩] أبيه كيسان، يعقوب بن إبراهيم، محمد بـن

سعد؛ في الحديث رقم ١١٧٦ نجد السلسلة: ابن عباس؛ عبيد الله، الزهري، معمر بن رشيد[٣٠] هشام بن يوسف، بكر بن الهيثم؛ وفي الحديث رقم ١١٨١ نجد البلاذري ينقل النص كما يلي: ابن عباس، عبيد الله، الزهري، ابن جعدية،[٣١] المدائني. وفي هذا النص الأخير نجد اختلافات قليلة بين نص المدائني الذي اقتبسه البلاذري وذلك النص الذي رواه عبد الله بن أبي بكر واقتبسه ابن إسحاق. ولكي نختم هذا المقطع يكفينا القول أنه برغم أن البلاذري أظهر ميلاً نحو تفضيل أبي بكر للخلافة كما هو واضح من رواته وترتيب مصادر معلوماته، إلا أنه لا يخفي الأحاديث الكثيرة التي تظهر ميول بعض كبار الصحابة نحو علي.

لكن صورة السقيفة لا تكتمل حتى تأخذ في الاعتبار معاصر البلاذري الأصغر سناً وذلك هو ابن واضح اليعقوبي (توفي ٢٨٤ هـ ٨٩٧ هـ). إن كل من يقرأ عرض اليعقوبي للسقيفة، وهو يكتب مباشرة بعد ابن سعد والبلاذري، سوف يلاحظ تعارضاً حاداً في الروايات وتأكيدها. فبينما يريدنا ابن سعد أن نعتقد أن أبا بكر لم يلق تقريباً أي معارضة من الذين فضلوا علياً، فإن اليعقوبي يؤكد لقارئه أنه كان ثمة معارضة جديّة لأبي بكر من طرف مؤيدي حق علي في الخلافة.

وعلى عكس ما فعل ابن سعد والبلاذري لم يعرض أحاديث متفرقة مسبوقة بإسناد، ولم ينقل مصادره حرفياً فيما عدا الاقتباسات والكلام المباشر. وهذه هي طريقته في تاريخه كله، ولم تكن السقيفة استثناء. فهو يفتتح بعنوان "خبر سقيفة بني ساعدة وبيعة أبي بكر"، ويكتب أربع صفحات متواصلة ناقلاً عن المصادر المتاحة له[٣٢] وهذه الصفحات ما هي

إلا دمج أحاديث متعددة في رواية متصلة، لكن كل الاقتباسات والخطب نقلت بأمانة بدون أي تحوير. وهذا بين من مقارنة مصادر كتبت قبله وبعده.

أما فيما يخص المصادر، فنحن نعرف أنه باعتباره أسلوباً عاماً وربما من أجل نص متماسك، فإن اليعقوبي نادراً ما يذكر رواته. ومع ذلك، فليس من الصعب في العادة تحديد هذه المصادر.[٣٣] وفيما يخص السقيفة فإن بعض المصادر مثل المدائني وأبي مخنف هما كما أوردهما الطبري. ويجب أن نؤكد هنا، وبدون أي شك حقيقة تاريخية وهي أن حدث السقيفة صار موضوع اهتمام تاريخي بالغ منذ بداية كتابة التاريخ في الإسلام. وهذا واضح من فهرست ابن النديم وفهارس الطوسي ورجال النجاشي وكتابات أخرى في التراجم التي تدرج العديد من المؤلفات والرسائل عن السقيفة تحت أسماء العديد من الكتّاب الكبار منذ مطلع القرن الثاني الهجري. فمثلاً ذكر أن لأبي مخنف[٣٤] والمدائني[٣٥] كتباً مستقلة في الموضوع، وعندما نقرأ رواية السقيفة في تاريخ الطبري والبلاذري وآخرين نجد عدداً من الأحاديث المرويّة عنهما. وكتب ابن أبي الحديد (توفي ٦٥٦ هـ ١٢٥٨ م) في كتابه الضخم "شرح نهج البلاغة"، وهو منجم معلومات تاريخية قيّمة استقاه من مكتبة غنية بمخطوطات نادرة كانت بتصرفه، دوّن أربعين صفحة عن السقيفة، وفيها دمج بعض ما في هذه الكتب المخطوطة التي بقيت حتى زمانه. ومن ذلك نص كتبه أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجواهري[٣٧] (توفي ٢٩٨ هـ ٩١١ م) الذي أخذ عن رواة مبكرين كثر عن موضوع السقيفة. وسجل أستاذ معاصر

معروف هو آغا بوزرغ الطهراني في كتابه الواسع عن الأدب الشيعي عدداً كبيراً من المؤلفات التي كتبت عن السقيفة في القرون الهجرية الأولى.[٣٨] وكثير من هذه المؤلفات مؤرخة قبل اليعقوبي بزمن غير قليل، وقلة منها كتبها مؤلفون كانوا من تلامذة تجمعوا حول الإمام جعفر الصادق (توفي ١٤٨ هـ ٧٦٥ م).

حين بدأ ابن سعد والبلاذري وكتابٌ سنّة آخرون يكتبون كان مبدأ "الإرجاء" السني قد تحدد وثبت موقفه من التجميع والتوليف والتسامح. وهكذا، كان من الطبيعي لهؤلاء الكتاب أن يطمسوا أو يتجاهلوا أي رواية قد تصطدم مع ما أصبح معايير مقبولة في ذلك الوقت. ومعظم المعلومات التي قد تؤيد موقف الشيعة في تأييد علي كانت إمّا طمست أو ببساطة تم التشكيك بصحتها. وهذا ما حصل لتاريخ اليعقوبي تماماً. فثمة ميلٌ للشك برواياته التي قد تبدو مؤيدة لقضية الشيعة على أساس أنه نفسه كان شيعياً. ولكن المنطق يقضي بأنه إذا كان يمكن التشكيك بميول اليعقوبي تجاه الموقف الشيعي، فلماذا لا يمكن التشكيك بكتابات المؤرخين الآخرين من معارضي وجهة نظر بأنها طمست الروايات التي تخدم هدفاً شيعياً؟ في هذه الحال، نشعر بأن علينا أن نعتبر تاريخ اليعقوبي موجزاً لوثائق تاريخية عالية القيمة مما بقي لنا وهو يتجاوز جهود مؤرخي حزب الأغلبية "السنّة" المغرضة. أما الجدل حول مصداقية رواياته فتؤكد صدقها حقيقة أن معظم رواياته لأحداث السقيفة رواها، وإن بشكل جزئي، مؤرخون غير شيعيين ممن جاؤوا بعده. وهكذا صار من واجبنا أن نختم بالقول بأن معلومات معينة نقلها إلينا اليعقوبي، وإن تجاهلها ثلاثة

مؤرخين من سابقيه، هي ذات قيمة تاريخية عالية لإعادة كتابة تاريخ السقيفة. وقد غطى هؤلاء المؤرخون الأربعة كل الآراء وما تركوا إلا القليل ليضيفه محمد بن جرير الطبري (توفي ٣١١ هـ ـ ٩٢٣ م) في دائرة معارفه الحولية التاريخية. ولقد أظهر الطبري بشكل عام ورائع موقفاً محايداً في تاريخه، وهو بلا شك الكتاب الأشمل الذي بقي على قيد الحياة. والطبري لم يبن اختياره لمصادره على مواقف دينية طائفية، وإنما اختارها بحسب قناعاته التاريخية فيما يخص كل حدث. لقد بنى روايته بتسجيل روايات متماثلة ومتناسقة، وعند الضرورة قدم لنا روايات متنوعة جاءته من مصادر مختلفة. وشاهدنا على الحالة الأخيرة (تسجيل روايات متنوعة) أنه يعطي رأيه التاريخي إما بشرحه كيفية عرض كل حدث وتفسيره، وإما بترتيب رواياته بحسب أفضليتها. واستخدم هذا الأسلوب حين عرض حدث السقيفة. إنه يتجاهل كلية رواية ابن سعد للحدث، بينما دمج معظم رواية ابن إسحاق واليعقوبي والبلاذري في مراجعه وأضاف إليها مما لديه. فقد روى خطبة عمر عن السقيفة كاملة كما فعل ابن إسحاق، ولكنه اعتمد على رواية عبّاد بن عبّاد المهلّبي[٣٩] عن عبّاد بن رشيد[٤٠] أما الرواة الثلاثة الآخرون فهم كما عند ابن إسحاق. وهو الوحيد من بين كل مؤرخي الإسلام الذي حفظ لنا رواية أبي مخنف عن السقيفة. وإجمالاً: عرض تاريخ الطبري رواية حدث السقيفة بموضوعية متوازنة. فهو يوضح بصورة مطلقة أنه كان هناك مجموعة قوية تؤيد عليّ. ولكنه من جهة أخرى يؤكد أن أبا بكر اختير بتأييد الأغلبية.

لا تقوم أية حاجة حقيقية لفحص أعمال الكتّاب الذين جاؤوا بعد المصادر الخمسة المبكرة التي فحصناها سابقاً. فالمؤرخون المتعاقبون مثل المسعودي[٤٢] (توفي ٣٤٤ هـ ـ ٩٥٥ م) وابن الأثير[٤٣] (توفي ٦٣٠ هـ ـ ١٢٣٢م) وابن عبد ربه[٤٤] (توفي ٣٢٧ هـ ـ ٩٣٩م) وحتى السيوطي (توفي ٩١١ هـ ـ ١٥٠٥م) في كتاباتهم المتخصصة حول موضوع الخلافة[٤٥] فما أضافوا شيئاً مهمّاً لمعلوماتنا عن الحدث.

وأعمال المؤلفين الشيعة المتأخرين مثل الطبسري[٤٦] والمجلسي[٤٧] فهي بشكل عام جدلية تقدم روايات متحيزة للشيعة ولا قيمة تاريخية لها.

من الأفضل لإعادة كتابة حدث السقيفة هو أخذ ابن إسحاق أساساً، ليس لأنه الأبكر فقط، بل لأنه وصل إلينا عبر نص ابن هشام (توفي ٢١٨هـ ـ ٨٣٣ م) المنقّح وهو نفسه سنّي وأبكر من الأربعة الآخرين الذي فحصنا كتاباتهم سابقاً. ولم يتردد ابن هشام أبداً في إعادة كتابة سيرة ابن إسحاق بإصلاح أو في التعليق على أية نقطة لم توافق رأيه، وغالباً ما أدخل بعض الإضافات التي اعتقد أن ابن إسحاق تغافل عنها أو حذفها.[٤٨] ولم يعلق ابن هشام على أو يضيف إلى أو يصحح رواية ابن إسحاق لحدث السقيفة البتة. وهكذا فإن حدث السقيفة في السيرة رواية دوّنها كاتب شيعي الميل،[٤٩] قبلها ونقحها ناقد سني الاعتقاد، وأثبتها معظم المؤرخين الذي أعقبوا ابن إسحاق بأسانيد متنوعة كما ذكرنا سابقاً. أما فيما يخص التفاصيل الضرورية التي لم يذكرها ابن إسحاق فسوف نعتمد على ما وردنا في المصادر الأربعة الأخرى. ولنوي هنا أن نؤسس إعادة كتابة حدث السقيفة على ما قاله عمر بن الخطاب في خطبته كما رواها

ابن إسحاق. وحيث أن من الطبيعي ألا تغطّي خطبة كل التفاصيل، فإننا سنأخذ من المصادر الأخرى ونحاول رسم صورة كاملة لما تم في السقيفة من إجراءات. وسوف نمكّن القارئ من تمييز الإضافات المأخوذة من المصادر الأخرى لملء الفجوات مباشرة.

قبل أن يروي ابن إسحاق خطبة عمر افتتح بمقدمة من غير إسناد، لكن يمكن العثور عليه في البلاذري ج١ ص٥٨٣ وهو عن أحمد بن محمد بن أيوب[٥١] عن إبراهيم ابن سعد[٥٢] عن ابن إسحاق عن الزهري وهو كما يلي: "لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم انحاز هذا الحي من الأنصار إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة، واعتزل علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله في بيت فاطمة، وانحاز بقية المهاجرين إلى أبي بكر، وانحاز معهم أُسَيد بن حُضير في بني عبد الأشهل، فأتى إلى أبي بكر وعمر، فقال: إن هذا الحي من الأنصار مع سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة، قد انحازوا إليه، فإن كان لكم بأمر الناس حاجة، فأدركوا قبل أن يتفاقم أمرهم، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته لم يُفرغ من أمره، قد أغلق دُونه الباب أهله، فقال عمر: فقلت لأبي بكر: انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار، حتى ننظر ما هم عليه." [٥٣]

وبعد هذا يدون ابن إسحاق خطبة عمر الشهيرة والتي فحصنا سلسلة إسنادها سابقاً. ثم يتابع ابن إسحاق سرد أحداث السقيفة كما يلي: "وكان من حديث السقيفة حين اجتمعت بها الأنصار أن عبد الله بن أبي بكر: حدثني عن ابن شهاب الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن

مسعود عن عبد الله بن عباس قال: أخبرني عبد الرحمن بن عوف، قال وكنت في منزله بمنى انتظره، وهو عند عمر في آخر حجة حجها عمر، قال: فرجع عبد الرحمن بن عوف، فوجدني في منزله بمنى انتظره، وكنت أقرئه القرآن، قال ابن عباس فقال لي عبد الرحمن بن عوف: لو رأيت رجلاً أتى أمير المؤمنين، فقال: هل لك في فلان يقول: والله لو قد مات عمر لقد بايعت فلانا. والله ما كانت بيعة أبي بكر إلا فلتة فتمّت."

وهنا يجب أن نشير إلى أن هذا الخبر، وبرغم أن أغلبية الكتّاب أوردته، لا يذكر اسم الشخص الذي كلّم عمر، ولا اسم الشخص الذي ستقدم له البيعة، سوى في البلاذري الذي أورده في الخبر رقم ١١٧٦ كما يلي: "إن الشخص الذي تحدث إلى عمر كان الزبير وأنه كان يريد مبايعة علي." وفي الخبر رقم ١١٨١ يذكر البلاذري اسماً واحداً: خطب عمر فقال: "إن فلانا وفلاناً قالا: لو قد مات عمر بايعنا عليّاً." ورواية البلاذري يمكن توكيدها بما ذكره مؤرخون متأخرون مثل ابن أبي الحديد الذي يذكر اسم علي روايةً عن الجاحظ.[٥٤] وهذا على كل حال، يحتم ملاحظة هامة جداً وهي أن اسم علي هو الذي أدى إلى أن يدلي بهذا الخطاب الحماسي والهام.

نعود الآن إلى تتمة الخبر كما ورد عند ابن إسحاق: "فغضب عمر، فقال: إني إن شاء الله لقائم العشيّة في الناس، فحذّرهم هؤلاء الذين يريدون أن يغصبوهم أمرهم فقال عبد الرحمن: فقلت: يا أمير المؤمنين، لا تفعل، فإن الموسم "الحج" يجمع رعاع الناس وغوغاءهم، وإنهم هم الذين يغلبون على قربك حين تقوم في الناس، وإني أخشى أن تقوم فتقول مقالة يطير بها

أولئك عنك كل مطير، ولا يعوها، ولا يضعوها على مواضعها، فأمهل حتى تقدم المدينة، فإنها دار السنّة، وتخلص بأهل الفقه وأشراف الناس، فتقول ما قلت بالمدينة متمكناً، فيعي أهل الفقه مقالتك، ويضعوها على مواضعها، قال: فقال عمر: أما والله إن شاء الله لأقومن بذلك أول مقام أقومه بالمدينة.

قال ابن عباس: فقدمنا المدينة في عقب ذي الحجة، فلما كان يوم الجمعة عجلت الرواح حين زالت الشمس فجلس عمر على المنبر، ولما سكت المؤذنون قام، فأثنى على الله بما هوله أهل ثم قال:

"أما بعد، فإني قائل لكم اليوم مقالة، قد قدر لي أن أقولها، ولا أدري لعلها بين يدى أجلي، فمن عقلها ووعاها فليأخذ بها حيث انتهت به راحلته، ومن خشي أن لا يعيها فلا يحل لأحد أن يكذب عليّ بلغني أن فلاناً – وهو الزبير كما ذكر البلاذري – قال: والله لو قد مات عمر بن الخطاب لقد بايعت فلاناً – علي بن أبي طالب – فلا يغرّن أمرأ أن يقول إن بيعة أبي بكر كانت فلتة فتمت، وإنها قد كانت كذلك إلا أن الله قد وقى شرها، وليس فيكم من تنقطع الأعناق إليه مثل أبي بكر، فمن بايع رجلاً من غير مشورة من المسلمين، فإن لا بيعة له هو، ولا الذي بايعه تغرّة (من التغرير والكلام غلى حذف مضاف تقديره: خوف تغره أن يُقتلا) أن يُقتلا. إنه كان من خبرنا حين توفة الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن الأنصار خالفونا فاجتمعوا بأشرافهم في سقيفة بني ساعدة، وتخلّف عنا علي بن أبي طالب والزبير بن العوام ومن معهما، واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر."

يتضح من كلام عمر بأن ثمة معارضة جدية واجهت توشيح أبي بكر، لا من الأنصار فقط وإنما من علي ومؤيديه. وبالتالي، فحالما وصلت أخبار وفاة محمد الأنصار في المدينة، تجمع الأنصار سريعاً لاختيار أمير منهم خائفين بالتأكيد من سيطرة المكيين، وربما كانوا على علم بخطط المكيين. أما عمر بن الخطاب فاعترض بحدة على من يقول إن النبي مات. وزعم ببساطة أن محمداً قد غاب ولبعض الوقت، وهدد بقتل كل من يقول أن محمداً قد مات. وكان أبو بكر في ضاحية سنح فقدم إلى المدينة. وذهب إلى بيت النبي. وحين تأكد من وفاة محمد عاد وأكد للناس وعمر أن النبي مات.

وعن هذا الموقف لدينا ثلاث روايات مختلفة. الأولى تقول أنه عندما كان أبو بكر يخاطب الناس جاء رجل وأخبره هو وعمر باجتماع الأنصار في السقيفة. فهرع أبو بكر وعمر ومعهما جماعة إلى السقيفة. وهذه الرواية مرفوضة على أسس بسيطة وهي أن أبا عبيدة بن الجراح لم يذكر فيها، مناقضة بذلك كل الروايات الأخرى، حيث يبدو أبو عبيدة أحد الأشخاص الثلاثة في هذا الموقف الشديد التأثير. وتقول الرواية الثانية أنه بعد أن أكد أبو بكر للناس وفاة النبي، ذهب برفقة عمر إلى بيت النبي وانضما إلى قرابته المشغولين بتحضيرات الدفن. عندها جاء رجلان وأخبراهما عن السقيفة، فهرع الثلاثة أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح إلى السقيفة. ويبدو أن هذه الرواية أيضاً غير صحيحة للأسباب التالية: ١- إنها تفترض أن هؤلاء الثلاثة وهم من أهم الصحابة ما كانوا مدركين للتوتر الخطير، وغالباً صراع، بين المهاجرين والأنصار تطور في

السنوات الأخيرة، وخطورة الموقف في تلك الظروف. ٢- إنها تناقض الرواية التي تقول أن علياً ومؤيديه اعتزلوا وأغلقوا عليهم الباب. ٣- لم يرو هذه الرواية سوى البلاذري وبإسناد ضعيف. الرواية الثالثة التي ذكرها جميع مصادرنا ما عدا ابن سعد تقول أنه بعد أن أخبر أبو بكر الناس بوفاة النبي اصطحب عمرو أبا عبيدة على الأغلب إلى بيت أبي عبيدة. واجتمع الثلاثة هناك لمناقشة موضوع القيادة الحسّاس الذي أدت إليه وفاة النبي، آخذين في اعتبارهم موقف الأنصار المتذمرين، والذي كان يتطور منذ بعض الوقت.[٥٦] وهناك فقط اجتمعت قيادة المهاجرين حين اندفع أحد المخبرين إليهم ليخبرهم بما كان الأنصار يعملون. عندها هرع الثلاثة أبو بكر وعمر وأبو عبيدة إلى السقيفة ليمنعوا أي تطور غير مقبول لهم.

نعود الآن إلى خطبة عمر والتي تخبرنا: "فقلت لأبي بكر: انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار. فانطلقنا نؤمهم، حتى لقينا منهم رجلان صالحان (هما عويم بن ساعدة[٥٧] وسعد بن عدي[٥٨])، فذكرا لنا ما تمالأ عليه القوم، وقالا: أين تريدون يا معشر المهاجرين؟ قلنا: نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار. وقالا: فلا عليكم أن لا تقربوهم يا معشر المهاجرين، اقضوا أمركم. قال: قلت: والله لنأتينهم. فانطلقنا حتى أتيناهم في سقيفة بني ساعدة، فإذا بين ظهرانيهم رجل مزَمَّل (ملتف بكساء)، فقلت: من هذا؟ فقالوا: سعد بن عبادة، فقلت: ماله؟ فقالوا: وجِع (به وجع). فلما جلسنا تشّهد خطيبهم، فأثنى على الله بما هوله أهل، ثم قال: أما بعد، فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منّا، وقد

دنّت (الدانة القوم يسيرون جماعة سيراً ليس بالشديد) دانة من قومكم، قال: وإذا هم يريدون أن يجتازونا من أصلنا، ويغصبونا الأمر، فلما سكت أردت أن أتكلم، وقد زوّرت في نفسي مقالة قد أعجبتني، أريد أن أقدمها بين يدي أبي بكر، وكنت أداري منه بعض الحدّ (أي أنه كان في خلق عمر حدّة، كان يسترها عن أبي بكر). فقال أبو بكر: على رسلك يا عمر، فكرهت أن أغضبه، فتكلم، وهو كان أعلم مني وأوقر، فوالله ما ترك من كلمة أعجبتني من تزويري إلاّ قالها في بديهتة، أو مثلها، أو أفضل، حتى سكت؛ قال: أما ما ذكرتم فيكم من خير، فأنتم له أهل، ولن تعرف العرب هذا الأمر إلاّ لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نسباً وداراً. هناك إضافة في البلاذري إلى ما قاله أبو بكر تظهر كيف جادل أبو بكر الأنصار وهي كما يلي: "نحن أول الناس إسلاماً، وأوسطهم داراً، وأكرمهم أنساباً، وأمسّهم برسول الله صلى الله عليه وسلم رحماً. وأنتم إخواننا في الإسلام، وشركاؤنا في الدين. نصرتم، وآويتم، وآسيتم، فجزاكم الله خيراً. فنحن الأمراء وأنتم الوزراء. ولن تدين العرب إلا لهذا الحي من قريش. فقد يعلم ملأ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "الأئمة من قريش" فأنتم أحقاء أن لا تنفسوا على إخوانكم من المهاجرين ما ساق الله إليهم." نعود الآن إلى رواية ابن إسحاق من خطبة عمر. قال أبو بكر: "وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيهما شئتم، وأخذ بيدي وبيد أبي عبيدة بن الجراح وهو جالس بيننا، ولم أكره شيئاً مما قال غيرها، كان والله أن أقدم فتضرب عنقي، لا يقرِّبني ذلك إلى إثم، أحبّ إليّ من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر."

وفي اليعقوبي (ج٢ ص١٢٣) قال أبو بكر: "قريش أولى بمحمد منكم. وهذا عمر بن الخطاب الذي قال رسول الله: "اللهم أعز الدين به"! وهذا أبو عبيدة بن الجراح الذي قال رسول الله: "أمين هذه الأمة." فبايعوا أيهما شئتم." فأبيا عليه وقالا: "الله ما كنّا لنتقدمك، وأنت صاحب رسول الله وثاني اثنين." وفي رواية البلاذري أنه عندما رشح أبو بكر عمر بن الخطاب، قال عمر: "وأنت حيّ؟ ما كان لأحد أن يؤخرك عن مقامك الذي أقامك فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم" ويصف اليعقوبي أبا عبيدة قائلاً: "نادى أبو عبيدة: يا معشر الأنصار! إنكم كنتم أول من نصر، فلا تكونوا أول من غيّر وبدّل." يتابع اليعقوبي: "وقام عبد الرحمن بن عوف فتكلم فقال: "يا معشر الأنصار، إنكم وإن كنتم على فضل، فليس فيكم مثل أبي بكر وعمر وعلي. عندئذٍ قام أحد الأنصار المنذر بن أرقم[٥٩] وأجاب بحدة: "ما ندفع فضل من ذكرت، وإن فيهم لرجلاً لو طلب هذا الأمر لم ينازعه فيه أحد، يعني علي بن أبي طالب."

وعند هذا الموقف من الاقتراح والاقتراحات المضادة من طرف أبي بكر وعمر وأبي عبيدة لمصلحة كل منهم، تقدم أحد الأنصار هو الحُباب بن المنذر وقدم حلاً وسطاً: "أنا جُذيلها المحكّك (هو الذي يستشفى برأيه وتوجد الراحة عنده) وعُذَيْقُها المرجّب (الرجل الشريف يعظمه قومه) منّا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش. قال: فكثر اللغط، وارتفعت الأصوات، حتى تخوّفت الاختلاف. فقلت: ابسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده، فبايعته، ثم بايعه المهاجرون، ثم بايعه الأنصار. ونزونا (وثبنا) على سعد بن

عبادة، فقال قائل منهم: قتلتم سعد بن عبادة. قال: فقلت: قتل الله سعد بن عبادة."

هنا ينتهي خطاب عمر التاريخي، وقبله كل من كتب عن حدث السقيفة تقريباً. وقبل متابعة الموضوع، ربما كان من المفيد أن نلاحظ أن جواب عمر على اقتراح الحُباب كما رواه الطبري ج١ ص١٨٤١ في حديث منفرد نقلاً عن أبي مخنف قال عمر: ما أوقحك! إن سيفين لا يجمعان في غمد واحد. والله إن العرب لن تقبل إمارتك، في حين أن نبيها من آخرين (يقصد من المهاجرين).

والطبري أيضاً يخبرنا نقلاً عن أكثر من وثق به من رواته، ويروي عنه تكراراً وهو أبو معشر أنه بعد أن بايع عمر أبا بكر قام بعض الأنصار واحتجوا على القرار وصاحوا: "لن نبايع أحداً إلا عليّاً." ولكن هذه وأصوات أخرى ضاعت في الضوضاء، وبعد أن بايع عمر أبا بكر تبعه في ذلك المهاجرون الحاضرون ثم بايعه الأنصار لسبب أو لآخر، كما سنرى.

قبل أن نستعرض الأحداث التي تلت اجتماع السقيفة، سيكون من الأفضل فحص الموقف المعقد باختصار والظروف التي جعلت اختيار أبي بكر ممكناً. أولاً: إن التنافس بين بطون قريش أو بين المهاجرين على الأقل سهّل ذلك الاختيار وجعله مقبولاً، لأن أبا بكر رجل من بطن قريشي غير مهم وذلك هو فرع بني تيم بن مرّة.[٦١] لم يكن لبني مرة دور متميز بين البطون الحاكمة، ولم يشاركوا في الصراع على السلطة أو النزاع السياسي الذي كان شديداً بين البطون المتنافسة من قريش. ثانياً: لقد خشي المهاجرون جميعاً من إمكانية سيطرة المدنيين إذا شغلوا أنفسهم

بصراع ا لبطون المعتاد ودخلوا في قتال داخلي. لذلك كان أبو بكر هو المرشح كحل وسط. ثالثاً: فيما يخص الأنصار، يجب أن نأخذ بالاعتبار العداوة القديمة المتجذرة بين الأوس والخزرج. وكان سعد بن عبادة[٦٢] هو زعيم الخزرج؛ وبالتالي رأى الأوس التسليم لقائد قريشي أقل كلفة وأفضل من فوز زعيم القبيلة المنافسة بحكمهم. وهذا واضح من حقيقة ان أول من بايع أبا بكر من الأنصار كان أسيد بن خضير أحد زعماء الأوس. وبحسب الطبري ج١ ص١٨٤٣ "تكلم بعض الأوس ومنهم أسيد بن خضير قائلين: والله إذا صار الخزرج أمراء عليكم مرة فسوف يحافظون على هذا التقدم عليكم، ولن يدعوكم تنالوا حظاً منها أبداً، لذلك انهضوا وبايعوا أبا بكر. عندئذٍ بايع الأوس أبا بكر." وربما يجب أن نذكر أن أسيد هذا كان الوحيد من الأنصار الذي شارك في تدبير المهاجرين، وبالتأكيد كان على علم بترشح سعد بن عبادة، ولذلك تصرّف ضده، وحرم الخزرج من القيادة.

أما الخزرج فقد تيقنوا أن موقفهم كان ضعيفاً جداً لمواجهة جبهة المهاجرين المتحدة بالإضافة إلى الأوس منافسيهم القدماء أو بالأحرى أعدائهم في سياسة المدينة. فالحروب المستمرة والعداوات المستحكمة بين الأوس والخزرج هي حكايات مشهورة في أدب الجاهلية ومعروفة بـ "أيام العرب" وكذلك وجد الخزرج أنه من الحماقة التخلف عن تأييد الرابح ونيل رضى السلطة الحاكمة القادمة التي انتهت إليها المداولات. وأكثر من ذلك فقد ظهر لسعد بن عبادة حسد بعض أقاربه من قبيلته، مما كان معروفاً في بطون العرب، حتى أنه ورد أن أول من بايع أبا بكر كان

ابن عم سعد وهو بشير بن سعد.[٦٤] وهكذا صار من الواضح أنه نتيجة تعصب التجمعات، والمنافسة بين البطون، والحسد الشخصي تمكن أبو بكر أن يحصل على بيعة الشعب. وبالإضافة إلى هذه العوامل كلها فيجب إضافة الانطباع العام في المصادر التاريخية بأن أبا بكر تمتع باحترام أكيد وحاز على مقام رفيع بفضل رزانته وسنّه وصلته الحميمة بالنبي والدعم الذي قدمه له، والخدمات الجليلة التي وفرها للإسلام منذ بداياته الأولى. ولذلك فإنه لا يجوز تجاهل أثر شخصيته الذي تنامى عبر سنوات تحت قيادة النبي عند تحليل نتائج السقيفة. وتقدم لنا الروايات المتوفرة لدينا حجة كافية للاعتقاد بأن أبا بكر وعمر بن الخطاب شكلا تحالفاً منذ وقت بعيد قبل السقيفة وعلى الأغلب أن أبا عبيدة بن الجراح كان الشخصية الثالثة في هذا التحالف، وإن هؤلاء الثلاثة تمتعوا بوزن كبير وتأثير عظيم على طبقة النبلاء الإسلامية حديثة الولادة وفي المناورات السياسية ضد الارستقراطية المكية القديمة (بني هاشم وبني أمية إلى حدّ كبير).[٦٥] أخيراً لابد من ملاحظة أن خلافة أبي بكر لم تتحقق عبر انتخابات حرّة بأي شكل، ولا عبر إرادة الجماعة الحرة، بل كانت ببساطة قراراً اتخذته جماعة من المهاجرين وفرضته بسرعة وبقوة على الآخرين. والفضل في نجاح هذا القرار يعود إلى الصراع المحتدم بين تجمعات البطون الموجودة في المدينة. وهذا واضح من قول عمر السابق: "... وقد كانت فلتة، ولكن الله وقى شرها." والفضائل التي نسبها كلٌّ من أبي عبيدة بن الجراح وعمر إلى أبي بكر مثل: كونه قرشياً، وإسلامه المبكر، وصحبته الطويلة للنبي، والخدمات الجليلة التي قدمها للإسلام، واحترام النبي له

كل هذه الفضائل هي في الواقع تليق بعلي أكثر مما تليق بأبي بكر. أما الزعم الذي دعم خلافته وهو تقديم النبي له ليؤم صلاة الجماعة خلال مرض النبي الأخير فيبدو أنه ذو صبغة كلامية، وروايته غالباً متناقضة.

بعد أن استعرضنا الحجج والحجج المضادة التي تمت في السقيفة، يمكننا القول أن اختيار أبي بكر كان واقعة ناتجة عن الظروف. فالصراع بين مؤيدي أبي بكر ومناوئيهم تركّز حول اعتبارات ما هو ضروري في ظل الظروف والأحوال، وماذا يجب أن يكون. (بكلام آخر: في ظل الظروف المحيطة انبعث السؤال الهام: ما العمل) المترجم. ونتج عن ذلك السؤال الأول حالاً إقامة خلافة – إمبراطورية قوية كاسحة. ونتج عن السؤال الثاني (ماذا يجب أن يكون) جماعة إسلامية صغيرة طوّرت تفسيرها الخاص للمثل الإسلامية ونظام الحكم الذي يجسدها.

وكان توطيد سلطة أبي بكر باعتباره خليفة النبي، على كل حال، بعيداً عن الكمال بعد اجتماع السقيفة. فعلي بن أبي طالب لم يكن يعرف بالقرار الذي اتخذ في السقيفة وهو المرشح الأكثر أهمية من عائلة النبي، باعتبار أن المصادر السنّية والشيعية على السواء أجمعت على ما شهد له به مؤيدوه المقربون إليه، وكذلك عائلة هاشم. ولم يعلم هؤلاء (علي ومؤيدوه وبنو هاشم) بالقرار إلاّ بعد أن ضمن أبو بكر البيعة في السقيفة، ثم جاء مع مؤيديه إلى المسجد النبوي بصخب غير معهود في تجمع كبير. وبرغم أن تسلسل الأحداث التي تلت مشوش،[٦٦] فقد يكون أنه عند ذلك فقط اجتمع علي ومناصروه من المهاجرين والأنصار في بيت فاطمة وبدؤوا التفكير فيما يجب أن يفعلوه. وإلى جانب عدد من الروايات التي

ذكرت ذلك، فإن خطبة عمر بن الخطاب تدعم ذلك حين قال: "واعتزلنا علي والزبير ومن معهم." وكان أبو بكر يدرك تماماً مطالب علي والتبجيل الذي يحوزه في نظر جماعة معينة من الصحابة، وكان يخشى أن يواجهوه برد فعل، لذلك دعى علياً ومؤيديه إلى المسجد ليبايعوه هناك. ولكنهم رفضوا القدوم. فنصح عمر بخشونته المعهودة أبا بكر أن يتصرف بسرعة قبل فوات الآوان. فذهب الإثنان (أبو بكر وعمر) مع جماعة مسلحة وطوقوا بيت علي وهددوا بحرقه إذا لم يخرج علي ومؤيدوه ويبايعوا الخليفة المختار. عندها خرج علي وحاول الاحتجاج، وطالب بحقوقه، ورفض الاستجابة لمطالب عمر وأبي بكر. وتطور الموقف حالاً إلى مظاهر العنف فجردت السيوف من أغمادها وحاول عمر مع جماعته الدخول إلى البيت. وفجأة ظهرت فاطمة أمامهم حانقة وقالت معاتبة: "تركتم جثمان رسول الله عندنا، وقررتم لأنفسكم من غير مشورة منا. ولا احترام لحقنا. والله، إما أن تخرجوا من هذا المكان، وإما أن أحل شعري وأدعو الله عليكم."

وهذا ما جعل الموقف خطيراً، واضطر أبو بكر وجماعته إلى مغادرة البيت بدون الحصول على بيعة عليّ.[٦٧] لم يكن باستطاعة عليّ أن يقاوم طويلاً، وتوجب عليه التسليم قبل اشتداد الضغط عليه. تختلف الروايات وتتناقض عند تحديد تصالحه مع أبي بكر. فهناك روايتان ضعيفتان ومنعزلتان، وتعكسان أثر الطابع الكلامي (اللاهوتي) تقولان أن علياً بايع أبا بكر فوراً، لكن بعد أن اشتكى أنه لم يشاور، وهناك روايات أخرى تقول أنه بايع في يوم السقيفة نفسه ولكن تحت الإكراه مع قناعته أنه

الأحق بالخلافة. ولكن بحسب أكثر الروايات مصداقية، وأكثرها انتشاراً، وبسبب كونها مقبولة تاريخياً ولأسباب أخرى، فإن علياً تأخر عن بيعة أبي بكر حتى وفاة السيدة فاطمة بعد ستة أشهر من وفاة أبيها.[٦٨]

أما مؤيدو علي من المهاجرين والأنصار فأصرّوا على أنه كان الاختيار الأفضل للخلافة، فتأخروا بقبول أبي بكر لبعض الوقت ثم بايعوه. وتفاوتوا في تاريخ مبايعتهم، ولكنهم بايعوه على كل حال. وتختلف الروايات في أعدادهم وأسمائهم، لكن أشهرهم والذين أجمعت المصادر التاريخية على ذكرهم هم كما يلي.[٦٩]

١ حذيفة بن اليمان[٧٠] مدني حليف الأوس ومن أكثر الصحابة شهرة وتميّزاً. اشتهر ببطولته وشجاعته في معركة أحد، وكان مستشاراً خاصاً للنبي في غزوة الخندق، ولم تتأثر موالاته لعليّ ولم تتغير حتى بعد أن بايع أبا بكر. وقد أوصى ولديه قبل وفاته بموالاة عليّ، وقد أطاعا الوصية وقاتلا إلى جانب علي في معركة صفين وهناك قتلا.

٢. خزيمة بن ثابت[٧١] من قبيلة الأوس، دعاه النبي "ذو الشهادتين"، أي أن شهادته تعادل شهادة رجلين، قاتل إلى جانب علي في معركتي الجمل وصفين وهناك قتله جيش معاوية.

٣. أبو أيوب الأنصاري[٧٢] والده خالد بن كليب من بني النجار وأمّه من الخزرج. وكان أهم الصحابة من الأنصار، واستضاف النبي في بيته عند هجرته حتى تم بناء بيت النبي. وقاتل إلى جانب علي في معارك الجمل وصفين والنهروان.

٤. سهل بن حنيف[٧٣] من قبيلة الأوس، غزا مع النبي في بدر والغزوات الأخرى. كان صديق علي الحميم، جاء مع علي من المدينة إلى البصرة، وقاتل إلى جانبه في صفين، وعينه علي والياً على إيران.

٥. عثمان بن حنيف[٧٤] أخو سهل آثره علي وعينه والياً على البصرة.

٦ البراء بن عازب الأنصاري[٧٥] من الخزرج من ارستقراطي المدينة، مثّل الأنصار الموالين لعلي، جاء مع علي إلى الكوفة، وقاتل إلى جانبه في معركة الجمل وصفين والنهروان.

٧. أبيّ بن كعب[٧٦] من فرع من الخزرج وأحد الفقهاء وقراء القرآن من الأنصار.

٨. أبو ذر جندب الغفاري[٧٧] أحد المسلمين الأوائل الزهاد والبالغ التقوى، كان دائم التحدث بفضل علي وضرورة موالاته، وأحد أعمدة الشيعة الأربعة الأوائل. نفاه الخليفة عثمان بن عفان إلى مسقط رأسه في قرية صغيرة تدعى الربذة حيث مات.

٩. عمّار بن ياسر[٧٨] من عرب الجنوب وحليف بني مخزوم من قريش وأحد المسلمين الأوائل وأحد أعمدة الشيعة الأربعة الأوائل.

١٠ المقداد بن عمر[٧٩] من عرب الجنوب إما من كندة وإما من بهرا، وتبناه الأسود بن عبد يغوث من بني مخزوم. كان أحد السبعة الأوائل الذين أسلموا، وأحد أعمدة الشيعة الأربعة الأوائل.

١١ سلمان الفارسي[٨٠] من أصل فارسي وأحد أتباع النبي المتحمسين وصحابي جليل. حرره النبي من العبودية، وتبناه باعتباره مولى له،

وواحداً من أهل البيت. كان دائماً موالياً مخلصاً لعلي وأظهر ولاءه لعلي عند اختيار أبي بكر وقد ذكر ذلك المؤرخون بما في ذلك البلاذري.

١٢ الزبير بن العوام[٨١] أحد أصحاب النبي المتميزين من قريش. كان أكثر النشطاء حيوية وهمة من بين مؤيدي علي وكان صادقاً في موقفه الحماسي. خرج من بيت فاطمة شاهراً سيفه، حينما جاء عمر محاولاً إجبار من في البيت على مبايعة أبي بكر. وقد سجل معظم المؤرخين المواجهة الجدّية بينه وبين عمر. ومرّت خمس وعشرون سنة قبل أن يطمح إلى الخلافة وأدى به ذلك إلى مواجهة علي في معركة الجمل.

١٣. خالد بن سعيد[٨٢] من بني أمية، كان الثالث أو الرابع ممّن أسلم بعد أبي بكر والوحيد من بني أمية الذي قاوم بجديّة اختيار أبي بكر لمصلحة عليّ. وكان مبعوثاً للنبي في صنعاء حين توفي محمد. وحين وصل المدينة بعد أيام من اختيار أبي بكر بايع عليّاً قائلاً: "والله ما من رجل أكثر حقاً منك لتقوم مقام محمد." وبالرغم من أن عليّاً لم يقبل بيعته فإن خالداً تأخر ثلاثة أشهر حتى بايع أبا بكر.

إن تأكيد جدية معارضة هؤلاء أو استياءهم لاختيار أبي بكر قبل مصالحتهم معه هو من الصعوبة بمكان. ذلك لأن المصادر الشيعية تبالغ في ذلك إلى حدّ بعيد،[٨٣] في حين أن المصادر السنية تحاول التجاهل أو التقليل من شأن هذه المعارضة بقدر ما استطاعت إلى ذلك سبيلا.[٨٤] فمن الناحية التاريخية لا يمكن إنكار أن هؤلاء الرجال شكّلوا محور جماعة علي الأولى أو الشيعة. ولا يمكن الزعم بأن جميعهم كانوا على القدر نفسه من

الحماس في تأييدهم؛ فقد كان تأييد بعضهم فاتراً وهم الذين أقرّوا بأفضلية علي للخلافة بسبب جدارته الشخصية، لكنهم مع ذلك بايعوا أبا بكر من غير إظهار كثير من الاستياء. لكن موقف عمّار والمقداد وأبي ذر وسلمان كان مختلفاً عن الآخرين. فهؤلاء الأربعة هم الذين خصّهم الشيعة عامة بصفتهم "الأركان الأربعة"، والذين شكلوا المجموعة الشيعية الأولى. وبعد مصالحة علي وأبي بكر توقفت معارضة مؤيدي علي، وتضاءل دور هؤلاء النخبة من الشيعة الأوائل عملياً. ولكن هل يمكن أن تموت الأفكار بعد طرحها وتداولها؟ إن السنوات التالية في تاريخ تطور الفكر الإسـلامي تزودنا بالجواب على هذا السؤال.

مراجع وملاحظات الفصل الثاني

١- ابن هشام ج٤ ص٣٠٠

٢- عبد العزيز الدوري. مقال بعنوان: الزهري، دراسة في بدء كتابة التاريخ في الإسلام. مجلة مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية في جامعة لندن، العدد ١٩ ص ٨، ١٩٥٧ E

٣- ابن هشام ج٤ ص٣٠٧- ٣١٠

٤- تهذيب ج٥ ص١٦٤

٥- وفيات ج٤ ص١٧٧، والتهذيب ج٩ ص٤٤٥

٦- دراسة في الأدب العربي، بيبري، شيكاغو ١٩٥٧-١٩٧٢، ١،ص ٥-٣١، وج٢ ص٥-٦٤

٧- تهذيب، ج١، ص ٩٧

٨- وفيات، ج٣، ص ٢٥٥

٩- سابقه، ج٦، ص ٣٥

١٠- تهذيب ج٧ ص ٢٣ والأغاني ج٩ ص١٣٥

١١- ابن سعد، ج٢ ص ٣٧٩

١٢- ابن سعد ج٢ ص ٣٨٢ والأغاني ج٩ ص ١٣٧

١٣- ابن سعد ج٢ ص ٣٦٥

١٤- انظر .W مونتغمري وات "عبد الله بن عباس" مقال في دائرة المعارف الإسلامية طبعة٢ E

١٥- ابن سعد ج٣ ص١٦٩-٢١٣

١٦- سابقه ص ١٦٩-١٧١

١٧- سابقه ص ١٧١-١٧٢

١٨- انظر الملاحظة رقم ٥١ من ملاحظات الفصل الأول من هذا الكتاب

١٩- ابن سعد ج٣ ص ١٧٢-١٧٨

٢٠- سابقه ص ١٧٨-١٨١

٢١- سابقه ص ١٧٩
٢٢- سابقه ص ١٨١-١٨٥
٢٣- ابن سعد ج٥ ص ١٨٧ وابن حجر تهذيب ج٨ ص ٣٣٣.
وفيات ج٤ ص ٥٩
٢٤- لمعرفة حياة وأعمال البلاذري انظر مقدمة غوتين للجزء الخامس من الأنساب ص ٩-٣٢
٢٥- بخصوص هؤلاء الكتاب الأوائل انظر بالتتالي فهرست ابن النديم ص ١٠٠، ٩٥، ٢٧٧، ٩١، ٩٣
٢٦- أنساب الأشراف تح. محمد حميد الله. القاهرة ١٩٦٠ ج١ ص ٥٧٩-٥٩١
٢٧- غوتين ذكر سابقاً ص١٨
٢٨- انظر الملاحظة رقم ١٢ السابقة
٢٩- الذهبي، الميزان ج٢ ص ٢٩٩
٣٠- سابقه ج٤ ص ١٤٥
٣١- سابقه ص ٣٤٦
٣٢- تأريخ، بيروت ١٩٦٠ ج٢ ص ١٢٣-١٢٦
٣٣- L.E. بترسن، علي ومعاوية في التقليد العربي المبكر. كوبنهاجن ١٩٦٤ ص ١٦٩
٣٤- النجاشي، الرجال ص ٢٤٥
٣٥- ابن النديم، الفهرست ص١٠١
٣٦- شرح نهج البلاغة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة٢ بيروت ١٩٦٥ ج٢ ص٢١-٦٠
٣٧- سابقه ص ٤٤-٦٠ وبخصوص الجواهري انظر الذريعة ج١٢ ص ٢٠٦
٣٨- الذريعة إلى تصانيف الشيعة ٢٤ جزء، النجف، باسم
٣٩- الذهبي، الميزان ج٢ ص ٣٦٧

٤٠- سابقه ص ٣٦٥

٤١- الطبري ج١ ص ١٨٣٧-١٨٤٥

٤٢- مروج الذهب للمسعودي، تح. داغر، بيروت، ١٩٦٥ ج١٢ ص ٣٠١ و التنبيه والإشارة، بيروت ١٩٦٥، ص٢٨٤ وفي كلا الكتابين يذكر السقيفة عرضاً، ويحيل القارئ إلى كتابه الشامل عن الموضوع، لكنه لسوء الحظ مفقود.

٤٣- الكامل في التاريخ ج٢ ص٢٢١ لكن روايته للسقيفة هي كرواية الطبري تقريباً

٤٤- العقد الفريد ج٤ ص ٢٥٧

٤٥- تاريخ الخلفاء، تح عبد الحميد، القاهرة ١٩٦٤ ص ٦١ – ٧٢

٤٦- الاحتجاج، تح. محمد باقر الخراساني، النجف ١٩٦٦ ج١ ص ٨٩-١١٨

٤٧- بحار الأنوار

٤٨- A. غليوم، ترجمة السيرة جمع تصريحات وتعليقات ابن هشام ورتبها في نهاية الكتاب تحت عنوان ملاحظات ابن هشام وهناك ٩٢٢ ملاحظة مختلفة الطول، بعضها يغطي صفحة أو أكثر. انظر "حياة محمد"، اكسفورد، ١٩٥٥ ص ٦٩٠-٧٩٨

٤٩- هذه تهمة معروفة ملفقة على ابن إسحاق. انظر تعليقات نبيه آبوت على هذا الموضوع في دراسات في الأدب العربي يبري شيكاغو ١٩٥٧-١٩٧٢ ج١ ص٩٧. حيث شك ابوت بالتهم من خلال فقرة في تاريخ الخلفاء.

٥٠- نقلت رواية ابن إسحاق عن ترجمة غليوم للسيرة. أما المترجم فرجع إلى الأصل العربي ج٤ ص٣٠٦ وما بعدها لبيروت ١٩٧١ دار إحياء التراث العربي.

٥١- الذهبي، الميزان، ج١ ص ١٣٣

٥٢- سابقه ص ٣٣

٥٣- ابن هشام ج٤ ص ٣٠٦

٥٤- ابن حديد، شرح النهج ج٢ ص٢٥

٥٥- شرح فيما بعد لابن عباس أنه أساء فهم الآية ١٤٣ سورة٢ التي تقول: "وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا" ابن هشام ج٤ ص٣١١

٥٦- الطبري ج١ ص ١٦٨٣

٥٧- الاستيعاب ج٣ ص ١٢٤٨

٥٨- سابقه ج٤ ص ١٤٤١

٥٩- سابقه ص ١٤٤٩

٦٠- سابقه ج١ ص٣١٦

٦١- عن هذا التنافس انظر مونتغمري وات "محمد في مكة" ص٤-٨، ١٦-٢٠، ١٤١-١٤٤ وله أيضاً "محمد في المدينة" اكسفورد، ١٩٥٦ ص ١٥١-١٩١ E

٦٢- الاستيعاب ج٢ ص ٥٩٤

٦٣- سابقه ج١ ص٩٢. ووصفه اليعقوبي في تاريخه ج٢ ص١٢٤ بأنه خزرجي وهذا خطأ في النسخ

٦٤- الاستيعاب ج١ ص ١٧٢ ومصادرنا مشوشة حول من بايع أولاً فاليعقوبي يقول أنه بشير ابن سعد أما البلاذري فيقول أنه أسيد بن خضير.

٦٥- انظر هنري لامنس "انتصار أبي بكر وعمر وأبي عبيدة" خلاصة دراسات أساتذة كلية الدراسات ا لشرقية في جامعة القديس لويس. بيروت ج٤ ١٩١٠٠ ص١١٣-١٤٤ بالفرنسية

٦٦- من الآن فصاعداً تتضارب مصادرنا وتصبح مشوشة حول تعاقب الأحداث، لأن كل رواية سجلت منفردة منعزلة. لذلك فنحن غير متأكدين هل كان طلب البيعة من علي ومؤيديه حالاً بعد خروجهم من السقيفة، ومجيئهم إلى المسجد، أو بعد دفن النبي ومجيئهم إلى المسجد اليوم

التالي حيث تمت البيعة الجماعية لأبي بكر. قراءة المصادر بدقة تشير إلى أن مطالبتهم بالبيعة تمت حال خروجهم من السقيفة.

٦٧- توجد روايات متعددة لهذا الحديث في البلاذري ج١ ص ٥٨٥، وفي اليعقوبي ج٢ ص ١٢٦، وفي الطبري ج١ ص ١٨١٨، وفي ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ج٢ ص٤٧، ٥٠، ٥٦، وفي العقد الفريد ج٤ ص ٢٥٩، وفي الإمامة والسياسة ج١ ص ١٢-١٣! (برغم أنه نسبته لابن قتيبة خطأ، فهو بالتأكيد كتاب مبكر جداً وغني جداً بالمراجع)، وهذا الكتاب يقدم عرضاً مفصلاً لملحمة هجوم أبي بكر وعمر وعلى بيت فاطمة، والقوة التي استخدمت لتأمين بيعة علي لأبي بكر. وكذلك V. L. فيجليري، دائرة المعارف الإسلامية الطبعة الأولى مقال بعنوان "فاطمة" ويعلق على الروايات بقوله: "حتى وإن كانت الروايات توسعت في التفاصيل (بالغت فيها) فإن هذه الروايات مبنية على حقائق"

٦٨- اليعقوبي ج٢ ص ١٢٦، البلاذري ج١ ص٥٨٦. الطبري ج١ ص ١٨٢٥ العقد الفريد ج٤ ص ٢٦٠ ابن أبي الحديد ج٢ ص ٢٢

٦٩- التفاصيل أكثر والاختلافات في الأسماء انظر اليعقوبي المرجع السابق، والبلاذري ج١ ص ٥٨٨ والعقد الفريد ج٤ ص ٢٥٩، وابن أبي الحديد ج٢ ص ٥٠.

٧٠- ابن سعد ج٦ ص ١٥ والاستيعاب ج١ ص ٣٣٤.

٧١- ابن سعد ج٤ ص ٣٧٨ والاستيعاب ج٢ ص ٤٤٨

٧٢- ابن سعد ج٣ ص ٤٨٤ والاستيعاب ج٢ ص ٤٢٤ وج٤ ص ١٦٠٦

٧٣- ابن سعد ج٣ ص ٤٧١ والاستيعاب ج٢ ص ٦٦٢

٧٤- الاستيعاب ج٣ ص ١٠٣٣

٧٥- ابن سعد ج٤ ص ٣٦٤ والاستيعاب ج١ ص ١٥٥

٧٦- ابن سعد ج٣ ص ٤٩٨ والاستيعاب ج١ ص ٦٥

٧٧- ابن سعد ج٤ ص ٢١٩ والاستيعاب ج٤ ص ١٦٥٢

٧٨- ابن سعد ج٣ ص ٢٤٦ والاستيعاب ج٣ ص ١١٣٥

٧٩- الاستيعاب ج٤ ص ١٤٨٠

٨٠- ابن سعد ج٤ ص ٧٥ والاستيعاب ج٢ ص ٦٣٤

٨١- الاستيعاب ج٢ ص ٥١٠

٨٢- ابن سعد ج٤ ص ٩٧ والاستيعاب ج٢ ص ٤٢٠ وبخصوص تأييده لعلي انظر البلاذري ج١ ص ٥٨٨ واليعقوبي ج٢ ص ١٢٦، وابن أبي الحديد ج٢ ص ٥٨

٨٣- انظر مثلاً الطبرسي، الاحتجاج ج١ ص ١١٨-١٨٩

٨٤- انظر مثلاً ابن سعد ج٣ ص ١٨١-١٨٥

الفصل الثالث

علي والخليفتان الأولان

إن المناقشة في الفصل الثاني تكفي لتوضيح رأينا بأن مصادر المشاعر والميول الشيعية قد تكونت في رحم فكرة القداسة التي عُرف بها بنو هاشم على نطاق واسع، والاعتبارات الخاصة التي أولاها النبي لعليّ، (النبي كان يدرك تماماً التراث الديني التقليدي لعائلته ومترلتها الرفيعة)، وأخيراً واعياً بالأحداث التي جرت في حياته والتي ترفع من شأن عليّ. منذ تجمع هذه القناعات (قداسة بني هاشم وفضائل علي) والتركيز عليها فيما دار من أسئلة وقضايا في حدث السقيفة، حددت هذه الحلقة في سلسلة أحداث تلتها التعبير ومفصل الافتراق الذي تطور فيما بعد وعرف بالفهم الشيعي للإسلام. ولكن، بعد الهزيمة الأولى لمؤيدي علي يوم السقيفة، واعترافه بإدارة أبي بكر بعد ستة أشهر من ذلك، تغيّرت الظروف بحيث فقدت الميول الشيعية معظم مظاهرها العملية والعلنية. وكانت الفترة ما بين السقيفة والشورى (اختيار عثمان)، أي فترة خلافة أبي بكر وعمر هي فترة كمون نسبي في تاريخ تطور التشيع.

مع ذلك، فإن فحصاً دقيقاً للمصادر المبكرة، وبخاصة مقارنة متأنية للمصادر الشيعية والسنية المبكرة يكشف عن تيارين كامنين خلال هذه المدة؛ الأول هو موقف علي السلبي تجاه السلطات الحاكمة، والثاني محاولة أبي بكر وعمر بإزاحة بني هاشم وبخاصة علياً عن حقوقهم الخاصة بقيادة الأمة بحسب فهمهم للنظام الجديد والمسار الذي شعروا أنه يجب أن

تتخذه هذه القيادة. هذان التياران الظاهران في هذه الفترة شكّلا فصلاً محورياً في تطور الأفكار الشيعية، ولذلك يجب أخذه بالاعتبار

يمكننا توضيح موقف علي السلبي بسهولة من خلال مقارنة الدور الفعّال الذي قام به خلال حياة محمد بالدور غير الفعّال البتة وانسحابه من الحياة العامة خلال الفترة التي تلت وفاة النبي مباشرة. تراجع علي صاحب الدور الأكبر فعالية والمساهم المتحمس في جميع المبادرات في سبيل الإسلام، والمقاتل العظيم في كل المعارك التي جرت تحت قيادة محمد،[1] علي هذا عاد ليعيش حياة هادئة جداً إلى حدٍّ يقارب العزلة في بيته. لم يكن هذا التباين بدون أسباب جدّية.[2] فبعد أن رأينا قناعات علي الثابتة بأنه أفضل المرشحين لخلافة محمد. كما هو واضح في جميع المصادر، فإن المرء يتوقع منه أن يقاتل من أجل حقوقه حتى النهاية المريرة. فهو لم يعد إلى نشاطه رغم إتاحة بعض الفرص. فقد رفض التأييد العسكري القوي الذي عرضه عليه أبو سفيان لاسترداد حقه، لأنه قدَّر أن عملاً كهذا يؤدي إلى تدمير الإسلام الوليد.[3] وفي الوقت عينه، ومن جهة أخرى، لم يعترف بأبي بكر ورفض مبايعته لستة أشهر. فبالإضافة إلى الأسى الذي خلّفه موت فاطمة بعد ستة أشهر من وفاة أبيها واستلام أبي بكر الخلافة، فإن الذي قد يكون أجبر علياً على المصالحة مع النظام القائم إنما هو تحرك المارقين وحروب الردة ضد القبائل في الجزيرة العربية. فهذا الحدث جعل المسلمين جميعاً في المدينة يتناسون خلافاتهم الشخصية والإيديولوجية ويتوحدون تلقائياً وطبيعياً ضد الخطر الذي أحدق بهم جميعاً. هذا الخطر الخارجي الذي هدد وجود النظام الإسلامي في عقر داره منح أبا بكر

فرصة عظيمة لتقليل المعارضة الداخلية لحكمه. إن شخصية علي كما عرضتها المصادر السنيّة والشيعية بتناسق تام توضح أن مشاعره الحبيّة وإخلاصه وصدقه في مناصرة قضية الإسلام كانت فوق جميع الاعتبارات الأخرى. فعلي الذي التزم بخدمة دعوة محمد منذ أن كان في الثالثة عشرة من عمره؛ رأى هذا الخطر واتساع ردة القبائل ضد الإسلام، فلم يعد لديه خيار آخر غير مصالحة النظام القائم. وهذا ما فعله. ولكنه لم يباشر أي نشاط عملي في حروب الردة، وإنما استمر في موقفه المنعزل، ولم يطالبه أبو بكر بمساهمته في الحرب خارج المدينة.

ورغم هذا الموقف السلبي تجاه أبي بكر وعمر؛ فإن علياً قدم المساعدة أحياناً للخليفتين. هذا التعاون مع الخليفتين الحاكمين بدا مطابقاً تماماً لما يتوقع من زعيم معارضة حكيم. لقد أدرك علي أنه في ظروف كهذه، فإن التضامن والأمن والتماسك في جسم الأمة لا يمكن أن تتحقق إلاّ إذا كانت المجموعات التي تؤلف الأمة راغبة في التعاون والمحافظة على علاقات متناسقة تضم الجميع. ومع ذلك وضمن هذا الإطار حاول، مرة أخرى وكما يتوقع، أن يصحح ما أعتقد أنه أخطاء النظام وانتقد سياساته التي اختلفت مع وجهة نظره.

إن نقاط الخلاف في الأمور الدينية والسياسية ما بين علي من جهة وكلّ من أبي بكر وعمر من جهة أخرى يصعب على الباحث أن يؤكدها، وذلك لأن الروايات السنية والشيعية متحيزة إلى حد المبالغة. لقد كتبت المصادر السنيّة مثل أعمال ابن سعد والذين تبعوه في الفترة عندما تم الإقرار نهائياً، بأن الخلفاء الأربعة الأوائل هم الراشدون حسب رأي أهل

السنة والجماعة. وتم بذل كل جهد ممكن لإظهار أكبر قدر من التوافق على الأقل بين علي وكلّ من أبي بكر وعمر. وظهر ميل لاستثناء عثمان من ذلك وبخاصة ممارساته الدينية والسياسية، برغم أن محاولات كبيرة بذلت لتحسين موقف عثمان من خلال إيقاع اللوم في إساءة استخدام سلطاته على مستشاره السيء السمعة مروان. أما فيما يخص الأعمال الشيعية فقد عرضت خلافاً تاماً ومعارضة كاملة ما بين رأي علي وبين عثمان وحتى أبي بكر وعمر في كل المسائل الدينية والسياسية تقريبا. وباختصار كان علي بحسب المصادر السنّية هو المستشار المقدّر للخلافاء الثلاثة الذين سبقوه، أما المصادر الشيعية فتراه على أنه الشخص الذي استغرق في حبه الأسطوري للعقيدة واستعداده المخلص للتضحية من أجلها بغض النظر عن مآسيه الشخصية، وهذا ما أنقذ الخلفاء الثلاثة من الوقوع في أخطاء فاحشة كادوا يقعون فيها وبالتالي فقد كان من الممكن أن تودي بالإسلام. فقد نقل عن عمر قوله "لولا علي لهلك عمر" ومما يثير الاهتمام أن هذا التصريح نقل في المصادر السنّية المبكرة أيضاً.[٤]

والواقع أنه فيما عدا بعض نقاط الخلاف الجديّة بين علي ومنافسيه والتي نقلتها المصادر التاريخية بإجماع – كما سنرى فيما بعد – فإن تحديد وتأكيد كل ما روي من خلاف يبقى بعيداً عن التحقيق. والحقيقة هي فيما يبدو وكما تقترح فيشيا فاليري "أن علياً كان عضواً في مجلس مستشاري الخلفاء الثلاثة، ولكن بالرغم من احتمال أنه أَستشير في قضايا فقهية على ضوء معرفته العميقة بالقرآن والسنّة فهناك شك كبير في أن آراءه قبلت وعمل بها عمر الذي كان الحاكم الفعلي حتى في خلافة أبي

بكر."[5] ويبدو غالباً أن آراء علي لم تقبل في المسائل الدينية، وهذا بيّن من حقيقة أن قراراته قلما تذكر أو يعتنى بها في كتب المذاهب الفقهية السنية التي تطورت فيما بعد؛ بينما نجد قرارات عمر هي السائدة. ومن جهة أخرى نجد المصادر الشيعية تذكر قرارات علي الفقهية فقط. أما فيما يخص القضايا السياسية والإدارية فنذكر معارضته لعمر في موضوع توزيع الغنائم، وغيابه عن كل المعارك التي جرت أثناء خلافة عمر. وبدون ذكر تفاصيل أكثر، فإن من الممكن أفتراض أن علياً بقي على موقفه السلبي واعتزل إلى حد ما في بيته أيام حكم أبي بكر وعمر بغض النظر عن مشاعره وطموحاته.

قبل عليّ الحقائق السياسية في عصره، ولكنه مع ذلك بقي مقتنعاً بحقيقة أنه أجدر الجميع بالخلافة، وأنه عومل بظلم حين حرم من حقه في قيادة الأمة. أما مشاعر علي تجاه الذين سبقوه في تولي منصب الخلافة فقد عبّر عنها أفضل تعبير بكلماته في أحد خطبه المشهورة من منبر مسجد الكوفة خلال خلافته. هذا العرض لمشاعره عرف بخطبته الشقشقية وقد أدرجها الشريف الرضي في نهج البلاغة[7] الذي يضم خطب ورسائل ونصائح علي. وكما هو الحال فيما يخص محتويات هذا العمل (نهج البلاغة) البالغ القيمة، فإن من الصعب الشك بمصداقية هذه الخطبة، لاسيما وقد أوردها كثير من الكتّاب الأوائل قبل زمن طويل من عصر الشريف الرضي. يقول علي: "أما والله لقد تقمّصها فلان (أبو بكر)، وإنه ليعلم أن محلي منها محلُّ القطب من الرحى. ينحدر عني السيل، ولا يرقى إليّ الطير؛ فسدلت دونها ثوباً، وطويت عنها كشحاً. وطفقت أرتئي بين أن أصول

بيد جذّاء، أو أصبر على طخية عمياء، يهرم فيها الكبير، ويشيب فيها الصغير، ويكدح فيها مؤمن حتى يلقى ربه. فرأيت أن أصبر على هاتا أحجى. فصبرت وفي العين قذى، وفي الحلق شجا. أرى تراثي نهبا. حتى مضى الأول لسبيله، فأدلى بها إلى فلان (عمر) بعده." ثم تمثل بقول الأعشى:

شتّان ما يومي على كورها ويومُ حيّان أخي جابر[8]

"فيا عجباً! بينا هو يستقيلها في حياته، إذ عقدها لآخر بعد وفاته – لشدّ ما تشطرا ضرعيها – فسيرها في حوزة خشناء يغلظ كلامها، ويخشن مسّها، ويكثر العثار فيها، والاعتذار منها، فصاحبها كراكب الصعبة إن أشنق لها خرم، وإن أسلس لها تقحم. فمني الناس – لعمر الله – بخبط وشماسٍ، وتلوّن واعتراض، فصبرت على طول المدة وشدّة المحنة؛ حتى إذا مضى لسبيله" [9]

وهكذا وصف علي مشاعره تجاه حكم سلفية ولخّص عصرهما. وكتب ابن أبي الحديد تعليقاً مطولاً على هذه الخطبة، وفسّر مميزات الخليفتين الأساسية وسياساتهما في تدبير شؤون الأمة، وموقفهما من علي وتحفظات على تدبيرهما.

نتحول الآن إلى الملاحظة الثانية التي ذكرناها سابقاً بخصوص الفترة المؤقتة في تطور الإسلام الشيعي: وهي فترة المحاولات التي قام بها أبو بكر وعمر لإزاحة بني هاشم عموماً وعلي بشكل خاص عن حقوقهم الخاصة بقيادة "الأمة" وأول تلك المحاولات في هذا الاتجاه في اليوم التالي لوفاة النبي

حين خرجت فاطمة للمطالبة بملكية فدك. فقد أكدت أن هذه الملكية أعطيت لوالدها بلا شرط على أنها حصته من غنائم خيبر.[١١] اقتبس أبو بكر كلمات محمد "نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه فهو صدقة" ورفض أبو بكر دعواها واحتفظ بفدك على أنها تخص الأمة كلها، وبرغم أن لفاطمة حق الميراث من أبيها إلاّ أنه حرمها حقوقها في ملكية فدك.

وأصبحت قضية الميراث هذه فوراً إحدى موضوعات الجدل المحتدم بين الشيعة ومناوئيهم.[١٢] ويبدو أن أبا بكر قصد برفضه هذا في الحقيقة، عدم قبوله بتأسيس دعوى على خلفيّة عائلية. واعترافه بعدالة مطلب أحد ما بحق ميراث مبني على روابط أسرية سيفتح الباب لمطالب أبعد وأشمل، وشعر أبو بكر أن قبوله بحقوق عائلة علي بميراث فدك قد يساوي الإقرار بحقوقها بخلافة محمد في جميع المجالات الدينية والمادية وأساس هذا الخوف هو أن محمداً بصفته قائد الأمة وبالتالي له حق خمس الغنائم الحربية، وعلى أساس هذا الحق الخاص فقد تملك فدك. وإن وراثة ملكية حقوق المنصب الرفيع والحق الخاص كان بشكل ما مختلفاً عن الميراث العادي. وقد أجمع المؤرخون على أن فاطمة رفضت الكلام مع أبي بكر وعمر حتى وفاتها. وأوصت علياً أن يدفنها ليلاً وألاّ يسمح لأبي بكر وعمر بالمشاركة في جنازتها. واستجاب علي لوصيتها ونفذ ما طلبت، ودفنها بحضور أفراد عائلتها الذين شيعوها إلى قبرها.[١٣]

دامت خلافة أبي بكر ما يزيد عن العامين بقليل ثم عيّن عمر لخلافته وهو الذي كان يحكم بالفعل أيام أبي بكر. والأسلوب الذي رتبه أبو بكر لخليفته يجعلنا لا نشك أبداً بأن أبا بكر منذ توليه الخلافة قد قرر ذلك.

واتخذ الاحتياطات الكاملة ليحول دون أي احتمال معارضة لترشيحه عمر، وحرص على ألاّ يواجه أية صعوبة. وكان أبو بكر مدركا لمطالب علي بالخلافة وللدعم والاحترام الذي تلقاه من جماعة محددة. وهكذا استدعى أبو بكر أولاً عبد الرحمن بن عوف وأخبره بقراره وبعد بعض الإقناع ضمن رضاه. والشخص الثاني والأخير الذي استدعاه أبو بكر الخليفة على فراش الموت ليعرفه بقراره كان عثمان بن عفان. وعندما أصبح قرار أبي بكر معلوماً عند العامة اضطرب بعض الصحابة الكبار وشعروا ببالغ الاستياء. وتجمعوا بقيادة طلحة ثم بعثوا بوفد للاحتجاج على القرار، وحاولوا اقناع الخليفة بعدم ترشيح عمر.[١٤] ولم يكن هناك شيء قادر على تغيير رأي أبي بكر، وبالتالي طلب من عثمان أن يدوّن عهده الأخير لصالح عمر. ولم يكن أمام الأمة خيار بل طلب الخليفة (أبو بكر) من الجميع قبول عهده بطاعة عمر بصفته الخليفة الجديد بعده، لأنه لم يكن قادراً على اختيار أي شخص آخر أكثر جدارة من عمر. وتقول وصية أبي بكر التي قرأها على الناس: " هذا ما عهد أبو بكر خليفة رسول الله إلى المؤمنين والمسلمين... أما بعد فإني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا وأطيعوا، وإني لم أجد خيراً منه."[١٥]

إن أي امرئ يقرأ عهد أبي بكر لعمر سيلاحظ على الفور أن ذلك القرار لم ين على قاعدة الشورى مع علية القوم، ولم يكن رأي الأمة بشكل عام والذي كان يجب استمزاجه قبل الاختيار. بل إنه كان ببساطة قراراً سلطوياً شخصياً أراد أبو بكر أولئك الصحابة الذين اعتبرهم الأكثر أهمية

على أساس أنهم يمثلون إرادة بطون قريش أرادهم أن يؤيدوا قراره، كما سنرى لاحقاً.

إن أهم نقطة في هذا العهد وطريقة الوصول إليه تكشف أن أبا بكر حين كتب عهده لعمر تجاهل علياً واستبعده من المشاورة – إذا كان هناك مشاورة في الواقع – كما استبعده من الذين حاول ضمان تأييدهم لعهده. وفي الحقيقة، تجمع كل مصادرنا على أنه من بين كل الصحابة اختار أبو بكر اثنين فقط لمشاورتهم، وبعد ذلك ائتمنهما على مسؤولية تأييد عمر بكل قواهما. هذه المسيرة كان قد خططها على الأغلب عمر نفسه لمواجهة أية معارضة محتملة من طرف بني هاشم وذلك من خلال التماس تأييد بطون قريش بعيداً عن بني هاشم. فعبد الرحمن بن عوف ينتمي لبني زهرة، وعثمان بن عفان ينتمي لبني أمية، وكلاهما كانا منافسين لبني هاشم قبل الإسلام. إن انبعاث نجم هذين الصحابيين كان متميزاً جداً، وملاحظة ذلك مفيدة بخاصة في تطور الخلافة لاحقاً؛ فهما يمثلان الطبقة الأكثر غنىً في الجماعة المسلمة.[١٧] وعبد الرحمن كان صهر عثمان وكان من المتوقع أن يؤيد كل منهما الآخر. وكان عبد الرحمن متأكداً من تأييد سعد بن أبي وقاص القوي له بصفته من بني زهرة وابن عمه. وهذا الأسلوب ضمن أبو بكر تأييد وتأثير أهم مكونات الدائرة السياسية العليا من الصحابة المهاجرين لمواجهة أي نشاط محتمل من طرف بني هاشم ومؤيديهم لمصلحة ترشيح علي.

واختلاف علي مع سياسات عمر في مجالي السياسة والقضايا الدينية نناقشه لاحقاً عندما نتعرض لاختيار عثمان. وتكفينا هنا الإشارة إلى أن النشاط

الكثيف والمليء بالأحداث خلال السنوات العشرة من خلافة عمر حيث تم الفتح الهائل في مناطق الإمبراطورتيين البيزنطية والفارسية وشارك فيه كبار صحابة النبي ظل علي في الظل ولم يظهر له أي نشاط. ولم نر علياً يتسلم أية مسؤولية تحت قيادة عمر أو أبي بكر وسيبقى كذلك خلال خلافة عثمان. والاستثناء الوحيد جرى حين تولي علي إدارة المدينة عندما خرج عمر في رحلة إلى فلسطين مصطحباً معه كبار الصحابة والقادة العسكريين لتصويب تنظيمات الفتوح والدواوين. وكان علي هو الوحيد الغائب عن حدث استسلام القدس وسورية بشكل عام. وقيّد عمر تحركات بني هاشم بمنعهم من الخروج خارج المدينة. وهذا واضح من واقع أنه ما من هاشمي بما في ذلك على شارك في أي نشاط خارج العاصمة (المدينة).

وأفضل ما يوضح موقف عمر من علي هو الحوار الذي دار بين عمر وابن عباس. ففي مناسبة ما سأل عمر ابن عباس "لماذا لا ينضم علي إلينا ويشاركنا؟ ولماذا لا تناصر عائلتك أباك وهو عم النبي أو أنت، وأنت ابن عمه؟" فأجاب ابن عباس: "أنا لا أعرف." فقال عمر: "ولكنني أعرف السبب، إن قريش كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة فتبجحوا على قومكم بجحاً بجحاً."[19] وفي رواية أخرى، عندما سمع عمر بعض أبيات زهير بن أبي سلمى التي تصف مجد ونبل وفضائل ذرية بني عبد الله بن غطفان قال لابن عباس: "لا أعرف بطناً من قريش أجدر بهذه الأبيات من بني هاشم لقرابتهم بالنبي وعلو مكانتهم، لكن الناس لا ترضى أن تجتمع النبوة والخلافة في عائلتكم لئلا تتعالوا عليهم وتفرحوا بها دونهم. لقد

أرادت قريش أن تختار أميرها بنفسها، واختاروا أحقهم، وقد هداهم الله في ذلك. فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين، أما قولك بأن قريش اختارت أميرها واهتدت لأحسن خيار فقد يكون صحيحاً، لو كان هذا الاختيار متوافقاً لمن اختاره الله من قريش. وأما قولك بأن قريش لا تريد أن تجتمع النبوة والخلافة لنا، فليس مدهشاً، لأن الله وصف قوماً بالكراهية الآية: "ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم" سورة محمد آية ٩، وعند هذا الحد غضب عمر وقال: "قد كانت تبلغني عنك أشياء كنت أكره أن أفرّك عنها، فتزيل منزلتك مني. أخبرت أنك تقول إنما حيّدها عنّا حسداً وظلما." فقال ابن عباس: "أما قولك ظلماً فقد تبيّن، وأما قولك حسداً؛ فلقد حسد إبليس آدم، ونحن ولده المحسودون." فاستشاط عمر غضباً ورد عليه بحدة قائلاً: "هيهات! أبت قلوبكم يا بني هاشم إلا حسداً ما يحول، وضغناً وغشاً." فقال ابن عباس: "تلطف يا أمير المؤمنين، ولا تصف قلوب قوم أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً،[٢١] ولا تنس أن النبي هاشمي." فقال عمر: "دعنا من هذا." [٢٢] هذا الحوار يفسر نفسه بنفسه، ولا حاجة للتعليق عليه. ويكفينا القول أنه من أفضل ما يكشف عن موقف عمر تجاه علي من جهة، وموقف بني هاشم من الخلفاء الذين سبقوا علياً من جهة أخرى.

وعلى كل حال، فإن سيطرة وقوة شخصية عمر وفهمه الواقعي لتيار ذلك الزمن كانا كافيين لأن لا يسمحا بظهور سخط خلال حكمه، الذي شغله باستمرار بفتح أراض غنية جديدة وبضمها لدار الإسلام. لقد خدمت حروب الردة أبا بكر، وكذلك الفتح الخارجي خدم عمر وذلك

بأن بقي الوضع الداخلي ضمن الجماعة الإسلامية مستقراً. وتميزت خلافة أبي بكر بأنها جسدت الطموحات الإسلامية في البساطة والعدالة والمساواة والإخلاص لقضية الإسلام، والحماس العقائدي والتوازن الاجتماعي – الاقتصادي حسب فهم المسلمين لها. وبعد عشرة أعوام في الحكم واجه الخليفة القوي نهايته بطعنة عبد فارسي وتوفي في ٢٦ ذي الحجة ٢٣ هـ ٣ تشرين الثاني نوفمبر ٦٤٤م.

وعلى عكس أبي بكر، فإن عمر طيلة خلافته لم يستطع أن يجد ثقة كاملة بأي فرد يأتمنه لتبرير تسميته كمرشح للخلافة. [٢٣] ومع ذلك، اقتصر في خياراته على ستة أفراد من كبار الصحابة المهاجرين، الذين طلب منهم اختيار أحدهم خليفة جديداً. وأعضاء هذه اللجنة، التي صار الفقهاء والمتكلمون المتأخرون يذكرونهم باسم الشورى، هم عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقّاص وعلي بن أبي طالب والزبير بن العوام، وطلحة بن عبد الله بالإضافة إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب نفسه بصفته مستشاراً فقط وليس مرشحاً للخلافة. [٢٤] وهناك عاملان جديران بالانتباه إليهما في صيغة هذه اللجنة: الأولى، لم يكن هناك رأي للجماعة الإسلامية في المدينة لا في تحديد المرشحين ولا في الشورى داخل هذه اللجنة لاختيار الخليفة الجديد، بل إن الأمر بقي في يد الأشخاص الستة الذين سماهم عمر، وبالتالي لا يمكن تسمية تلك العملية لا بالديمقراطية ولا بالشورى الحقيقية. الثاني، وهو الأهم، وذلك هو أن الأنصار استُبعدوا من تلك اللجنة وبالتالي حُرموا من حق إسماع صوتهم فيما يخص اختيار القيادة الجديدة. وربما كان هذا بسبب أن الأنصار

كانوا أكثر تعاطفاً – كما ظهر في حدث السقيفة – مع علي، أو أن عمر أراد استبعاد أية إمكانية لأنصاري أن يترشح لمنصب الخلافة. وهذا الاستبعاد شكّل ضربة قاضية لتأثير الأنصار في الحياة السياسية. يومئذٍ وإلى الأبد.

ليس في نيتنا تدوين تفاصيل ما ورد في هذه اللجنة (الشورى)، وإنما أثرها على تطور التشيع. تجمع المصادر كلها على أن عمر وضع بدقة نظام هذه الشورى والذي يجب أن يضبط حركتها. وبنود هذا النظام هي كما يلي:

١– الخليفة الجديد يجب أن يكون أحد أعضاء اللجنة الستة ويختار بأكثرية الأصوات.

٢– في حال وجود مرشحين متساويين في الأصوات يفوز من يختاره عبد الرحمن بن عوف.

٣– أي فرد من أعضاء اللجنة يتأخر عن المشاركة في الاختيار يقتل.

٤– عندما يتم اختيار مرشح ويعارضه عضو أو اثنان ويرفضون قبوله كخليفة، يقتل المعارضون، وإذا جرى انقسام متساو ثلاثة أصوات مقابل ثلاثة يقتل الثلاثة الذين يعارضون الثلاثة الآخرين حيث يكون عبد الرحمن بن عوف.

ولتأكيد ذلك وتقويته استدعى عمر أبا طلحة الأنصاري[٢٥] من الخزرج وطلب منه اختيار خمسين رجلاً من قبيلته، يقفون جميعاً على باب البيت حيث يجتمع أعضاء اللجنة وسيوفهم في أيديهم ومهمتهم إلزام أعضاء

اللجنة باتباع النظام الذي وضعه عمر.[٢٦] وضمن عمر بتعينه هذا الأنصاري من الخزرج الذين أرادوا القيادة لأنفسهم عقب وفاة النبي، ضمن أن تؤخذ أوامره على محمل الجد.

من الصعب جداً أن يجد المرء ما يوحي له أن يشك بمصداقية رواية أن عمر فرض نظام عمل أعضاء الشورى. فالمصادر المبكرة تشهد وتؤكد ترتيبات عمر للشورى ونظامها. وبتحري المصادر مثل البلاذري واليعقوبي والطبري والمسعودي وما تبعهم مثل الذهبي وابن الأثير ظهر أن جوهر الرواية واحد في جميع هذه المصادر. جميع هؤلاء المؤرخين أخذوا رواية الشورى من مصادر متنوعة تنتمي غالباً لمدارس فكرية متصارعة وميول متباينة.

نشرت نبية آبوت[٢٨] منذ فترة قريبة ورقة بردي فيها مقتطفات من تاريخ الخلافة لابن إسحاق مع تفسير قيم بخصوص الشورى والمصطلحات التي استخدمها عمر. وقد كتب ابن إسحاق تاريخه قبل المصادر التي ذكرناها أعلاه، ومن الأهمية البالغة ملاحظة أن رواية ابن إسحاق هي الرواية ذاتها في مصادرنا. وهذا ما يثبت صحة رواية مؤرخينا. وإلى جانب إجماع مؤرخينا على الرواية ذاتها، فإن الظروف السائدة آنئذٍ وعوامل مؤثرة أخرى تشهد جميعها بصدق هذا الخبر. عندما نقارن ميزات عمر وشدته المسيطرة على شخصيته والسياسات الحاسمة التي صبغت فترة حكمه، مع طبيعة التعليمات التي فرضها على أعضاء مجلس الاختيار في تلك الفترة، فإننا نجد ميزات شخصيته تتوافق مع تعليماته. وبالإضافة إلى ذلك، ضمن الطريقة التي روى فيها المؤرخون الشروط (تعليمات عمر) يتضح أنه من

جهة أولى كان عمر متأكداً بأن واحداً من أولئك الستة يمكن أن يصبح الخليفة التالي، ولكن من جهة أخرى، كان متأكداً أنهم سيعارضون بعضهم بعضاً ويستغل كل منهم الفرصة كي يصل إلى مركز القيادة. وبناءً على ذلك، يمكننا الاستنتاج أن عمر كان خائفاً من الانشقاق الخطير بين المرشحين المحتملين والعواقب المدمرة التي يمكن أن تحلّ بجماعة المسلمين اليافعة. وهذا واضح من الرواية التي تقول: إن عمر استدعى الأعضاء الستة وقال لهم: "نظرت فوجدت أنكم قادة القوم، ولا تصحّ الخلافة إلا لأحدكم، ولكن أخاف عليكم الشقاق فيما بينكم فيتفرق الناس أنفسهم." [٢٩] وبسبب إحساسه وضع تلك التعليمات الصارمة. حيث أنه وجدها ضرورية لحماية الأمة من تأثيرات الانشقاق المدمر.

هذه المعايير (التعليمات) على كل حال حققت هدفين يبدو أنهما كانا يستغرقان تفكير الخليفة المائت، وهما ما فكر أنهما في مصلحة الأمة. الأول أن هذه المعايير حفظت وحدة الأمة اليافعة وإن يكن مؤقتاً. والثاني أنه بهذه المعايير الحاسمة أكمل عمر مهمة إبعاد بني هاشم عن الخلافة، تلك المهمة التي تبناها مباشرة حال وفاة النبي. وبما أن عمر كان مدركاً لمطالب علي، وتذكر أن علياً لم يبايع أبا بكر إلا بعد مضي ستة أشهر، عرف أن علياً لن يوافق أن يجعل مطالبه موضوع مناقشات مجلس الستة ما لم يجبر على ذلك. وبرغم معرفة عمر بطموحات كلّ من الزبير وطلحة، أدرك عمر أن علياً أو عثمان من بين الآخرين هما الأوفر حظاً، وفي الواقع فإنهما الوحيدان اللذان يحوزان على الدعم الضروري لتقديم نفسيهما كمرشحين جدّيين، وكل منهما يؤيده أفراد عائلته، الهاشميين والأمويين.

وأدرك عمر أن علياً يحظى بفرصة أفضل بحسب الخلفيات التي ذكرناها في الفصل الأول. ما عاد الخليفة قادراً على تجاهل حقوق علي في القيادة، وربما أن علي لم يفرض نفسه في مجلس الستة (الشورى)، فإن ذلك يعني كأن عمر أفسح المجال أمام ابن عم النبي ومرشح بني هاشم ليكافح من أجل الوصول إلى الخلافة.[٣٠] ولكن عمر بتعيينه عبد الرحمن بن عوف رئيساً للشورى وبجعل كلمته هي العليا، فإن عمر أغلق الباب بإحكام أمام علي، وضمن فعلياً ترشيح عثمان. وكانت هذه حقيقة كاملة الوضوح فقد أوردها مصادرنا كلها تقريباً بكلمات علي نفسه. فعندما سمع علي بتعليمات عمر وأن عبد الرحمن منح الكلمة الفصل احتج قائلاً لقوم من بني هاشم كانوا معه: "إن أطيع فيكم قومكم لم تؤمروا أبداً. وتلقاه العباس فقال: عدلت عنّا فقال: وما علمك؟ قرن بي عثمان، وقال: كونوا مع الأكثر، فإن رضي رجلان رجلاً، ورجلان رجلاً فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، فسعد لا يخالف ابن عمّه عبد الرحمن، وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفون فيولّيها عبد الرحمن عثمان أو يوليها عثمانُ عبد الرحمن، فلو كان الآخران معي لم ينفعاني، بلْه إني لا أرجو إلا أحدهما."[٣١]

وبهذا الأسلوب وجه عمر ضربة نهائية لمطالب بني هاشم السامية، وذلك بإطلاق يد منافسيهم التقليديين بني أمية لانتهاز الفرصة للوصول إلى القيادة. ورأى الأمويون ذلك من جهتهم فرصة ذهبية، ونظر أبو سفيان بشكل خاص إلى أن اختيار عثمان هو عودة بني أمية جميعهم إلى مركز القيادة وعمل على إحراز الخلافة لعثمان بكل طاقته وموارده.[٣٢]

وقد ورد أن العباس بن عبد المطلب حذر علياً المساهمة في الشورى، وأن عليه أن يحافظ على حريته في العمل،[٣٣] ولكن شروط عمر للشورى منعت علياً من قبول نصيحة عمّه. وتجمع مصادرنا على أن علياً استسلم للأمر الواقع تحت ضغط مباشر، وقد هددوه بالسلاح إذا لم يذعن لوصية عمر.[٣٤] وعندما نتذكر احتجاج علي قبل اثني عشر عاماً ضد ترشيح أبي بكر يوم وفاة النبي، يصبح تقدير خيبة أمل علي العميقة سهلاً، حيث صار يرى للمرة الثالثة شخصاً آخر يفضّل عليه. وهذا ما وصفه في خطبته الشقشقية التي أوردنا جزأها الأول سابقاً: "حتى إذا مضى لسبيله (عمر) جعلها (الخلافة) في جماعة زعم أني أحدهم، فيا لله وللشورى، متى اعترض الريب فيّ مع الأول منهم، حتى صرت أُقرن إلى هذه النظائر (الذين يشبه بعضهم بعضاً دون علي) لكني أسففت إذ أسفوا (استسلم للأمر الواقع ولم يخالفهم) وطرت إذ طاروا؛ فصغى رجل منهم لضغنه (يشير إلى سعد وكان بين علي وسعد ضغينه)، ومال الآخر لصهره (يشير إلى ميل عبد الرحمن إلى عثمان فزوجة عبد الرحمن وهي أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط هي اخت عثمان لأمه) مع هَنٍ وهَنٍ (يشير إلى أغراض أخرى يكره ذكرها) إلى أن قام ثالث القوم نافجاً حضنيه (يقصد عثمان ويصفه بالمتكبر) بين نثيله ومعتلفه، وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضم الإبل نبتة الربيع، إلى أن انتكث عليه فتله (قضى عليه تدبيره) وأجهز عليه عمله، وكبت به بطنته."[٣٦]

ليس من السهل معرفة ما جرى من مناقشات وجدل داخل هذه الشورى التي آلت إلى تعيين عثمان. في غمرة ما وصلنا من روايات ثمة رواية مجمع

عليها وهي في الوقت ذاته مهمة جداً وأكثر الروايات كشفاً لما جرى. ونقرأ فيها أنه بعد ثلاثة أيام من الجدل المستمر والتشاجر، وحين تجمع الناس في المسجد لصلاة الفجر تجمهر المسلمون لسماع قرار لجنة اختيار الخليفة عرض عبد الرحمن بن عوف الخلافة على علي بشرطين: الأول أن يعمل بالقرآن وسنة النبي، والثاني أن يتبع سيرة الخليفتين (الشيخين). وقبل علي الشرط الأول، وأبى أن يلتزم بالثاني، وأعلن أنه حين لا يجد حكماً في القرآن أو في سنة النبي ثم "على جهدي من ذلك وطاقتي" عندئذٍ استدار عبد الرحمن بن عوف إلى عثمان ووضع أمامه الشرطين عينهما، فأجاب عثمان فوراً بالإيجاب، فأعلنه خليفة.[٢٧] وقد صارت هذه النقطة (الشرط الثاني) أساس الخلاف في الفقه بين السنّة والشيعة. حيث رفض فقهاء الشيعة قرارات الخلفاء الثلاثة الأول.

هذه الرواية تحمل صفة إجماع المؤرخين من سنة وشيعة، وبالتالي من الصعب جداً مساءلة مصداقيتها كما فعل بعض الباحثين. وإذا كان المتكلمون السنّة المتأخرون حاولوا تجاهلها، فإن ذلك يعود إلى حقيقة جديدة تصالحية وجدت فيما بعد وتقضي بقبول اجتهادات الخلفاء الأربعة الراشدين، واعتبار قراراتهم سوابق لتأسيس مفهوم "الجماعة" وبعيداً عن البرهان التاريخي، فإن العامل المقنع للبرهان على مصداقية هذه الرواية هو طبيعة علي الاستقلالية المشهورة.

وعندما نحاول توضيح الخصال المميزة لعلي منذ إسلامه وحتى وفاته نجد الخصال التالية. كان لا يساوم على المبادئ، ومستقيماً وفوق كل شيء صارماً في مواقفه الدينية؛ وتلك هي العوامل التي ربما ساهمت في الفشل

الأخير أيام خلافته. كانت هذه الخصال مسيطرة على عمله أبداً. وليس من الضروري هنا العودة إلى تفاصيل ترجمة حياته، لكن أفضل تعبير عن استقلالية موقفه يمكن أن نجده في أمثلة عديدة مثل إصراره على إقامة الحد (معاقبة) على عبد الله بن عمر على قتله الهرمزان. وفي مناسبة أخرى حين رفض الجميع إقامة الحد على الوليد بن عقبة لتعاطيه الخمر وجلده علي بنفسه. ولعل أفضل مثل هو تمسكه بقراره حين عزل معاوية وجميع الولاة الأمويين الذين استعملهم عثمان وكان المقربون منه قد نصحوه بالتريث حتى يضمن قوة خلافته.

وكما شرحنا سابقاً، فحتى خلال فترة نشاط علي العام كانت هناك نقاط خلاف جديّة بينه وبين الخليفتين أبي بكر وعمر. لقد عارض علي بقوة تدوين عمر الدواوين ونصحه بتوزيع كامل الموارد وبعدم الاحتفاظ بشيء، ولم يقبل عمر ذلك. ولم تكن هذه هي المرة الوحيدة التي اختلف فيها مع الخليفتين، بل شمل الخلاف نقاطاً إدارية ومالية عديدة أشارت إليها المصادر التاريخية. لقد حفظ لنا نصر بن مزاحم المنقري (توفي ٢١٢ هـ ـ ٨٢٧ م)، وهو أحد الكتّاب الأوائل الهامّين والثقات، المراسلات المتبادلة بين علي ومعاوية التي تكشف الكثير من القضايا. في إحدى رسائل معاوية لعلي لا يكتفي معاوية بتحميل علي مسؤولية اغتيال عثمان فقط، والتي هي مضمون الرسالة الرئيسي فحسب، بل واجهه باتهامات أخرى أيضاً. لقد اتهمه بالثورة على أبي بكر حين تخلف عن مبايعته، وحين لم يتعاون مع الخليفتين أبي بكر وعمر بل وخلافه المستمر معهما.[٤٢] وفي جواب علي لمعاوية على تلك الرسالة يجادل بأن تأخره في

مبايعة أبي بكر كان بسبب حقيقة أنه اعتبر نفسه مؤهلاً لقيادة الأمة أكثر من أبي بكر للأسباب والأسس التي واجه بها الأنصار ورأى أبو بكر نفسه مؤهلاً للقيادة ثم رفض الاتهامات الأخرى. وذلك أنه، إذا كانت حجة أبي بكر هي قرابته بالنبي، فإن بني هاشم أقرب منه وحقهم أوضح.

وكان عبد الرحمن بن عوف يعرف هذه الاختلافات بتفاصيلها، ويعرف أيضاً طبيعة شخصية علي الاستقلالية. ولكن الآن، وبعد وفاة هؤلاء الثلاثة أبي بكر وعمر وأبي عبيدة بن الجراح ذوي الشخصيات القوية المسيطرة لم يكن باستطاعة عبد الرحمن تنحية علي جانباً بدون حجة قوية تجاه منافسيه (أو منافسه الأوفر حظاً عثمان)، الذين كانوا دونه قيمة من نواحٍ كثيرة. واحتاجت عملية إقصائه إلى تعيينه في لجنة الشورى حيث لا يحظى بتأييد غالبية كافية، وعرضت عليه الخلافة ضمن شروط كافية لكي يرفضها.

كان عثمان رجلاً ضعيفاً، وإلى جانب علاقاته بأفراد عائلته (الأمويين) وصداقاته، فإن ضعفه كان على الأغلب هو ما جعل عبد الرحمن يدعم اختياره. كان عبد الرحمن باختياره رجلاً للخلافة وهو يعرف مدى ضعفه أن يجعله يعتمد عليه وبالتالي يخدم مصالح الأرستقراطية القرشية وأغنيائهم. أما علي الذي ينتمي إلى طبقة الفقراء الزهاد، فلا تربطه مصالح حقيقية بطبقة عبد الرحمن وأمثاله، وكثيراً ما نقل عنه إدانات قوية لنعيم الدنيا يقول مثلاً: "يا دنيا غري غيري."[٤٤] وعلى نقيض علي كان عبد الرحمن وأعضاء الشورى الآخرون على مستوى عالٍ من الغنى والسعة وبعد فتح أراضي الإمبراطورية الفارسية ومعظم أراضي

الإمبراطورية البيزنطية كان هؤلاء يطمحون لاستغلال الفرص الجديدة الهائلة التي فتحت أمامهم. وقد وفّرت لهم خلافة عثمان الفرصة، فخلال سنوات قليلة جمع هؤلاء ثروات طائلة، وصاروا أكثر المسلمين غنى. فقد خلّف عثمان عند موته ثروة من ١٠٠٠٠٠ دينار ومليون درهم وعقارات قدرت بـ ١٠٠٠٠٠ دينار بالإضافة إلى قطعان الخيل والإبل. كذلك قدرت ثروات عبد الرحمن وطلحة وسعد بن أبي وقاص بالملايين.[٤٥] وهكذا، فإلى جانب العلاقات العائلية، والسياسات الحزبية، كان من الطبيعي أن يختار هؤلاء رجلاً يمثل مصالح طبقتهم.

لم يمر اختيار عثمان للخلافة بدون احتجاج علي القوي، ومعارضة من مؤيديه الأشداء. وإلى جانب النزاع القديم بين بني هاشم وبني أمية الذي يعود إلى زمن هاشم بن عبد مناف وعمه عبد شمس حول قيادة قريش الدينية والسياسية، فإن المرء يستطيع أن يتصور مشاعر بني هاشم الآن حين آلت القيادة التي أسسها محمد الهاشمي إلى أموي. لقد أظهرت الخطب والأعمال المتبادلة بين مؤيدي علي ومؤيدي عثمان عندما تم اختيار عثمان للخلافة أظهرت الموقف السياسي، بل ومسارات التفكير والاختلافات الأساسية وأساليب معالجة القضايا المختلفة. خاطب ابن أبي سرح الأموي سيء السمعة، وطريد النبي:[٤٦] عبد الرحمن مؤيداً بحماس اختيار عثمان قائلاً: " إن أردت ألا تختلف قريش فبايع عثمان" فأجابه عمار بن ياسر المؤيد المتحمس لعلي مذكراً إياه بمعاداته للإسلام قائلاً: "متى كنت تنصح المسلمين؟"[٤٧] وتبع ذلك تبادل الخطب بين الهاشميين والأمويين. وفي هذا المقام فإن من المهم إمعان النظر في تصريح عمار

التالي: "أيها الناس لقد أكرمنا الله بنبيّه، وأعزنا بدينه، فأنى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم." فأجابه أحد بني مخزوم مناوئي بني هاشم غاضباً بقول: "لقد عدوت طورك يا ابن سميّة – وكان عمار من عرب الجنوب من اليمن – وما أنت وتأمير قريش لأنفسهم." [48] وكان احتجاج المقداد لصالح علي أقوى وأشد، قال: "ما رأيت مثل ما أوتي إلى أهل هذا البيت بعد نبيّهم. إني لأعجب من قريش أنهم تركوا رجلاً ما أقول إن أحداً أعلم ولا أقضى منه بالعدل؛ أما والله لو أجد عليه أعواناً." فقال عبد الرحمن بن عوف: "يا مقداد اتق الله، فإني خائف عليك الفتنة." فقال رجل للمقداد: "رحمك الله! من أهل هذا البيت ومن هذا الرجل؟ فقال: أهل البيت بنو عبد المطلب والرجل علي بن طالب." [49] وربما يجب أخذ هذه الاحتجاجات القليلة المتبقية لنا على أنها وثائق جديّة لا مجرد مخاطبات حماسية: إنها متفرقات تخبرنا عن الاتجاهات الفكرية والسياسية في هذه الفترة الخطيرة من تاريخ الإسلام. وما يجب ملاحظته هنا هو استخدام مصطلح "أهل البيت" وعلاقته بالقيادة (الخلافة). كما يجب تذكر أهمية العائلات النبيلة ومفهوم النسب الديني عند بعض العرب، كما شرحناه في الفصل الأول وعندها يصبح من السهل فهم كيف اضطرب بعض الناس حين أُقصي أهل بيت النبي عن مركز القيادة بعد وفاة النبي.

القضية الهامة جداً التي يمكن النظر بها هي رفض علي اتباع سابقات الخليفتين الأولين. شكل هذا الرفض: التطور المبكر والأكثر أهمية في تميز مدرستين فقهيتين: شيعية بما في ذلك جميع فروعها من الثنى عشرية

وإسماعيلية وزيدية وسنيّة بفروعها الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية وغيرها من الفروع المنسيّة. إذا كان من الواجب تأريخ الاختلافات الأيديولوجية منذ حدث السقيفة، فإن الاختلافات الفقهية والكلامية يجب تأريخها منذ حدث الشورى حيث رفض علي اتباع سابقات الشيخين. وهذا الرفض يشكل حجر الزاوية في تطور الفكر الفقهي (القانوني) عند الشيعة. إن دراسة تاريخ الأفكار تخبرنا أن فكرة ما تحتاج غالباً إلى زمن طويل لكي تأخذ صيغتها الكاملة والنهائية، والفكرة التي عبّر عنها علي في تلك الشورى استغرقت خمسين عاماً على الأقل حتى ظهرت بصيغة مستقلة ومميزة، ولم يكتمل تطورها حتى عهد إمامة الإمام جعفر بن محمد الصادق.

وختاماً لهذا الفصل فإن بمقدورنا أن نقرر أن اختيار عثمان بني بشكل أساسي وواسع على اعتبارات اقتصادية واجتماعية وقبلية، كما شهدت الخطب التي القيت نيابة عنه. ومن جهة أخرى فإن الاحتجاجات ضد تسمية عثمان وتأييداً لعلي التي عرضها رجال مثل عمّار والمقداد كانت إلى حدٍّ بعيد مبنيّة على توق وطموحات دينية. هذه الاحتجاجات والطموحات التي عبر عنها مؤيدوعلي من خلال التذكير بقرابته بالنبي والخدمات التي قدمها للإسلام هي في الواقع العملي صدى البيانات التي أُعلن عنها تأييداً لعلي يوم السقيفة قبل أكثر من عقد من الزمن. وبرغم موقف علي السلبي وانزوائه يومئذٍ فإنه بقي يتمتع بتأييد وإخلاص العديد من الرجال المسلمين.

ملاحظات الفصل الثالث

١- لمعرفة مساهمة علي الفعّالة والمستمرة في خدمة الإسلام وتقدمه خلال حياة محمد انظر سيرة ابن هشام فهي أكثر المصادر مصداقية وأوسعها.

٢- هذا التضاد شرحته فيشيا فيغليري في مقالها في دائرة المعارف الإسلامية الطبعة الأولى بعنوان "علي" E

٣- الطبري ج١ ص ١٨٢٧، والبلاذري ج١ ص ٥٨٨

٤- انظر مثلاً الاستيعاب ج٣ ص ١١٠٤ ومن المصادر الشيعية المجلسي، بحار الأنوار ج٨ ص ٥٩ والاحتجاج ج١ ص ١٠٢

٥- فيغليري ملاحظة رقم ٢

٦- من المصادر الاثنى عشرية انظر أصول الكافي وفروعه، ومن المصادر الإسماعيلية انظر دعائم الإسلام للقاضي النعمان بن محمد

٧- بعض الدارسين يشكون بمصداقية نهج البلاغة، وقالوا أن الشريف الرضي كتبه ونسبه لعلي. وهذه التهمة لا أساس لها من الصحة كما كشفت عنها بحوثي. فقد مات الشريف الرضي الذي جمع نهج البلاغة عام ٤٠٦ هـ ١١١٥ م ولكن معظم مواد نهج البلاغة – وقد دققتها كلمة بكلمة – موجودة في مصادر كتبت منذ فترة طويلة قبل الشريف الرضي، وهذه المصادر تتضمن نصر بن مزاحم المقري، وقعة صفين. تاريخ اليعقوبي. الجاحظ في البيان والتبيين. والكامل للمبرد، وأنساب الأشراف للبلاذري ومصادر أخرى من القرون الأول والثاني والثالث والرابع الهجرين. وإني أعدُّ الآن ترجمة لنهج البلاغة وفيها سوف أحلل وأناقش هذه المصادر.

٨- كان لحيان إمارة في اليمامة وقد استبقى الشاعر الأعشى من بني قيس تحت رعايته وعنايته. وبعد وفاة حيّان فقد الأعشى ما كان يتمتع به، وأصابه الفقر، وصار ينتقل من مكان لآخر. وباقتباس علي لبيت الأعشى أراد أن يقارن وضعه أيام الرسول بوضع الأعشى عند حيان وبوضعه بعد وفاة

النبي بوضع الأعشى بعد وفاة حيان. انظر شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد ج١ ص١٦٦

٩- نهج البلاغة، تح محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة ١٩٦٣ ج١ ص ٢٩ وفي المصادر ما قبل الشريف الرضي، انظر شرح النهج لابن أبي الحديد ج١ ص ٢٠٥، وأبو جعفر أحمد بن محمد (توفي ٢٧٤ هـ ـ ٨٨٧ م) كتاب المحاسن، وإبراهيم بن محمد الثقفي (توفي ٢٩٣ هـ ـ ٨٩٦ م) كتاب الغارات. وانظر أبا علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي (توفي ٣٠٣ هـ ـ ٩٠٥ م) وأبو القاسم البلخي (توفي ٥٠٢ هـ ـ ١١٠٨ م) كتاب الانصاف حيث اقتبس الجميع هذه الخطبة. وانظر أيضاً الصدوق (توفي ٣٨١ هـ ـ ٩٩٠ م) علل الشرائع ص ٦٨ ومعاني الأخبار ص ١٣٢، والمفيد (توفي ٤١٣ هـ ـ ١٠٢٢ م) الإرشاد ص ١٦٦، والطوسي (توفي ٤٦٠ هـ ـ ١٠٦٧ م) الأمالي ص ٢٣٧

١٠- ابن سعد ج٢ ص ٣١٤، ابن هشام ج٣ ص ٣٢٥، اليعقوبي ج٢ ص ١٢٧، الاستيعاب ج٢ ص ٥٧١ وفيفليري مثال "فدك" دائرة المعارف الإسلامية الطبعة الثانية.

١١- روايات متعددة في طبقات ابن سعد ج٢ ص ٣١٤ وصحيح البخاري ج٢ ص ٤٣٥ وتجد موقف الشيعة في اليعقوبي ج٢ ص ١٢٧ والأميني أعيان الشيعة ج٢ ص ٤٦١

١٢- رسائل الجاحظ تح. ساندوبي من كتابه في العباسية ص٣٠٠

١٣- الطبري ج١ ص ١٨٢٥ البخاري ج٥ ص ٢٨٨ وابن سعد ج٨ ص٢٩ والمسعودي التنبيه ص٢٨٨ ابن حجر الصواعق المحرقة ص١٢

١٤- انظر رواية الطبري كاملة ج١ ص٢١٣٧ واليعقوبي ج٢ ص١٣٦ وشرح النهج ج١ ص١٦٣

١٥- اليعقوبي، والطبري ج١ ص٢١٣٨ والعقد الفريد ج٤ ص٢٦٧ باختلاف طفيف

١٦- الطبري ج١ ص٢١٣٧ واليعقوبي، وشرح النهج ج١ ص١٦٤ وانظر أيضاً الكامل للمبرد

١٧- المسعودي، مروج ج٢ ص٣٣٢

١٨- فيلغيري. المقال بعنوان "علي" دائرة المعارف الإسلامية طبعة ١ E

١٩- الطبري ج١ ص٢٧٦٩

٢٠- القرآن سورة محمد آية ٩

٢١- القرآن سورة الأحزاب آية ٣٣

٢٢- الطبري ج١ ص ٢٧٧٠

٢٣- أبو عبيدة بن الجراح الذي حظي بثقة مطلقة من عمر بن الخطاب توفي بالطاعون سنة ٦٣٩ م

٢٤- ابن سعد ج٣ ص٦١ وص٣٣١ والبلاذري ج٤ ص١٦ واليعقوبي ج١ ص١٦٠ والطبري ج٢ ص٢٧٧٨ والمسعودي التنبيه ص١٦٣ وص١٨٥ والعقد الفريد ج٤ ص٢٧٥

٢٥- الاستيعاب ج٤ ص١٦٩٧ – ١٦٩٩ والتهذيب ج٣ ص٤١٤

٢٦- ابن سعد ج٣ ص٣٤١ والبلاذري ج٥ ص١٨ واليعقوبي ج٢ ص١٦٠ والطبري ج١ ص٢٧٧٩ والمسعودي تنبيه ص٢٩١ والعقد الفريد ج٤ ص٢٧٥ وشرح النهج ج١ ص١٨٧

٢٧- انظر الرواية بأسانيد مختلفة في الطبري والبلاذري بينما ينقل ابن سعد عن الواقدي الذي كان عثمانياً ويطابق رواية أبو مخنف الشيعي وكذلك روايات عبد الله بن عمر وابن عباس.

٢٨- دراسات studies عدد١ ص ٨٠-٩٩ مجلة

٢٩- ابن سعد ج٣ ص٣٤٤ والبلاذري ج٥ ص١٦-١٨ والطبري ج١ ص٢٧٧٨ والعقد الفريد ج٤ ص٢٧٥

٣٠- انظر مباحثات عمر مع أعضاء الشورى وبخاصة مع علي وعثمان الطبري ج١ ص٢٧٧٩ والبلاذري ج٤ ص١٦ وأقدم المصادر في هذا الموضوع هو تاريخ الخلفاء يروي الرواية ذاتها عن عمر وأعضاء اللجنة

ويشير إلى إدراك حقوق علي وليس قبولها وانظر آبوت. دراسات عدد١ ص٨١ وابن سعد ج٣ ص٦٢ و٣٣٩ حيث هناك رواية متأخرة تنطوي على تغيرات هامة على حساب علي.

٣١- البلاذري ج٤ ص١٩، الطبري ج١ ص٢٧٨٠، والعقد الفريد ج٤ ص٢٧٦ وشرح النهج ج١ ص١٩١

٣٢- الأغاني ج٦ ص٣٣٤

٣٣- البلاذري ج٥ ص١٩ والطبري ج١ ص٢٧٨٠ والعقد الفريد ج٤ ص ٢٧٥

٣٤- البلاذري ج٤ ص٢١ والطبري ج١ ص ٢٧٧٩

٣٥- مثلاً "حين لا تصح مقارنتي بأبي بكر وعمر فكيف تصح مع سعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وعثمان"

٣٦- انظر ملاحظة رقم ٨

٣٧- البلاذري ج٥ ص٢٢ واليعقوبي ج١ ص ١٦٢ والطبري ج١ ص٢٧٩٣ والعقد الفريد ج٤ ص٢٧٩ وشرح النهج ج١ ص١٨٨ و١٩٤

٣٨- البلاذري ج٥ ص٢٤ والطبري ج١ ص٢٧٩٦

٣٩- البلاذري ج٥ ص٣٣ والمسعودي مروج ج٣ ص٢٢٥

٤٠- الطبري ج١ ص٣٠٨٢ و٣٠٨٥ الدينوري أخبار ص١٤٢ والمسعودي مروج ص٣٥٣ واليعقوبي ج٢ ص١٨٠

٤١- فيفليري مقال "علي" دائرة المعارف الإسلامية طبعة ٢

٤٢- المنقري وقعة صفين ص٨٧

٤٣- سابقه ص٨٩

٤٤- ابن خلدون، المقدمة ص٤٥٢ والعقد الفريد ج٤ ص٣١٣ والمسعودي مروج ج٢ ص٣٣٢

٤٥- لمعرفة ثروة كل منهم انظر مقدمة ابن خلدون والمسعودي مروج ج٢ ص٣٣٢

٤٦- البلاذري ج٥ ص٤٩ والطبري ج١ ص٢٨٧١

٤٧- الطبري ج١ ص٢٧٨٥

٤٨- سابقه

٤٩- الطبري ج١ ص ٢٧٨٦ والعقد الفريد ج٤ ص٣١٣

الفصل الرابع

انبعاث حزب علي من جديد

تعتبر الستة عشر عاماً، منذ بداية خلافة عثمان ٢٤هـ ٦٤٤م وحتى اغتيال علي ٤١هـ ٦٦١م فترة خلاف ظاهر ومتواصل منذ خلافة أبي بكر وعمر على صعيد تطور الإسلام الشيعي. لقد كانت فترة تحوّل من عدة جهات:

١- أوجدت هذه الفترة مناخاً شجع الميول الشيعية لتصبح أكثر وضوحا وتميزاً.

٢- سمحت الأحداث التي حصلت خلال هذه الفترة للشيعة بالقيام بدور فعّال وأحياناً عنيف، وقد كان قبلها خامداً.

٣- وأخيراً أتاحت الظروف السائدة خلال هذه الفترة لوجهة النظر الشيعية ولأول مرة أن تعبّر عن موقفها في العديد من الاعتبارات السياسية والجغرافية والاقتصادية. وبالتالي، كانت هذه الفترة فرصة مناسبة للشيعة الأوائل كي يعبروا عن أفكارهم فيما يخص خلافة علي، وحماس الصحابة الديني، والأحقاد الشخصية والاهتمامات الاقتصادية ومصالح الولايات، والمؤامرات السياسية، وعدم رضى الفقراء عن الأغنياء، وكل ذلك حدث في وقت واحد. لم يتح اندفاع هذه الأحداث جميعها مناخاً جديداً لنشاط الحركة الشيعية فحسب، ولكنه وسّع دائرة تأثيرها إلى أولئك المحتاجين إلى متنفس للتعبير عن آلامهم ومعاناقم السياسية، وبخاصة خصوم معاوية الذي مثّل الأرستقراطية الأموية والسيطرة السورية.

فقد رأى هؤلاء في علي بطل الاستقلال السياسي للعراق باعتباره معارضاً لسيطرة سورية، وأيد هؤلاء علياً، وكانوا لبعض الوقت على المستوى من الحماس الذي اتصف به مؤيدوه الدينيون الذين آمنوا بحقوقه في الخلافة المبنيّة على أساس قناعة دينية. وتميز انبعاث الشيعة السياسية من خلال ازدياد نفوذها وعددها والسرعة المفاجئة في نموها. ودراسة فترة هذا الانبعاث ستقدم لنا فهماً عميقاً وواضحاً للانقسام الذي تطور في جسم الأمة الإسلامية.

لم يمنح أبو بكر وعمر أقاربهم أي نصيب خاص في حكم الجماعة الإسلامية (لم يحابياهم)، ولم يترتب على خلافتهما أية عواقب سياسية لمصلحة أقاربهم. ولكن لم تكن حالة عثمان كحالتهما. فلقد أراد أقارب عثمان الأمويون استعادة دورهم السياسي بعد أن وضعهم انتصار محمد في الصف الثاني من الأهمية بعد الهاشميين. وعندما تم اختيار عثمان للخلافة اعتبر الأمويون ذلك نصراً لهم جميعاً وليس نجاحاً لعثمان وحده. واعتبروا أن من الطبيعي أن يمنحهم الخليفة الجديد نصيباً من المنافع، وألاّ يرفض مطالبهم، واعتبر عثمان أن قوته تعتمد على تأييد أقاربه ونصائحهم. لذلك فعل كل ما يرضي مطالبهم، وخاب أمل المسلمين وتألموا حين وجدوا الخليفة الجديد ملتزماً بتحسين أحوال عائلته ومن يلوذ بها وليس الأمة الإسلامية بكاملها. ولم يُخف عثمان تفضيله لأقاربه، وبرّر ذلك بقوله: "إن رسول الله كان يعطي قرابته، وأنا في رهط أهل عيلة، وقلّة معاش، فبسطت يدي في شيء من ذلك المال، لمكان ما أقوم به فيه، ورأيت أن ذلك لي." [٢]

ومن الحقائق التاريخية المعروفة أنه بعد وصول عثمان إلى الخلافة صار الأمويون ولاة كلٍّ من الكوفة، والبصرة (وهي عاصمة منطقة واسعة جداً تتضمن إيران وآسيا الوسطى حتى السند)، وسورية، ومصر وهي الولايات الأكثر أهمية في الإمبراطورية. وهؤلاء الولاة اعتمدوا على أقاربهم في إدارة ولاياتهم، كما هي الحال في المقربين إلى الخليفة عثمان.[٣] ولم تكن المشكلة في تولية هؤلاء الولاة، بل في السماح لهم في استخدام صلاحياتهم بتسلط وظلم لتحقيق أغراضهم الشخصية وكذلك مصالح ذوي قرباهم، مما أجج امتعاض وكراهية كثير من المسلمين. فقد كان عبد الله بن سعد بن أبي سرح أخو عثمان بالرضاع والياً على مصر، وكان هناك مكروهاً جداً، وهو الذي أمر الرسول بقتله يوم فتح مكة.[٤] أما الوليد بن عقبة أخو عثمان فكان أيضاً مكروهاً في ولايته الكوفة لمعاملته الكوفيين بقسوة ووحشيّة. فقد وزع الأراضي على أتباعه، وأدمن الخمر.[٥] فاستدعاه عثمان مكرهاً وعين مكانه أحد أقاربه المقربين سعيد بن العاص الذي أغضب وجهاء الكوفة وهددهم بأن سواد الكوفة سيصبح "بستان قريش" فاحتج على هذا التعسف قراء القرآن ومنهم مالك بن الحارث النخعي وسليمان بن صرد الخزامي، وحجر بن عدي الكندي وشريح بن عوف العبسي وآخرون، ولكن احتجاجهم ذهب دون جدوى. وبدلاً من تقصي المشكلة أمر عثمان بإرسال المحتجين إلى معاوية في دمشق كي يتعامل معهم.[٦]

ويجب الاهتمام بأسماء هؤلاء القراء المشهورين حيث أنهم سيصيرون فيما بعد من قادة الشيعة في الكوفة. وكانوا في مقدمة جيش علي في معركتي

الجمل وصفين، وحتى بعد اغتيال علي لم يصالحوا معاوية. وعلى المستوى ذاته فإن قراء مصر والبصرة لم يكونوا أقل عنفاً وشكوى من تسلط ولاتهم وإطلاق عثمان أيديهم في معاملة الناس. كان الصدام بين القراء وولاتهم هو الذي أوقد حماس المتدينين ضد عثمان في هذه الولايات. ويجب التنويه هنا إلى أن مصطلح القراء الذي ورد في المصادر التاريخية يعني أولئك الذين اشتهروا بتعليم قراءة القرآن وأنهم العلماء في الأمور الدينية. وبالتالي، فقد نالوا قدراً عظيماً من التبجيل بين عامة الناس وصاروا بمثابة الانتلجنسيا (جمهور العلماء القادة). [٧]

بالإضافة إلى تعيين أقارب عثمان في حكم الولايات ذات الموارد الوفيرة، فإن عثمان أعطى مالاً كثيراً لآخرين من بيت مال المسلمين. وعامل صحابة النبي معاملة قاسية. فقد استدعى عبد الله بن مسعود وكان خازن بيت المال في الكوفة بعد مشاجرة مع الوليد بن عقبة (الوالي) إلى المدينة وسمح بضربه في مجلسه. [٨] وأكثر من ذلك كانت معاملته لعمار بن ياسر فقد شتمه وأمر بضربه حتى أغمي عليه حين وصل المدينة قادماً من مصر حاملاً رسالة شكوى ضد ابن أبي سرح. [٩]

خلال السنوات القليلة الأخيرة من حكم عثمان كان معظم السكان يشتعلون غضباً حين رأوا علية بني أمية يشغلون المناصب العليا يستمتعون بالثروة والترف، وينغمسون في المجون، ويبذرون الثروات الطائلة التي استولوا عليها بأساليب غير شرعية. وهذا ما أدى إلى التفاوت في البنية السكانية من النواحي الاجتماعية والاقتصادية، مما حرّك حسد مختلف فرقاء السكان وزودهم بأسباب الانفجار وكان أحد قادة النقد الموجه إلى

نظام عثمان هو أبو ذر الغفاري مؤيد الحياة البسيطة، والجسور والتقي الزاهد، الذي احتج بعنف على تكديس الثروة في أيدي قلة من الأمويين وطالب بتوزيع عادل للثروة والأرض بين جميع المسلمين. فقابله عثمان الذي كره أفكار أبي ذر الذي هدد وأوعد المترفين في مسجد المدينة، بأن أرسله إلى سورية. ولم تمض مدة طويلة حتى تلقى عثمان رسالة من معاوية يتذمر فيها من نشاطات أبي ذر الخطيرة قائلاً: "إنك قد أفسدت الشام على نفسك بأبي ذر." فكتب إليه عثمان أن أحمله على قتب بغير غطاء، فقدم إلى المدينة، وقد ذهب لحم فخذيه ينازع الموت، ثم نفاه عثمان إلى الربذة مسقط رأسه حيث توفي هناك. [10] وانتشرت حكاية معاملة عثمان لأبي ذر في مختلف الولايات، مما أجج مرارة مشاعر الناس على عثمان وطبقة الأغنياء، واتسعت الدعوة إلى حقوق علي في الخلافة.

إن خطب أبي ذر المتكررة في مسجد المدينة تثير الاهتمام، فقد تعود أبو ذر جمع الناس حوله ويخطب بهم قائلاً: " وعلي بن أبي طالب وصي محمد ووارث علمه، أيتها الأمة المتحيرة بعد نبيها، أما لو قدّمتم من قدّم الله، وأخّرتم من أخّر الله، وأقررتم الولاية والوراثة في أهل بيت نبيّكم لأكلتم من فوق رؤوسكم ومن تحت أقدامكم، ولما عال ولي الله، ولا طاش سهم من فرائض الله، ولا اختلف اثنان في حكم الله، إلا وجدتم علم ذلك عندهم من كتاب الله وسنّة نبيّه، فأما إذ فعلتم ما فعلتم، فذوقوا وبال أمركم، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون." [11]

وعلينا هنا أن نخالف رأي الكتّاب الذين صوّروا الثورة على عثمان بأنها مكائد شيطانية رتّبها الموالي، وتظلمات مزيفة نشروها. لقد تجاهل هؤلاء

الكتاب حقيقة أن هذه الشكاوى والمكائد -إذا كانت كما وصفوها- تتضمن معاناة كافية للاحتجاج وتأييداً من طرف الصحابة لاتخاذ قرارات ضرورية حاسمة من طرف عثمان. فلكي يتطور احتجاج ما إلى عصيان يحتاج إلى شيئين ضروريين: قيادة تتمتع باحترام في المجتمع ووقت كاف لتنظيم واستغلال الفرصة المناسبة للقيام بعمل متفق عليه. وقد توفر هذان العاملان في السنوات الأخيرة من خلافة عثمان. [١٢] فقد أصبح موقف كبار الصحابة مثل علي وطلحة والزبير واضحا جداً. فهناك روايات وفيرة تؤكد أن الصحابة وبخاصة الثلاثة المذكورين رفعوا أصواهم معارضين أساليب عثمان. وعلاوة على ذلك فإن عبد الرحمن بن عوف (توفي ٣٢هـ ٦٥٢م) الذي قام بالدور الأهم في اختيار عثمان للخلافة أقر بأن عثمان خالف ما تعهد به أثناء عملية الاختيار، وذلك قبل انفجار الموقف ضد عثمان بوقت طويل. [١٣] حتى وإن كنا لا نتفق مع الروايات التي تذكر أن هؤلاء الصحابة بعثوا برسائل إلى الولايات أو أهم حرضوا على عثمان بطريقة منظمة، فإن الحقيقة تبقى قائمة وهي أهم لم يخفوا وجهات نظرهم وتأييدهم للثائرين.

كان موقف علي في غاية الوضوح في هذه الفترة تجسده ردة فعله على العقوبة التي فرضها عثمان على أبي ذر. فعندما أمر عثمان بنفي أبي ذر، أصدر أمراً حاسماً بالاّ يودعه أحدٌ سوى مروان بن الحكم الذي تكلف بضمان إخراجه من المدينة. وبرغم أوامر عثمان فقد خرج علي والحسن والحسين ومؤيدهم عمار بن ياسر ورافقوا أبا ذر لمسافة ليست قصيرة. وعندما قال مروان لعلي: "إن أمير المؤمنين قد نهى أن يكلمه أحد، رفع

علي السوط فضرب وجه ناقة مروان، وقال: تنح، نحّاك الله إلى النار. [١٤]
وعندما حانت لحظة الوداع بين أبي ذر وعلي ومرافقيه نظر أبو ذر إلى علي ثم قام إليه فقبل يده ثم بكى فذهب علي يقول له: يا أبا ذر إنك غضبت لله فارج من غضبت له. إن القوم خافوك على دنياهم، وخفتهم على دينك، فاترك في أيديهم ما خافوك عليه، واهرب منهم بما خفتهم عليه. فما أحوجهم إلى ما منعتهم. وما أغناك عمّا منعوك... فلو قبلت دنياهم لأحبوك، ولو قرضت منها لأمّنوك." [١٥]

ونقل مروان الواقعة كاملة لعثمان الذي استشاط غضباً لمخالفة أوامره. وعندما سأل علياً عن الواقعة أجاب علي بأنه غير ملزم بطاعة أوامر لا تتناسب مع الأدب والعدل. "أوكلما أمرت بأمر معصية أطعناك فيه... قال عثمان: لما لا يشتمك؟ (أي مروان بن الحكم) كأنك خير منه! قال علي: أي والله ومنك. حقي وفضائلي أبعد وأعظم منك، وأنا خير منك." [١٦] وقد استخدم مؤيدو علي هذه الحقوق والفضائل كثيراً في مجادلاتهم. وقد عبّر الشاعر سيد الحميري عن عمق تشيعه من خلال تكراره ذكر هذه الخصال في علي.

بعد أن بايع علي أبا بكر وخليفته، وبالتالي ضعف حزب مؤيديه الأوائل، بقي علي بعيداً عن نشاطات الحكم حتى نهاية خلافة عمر كما ذكرنا سابقاً. وقد أوضح الاحتجاج الذي أعقب اختيار عثمان للخلافة أن ترشيح علي للخلافة كان يحظى بتأييد العديد من الرجال، لكن هؤلاء المؤيدين تصرفوا بطريقة فردية ولم يشكلوا جماعة خاصة متحدة. وحينما قبل معظم المسلمين خلافة عثمان، توقفت احتجاجات المقداد وعمّار

برغم أن سخطهم استمر. وحالما بدأ عثمان يفقد بالتدريج تأييد غالبية المسلمين، انطلق مؤيدو علي فوراً يشرحون معاناتهم، ويدعون الناس لإطلاق رغباتهم في تأييد مبايعة علي. وبدأ تأييد مرشح الهاشميين من جديد حين بدأت المجموعة الساخطة على سياسة عثمان تتجمع في مراكز بعيدة احتاجت إلى قائد مؤثر ومقبول. وبرغم أن طلحة نال تأييد الكوفيين، والزبير حظي بتأييد البصريين فإنهما بقيا متخلفين عن علي، ويبدو أن التأييد الذي نالاه كان محدوداً في طبيعته. ووجد علي نفسه محاطاً بمجموعات المحتجين القادمين من مختلف الولايات حيث دعاه هؤلاء لتأييد مطالبهم، وفي الوقت عينه دعا عثمان علياً وناشده أن يتوسط بينه وبين المحتجّين. وربما وجد علي نفسه مضطراً بدعوى العدل، فلم يجد أمامه أي خيار سوى أن يهب للدفاع عن الصحابة الذين ازدراهم عثمان، ويطالب بمعاقبة الملوم. وقد كان هو نفسه استنكر الهبات المبالغ بها التي منحها عثمان لأقاربه. وأثناء هذه الثورة حثّه القراء على التحدث باسمهم، وقد فعل لتحقيق مطالب الناس العادلة من جهة، ولإنقاذ الخليفة من مصاعبه من جهة أخرى.[١٧]

وعملت مجموعتان مختلفتان في الظاهر، وخدمت كل منهما أهداف الأخرى تلقائياً وإن يكن من غير وعي. وتمثلت الأولى في المجموعات الساخطة على إدارة عثمان في الولايات، وقد تولد سخطها من غياب العدل والمساواة في المعاملة من حيث بنية الإمبراطورية الاقتصادية؛ أما الأخرى فهي المجموعة الموالية لعلي. وكانت قيادة هذه المجموعة مؤلفة من أبي ذر الغفاري وعمار بن ياسر والمقداد بن الأسود الكندي وحذيفة بن

اليمان والعديد من الأنصار، وضمت عدداً من الناشطين الجدد أمثال كعب بن عبدى النهدي ومالك بن حبيب الثعلبي ويزيد بن قيس الأرحبي.[18] وضمّت أيضاً الهاشميين وأصحاب علي وخدمه، ومنهم قنبر بن كدام[19] وميثم بن يحيى التمّار ورُشيد الحجري. ونظراً لحماسهم الديني وإخلاصهم لشخص علي بصفته حافظ رسالة محمد، والمبشر الحقيقي بالإسلام، صار هؤلاء الرجال رموز هذه المرحلة في نمو التشيع. وقد صُلب كل من ميثم التمّار[20] ورُشيد الحجري[21] في الكوفة عام ٦١هـ ـ ٦٨٠م على يد عبيد الله بن زياد لأنهما رفضا سبّ علي واستمرا في حماسهم الديني وإخلاصهم لعلي وذريته حتى بعد وفاته. وكعادة ابن زياد فقد أمر بقطع أيديهما وأرجلهما ولسانهما ومن ثم شنقا. وإلى جانب هؤلاء ذكر المؤرخون المتأخرون اسم عبد الله بن سبأ المعروف بابن الأسود كمؤيد متحمس لعلي وأنه صار يرحل من مكان لآخر يدعو للاحتجاج على حكم عثمان.[22] وقد وصف بأنه كان رجل دين يهودي وأسلم. وعلى كل حال، فإن الباحثين المعاصرين مثل علي الوردي وغيره أشاروا إلى عدم وجود حقيقي لهذه الشخصية وأما النشاطات التي نسبت إليه إنما قام بها عمار بن ياسر الذي كان لقبه ابن السوداء أيضاً.[23] وكذلك فإن الباحثين الأوربيين المعاصرين عبّروا عن شكّهم بشخصية ابن السوداء من الناحية التاريخية، ومالوا إلى أنه شخصية خرافية.[24]

إنها ظاهرة تستحق الاهتمام وهي أن الحاقدين على عثمان ومؤيدي علي زاد عددهم جنباً إلى جنب. واشتركت في تأييد علي المعارضة التقية لأرستقراطية بني أمية.[25] وإلى جانب كل ذلك قاد كلٌّ من طلحة والزبير

دعاية مناهضة لحكم عثمان. فعندما سافر محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة إلى مصر لاستنهاض الناس ضد عثمان التقيا هناك بمحمد بن طلحة الذي أرسله والده للغرض نفسه.[٢٦] واشتركت زوجات النبي الأرامل في معارضة الخليفة، وبخاصة عائشة التي رفعت صوتها استنكاراً لنعثل (الدب الكبير الكثيف الشعر) كما لقبته.[٢٧]

انفجر السخط الذي تطور بهدوء على شكل ثورة عام ٣٥هـ ٦٥٦م حين تحركت كتائب المتمردة من الكوفة والبصرة ومصر نحو المدينة تحت قيادة القراء. ومن الجدير بالملاحظة أن معظم هؤلاء القادة الناشطين كانوا من أصول يمنيّة. وانضم إليهم المؤيدون لعلي في المدينة من المهاجرين والأنصار مثل عمار وآخرين. وعمّت الفوضى حالاً. أما الأحداث التي أدت إلى اغتيال عثمان فهي خارج موضوع هذه البحث، لكن يبدو من المؤكد أن قتل عثمان تجاوز رغبة الصحابة الذين عارضوا عثمان علناً. فقد كان هدفهم عزل عثمان فقط وليس قتله. ومن الواضح أيضاً أنه حتى خلال هذه الأيام العاصفة استمر علي بالقيام بدور الوسيط الراغب بالمصالحة مع عثمان. ونجح في مرات عديدة في تفريق الغوغاء الذين أرادوا إيذاء الخليفة، وعندما حاصرت الغوغاء بيت عثمان أرسل علي ولديه الحسن والحسين للوقوف أمام بيت عثمان وحمايته من غضب الحشود. وعلى كل حال، فقد دُفعا جانباً وقتل الجمهور عثمان. وحالما وصلت الأخبار لعلي هرع إلى المكان وكان في ذروة الغضب لما حصل وضرب وجه الحسن ولطم الحسين لأنهما فشلا في إنقاذ حياة الخليفة.[٢٨]

في مناخ الفوضى والغموض اللذين أعقبا قتل الخليفة لم يكن هناك من مرشح مقبول للخلافة عند المهاجرين والأنصار والقراء أيضاً سوى علي.[٢٩] بعد ثلاث محاولات فاشلة لتحقيق طموحات علي في الخلافة، أصبح الآن غير مستعد لقبول مسؤولية قيادة الأمة التي ارتبكت كثيراً بعد جريمة قتل الخليفة، وبالتالي يعزي إلى نفسه تهمة الاشتراك في عملية القتل. يروي ابن عبد ربه تصريحاً خاصاً لعلي حول الموقف على شكل خطبة ألقاها في معركة الجمل حيث قال: "أتيتموه فقتلتموه (عثمان)، ثم أتيتموني فقلتم: لو بايعتنا؟ فقلت لا أفعل، وقبضت يدي فبسطتموها، ونازعتكم كفي فجذبتموها، وقلتم: لا نرضى إلاّ بك ولا نجتمع إلا عليك، وتراكمتم عليَّ تراكم الإبل الهيم على حياضها يوم ورودها، حتى ظننت أنكم قاتليَّ، وإن بعضكم قاتل بعضاً، فبايعتموني، وبايعني طلحة والزبير."[٣٠]

وأخيراً قبل علي الخلافة تحت ضغط ومطالبة جميع الفرقاء تقريباً، لكنه اشترط على من طالبه بقبول بيعتهم أنه سيحكم بما جاء في القرآن والسنة النبوية فقط وبشدة وسيقيم العدل والشرع بغض النظر عن أي نقد أو اصطدام مع مصالح أية مجموعة. وأدرك طلحة والزبير أن لا حظ لهما بالخلافة، إن هما نافسا علياً، برغم أن كلاً منهما يحوز على تأييد أتباع من الكوفيين والبصريين، لذلك كانا أول من بايع علياً. وبايع أهل المدينة وجموع القادمين من الولايات وأعلنوا علياً خليفة.[٣١] وبدا من خلال هذا الاختيار أن صار علي الخليفة الأول والوحيد الذي شارك في اختياره أغلب أفراد الأمة. وكان الخليفة الأول بين الأربعة الراشدين الذي جرى

اختياره بفضل الظروف الخاصة إلى جانب محتده (سليل النسب الرفيع) فقد جمع في شخصه النسب والمبادئ النظرية الدينية التي تحكم طريقة اختيار القيادة.

ورث علي منذ بداية خلافته مشاكل هائلة لم يواجه مثيلها أي من الخلفاء الثلاثة الذين سلفوه. وتدبر مروان بن الحكم سكرتير (أمين سر) عثمان أمر هروبه من المدينة مع بعض الأعضاء البارزين من الأمويين وانضموا إلى معاوية في سورية حاملين معهم قميص عثمان الملطخ بدمه وأصابع نائلة أرملة عثمان المقطوعة لاستخدامها في حملتهم ضد علي. وبدأ الأمويون بقيادة معاوية بن أبي سفيان من دمشق دعواهم ودعاياتهم المطالبة بالثأر لدم عثمان وضد علي.[٣٢]

لم يكن اغتيال عثمان جريمة قتل بسيطة قام بها شخص ما لمعاناة شخصية كما حصل في اغتيال عمر بن الخطاب. كان اغتيال عثمان نتيجة لثورة شعبية قام بها الفقراء والساخطون والمقهورون والمحرومون حقوقهم الاقتصادية والسياسية، ضد الإقطاع وسيطرة أرستقراطية عائلية قديمة. فقد ثار أتقياء المسلمين لإنقاذ المثل الإسلامية في العدالة الاقتصادية والاجتماعية والمساواة التي علمها القرآن وأكدها النبي وحافظ عليها كل من أبي بكر وعمر. أما الدور الذي قام به عليٌ كوسيط بين الثوار من القراء والخليفة فيُظهر أمرين: الأول: إن علياً نفسه كان مقتنعاً بأن حركة المقاومة مبنيّة على العدل ومطالب حقه، وبالتالي طلب من الخليفة إنصافهم، والثاني: حاول بكل ما أوتيَ من قوة إنقاذ الخليفة من أيدي العامة الغاضبة. كانت الأمزجة هائجة جداً وخارجة عن مقدرة أي كان

للسيطرة عليها، وانتهى الموقف إلى قتل الخليفة بأيدي غلاة فروا وسط الاضطراب والفوضى التي تلت قتل الخليفة. ووجد علي نفسه في وضع بائس. فقد هرب القتلة الحقيقيون، وكان من المستحيل العثور عليهم لمعاقبتهم؛ ومع ذلك بقيت الحقيقة قائمة وهي أن كثيراً من القراء حول علي كانوا مسؤولين تقريبا بمستوى مسؤولية القتلة الفعليين عن المأساة. فقد روي تصريح علي تكراراً وبخاصة حين دخل عليه طلحة والزبير في عدة من الصحابة فقالوا: يا عليُّ وإن هؤلاء قد اشتركوا في دم هذا الرجل وأحلّوا بأنفسهم. فقال لهم: "يا إخوتاه إني لست أجهل ما تعلمون، ولكني كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم! هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم، وثابت (عادت) إليهم أعرابكم، وهم خلالكم (وسطكم) يسومونكم ما شاءوا، فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء مما تريدون؟ قالوا: لا، قال: فلا والله لا أرى إلاّ رأياً ترونه إن شاء الله؛ إن هذا الأمر أمر جاهلية، وإن لهؤلاء القوم مادّة (قوة) فاهدؤوا عني وانظروا ماذا يأتيكم، ثم عودوا، ووعد علي بعقاب قتله عثمان حالما يقبض عليهم. وقد وافقه على ذلك طلحة والزبير وكانا يقولان: غلب السفهاءُ الحكماء وقتلوا عثمان.[٣٣] وحاول عليّ عبثاً إيجاد حلٍّ سلمي للمعضلة. كان موقف علي الإشكالي هو كالآتي: استنكر قتل عثمان بينما دعم مطالب القراء العادلة، ولعن قتلة عثمان بينما أحاط نفسه برفاقهم؛ إن هذا الموقف الخطير يشكل تحدياً هائلاً لأكثر السياسيين دهاءً وذكاء، وبالتالي كان أكثر هولاً في حالة علي: فقد منعته تقواه الدينية وتمسكه بالمبادئ مراراً من تبني سياسة عملية براغماتية. ولم يمض وقت طويل حتى أصبح

موقف علي في إيجاد حلّ سلمي للأزمة مستحيلاً. وضمّت التحديات لسلطته عائشة التي رفضت العودة إلى المدينة بعد أن أدّت العمرة، بل عادت إلى مكة، حين عرفت بمبايعة علي. بعد زمن قصير أراد طلحة والزبير البعد عن علي فاستأذناه في العمرة. ورغم معرفته بخططهما أجاب طلبهما. وانضم الاثنان إلى عائشة في مكة وأذاعا أنهما بايعا عليًا تحت الإكراه.[٣٤] ورغم أن كلاً منهما كان يطمح إلى الخلافة إلا أنهما لم يتمتعا بتأييد شعبي كاف لإيصالهما إلى طموحهما؛ وما كانا ليعرضا خدماتهما على أحد غير عائشة، التي غيرت موقفها من ناقد متحمس لعثمان إلى مطالب بثأره. وقصد الناكثون مع عائشة البصرة عام ٣٦هـ ـ ٦٥٦م مهددين بأخذ مشرق العالم الإسلامي من علي، مضيفين مشكلة أخرى مشابهة لما يواجه علي في سورية على يد معاوية. وبعد تردد كثير ارتحل علي إلى الكوفة ونجح في جمع قوة كافية لهزيمة الناكثين وعائشة في موقعة الجمل. وقتل طلحة والزبير وأُسرت عائشة ثم أعيدت إلى المدينة سالمة.

بعد أن ضمن علي موقفه في العراق مؤقتاً، تحول للتعامل مع المشكلة الأخطر وهي معاوية والي سورية وقريب عثمان والذي تزعم دعوى الأخذ بثأر عثمان،[٣٥] ورفض علي دعوى معاوية لأن أولاد عثمان أولى بها من معاوية. وتيقن معاوية أنه إذا استطاع علي تثبيت سلطته، فلن يتأخر عن عزل معاوية من حكم سورية. ولكي يعيق معاوية جهود علي في تثبيت دعائم سلطته رأى أن الطريقة الوحيدة المفيدة لتحقيق غرضه هي التشكيك في صلاحية علي وحقوقه في الخلافة، ولم يكن من الصعب على معاوية استغلال الظروف التي تم في ظلالها اختيار علي وبيعته في

المدينة. وعارض أنصار علي وبخاصة القراء أية مصالحة مع معاوية، ونصحه مالك الأشتر حتى بعدم مكاتبة معاوية والي سورية. ومع ذلك حاول علي التعامل مع المنشقين (أو القاسطين كما سماهم علي نفسه) بطرق سلميّة، لكن عندما فشلت محاولاته وتيقن أن معاوية يستعد للقتال عندئذٍ فقط قاد علي قواته والتقى السوريين ومعاوية في صفين.

قام عدد من الأساتذة بدراسة نقدية دقيقة للصراع في صفين. وما آلت إليه المعركة من تحكيم في دومة الجندل بأذروح- وهذا خارج موضوع بحثنا-، ويكفينا أن نعرف أن موقف علي أصبح حرجاً بسرعة بعد خروج الخوارج عليه (سماهم المارقين) ودمّر التحكيم في اذروح Adhruh قوته. وبينما كان يحضّر للقاء معاوية للمرة الأخيرة ضربَهُ خارجي متعصب هو عبد الرحمن بن ملجم بسيف مسموم في مسجد الكوفة. وتوفي الخليفة الرابع يوم ٢١ رمضان ٤٠هـ الموافق ٢١ كانون الثاني يناير ٦٦١م.

ولقد ناقش علي نفسه هذه الفترة في الجزء الأخير من خطبة الشقشقية وتحليلاته مفيدة جداً لفهم هذه الفترة الغامضة: "إلى أن قام ثالث القوم (عثمان) نافجاً حضنيه (الحضن ما بين الأبط والكشح، ويقال للمتكبر) بين نثيله ومعتلفه (النثيل: الروث، والمعتلف من مادة علف أي الطعام أراد أن يقول لا هم له إلا ما ذكر) وقام معه بنو أبيه (الأمويون) يخضمون (يأكلون) مال الله خضم الإبل نبتة الربيع، إلى أن انتكث عليه فتله (قضى عليه تدبيره)، وأجهز عليه عمله، وكبت به بطنته فما راعني (أخافني) إلاّ والناس كعرف الضبع (كثافة شعر الضبع وهو ثخين يضرب به المثل في الكثرة والازدحام) إليّ ينثالون عليّ (يتتابعون مزدحمين) من كل جانب

حتى لقد وُطيء الحسنان، وشق عطفاي، مجتمعين حولي كربيضة الغنم. فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة (طلحة والزبير..) ومرقت أخرى (الخوارج) وقسط آخرون (معاوية ومن معه قسط بمعنى جار وظلم) كأنهم لم يسمعوا الله سبحانه يقول: "تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين." بلى! والله لقد سمعوها ووعوها، ولكنهم حليت الدنيا في أعينهم وراقهم زبرجها (زينتها) أما والذي فلق الحبّة وبرأ النسمة لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء أن لا يقارّو (لا يوافقوا) على كظة ظالم، ولا سغب مظلوم (سغب: جوع فاقة) لألقيت حبلها على غاربها (تخليت عن المسؤولية أو الخلافة) ولسقيت آخرها بكأس أولها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز"[٣٧٠]

بهذه الخلاصة الموجزة، وباعتبارها أساساً، سنحاول تحليل أسباب ونتائج الأحداث الرئيسية في خلافة علي القصيرة. علينا أ ن نتذكر أن خلافته قوبلت بمعارضة قوية من جانب بعض صحابة النبي وانتهت بأول حرب أهلية في الإسلام؛ ولكن في الوقت عينه فإن ما دعي "إخفاقات" ثبت أنها مثلت توليفة هامة في تاريخ تطور التشيع. فإخفاقات علي في تحقيق طموحاته أوجدت مرارة في نفوس مؤيديه زودهم بخلفية تاريخية لتطوير ميولهم الاستقلالية، وكذلك زودهم التخريب المدبر ضد مشاريعه بالمواد الأوليّة الكافية لتشكيل وصياغة مبادئهم الخاصة ضمن كتلة الإسلام.

في محاولة لفهم الوضع باعتباره كلاًّ متماسكاً تكشف حقيقة أن اختيار علي للخلافة كان انتصاراً سريعاً لرؤية خاصة في التعاقب على القيادة،

كانت تلك الرؤية يائسة حتى تلك اللحظة، وكان ذلك الاختيار صدمة عنيفة لجميع أولئك الذين تبنّوا بنجاح مبدأ قيادة خالياً من أي اعتبار للأسبقية المبنيّة على قداسة متوارثة بعد وفاة النبي. حالما تم اختيار علي فإن هاتين الرؤيتين المتنافستين وصلتا إلى نقطة الصراع لأول مرة وتبلورتا في صيغ محددة. وسرعان ما هزمت الرؤية الأولى "الشيعية" مرة أخرى ولكن لتوجد تعبيراً عن نفسها في ميل للاستقلال، والاتجاه نحو ما يمكن تسميته "منظمة مذهبية"؛ وظهرت الرؤية الثانية منتصرة وأكثر إصراراً واتخذت لنفسها بطريقة ما شكلاً صار مركز "الأمة الإسلامية" أو "الجماعة"

سجل لنا اليعقوبي تلك الأحاديث التي أدلى بها مؤيدو علي المتحمسون ومعظمهم من الأنصار تحية له عند اختياره للخلافة، وهذه الخطابات توضح ميولهم ومشاعرهم كما رأوا فيه. فقد بايع مالك بن الحارث الأشتر قائلاً: "أيها الناس، هذا وصي الأوصياء، ووارث علم الأنبياء." [٣٨] ويشك هودسن فيما إذا كانت هذه المصطلحات قد استخدمت لتصف علي في ذلك الوقت المبكر. [٣٩] وهنا يجب أن نتذكر أن مالك الأشتر كان من أصل يمني. وكانت منطقة الجنوب العربي هي بلاد حضارة قديمة حيث تعاقب الملوك استناداً لمبدأ السلالة لألف سنة مضت، ونظر إلى هؤلاء الملوك بصفتهم يحملون ميزات غير عادية. وحتى إن يكن عرب الحجاز في القرن السابع الميلادي لم يختبروا الملكية، فلابد أنهم تأثروا ولو من غير وعي بذلك التقليد العريق. [٤٠] وفي هذه الحالة فإن استخدام مصطلح مثل وصي ووارث من طرف شخص يمني الأصل يحدث بشكل

طبيعي بصفته لازمة (نتيجة حتمية) لتقليد عميق الجذور. ومن جهة ثانية، ثمة إشارات متعددة في كتابات معاصري علي التي تعكس تلك الروح عينها. قال أبو الأسود الدؤلي مادحاً علياً:

لقد علمت قريش حيث كانت بأنك خيرهم حسباً ودينا

إذا استقبلت وجه أبي حسين رأيت النور فوق الناظرين[٤١]

والحقيقة أن هناك مصدراً غنيا هو القرآن الكريم حيث ورد مصطلح "وراث" كثيراً، وبخاصة في ذكرعائلة عمران وإسماعيل، وقد استخدمه محمد حجة في جهوده لجذب "أهل الكتاب" (اليهود والنصارى). [٤٢] وبالتالي، فإن من المحتمل جداً أن يكون مؤيدو علي قد استخدموا المفردات نفسها للتعبير عن آرائهم.

وأكثر من ذلك، إننا عندما نقرأ الروايات التي تصف مجريات معركتي الجمل وصفين يواجهنا كمٌّ هائل من شعر الحرب المتبادل بين المقاتلين من كلا الطرفين حيث نجد مصطلح "وصي" وقد استخدمه مؤيدو علي تكراراً. ويكفينا أن نحيل القارئ إلى شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد الذي جمع الأبيات الشعرية التي تصف علي بـ"وصي"[٤٣] ونجد ذلك أيضاً في كتاب الجمل لأبي مخنف[٤٤] (توفي ١٥٧هـ ٧٤٤م). وثمة مصدر مبكر جداً آخر يجد فيه القارئ هذه الأشعار بوفرة هو كتاب وقعة صفين لنصر بن مزاحم (توفي ٢١٢هـ ٨٢٧م) الذي يقتبس أبا مخنف كثيراً بالإضافة إلى مصادر مبكرة أخرى. [٤٥]

إلى جانب هذه الآراء رأينا سابقاً أن ثمة مجموعة مخلصة عبّرت منذ بداياتها عن تحمسها لعلي وقد بنت فكرها أساساً وبشكل واسع على مفاهيم

دينية. وأن هذه المجموعة تعبّر عن ولائها بمفردات دينية مناسبة كما يصح أن يتوقع المرء. وقد استخدم الجيل التالي من الشيعة مصطلح "الوصي" تكراراً في شعرهم وخير من يمثل هذا الجيل هم الكميت وسيد الحميري والفرزدق وبخاصة حين وصفوا علياً في مجريات معركتي الجمل وصفين.

كل هذه المناقشة السابقة كانت لتوضيح أن هناك مجموعة من المسلمين رأت صعود علي للخلافة من زاوية مختلفة جداً عما رآه المسلمون الآخرون. لقد رأت في هذا الصعود نصراً لها لأنها تمتلك تصوراً خاصاً لما يخص القيادة الإسلامية، ولذلك طرحت قضايا لم تطرحها خلال فترة حكم الخلفاء الثلاثة الذين سبقوه، وبذلك جعلت عليّاً يواجه معارضة خطيرة من أطراف متعددة منذ وفاة النبي تقريباً. وجاءت المقاومة الأولية من طرف عائشة وطلحة والزبير الذين نادوا بالثأر، وقدموا أنفسهم على أنهم القوى الفاعلة في معالجة قضية قتل عثمان. ولكن السؤال الذي يطرح هنا هو ما إذا كان هذا هو السبب في خروجهم على عليّ. كيف يمكن اتهام علي وحده بقتل عثمان في حين كان طلحة والزبير ناشطين مثل علي في تأييد مطالب الناس؟ ألم تكن عائشة نفسها عاملاً هاماً في استنهاض الناس ضد عثمان؟[٤٦] إننا لا نستطيع إلا أن نحمّل مسؤولية خلق مناخ العنف في المدينة لهذه المجموعات (مؤيدي عائشة وطلحة والزبير) الخارجة على الخليفة (عليّ) بالتساوي معه. يسائل علي هؤلاء المدعين في إحدى خطبه قائلاً: "والله ما أنكروا عليَّ منكراً، ولا جعلوا بيني وبينهم نصفاً (أي وسيط عادل)، وإنهم ليطلبون حقاً هم تركوه (تركوا مطالبتهم بالخلافة لأنفسهم)، ودماً هم سفكوه (دم عثمان)، فإن كنت شريكهم

فيه، فإن لهم نصيبهم منه، وإن كانوا ولّوه دوني فما الطَّلَبَةُ إلاّ قبلهم، وإن أوّل عدلهم للحكم على أنفسهم. وإن معي لبصيرتي ما لبست ولا لبس علي. وإنها للفئة الباغية فيها الحمأ والحمة (الحمأ والحمة يقصد الزبير وعائشة)، والشبهة المغدفة (الشبهة المغدفة: أي أن اغتيال عثمان عمل اكتنفته شبهات كثيرة ساترة للحق)." [٤٧]

وفي التحليل الأخير يظهر أن دعوى الثأر لعثمان صارت سابقة سهلة من طرف الثلاثة (عائشة وطلحة والزبير) ومؤخراً من طرف معاوية لزعزعة الخطر الواضح وهو حكم مجموعة من زهاد المسلمين، تؤيدهم طبقة الفقراء في المجتمع، وبعض من أنصار المدينة وكل هؤلاء كان علي يمثلهم. كان انبعاث هذه المجموعات تهديداً حقيقياً للأرستقراطية المكية التي كتم أنفاسها انتصار محمد ومفهومه الاجتماعي والتي ضبطها بإحكام أبو بكر وعمر. وعندما صار عثمان خليفة وهو من أغنياء بني أمية وجدت طموحات هذا البطن من قريشي(بني أمية) وعائلات أخرى من مكة (طلحة والزبير ..) فرصتها لاستعادة السلطة. ومن السخرية أن الدافع إلى الوحدة والتنظيم الذي أوجده الإسلام استخدمته هذه الفئة للإنتعاش واستلام السلطة من جديد. لقد ثار طلحة والزبير لحماية مصالحهما. وجعلا عائشة رمزاً لتوحيد قواهما، ولم يكن من الصعب قيادتها لمهاجمة عليّ. فقد قيل أن كراهيتها لعلي مبنية على عدة عوامل منها نصيحة علي لمحمد أن يسائل خادمة عائشة عن سبب تخلف عائشة في إحدى الرحلات، ذلك التأخر الذي دعا الناس للحديث عما عرف بحديث"الإفك" [٤٨] ومنها أيضاً تشاجرها مع فاطمة وعلي عند بيعة

والدها أبي بكر. [٤٩] وهذا يوضّح أن قتال الناكثين الثلاثة(عائشة وطلحة والزبير) كان لأسباب شخصية وليس ثأراً لعثمان الذي ما كان سوى ذريعة ملائمة لهم. ورغم فشلهم في تحقيق أهدافهم فإن قتالهم ودعواهم جعلا مهمة معاوية الذي عزله علي من ولاية دمشق أيسر، وتأكيد الطموحات التي هددها وصول علي للخلافة أسهل. وكانت مطالبة معاوية بالثأر لعثمان مجرد ذريعة ساعدته على إزاحة علي من مركز القيادة، يوضح ذلك محادثة عمرو بن العاص مع عائشة عقب وقعة الجمل عندما قال لها عمرو: "لوددت لو أنك قتلت يوم الجمل ودخلت الجنة، إذن لاستعملنا موتك سبباً قوياً لسبّ علي والنيل منه." [٥٠]

أدى الصراع في وقعة الجمل إلى حدوث صدع خطير في الأمة الإسلامية. فقد أوردت جميع المصادر أن كل فريق عين متحدثين باسمه للتعبير عن موقفه. وهذه الأحاديث مهمة لأنها تبيّن كيف أن المظهر الديني والولاءات الشخصية ومصالح الولايات والاعتبارات الاقتصادية- السياسية أصبحت متشابكة. فقد دعي الذين أيدوا علياً في معركة الجمل وبعد صفين أولاً أهل العراق، وشيعة علي أو العلوية. أما مناوئوهم فدعوا شيعة عثمان، وعلى الأغلب العثمانية. تضمن هذه الفئة أيضاً، عائشة وطلحة والزبير المعروفين بأصحاب الجمل، وسمي أنصار معاوية أهل الشام، كما عرفوا أيضاً بشيعة معاوية. كما وصف موقف الفرقاء بحسب ميول ذلك العهد المليء بالمفردات الدينية باستخدام كلمة "دين"، مثلاً وصف موقف علي بدين علي، كما وصف موقف مناهضيه بدين عثمان. كما استخدم مصطلح آخر لتأكيد ولاء الأطراف فقيل مثلاً "رأي العلوية

ورأي العثمانية" [٥١] وعلى كل حال، فإلى جانب هذه المفردات المصطلحات العامة المستخدمة لوصف كل فريق، فإن اللقب الأكثر شيوعاً كان شيعة أهل البيت وشيعة آل محمد، وقد غلب استخدام هذين المصطلحين من طرف مؤيدي علي المتحمسين منذ ذلك التاريخ. كما استخدم أحياناً اسم "الترابية" وهو لقب اشتق من لقب علي أبي تراب، الذي دعاه به محمد. [٥٢] ومما يوضح ذلك أن علياً دعا خصومه بمصطلح ديني يتضمن أنهم خارجون عن الصراط الديني الحقيقي، فالذين حاربوه يوم الجمل سمّاهم الناكثين، وهو مستمد من قوله تعالى: "فمن نكث فإنما ينكث على نفسه." [٥٣] وقصد علي به الذين نقضوا بيعتهم له. وسمّى علي خصومه في صفين القاسطين أي الظالمين، وهي مفردة مأخوذة من الآية الكريمة: "وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا." [٥٤] أما الخوارج فسمّاهم علي المارقين مشيراً إلى حديث نبوي، أي الذين يضلون عن الدين الصحيح. [٥٥] وأصبحت هذه المصطلحات شائعة بين أتباع علي لوصف خصومهم.

نشط مؤيدو علي خلال هذه الفترة باستمرار لتوسيع قاعدة تأييدهم بين المسلمين. فحتى معركتي الجمل وصفين كان عدد المؤيدين المخلصين لعلي قليلاً نسبياً وهم أولئك الذين اعتقدوا منذ وفاة النبي أنه الأجدر والأكفأ للخلافة وقيادة الأمة بعد محمد. فبعد معركة ا لجمل أصبح مصطلح شيعة علي يتضمن كل الذين أيدوا علياً ضد عائشة، ومنذ ذلك الوقت أصبحت مفردة "شيعة" تشمل كل الجماعات والأفراد الذين أيدوا علياً

لأسباب متعددة، أو ليست بالضرورة أسبابا دينية عقائدية. وبهذا المعنى الواسع ورد مصطلح شيعة في وثائق التحكيم في صفين.[٥٦]

وبعد التحكيم بعقود، وعندما بدأت الشيعة تنظِّم وتصوغ موقفها الرسمي جرت محاولات لتحديد نوعية الجماعات التي أيدت علياً، وكانت شيعة علي هذه في بداياتها الأولى غير محددة أو منسجمة، بل مختلطة الأهواء والأهداف والأسباب. وقد تم تصنيف الشيعة إلى أربعة أصناف: الأصفياء والأولياء والصحاب والملتقطة.[٥٧] والمفردات الثلاث الأولى ليست واضحة بدقة برغم أن بعض المصادر الشيعية أشارت إلى الأولياء المؤسسين أمثال المقداد وسلمان وعمّار وحذيفة وأبي حمزة وأبي ساسان وشطير على أنهم الأصفياء.

من المؤكد أن هذا التصنيف تم في عهود متأخرة. ومع ذلك علينا أن نفرّق بين أولئك الذين أيدوا عليّاً لأسباب دينية محضة وأرادوه خليفة بصفته وصيّاً وأولئك الذين أيدوه أساساً لأسباب سياسية وبخاصة بعد أن نقل عاصمته إلى الكوفة. فبالإضافة لأتباع علي السياسيين، خلّف وراءه جماعة دينية مخلصة بايعوه على أن يوالوا من يواليه، ويعادوا من يعاديه.[٥٨] وأصّرت هذه المجموعة على أن علياً " على الحق والهدى " وأن خصومه على العكس من ذلك، وحافظت على عقيدتها وهي أن علياً وبفضل حسبه ونسبه كان مؤهلاً خصيصاً لشغل المنصب الأسمى في الأمة الإسلامية. ويفسّر وجود هذه المجموعة الدينية المخلصة إلى حدّ بعيد كيف تدبر التشيع أمر نفسه كي يعايش الالتكاسات السياسية الحادة التي تعرض لها عبر السنين.

ملاحظات الفصل الرابع:

١- الأغاني ج٦ ص٣٣٤، المسعودي. مروج ج٢ ص٣٤٢

٢- الطبري ج١ ص٢٩٤٨ ولروايات أخرى انظر ابن سعد ج٣ ص٦٤، والبلاذري ج٥ ص٢٥، واليعقوبي ج٢ ص١٦٤: والدينوري. أخبار ص١٣٩ والمسعودي، مروج ج٢ ص٣٣٤، والعقد الفريد ج٤ ص٢٨٠

٣- انظر الطبري ج١ ص٢٩٢٣، والمسعودي. مروج ج٢ ص٣٣٧

٤- الطبري ج١ ص٢٨٧١، والبلاذري ج٥ ص٤٩

٥- البلاذري ج٥ ص٣١، والطبري ج١ ص٢٨٤٥، والمسعودي مروج ج٢ ص٣٣٥ والعقد الفريد ج٤ ص٣٠٧

٦- البلاذري ج٥ ص٤٠ والمسعودي مروج ج٢ ص٣٣٧ والطبري ج١ ص٢٩١٦

٧- البلاذري ج٥ ص٢٧ الطبري ج١ ص٢٩٣٥ والأشعري، التمهيد ص٩٩

٨- البلاذري ج٥ ص٣٦ واليعقوبي ج٢ ص١٧٠

٩- البلاذري ج٥ ص٤٨ والعقد ج٤ ص٣٠٧، والمودودي أبو الأعلى الخلافة والملوكية ص١٠٥ الذي يعرض ضعف عثمان أمام أقاربه وسوء أعمالهم.

١٠- البلاذري ج٥ ص٥٢ والطبري ج١ ص٢٨٥٨ والمسعودي مروج ج٢ ص٣٣٩ واليعقوبي ج٢ ص١٧١

١١- اليعقوبي سابقه

١٢- لمعرفة هذه التعليقات انظر M.S يوسف الثورة على عثمان، الثقافة، الثقافة الإسلامية مجلة عدد ٢٧ السنة ١٩٣٥ ص٤، ٥ E

١٣- البلاذري ج٥ ص٢٦ و٥٧ والطبري ج١ ص٢٩٥٥ و٢٩٨٠ والعقد ج٤ ص٢٨٠

١٤- البلاذري ج٥ ص٣٣ والمسعودي مروج ج٢ ص٣٤١ واليعقوبي ج٢ ص١٧٢ وشرح النهج ج٨ ص٢٥٢

١٥- شرح النهج ج١ ص٣٠٣

١٦- انظر المصادر المذكورة في الملاحظة ١٤

١٧- البلاذري ج٥ ص٢٦ و٦٠-٦١، والطبري ج١ ص٢٩٤٨ و٢٩٥٥، والمسعودي. مروج ج٢ ص٣٤٤ والأشعري. التمهيد ص٥٤

١٨- البلاذري ج٥ ص٤٠

١٩- الكشّي. رجال ص٧٢

٢٠- سابقه

٢١- سابقه

٢٢- الطبري ج١ ص٢٩٤٢ والأشعري التمهيد ص٥٥

٢٣- واعظ السلطان. بغداد ١٩٥٤ ص ١٤٨

٢٤- برنارد لويس. أصول الإسماعيلية كمبردج ١٩٤٠ ص٢٥ E ومارشل هودسن مقال: كيف صار الشيعة الأوائل طائفيين مجلة Jops العدد٧٥، ١٩٥٥ ص٢ وانظر دائرة المعارف الإسلامية مقال "عبد الله بن سعد" الطبعة٢ E

٢٥- هودسن. الشيعة المبكرة ص ٣ E

٢٦- البلاذري ج٥ ص٤٩ محمد بن أبي بكر كان موالياً مخلصاً لعلي وناقد عثمان بشدة. هودسن سابقه ص٢

٢٧- البلاذري ج٥ ص٤٨، ٤٩ والطبري ج١ ص٣١١٢ واليعقوبي ج١ ص١٧٥؛ الإمامة والسياسة ج١ ص٣٠

٢٨- البلاذري ج٥ ص٦٢ و٦٩ والطبري ج١ ص٢٩٨٨ والمسعودي مروج ج٢ ص٢٣٢ والعقد ج٤ ص٢٩٠

٢٩- البلاذري ج٥ ص٧٠ والطبري ج١ ص٣٠٦٦ والعقد ج٤ ص٢٩١ و٣١٠.

٣٠- العقد ج٤ ص٣١٨

٣١- البلاذري ج٥ ص٧٠ والطبري ج١ ص٣٠٦٨ واليعقوبي ج٢ ص١٧٨ والأشعري. التمهيد ص١٠٧ والدينوري أخبار ص١٤٠

٣٢- الطبري ج١ ص٣٠٨٠

٣٣- الطبري ج١ ص ٣١٢٧

٣٤- الطبري ج١ ص٣٠٩١ و٣١١٢ واليعقوبي ج٢ ص ١٨٠ وشرح النهج ج١ ص٢٣٢

٣٥- الطبري ج١ ص٣٢٥٥

٣٦- العقد ج٤ ص ٣٣٤ وانظر البلاذري ج٤ ص١٠٨ حيث رفض بعض الصحابة دعوى معاوية بدم عثمان

٣٧- انظر الفصل الثالث ملاحظة رقم٨

٣٨- اليعقوبي ج٢ ص١٧٩

٣٩- هودسن "كيف صار الشيعة الأوائل طائفيين" مجلة Jaos ص٢ E

٤٠- مونتغمري وات "الشيعة تحت حكم الأمويين" مجلة Jaos ١٩٦٠ ص١٦١ E و J ريكمان المؤسسات الملكية في الجزيرة العربية قبل الإسلام. لوفيان ١٩٥١ ص٢٢٩ بالفرنسية

٤١- الكامل للمبرد ج٣ ص٢٠٥ والمسعودي مروجج٢ ص٤١٦ والأغاني ج١٢ ص٣٢٦ ويوافق شتروطمان بأن في شعر أبي الأسود الدؤلي فضائل علي الدينية المميزة مقال في دائرة المعارف الإسلامية الطبعة الأولى بعنوان "الشيعة" وأنظر أبيات مماثلة في شعر الكميت وكثير في الكامل ج٣ ص٢٠٤

٤٢- القرآن الكريم سورة ١٩ آية ٦

٤٣- شرح النهج ج١ ص١٤٤ – ١٤٩

٤٤- الفهرست لابن النديم ص٩٣

٤٥- ص١٨ و٢٣ و٤٣ و٤٩ و٣٦٥ و٣٨٢ و٣٨٥ وانظر الإسكافي نقد العثمانية ص٨٤

٤٦- البلاذري ج٥ ص٣٤ وحتى أبيات ابن أم كلب تنسب لعائلته، المسؤولية عن قتل عثمان

٤٧- الشيخ المفيد كتاب الإرشاد ص١٤٦ وشرح النهج ج١ ص٦٣

٤٨- هذه الواقعة معروفة باسم حديث الإفك والبخاري يرويه بكامله وانظر شرح النهج ج٣ ص٢٥ وكتب الحديث الأخرى تحت عنوان حديث الإفك.

٤٩- عمر أبو النصر علي وعائشة. بغداد د ت ص٢٥

٥٠- الكامل للمبرد ج١ ص٢٦٧ ولم أستطع العثور على نص الحديث في الطبعة المتوفرة للمترجم لذلك ترجمت النص الإنكليزي

٥١- تستعمل هذه المصطلحات في المصادر العربية تكراراً. مثلاً الطبري ج١ ص٣١٩٦ و٣١٩٩ واليعقوبي ج٢ ص١٨٣ و١٨٤ و١٩٩ والأغاني ج٧ ص٣٣٤ وج١٤ ص٢١٩

٥٢- الطبري ج١ ص١٢٧٢

٥٣- شرح النهج ج١ ص٢٠١

٥٤- ما قبله

٥٥- ما قبله واليعقوبي ج٢ ص١٩٣

٥٦- المنقري وقعة صفين ص٥٠٤ والطبري ج١ ص٣٣٣٦

٥٧- الفهرست ص١٧٥ والطبري ج٢ ص١ ورجال الكشّي ص٤

٥٨- الطبري ج١ ص٣٣٥٠ ومونتغمري وات "الشيعة تحت حكم الأمويين" مجلة Jaos ١٩٦٠ ص١٦٠ - ١٦١ E

الكوفة: مركز للنشاطات الشيعية

منذ أن انتقل علي إلى الكوفة عام ٣٦هـ ٦٥٦م أو حتى قبل ذلك، صارت الكوفة مركزاً رئيساً للحركات والطموحات والآمال وأحياناً للجهود الجماعية الشيعية. أجل لقد صارت الكوفة وما حولها مكاناً لمعظم الأحداث العاصفة التي صاغت التاريخ المبكر للإسلام الشيعي: ففي الكوفة مثلاً جمع علي قواته وقادها إلى معركتي الجمل وصفين، وفي الكوفة تم اختيار الحسن للخلافة، وفيها تخلى عنها، وفيها نهض حجر بن عدي الكندي، وفيها ذبح الحسين وأصحابه، وفيها ثار التوابون والمختار. وإلى جانب ذلك أثبتت الكوفة أنها مصدر التراجعات، والإحباط، واليأس، وحتى الخيانة وفشل الرغبة الشيعية في رؤية ذرية علي في مركز قيادة الجماعة الإسلامية. وفي هذا الفصل سنسعى لفحص طبيعة وتركيب مدينة الكوفة وميزات ميول سكانها باختصار.

أنشئت مدينة الكوفة عام ١٧هـ ٦٣٨م بعد وصول عمر بن الخطاب إلى الخلافة بنحو ثلاث سنوات[1] فبعد انتصار المسلمين في معركتي القادسية سنة ١٥هـ ٦٣٨م وبعدها بسنة واحدة في معركة جولاء أمر الخليفة عمر سعد بن أبي وقاص قائد الجيوش الإسلامية في العراق بالتوقف هناك- وبالتأكيد من أجل تدعيم سيطرة المسلمين على العراق، وبعدئذ التقدم شرقاً نحو إيران عندما تصبح الفرصة مناسبة. وبناءً على ذلك الأمر توقف سعد بن أبي وقاص والجيوش الإسلامية في المدائن عاصمة الساسانيين المفتوحة حديثاً حيث ثبت إنها مكان غير مرضٍ للعرب بسبب

مناخها الرطب وازدحام المكان وبعدها عن البيئة الصحراوية حيث الهواء النقي والمراعي المناسبة لدواب الجيوش العربية. وعندما أعلم الخليفة بالصعوبات التي تواجه تلك القوات أمر سعد بإخراجها من المدائن والبحث عن مكان يناسب شروط حياة العرب ومتطلباتهم. وبعد البحث واختيار ثلاثة أماكن وقع الاختيار الأخير على سهل على الضفة الغربية للفرات قرب مدينة الحيرة الفارسية القديمة بناءً على نصيحة سلمان الفارسي وحذيفة بن اليمان. وأمرسعد جيوشه بإقامة مخيمات هناك. وهكذا بدأ بناء الكوفة. لم يكن اختيار ذلك المكان لتشييد المدينة المحتملة اعتباطياً، وإنما تم بعد تفكير حذر وبحث دقيق دام حوالي العامين.

تؤكد المصادر التاريخية التي وصفت تشييد الكوفة وبدون أدنى شك أن إقامة هذه المدينة لم يكن يهدف ومنذ البداية إلى إيجاد مقر دائم في المدينة لقوات الفتح، بل إلى تشييد مقر استراتيجي لحشد القوات في العراق البلد الذي تم فتحه مجدداً. وهذا واضح من أمر عمر الذي بعثه لسعد وفيه يقول: "اخترنا مكاناً للمسلين يكون "دار هجرة" ومنزل جهاد.[٤] لقد عنى عمر بقوله "دار هجرة" وفي ذلك الوقت تحديداً، موطناً للمقاتلين الذين قدموا لفتح العراق من مناطق بعيدة جداً وانتصروا في القادسية والذين طلب منهم تدعيم سيطرة المسلمين على المناطق المحررة، وبقوله "منزل جهاد" عنى الاستعداد لعمليات عسكرية قادمة باتجاه إيران. وأضاف البلاذري في روايته قول عمر: "مكان يمكن أن يتجمع فيه المسلمون:قيروان"[٥] وهذا يؤكد أن عمر كان يفكر بمدينة عسكرية حيث يمكن إسكان قوات قادمة لرفد المقيمين هناك من مناطق بعيدة تكون

جاهزة عند الطلب. وكان المستوطنون الأوائل في الكوفة أولئك المحاربين الذين تم حشدهم بسرعة لمعركة القادسية وقد عرفوا بـ "أهل الأيام والقادسية"

كانت مهمة تخطيط و تنظيم أحياء المدينة لإقامة سكانها الأوائل الذين جاؤوا من قبائل متنوعة جداً -كما سنرى- مهمة صعبة جدا أمام سعد بن أبي وقاص فعلى عكس البصرة التي جرى تشييدها قبل الكوفة بعام واحد وكانت ما تزال في مرحلة البناء، فإن عرب شمال ووسط الجزيرة العربية لم يكن لديهم الخبرة الكافية لتأسيس المدن. لقد كان مفهوم المدينة كمكان لوحدة سياسية واجتماعية أمرا غريباً على شعور العرب بالانتماء. فلم يكن تصور العرب للمدن المقامة في تلك المناطق مثل الطائف ومكة ويثرب كمكان لوحدة سياسية – اجتماعية، بل موطن لقبائل: أي إن مفهوم القبيلة كان هو الطاغي على المفاهيم الأخرى.

مع بداية خلافة عمر وانطلاق عملية الفتوحات خارج الجزيرة العربية، استفاد العرب من الفرصة للقتال وبالتالي هاجروا إلى سورية وشكلوا جماعات منظمة نسبياً لأنهم ينتمون إلى قبائل كبيرة ومتجانسة. وحصل في البصرة ما يشبه ما حصل في سورية حيث استقرت هناك قبيلتان مسيطرتان هما تميم وبكر إلى جانب ٣٠٠نسمة من المهمشين الذين قدموا من أماكن بعيدة [٦]

أما في الكوفة فإن عدد الذين قدموا من أماكن للعيش هناك فيتراوح ما بين ١٥–٢٠ ألفاً مؤلفين من قبائل غير متجانسة إلى حدٍّ بعيد جداً. وقد سُجل غياب أي فخذ من قبيلة مسيطر على الموقف، وقد أوجد سعد بن

وقاص الحل بتوزيع معسكر الكوفة لا بحسب القبائل، وإنما بتقسيمه إلى نزاريين (عرب الشمال) ويمنيين (عرب الجنوب). وأسكن النزاريين الشماليين في الجانب الغربي من سهل الكوفة، وأسكن اليمنيين الجنوبيين في الجانب الشرقي، وتم ذلك بموجب التقاسم بالأزلام (إطلاق الأسهم بطريقة معينة لتحديد نصيب كل فريق) كما هي العادة العربية القيمة[7] وخصص سعد مكاناً واسعاً في منتصف المدينة لبناء المسجد الجامع. وبنى دار الإمارة وبيت المال إلى جانب المسجد. كانت هذه أول عملية توزيع وترتيب لسكان الكوفة، ولكن أعيد النظر فيها ثلاث مرات خلال ٣٣سنة تلت تشييدها الأول.

أثبتت طريقة سعد في تنظيم سكن القبائل في الكوفة أنها لم تكن مقنعة. أولاً: لم تجد القبائل المتنوعة من النزاريين ولا اليمنيين المختلفين أنه من المناسب تجميع بعضهم مع البعض الأخر، وسريعاً ما واجهوا مشاكل خطيرة. ثانياً: أظهرت تنظيمات سعد صعوبات جدية في تشكيل فصائل عسكرية مقاتلة. لقد تم تشييد الكوفة كي تكون مدينة عسكرية (منزل جهاد) يجري فيها إعداد فصائل مقاتلة جاهزة للانطلاق. وكان هذا صعباً حين توزع السكان إلى قسمين كبيرين واسعين. وأخيراً: غياب تنظيم المعسكر في مجموعات صغيرة متماسكة حسب أفخاذ قبلية أو أفخاذ متحالفة جعل تنظيم عملية توزيع المخصصات المالية (رواتب أو معاشات) وهي الموارد الوحيدة المتاحة لسكان الكوفة يومئذ صعباً جداً. وحين واجه سعد تلك الصعوبات وبعد أن استشار عمر فيما يجب فعله لتجاوز تلك الصعوبات، أعاد تنظيم السكان وقسمهم إلى سبع جماعات. وقد تمّ

هذا التعديل على أساس السلالات أو تحالف السلالات بمساعدة اثنين من الخبراء المشهود لهم بمعرفة الأنساب[8] كان هذا المبدأ الـذي استخدم لإعادة التنظيم مبدأ قديما مما قبل ظهور الإسلام، بل إنه تقليد عربي قديم في تنظيم القبائل حيث يتم تجميع الأفخاذ أو القبائل التي أقامت فيما بينها تحالفاً سياسياً غالباً ما يكون غير متماسك.

وعلى كل حال، فقد تمت إعادة التوزيع إلى سبع مجموعات عرفت بالأسباع وعلى النحو التالي[9]

١ كنانة ومعها أحلافها من الأحباش وآخرون إلى جانب فخذ من جديلة. وكانت كنانة قبيلة مكية وقريش فرع منها، أما جديلة فمن عرب قيس عيلان وكانت تسكن الحجاز وتقيم علاقات من نوع ما مع كنانة، ونظر إليهما (كنانة وجديلة) على أنها أهل العليّة، وحصل أن كنانة وقريشاً إلى جانب قبائل أخرى شكلت في الماضي تجمعاً عرف بـ خندف. لذلك كان من الطبيعي أن تتمتع القبيلتان في الكوفة بعلاقات جيدة وتتعاونا مع أميرها القريشي، ورغم أن عدد أفرادها كان قليلاً، فقد حافظتا على مكانة ذات حقوق خاصة.

٢ المجموعة الثانية وتضم قضاعة وغسان وبجيلة وخثعم وكندة وحضرموت والأزد، وبجمع هذه القبائل معاً تشكلت مجموعة يمنية عسكرية قوية، وكانت الشخصيتان القويتان: جرير بن عبد الله[12] من بجيلة وكان صديقاً شخصياً لعمر بن الخطاب، والأشعث بن قيس[13] من كندة هما القائدان المسيطران على هذه المجموعة.

٣ المجموعة الثالثة وتضم مذحج[١٤] وحمير[١٥] وهمدان[١٦] ومحالفيهم. وكانت هذه مجموعة يمنية قوية أيضاً قامت همدان بينها بدور هام واحتفظت بموقع خاص في الكوفة، وأبرزت مؤيدين متحمسين لقضية الشيعة.[١٧]

٤ وتضم هذه المجموعة تميم ووهب وهوازن وهذه القبائل تنتمي إلى مضر[١٨]

٥. وتضم أسد وغطفان ومحارب ونمر وضبيعة وتغلب ومعظم هذه المجموعة تنتمي إلى المجموعة النزارية من ربيعة وبكر.

٦ وتضم هذه المجموعة إياد وعك وعبد القيس وأهل الحجر والحمراء. إياد[٢٠] وعك[٢١] فخذان من النزاريين العدنانيين، وكانتا تسكنان العراق من أمد بعيد وعند قدوم جيوش الفتح الإسلامي انضمت هاتان القبيلتان إليه ضد الساسانيين. وعبد القيس[٢٢] هي الأخرى من العدنانيين، هاجرت إلى البحرين وهناك عرفت بأهل الحجر. وفي العام التاسع للهجرة ٦٣٠م أرسلت وفداً كبيراً إلى المدينة ودخلت في الإسلام، لذلك كان كثير من رجالها يميزون أنفسهم بأنهم من صحابة النبي[٢٣] ورغم أن هذه المجموعة مؤلفة من خليط من القبائل العربية، فإن من الصعب تجاهل أو تقليل أهميتها، فقد انضمت عبد القيس إلى معركة القادسية تحت قيادة رئيس من تميم هو زهره بن حويس وهو أحد صانعي نصر المسلمين في القادسية، حيث جمع ثلاث قبائل عربية تحت إمرته وكبّد الفرس خسائر فادحة. وزادت أهمية هذه المجموعة بعد معركة القادسية مباشرة حين دخل الإسلام مجموعة من الفرس

تقدر بحوالي ٤٠٠٠ بقيادة رئيسهم ديلمان (وبالتالي اكتسبوا اسم الديالمة) وبشروط خاصة تعهد بها سعد بن أبي وقاص، وانضموا إلى هذا القائد التميمي، الذي أصبح حامياً لهم. ثم اتحدوا مع إياد وعك وعبد القيس. وأسم الحمراء يدل على هؤلاء الفرس المسلمين مجدداً.[٢٤] هذه المجموعة شكلت على الأقل من ناحية العدد أحد أقوى الفصائل العسكرية في الكوفة، ولكن قوهم العددية التي منحتهم وضعاً متقدماًadvantageous أدت بهم إلى الدخول سريعاً في صراع مباشر مع مصالح القبائل البارزة التي تدعي حقوقاً خاصة بها في معسكر الكوفة المعقد من الناحية الاجتماعية- السياسية. ويلاحظ أن بعض عناصر هذه المجموعة وبخاصة عبد القيس قد أظهرت تأيداً لعلي في معركتي الجمل وصفين، كما ذكرت المصادر.

٧. وضمت هذه المجموعة سبأ كما سماها الطبري وهي بالتأكيد طيء القبيلة العربية اليمنية القوية. وفي الحقيقة أنها طيء وهذا واضح من خلال الإشارات الكثيرة الموزعة على مئات الصفحات التي تحدث فيها عن أحداث الكوفة حتى أيام معاوية. دخلت طيء الإسلام عام ٩هـ-٦٣٠م وعندما ارتدت قبائل أخرى عام ١١هـ/٦٣٢م بقيت طيء متمسكة بإسلامها. وانضمت إلى المثنى بن حارثة في حروب فتوح العراق عند فتح الحيرة، ثم ساهمت في معركة القادسية. وبعد ذلك انضمت طيء إلى علي وساهمت في معركتي الجمل وصفين كأقوى مؤيديه.[٢٦] بعد علي نقرأ عن تأييد حجر بن حاتم للحسن وهو يحث الكوفيين لتأييد إمامهم ابن بنت رسول الله.[٢٧] ويبدو أن قوة

طيء تناقصت في الكوفة، فقد ترك الكوفة بعض رجالها وانضموا إلى أقاربهم في معقلهم الجبلي بين البصرة والكوفة.[٢٨] وسنقرأ لاحقاً عن الطرمّاح بن عدي الطائي الذي قابل الحسين في طريقه من الحجاز إلى الكوفة ودعاه لتغيير خطته والذهاب معه إلى أرض طيء الجبلية.[٢٩]

هكذا إذن تم تنظيم سكان الكوفة إلى سبع فصائل مقاتلة قبلية وأسكنت كل منها في حي، مما ساعد في حشدهم وتحريكهم عند الحاجة وساعد في عملية توزيع المعاشات والغنائم. كذلك جرى توزيع الأراضي المحيطة بالكوفة وأعطيت كل مجموعة جبانة (المرعى) ومدفن الأموات. وكان لهذه الجبانات أهميتها العظمى في التطورات اللاحقة عندما توسعت المدينة، لأن هذه الجبانات اتسعت للقادمين الجدد إلى الكوفة حيث انضموا كل إلى أبناء قبيلته.

استمر وضع الكوفة على ما هو عليه خلال الثلاثين سنة التالية حتى أجري تعديل عليه عام٣٦هـ/٦٥٦م عندما قدم علي إليها. وكما سنرى لاحقاً، فخلال العشرين سنة الأخيرة تغيرت قوى ضمن المجموعات السبع بشكل كبير. فضمن كل قبيلة استولى فخذ منها على مركز القوة (القيادة) فيها، وسيطرت بعض الأفخاذ على كامل أفراد المجموعة. كما أن هناك قبائل استقبلت قادمين جدداً إليها مما غير موازين القوى العددية إلى حدٍ مفرط. لذلك وعندما قدم علي إلى الكوفة أبقى التقسيم السباعي لكنه أُجرى تعديلات هامة من حيث تركيب كل مجموعة، والتركيب العام للمجموعات وذلك بنقل بعض القبائل من مجموعة إلى أخرى. وبحسب ما ورد عند ماسنيون كان ترتيب علي على النحو التالي:

١. همدان وحمير اليمنيان.

٢. مذحج وأشعر (الأشاعر) وطيء من اليمن أيضاً.

٣. كندة وحضرموت وقضاعة ومهر من اليمن أيضاً.

٤. الأزد وبجيلة وخثعم وانصار من اليمن أيضاً.

٥. القبائل النزارية من قيس وعبس وذبيان وعبد القيس من البحرين.

٦. بكر وتغلب وجميع فروع ربيعة النزارية.

٧. قريش وكندة وأسد وتميم وضبة والرباب النزاريين. [٣٠]

هناك ثلاث نقاط هامة في هذا الترتيب يجب ملاحظتها.أولاً: هناك أسماء أفخاذ مثل أشعر ومهر وضبة لم تظهر في تقسيم وتنظيم سعد. فعلى الأغلب إن هذه الأفخاذ كانت مهمشة فلم تجلب انتباه سعد لذكرها عام١٧هـ/٦٣٨م ولكن في أيام علي عام ٣٦هت/٦٥٨م زاد عدد افرادها مما جلب الانتباه إليها واستدعى منحها شخصية خاصة. ثانياً: في ترتيب سعد كان هناك ثلاث مجموعات يمنية وأربعة نزارية. أما في أيام علي فقد انقلب الوضع رأساً على عقب فصارت أربع مجموعات يمنية وثلاث نزارية. وسنذكر لاحقاً أنه منذ البداية كان عدد اليمنيين أكبر من عدد النزاريين١٢-٨ آلاف. ويبدو أن علياً أخذ العدد بعين الاعتبار وأعاد التنظيم بحسب ذلك العدد، وبالتالي حصل اليمنيون على ما يستحقون في الكوفة. أخيراً ترك علي أساس سلالات القبائل على ما كان عليه أيام سعد.

أما إعادة الترتيب الأخير الذي جرى في الكوفة فقد حصل حين تولاهـا زياد بن أبي سفيان عام ٥٠هـ ٦٧٠م. فقد ألغى التنظيم القبلي السباعي، ورتبها في أربع مجموعات كما يلي:

١- أهل العليّة. ٢- تميم وهمدان. ٣- ربيعة (بكر) وكندة.
٤- مذحج وأسد. [٣١]

ثمة نقاط عديدة هامة تجب ملاحظتها في إعادة التنظيم التي أجراها زياد.

أولاً: لم يكن زياد والياً على الكوفة وحدها بل والبصرة كذلك، حيث تم تقسيم السكان منذ البداية إلى أرباع (أربع مجموعات). وأثبت هذا التنظيم الإداري أنه مناسب جداً للسيطرة على سكان البصرة لذلك قرر زياد تطبيقه في الكوفة أيضاً.

ثانياً: تجاهل زياد كلية مبدأ العرب التقليدي الذي يقر السلالات القبلية والتحالفات عند تشكيل المجموعات. وبدلاً من ذلك خلط اليمنيين مع النزاريين باستثناء أهل العليّة.

ثالثاً: اختار زياد القبائل الست الأكثر قوة- ما عدا أهل العلية- ومزج معها كل البطون الصغيرة أو القبائل المهمشة.

لم يزعج زياد أهل العلية المؤلفة من البطون المكية (نسبة إلى مكة) والقريشيين بأي إجراء، وذلك لأنهم الحلفاء الطبيعيون للوالي (الحاكم) القريشي منذ أيام سعد. وأكثر من ذلك ان هذه المجموعات كانت الأقل عدداً لما كان زياد يخالفهم في شيء.

في المجموعة (الربع) الثانية خلط تميم النزارية مع كندة اليمنية. وفي المجموعة (الربع) الثالثة خلط بكر النزارية مع كندة اليمنية، وفي المجموعة (الربع) الرابعة خلط أسد النزارية مع مذحج اليمنية. وعين على رأس كل مجموعة رئيسا اختاره بنفسه،[٣٢] وحدد له مهمته الأساسية بضبط أفراد مجموعته. وأخيراً لابدّ أن يلاحظ الدارس أن غاية زياد من التخلي عن مبدأ التنظيم بحسب السلالات أو التحالفات هي إضعاف نفوذ القادة بالتوارث لصالح تدعيم سيطرة القائد الذي عينه هو بنفسه وذلك بقصد تقوية سيطرة الأمويين على المدينة.

إن من الصعوبة بمكان أن يحدد المرء عدد سكان الكوفة بدقة، ومع ذلك فمن الروايات المختلفة التي أوردها المصادر يمكن تقدير هذا العدد. يقدم لنا الطبري تقريراً مفصلاً عن القوات العربية التي حاربت في موقعة القادسية ويقدر عددهم بثلاثين ألفاً.[٣٣] ربما كان هذا الرقم مبالغاً به، ولكن في جميع الأحوال فإن هؤلاء المقاتلة لم يسكنوا كلهم في الكوفة. أما ياقوت الحموي فيروي أن عمر بن الخطاب أمر سعد أن يخطط مسجد الكوفة بحيث يتسع لأربعين ألفاً من المقاتلة الذين سيقيمون هناك.[٣٤] أما الرواية الأكثر اعتدالاً وربما الأكثر قبولاً فهي رواية البلاذري الذي ينقل عن الشعبي، والتي تحدد عدد المستوطنين العرب الأوائل في الكوفة بعشرين ألفاً مؤلفة من اثني عشر ألفاً من اليمانية وثمانية آلاف من النزارية. وأضاف البلاذري إلى هؤلاء ٤٠٠٠ من الديالمة الفرس (الحمراء)، الذين كانوا من أوائل من استوطن الكوفة إلى جانب العرب.[٣٥] ويبدو أن هذا الرقم (٢٤ألفاً) هو الأكثر قبولاً بالمقارنة مع

الروايات المغالية الأخرى، وبهؤلاء بدأت الكوفة وجودها التاريخي. ومن بين هؤلاء المستوطنين أو القادمين كما تصفهم المصادر التاريخية،ثمة عدد كبير نوعاً ما يقدر بـ٣٧٠من صحابة النبي من المهاجرين والأنصار سكنوا مباشرة بعد بنائها. [٣٦] وكان بينهم من الشخصيات الهامة مثل عبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان والبراء بن عازب وسلمان الفارسي وزيد بن الأرقم وأبو موسى الأشعري. وعدّ ابن سعد سبعين منهم بدريين (الذين حاربوا إلى جانب النبي في معركة بدر) قاتلوا المكيين عام٢هـ/٦٢٣م، و٣٠٠ منهم بايعوا النبي مرة ثانية يوم صلح الحديبيّة سنة٧هـ/٦٢٨م. [٣٧] وهذه البيعة معروفة ببيعة الرضوان واعتبر المسلمون أن الذين بايعوا فيها يتمتعون بإجلال خاص لأنهم أثبتوا ولاءهم للنبي وأيدوه في وقت المحنة.

إن طبيعة سكان الكوفة غير المتجانسين وغياب أي قبيلة أو جماعة مسيطرة حثّ عمر على الاهتمام بشكل خاص بالمدينة الجديدة. اعتقد عمر أن حشد قبائل وأفخاذ عديدة ممن لم يعتادوا على نظام المدينة الاجتماعي من قبل وإسكان عدد كبير من الصحابة المتميزين سينشر روح الإسلام بينهم، ويجعل من الكوفة مدينة إسلامية أصيلة متحررة من العصبية القبلية. لقد كان اهتمام عمر بالكوفة عظيماً جداً حتى أنه وصفها بأنها "قبة الإسلام" و"رأس أهل الإسلام" وعندما وصف سكان الكوفة قال: "إنهم رمح الله، وكنز الإيمان، وجمجمة العرب الذين يحمون ثغورهم ويقوون العرب الآخرين" [٣٨] ومن المهم أن نلاحظ أن هذا المديح لم يقل لآية مدينة أخرى كالبصرة أو دمشق. لقد كان عمر معارضاً للشعور

بسمو القبيلة الواسع الانتشار في النظام الاجتماعي- السياسي العربي. لقد زوده وضع سكان الكوفة غير المتجانس بخلفية مناسبة لإقامة نظام اجتماعي- سياسي إسلامي حيث تختفي العصبية القبلية تحت العصبية الدينية الإسلامية. وهذا يعني أن القيادة المسيطرة يجب أن تكون لأصحاب السابقة الإسلامية، وأن السلطة القبلية يجب أن تختفي تحت السلطة الإسلامية. إن اختيار عمار بن ياسر، وهو من غير جذور قبلية ومن أوائل الذين أسلموا وجاهدوا في سبيل الإسلام والياً على الكوفة، واختيار عبد بن مسعود نائباً له كان مظهراً واضحاً لسياسة عمر هذه. وعندما عينهما عمر لمنصبيهما كتب إلى أهل الكوفة: "أرسلت إليكم عماراً والياً وعبد الله يعلمكم الإسلام ونائباً له، وهما من بين أفضل صحابة النبي ونجبائهم، فاسمعوا لهما واتبعوهما، ولقد آثرتكم على نفسي، وكنت أود استبقاءهما لها." [٤٠]

يكشف التأكيد على جدارة عمار وعبد الله وتميزهما بصفتهما الأكثر تبجيلاً من بين الصحابة واختيارهما لقيادة الكوفة ويظهر نية عمر بتأكيد الحقوق الإسلامية بدلاً من الحقوق القبلية، وبهذه الطريقة يمكن المحافظة على تناغم المدينة السياسي.

عندما نظم عمر بن الخطاب الديوان سنة ٢٠هـ/٦٤١م لتوزيع الأرزاق كان معياره الوحيد هو السابقة في الإسلام. قسّم مواطني الكوفة إلى ثلاث جماعات:

١ الجماعات المتنوعة من المهاجرين والأنصار.

٢ والذين خاضوا الحرب ضد المرتدين أو الـذين جاهـدوا قبـل وفي معركتي اليرموك والقادسية وعرفوا باسم أهل الأيام والقادسية.

٣ الروادف وهم قدموا الكوفة بعد معركة اليرموك والقادسية أو الموجة الثانية والثالثة من المهاجرين الجدد ثم سـاهموا في الفتوحـات.[٤١]

وكانت المخططات حسب ترتيب هذه المجموعات كما يلي:

المجموعة الأولى: مابين ٥٠٠٠-٣٠٠٠ درهم سنوياً.

المجموعة الثانية: مابين ٣٠٠٠-٢٠٠٠ درهم سنوياً.

المجموعة الثالثة: ما بين ١٥٠٠-٢٠٠ درهم سنوياً.

والنقطة الأكثر أهمية لغرضنا هنا، هي أنه لتوزيع الأرزاق قسّم عمر كل مجموعة إلى مجموعات أصغر، وعين عريفاً لمراقبة التوزيع، وعرفت هـذه المجموعات الصغيرة بالعرفاء. وكانت كل مجموعة من العرفاء مؤلفة من أفراد من فخذ من قبيلة، أو بالأحرى من أفراد متماثلين في مواقفهم من الإسلام،[٤٢] وهذا لأن أفراد القبيلة أو الفخذ منها كانوا يسلمون جماعة لا أفراداً. وكان لهؤلاء العرفاء في الكوفة موقـع مسـيطر في الشـؤون السياسية للمدينة. أما مصطلح "أشراف القبائل" الذي استخدم لوصف سكان الكوفة فيفهم منه أن أطلق على قادة القبائل فقط، ولم يكن عدد هؤلاء الأشراف القادة كما يظن قارئ المصادر التاريخية كبيراً. وبالتالي فإن هؤلاء العرفاء كثيراً ما شغلوا مراكز قيادة أعراقهم في أيام الشدة في خلافة عثمان وعلي وما بعد ذلك بدلاً من الأشراف. ولم يكـن عـدد الأشراف كبيراً كما تصوره المصادر ما لم يضف إليه عدد العرفاء.

توسعت الإمبراطورية الإسلامية بشكل كبير مثير للدهشة خلال خلافة عمر، وكذلك تزايد عدد سكان الكوفة. ونلاحظ تدفق هجرتين إلى الكوفة حصلا مباشرة. الأولى: الروافد وهم موجات العرب القادمين مجدداً بعد إكمال فتح سورية ومصر والجزيرة عام ٢٠هـ/٦٤١م، فعندما أيقن هؤلاء أنه لم يعد هناك حظ لتوسع الفتوحات غرباً.وبالتالي تحقيق المزيد من الغنائم، وتوقعوا متابعة الفتح في الأراضي الفارسية وبالتالي تؤدي مساهمتهم في هذا الفتح إلى مزيد من الغنائم، هاجر هؤلاء على دفعات متوالية إلى الكوفة. وعندما تحركت القوات المتمركزة في الكوفة إلى معركة نهوند عام ٢١هـ ٦٤٢م، كان هؤلاء الروافد الأكثر حماساً للمعركة، وعندما جرت المعركة أظهر هؤلاء شجاعة غير عادية. وأعجب عمر بهم كثيراً لدرجة أنه أجرى تعديلاً على نظام ديوان الجند، وزاد في حصة هؤلاء الروافد ليصل إلى ما يماثل حصة المجموعة الثانية وهم أهل الأيام والقادسية.[٤٣] وهذا ما حفز الآخرين على الهجرة إلى الكوفة، مما زاد من عدد سكانها من العرب وزاد من عدد أفراد القبائل والبطون. أما سيل الهجرة الثانية إلى الكوفة فيعود إلى موجات قدمت من الفرس. وثمة أسباب عديدة لهذه الهجرة إلى الكوفة أكثر من أية مدينة أخرى. وسنناقش هذه الأسباب بعد قليل.

ونتيجة لهاتين الهجرتين الكبيرتين، فإن عدد سكان الكوفة قد ازداد بشكل ملحوظ خلال سنوات قليلة، وحتى قبل نهاية خلافة عمر. تخبرنا المصادر أنه عقب وفاة عمر واستلام عثمان الخلافة، عين عثمان الوليد بن عقبة والياً على الكوفة عام ٢٤أو٢٥ هـ ٦٤٥ أو ٦٤٦م، وإن عدد المقاتلة

في الكوفة وحدها زاد إلى ٤٠٠٠٠ مقاتل.[٤٤] فإذا أخذنا في الاعتبار عدد سكان الكوفة الأوائل من مقاتلة القادسية، وهم الذين تقدموا في السن ولم يعودوا قادرين على القتال، ولكنهم اتخذوا من الكوفة موطناً دائماً، وعدد عبيدهم وعائلاتهم، فإن عدد سكان الكوفة يصل إلى حوالي ١٠٠٠٠٠ نسمة. ويجب أن نضيف إليهم أولئك الذين استوطنوا في سواد (ريف) الكوفة- الأراضي الخصبة في العراق- التي أمر عمر بعدم توزيعها على مقاتلة القادسية بل تركها وسمح لزارعيها باستغلالها لقاء دفعهم ضريبة "الذمة" (ضريبة تؤخذ من دافعيها لقاء حمايتهم)، وهذه الضريبة كانت توزع على الكوفيين.[٤٥] أما ممتلكات الملوك الساسانيين وأفراد عائلاتهم المعروفة "بالصوافي" فقد أمر عمر بوضعها تحت تصرف مقاتلة القادسية. وسمح لهم باقتسامها والاستقرار فيها إن رغبوا بذلك، أو إدارتها من خلال وكلاء يختارونهم. ونتيجة لذلك صارت الكوفة محاطة بالعديد من القرى التي سكنها، بالإضافة إلى مقاتلة القادسية، العمال الذين قدموا للعمل فيها. وكان هذا ممكناً بسبب العدد الكبير من العبيد والعمال الذين تجمعوا في الكوفة وما حولها. ومع توسع الحياة الاقتصادية في الكوفة -كما في المدن الأخرى التي شيدت مجدداً- ازداد عدد التجار والحرفيين وعمال الخدمات الأخرى واستقروا هناك.

بهذا الاستكشاف الموجز لتأسيس مدينة الكوفة وتطورها المبكر نكون قد وصلنا إلى هدفنا الرئيسي وهو بيان البنية العامة ومميزات ومظاهر سكانها التي أثرت في الميول والطموحات الدينية -السياسية. إن تحقيق هذا الهدف ليس مهمة سهلة، لوجود عوامل عديدة معقدة مثل العوامل

الجغرافية والتاريخية والأخلاقية والعرقية والاقتصادية الممتزجة بعضها ببعض. إن تحليل تأثير هذه العوامل في حياة سكان الكوفة عمل صعب جداً. يجب علينا أن نأخذ في الحسبان قبل كل شيء أن سكان المدينة تشكلوا منذ البداية تقريباً من مجموعتين متميزتين: هما العرب والفرس. ونرى أن ندعو العرب "بالمؤسسين الأوائل والفرس "بالمؤسسين التالين"

كان العنصر العربي مؤلفاً من تركيب معقد جداً – أكثر مما هو الوضع في أي مدينة أخرى – وبالعودة إلى المجموعات العربية القبلية السبعة التي ذكرناها سابقاً وموجات هجرة العرب إلى الكوفة اللاحقة نلاحظ سريعاً كم كان العنصر العربي في الكوفة غير متجانس في الأصول والخلفيات. فهذا العنصر كان أساساً مؤلفاً من فريقين: النزاريين واليمانيين، وسنحاول بيان التمايز بينهم.

١- مجموعة صغيرة من القرشيين القادمين من الحجاز بسمعتهم المعروفة بالعيش المريح والنبل والشرف.

٢- عناصر من البدو المضريين ونجاخة تميم وبعض مجاوريهم من اليمنيين ومنهم طيء.

٣- مجموعة نصف بدوية مثل قبائل ربيعة وأسد وبكر القادمين من الشمال والشمال الغربي ومن الشرق والجنوب الشرقي من الجزيرة العربية وعبد القيس من الحجر.

٤- مجموعة من اليمنيين أصولاً القادمين من مناطق بعيدة جداً، من حضرموت واليمن، وبعضهم اعتاد حياة شبه مريحة مثل كندة

وبجيله، وآخرون اعتادوا العيش في مستوطنات قديمة جداً مثل مذحج وحمير وهمدان.[46]

٥- مجموعة من العرب استقرت في الكوفة منذ تأسيسها وكانوا من قبائل عربية مسيحية مثل تغلب ونمر وإياد، وبعض المسيحيين من نجران.[47] وهؤلاء المسيحيون حصلوا على شروط وحقوق خاصة من النبي نفسه، وحافظ عليها أبو بكر وعمر.

٦- مجموعة أخرى من العرب لابد من أخذها في الحسبان وهي مؤلفة من عائلات نبيلة مشهورة معروفة باسم "بيوتات العرب" ويقر ابن سعد بهؤلاء ويميزهم بقوله أن كل هذه البيوتات العربية النبيلة كانت حاضرة في الكوفة، ولم تكن هذه هي الحال في البصرة.[48]

الجموعة الثانية من سكان الكوفة التي شكلت شخصية المدينة كانت الفرس. هناك عوامل عديدة سببت هجرتهم إلى الكوفة بخاصة وليس لأية مدينة أخرى. وثلاثة من هذه الأسباب هي الأكثر أهمية. الأول: نتج عن الفتوحات العربية للمدائن يوم القادسية، وبعدها النصر العظيم في معركة نهوند أن عدداً كبيراً وقع في أسر القوات العربية الفاتحة وجلبوا إلى الكوفة بصفتهم سبياً. ثم دخل معظمهم في الإسلام بعد وقت قصير. وحازوا على حريتهم من سادتهم العرب، لكن بقوا موالين لهم "الموالي".الثاني: إن قرب موقع مدينة الكوفة الجغرافي على حدود الإمبراطورية الساسانية في العراق جعل هذه المدينة المكان الملائم لوجهة الفرس، الذين فقدوا وسائل عيشهم بعد سقوط الدولة الساسانية بأيدي

العرب. وقد رأوا في الكوفة مكاناً واعداً لتأمين عيشهم. وبالمقابل فإن أعداداً من الفلاحين تحولوا إلى العيش في المدن بعد انهيار النظام الإقطاعي الفارسي، وتوفر الحرية التي أتاحها المسلمون للبحث عن طرق أخرى لحياتهم وكانت الكوفة أكثر الأماكن جذباً لهم. ثالثاً: إن وجود ٤٠٠٠ فارسي معروفين باسم الديالمة والذين استقروا في الكوفة منذ تشيدها، بالإضافة إلى أسرى معركة نهاوند أوجد مناخاً اجتماعياً ملائماً لاستقبال الفرس المهرومين في بلادهم كي ينضموا إلى أبناء وطنهم في الكوفة. وكان بين الأسرى الذين جلبهم العرب من بلاد الفرس عدد من النساء. وأصبحت النساء الأسيرات زوجات شرعيات لآسرهم انجبن لهم أطفالاً وبعد عشرين عاماً يوم قدم علي إلى الكوفة وجد هناك عرباً من أمهات فارسيات. فمثلاً أم العالم المعروف في الكوفة الشعبي كانت من أسيرات معركة جلولاء.[٤٩] ومن المهم أن نلحظ أن أفراد الجالية الفارسية في الكوفة لم يمنحوا حقوقاً موازية لحقوق العرب الكوفيين في النظام الاجتماعي السائد. لقد دعوا الموالي بمعنى زبائن وحلفاء، ولكنه مصطلح عنى موقعاً اجتماعياً أقل من موقع العرب. وبما أن الموالي قاموا بدور هام في تاريخ الكوفة الديني-السياسي وبخاصة في الحركة الشيعية، فإن من المهم والمساعد أن نعرفهم بعمق أكثر. بالرغم من أن مصطلح موالي عنى العبيد المحررين أصلاً، إلا أن هذا المعنى توسع بعد الفتح ليشمل العديد من الناس غير العرب. ويمكننا تقسيم الموالي في الكوفة إلى خمس فئات:

١- المقاتلون غير العرب الذين أسلموا وانضموا إلى القوات العربية. ومعظم هؤلاء من الفرس مثل الحمراء أو الديالمة. وقد استخدمهم ولاة الكوفة قوات شرطة، وتلقوا معاملة طيبة من العرب. وفي معظم الحالات كان هؤلاء ينضمون إلى فخذ أو قبيلة عربية، أو يضعون أنفسهم بتصرف رئيس (أمير، شريف) عربي فيصبح حامياً وراعياً لهم، كما فعل الديالمة حين قبلوا قيادة زعيم قبيلة تميم كراع لهم.

٢- الفلاحون (معظمهم من الفرس) الذين دمرت مدنهم وقراهم خلال حروب الفتح الإسلامي، فتركوا الأراضي الزراعية بحثاً عن حرف وأعمال أخرى في الكوفة. إن انهيار النظام الإقطاعي الساساني وجو الحرية الذي نشره العرب سمح لهؤلاء الفلاحين بالتخلي عن أعمال الزراعة التي لم تعد مجدية. ونتيجة لذلك قلت موارد الضريبة المفروضة على الأراضي الزراعية (الخراج)، مما أدى إلى أن زادت الإدارة في الخراج المفروض على الذين استمروا في فلاحة الأرض. وهذا ما أدى إلى أن هجر الفلاحون الأرض هرباً من المبالغة في الخراج المفروض على الأرض وقدموا الكوفة بحثاً عن أعمال أكثر جدوى. وهذا النوع من المهاجرين لم يتحالف مع أية قبيلة، بل كانوا تحت تصرف الوالي المباشر، والذي كان له السلطة المطلقة عليهم، وبالمقابل كان المسؤول عن حمايتهم. وفي حال اقترف أحدهم جريمة قتل فإن بيت المال تعهد بدفع ديته لأهله.[٥٠]

٣- إن معظم الجماعات الفارسية وآخرون ممن دخلوا في الإسلام جاؤوا إلى الكوفة ليعملوا تجاراً وحرفيين. لقد فتح المسلمون بلادهم ولكنهم لم يستعبدوا. ودخلوا في الإسلام طواعية، ولكي يحسنوا أوضاعهم الإقتصادية جاؤوا إلى الكوفة وعملوا في التجارة والحرف المختلفة. ولعلهم كانوا أكبر مجموعة بين الموالي في الكوفة، ومع تطور اقتصاد المدينة زاد عددهم باستمرار وكانوا شبه مستقلين إلا أنهم تحالفوا مع القبائل القاطنة هناك لأغراض إدارية.

٤- العبيد المحرزون. وهم الذين أسرهم العرب الفاتحون في المعارك وعندما دخلوا في الإسلام استعادوا حريتهم، ولكنهم ألزموا بالإنتساب إلى العائلات التي حررتهم من العبودية. وبالمعنى الاصطلاحي والحقيقي فإن هؤلاء هم الموالي في الواقع، وكان عددهم الثاني بعد المجموعة الثالثة المذكورة أعلاه.

٥- الفرس وغيرهم ممن دخلوا الإسلام وهم أصلاً من عائلات نبيلة. وهؤلاء أعفوا من دفع الجزية التي اعتبروها شكلاً من الإهانة، لكنهم دفعوا ضريبة الأرض الزراعية (الخراج). ويبدو أن العرب عاملوهم بطريقة خاصة مغايرة لمعاملة الموالي، ذلك لإنهم نبلاء أقوامهم رغم أنهم خسروا الحرب. كانوا أحراراً في تغيير ولائهم من قبيلة لأخرى عندما يشاؤون. ومع ذلك ظلوا أقل من مواقع العرب. وفي كثير من الحالات

تشابكت مصالحهم مع مصالح قادة القبائل العربية في الكوفة.

ازداد عدد الموالي من مختلف الطبقات (المجموعات التي ذكرناها للتو)، إلى درجة أنهم في عقود قليلة، زاد عددهم على العرب في الكوفة. تخبرنا المصادر أن عدد الموالي الذين قاتلوا إلى جانب ابن الأشعث في معركة الجماجم وصل إلى ١٠٠٠٠٠ [٥٢] لقد توجه العرب إليهم كفاتحين أولاً وكطبقة سامية من حيث العرق ثانياً. وهذا أدى بشكل طبيعي إلى تنامي الشعور بالسخط في الكوفة. يجب أن نضيف ثلاث ملاحظات إلى هذه البنية السكانية. الأولى: لم تكن الكوفة ومنذ بدايتها مدينة عربية صرفة مثل مكة والمدينة وحتى دمشق. الثانية: إن معظم المستوطنين الأوائل في الكوفة، سواء أكانوا عرباً أم فرساً، كانوا كتائب عسكرية جاؤوا من دون عائلاتهم، ومكثوا هناك لبعض الوقت يعيشون حالة استعداد لأية عملية حربية. ويبدو أنه من الطبيعي أن تسيطر عليهم ميزاتهم كمقاتلين برغم أنهم استقروا أخيراً بصفتهم مواطنين مدنيين، إلى جانب عوامل أخرى تفسر قلقهم واشمئزازهم وغالباً عصيانهم. ثالثاً وأخيراً: ولعله الأهم، وهو أنه ليس للكوفة تقليد خاص بها كان من المحتمل أن يتقيد به سكانها ويؤثر بالناس فيها. فبعد دفعات الهجرة الخارجة من الجزيرة العربية إلى مدن في سورية وفارس واستقرارهم هناك، وقع هؤلاء المهاجرون تحت تأثير التقاليد القائمة في المدن التي استوطنوها. اما الكوفة، فعلى العكس من تلك المدن، شيدت بصفتها معسكراً في سهل بكر واقع بين الصحراء العربية والحيرة المدينة اللخمية القديمة التي كانت تحت السيادة والتأثير

الثقافي الفارسي. وكان على الكوفة المدينة الحديثة أن تنشئ شخصيتها الخاصة، وهذا لم يكن سهلاً في مثل هذه اللملمة السكانية، حيث عرب الشمال التراريون وعرب الجنوب اليمانيون وفيهم البدو والحضر، وفيهم الإرستقراطيون القدماء أصحاب "بيوت العرب" النبيلة المشهورة، والمهاجرون الجدد ثم الفرس من طبقاتهم المختلفة. ثمة عامل آخر يصبغ أكثرية السكان. فبين السكان العرب أكثرية يمنية تقدر بحوالي ١٢٠٠٠ إلى جانب حوالي ٨٠٠٠ من العرب التراريين الشماليين. وكما بينا في الفصل الأول، فإن العرب الجنوبيين كانوا أكثر ميلاً وحماساً لقبول المثال الشيعي لقيادة الأمة الإسلامية، وذلك لاعتقادهم البعيد في التاريخ، والعميق في تفكيرهم وهو الاعتقاد بالملك/ الكاهن والقداسة الموروثة والتعاقب على القيادة بالوراثة. وأنضم إليهم سكان الكوفة من أصل فارسي وهؤلاء أيضاً كانوا يحملون في أعماقهم تقليداً مشابهاً للقيادة الدينية – السياسية. وهكذا بتضافر جهود وتفكير العرب الجنوبيين والفارسين الذين صاروا يشكلون ثلثي سكان الكوفة، توجه تفكير الكوفيين باتجاه قبول الميول الشيعية. وهذا لا يعني أنه ما من أحد من العرب التراريين كان يؤيد الميول الشيعية كما أنه ليس كل العرب الجنوبيين أيدوا الأفكار الشيعية. وإن أي تصنيف لميول سكان من قبيل سكان الكوفة لن يكون دقيقاً. إن ما قلناه لا يتعدى أن يكون انعكاساً لميول عامة لغالبية السكان مبيناً على خلفيات معينة يمكن كتمها في ظل أعتبارات سياسية – اقتصادية.

ظهر أول توتر في الكوفة على السطح حين اصطدمت المصالح بين مجموعتين قويتين، نفضل أن ندعوهما المتدينون أو التنظيم الإسلامي" الذي ظهر مجددا والأرستقراطية القبلية التقليدية. وتألفت المجموعة الأولى المتدينون" من صحابة النبي الذين ادعوا الحق بالقيادة في الكوفة استناداً إلى إسلامهم المبكر، والخدمات التي قدموها للإسلام، وفوق ذلك احترام النبي لهم. لقد أراد عمر بن الخطاب أن يحكم الكوفة من خلال أصحاب السابقة في الإسلام، وبذلك أراد أن يضعف ويخمد السلطة القبلية. ولذلك لم يسمح لأي فرد ممن ارتدوا عن الإسلام أن يشغل أي مركز قيادي بغض النظر عن القوة التي تمتعوا بها بين قبائلهم. أما المجموعة الثانية (القبليون) القوية المؤلفة من القادة القبليين فكانت دعواهم في الحق بالقيادة مبنية على التقليد العربي القديم القائم على أساس الثروة والمكانة الاجتماعية والقوة واحترام القبائل التي يقودونها. وكان من الطبيعي أنهم لم يستطيعوا التسامح لفترة طويلة مع المكانة الرفيعة وقيادة أولئك الذين لا سلطة قبلية لهم، أو الذين لا ينتمون لعائلات حاكمة.

ما دام عمر حياً لم يستطع قادة القبائل أن يفعلوا الكثير لممارسة قوتهم. وحين توفي عمر واستلم عثمان الضعيف الخلافة سنة ٢٣هـ ٦٤٣م بدأت الأمور تتغير بشكل عنيف، وظهر الصراع على القيادة وقد كان خامداً حتى ذلك الوقت. وساعد تعيين الوليد بن عقبه الأخ غير الشقيق لعثمان وذي الأصل الأرستقراطي حاكماً على الكوفة، ساعد القادة القبليين على استرداد قوتهم وسلطتهم. وبالتالي لا نرى القادة القبليين الأقوياء وحدهم، بل وحتى قادة الردة يعودون بقوة إلى الساحة وبسرعة

يتسلمون زمام الأمور في الولاية.[٥٣] فقد تسلم الأشعث بن قيس الكندي وهو من مشاهير قادة الردة حكم أردبيل، وأخذ معه عدداً كبيراً من الناس لإقامة معسكر دائم هناك تحت إمرته.[٥٤] وتم ذلك رغماً عن قادة كندة مثل حجر بن عدي الكندي الذي كان يتمتع باحترام ديني أكثر منه قبلي.
وهناك مثل آخر وذلك هو تعيين سعيد بن قيس الهمداني حاكماً على الريّ.[٥٥] حيث كان يزيد بن قيس الأرحبي منذ عام ٢٢هـ‍/٦٤٣[٥٦] كان سعيد ينتمي إلى أكثر العائلات تأثيراً في همدان لكن ليس له أي سابقة في الإسلام، في حين كان يزيد حقق موقعاً متميزاً بصفته قائداً اسلاميا، برغم أنه لم يكن له أي موقع متميز في قيادة قبيلة همدان. إن تعيين قائد مثل الأشعث بخلفيته كقائد في حروب الردة ضد المسلمين، وسعيد بن قيس الذي لم تكن له سابقة في الإسلام في المناصب العالية، يعني بغير شك التخلي عن النظام السائد. وغيّر هذا الوضع فجأة تركيبة القوى وأدى إلى عزل القادة السابقين الذين أسسوا وضعهم الاجتماعي وقوتهم على خلفية دينية وليست قبلية. وممن شملهم العزل قادة ذوو اهتمامات خاصة مثل مالك بن الأشتر النخعي والمسيب بن نجبة الفزاري ويزيد بن قيس الأرحبي وعدي بن حاتم الطائي وصعصعة بن صوحان العبدي. وممن عزلوا من مواقعهم نبلاء الكوفة الذين تصفهم المصادر بأنهم من قادة القرّاء،[٥٧] فقد كانوا من أشد خصوم الوليد بن عقبة وخليفته سعيد بن العاص وهو أيضاً من الأرستقراطيين المكيين الأمويين وبالتالي من رجال عثمان الذي سمح لتلك الأرستقراطية القديمة بالسيطرة عليه. ولم يطل الوقت حتى نمت المعارضة وتطورت قوتها وتوسعت أبعادها، وانضم إليها

عدد كبير من الناس ثم قدموا إلى المدينة عاصمة الخلافة. وأصبح سكان الكوفة موزعي المشاعر بين جماعتين:

١- قادة القبائل والبطون الأقوياء بنفوذهم مع من يواليهم من أفراد قبائل قدموا مبكراً. وقد وصف هؤلاء بأنهم "أشراف القبائل

٢- الناس من ذوي التأثير الضعيف من حيث وضعهم القبلي أو صلتهم ببطون معينة ومع ذلك حازوا مواقع خاصة جداً خلال خلافة عمر بفضل سابقتهم في الإسلام، وقد حرموا من قوتهم الآن. وتضم هذه المجموعة معظم الذين قدموا إلى الكوفة في الهجرات اللاحقة، ومنهم عدد كبير من القراء أو المعلمون الدينيون وهم من ميول وخلفيات متنوعة، أو من منشقين عن قبائلهم، ومعظمهم رجال لا قبائل معروفة لهم ومن مختلف الهجرات التي تعاقبت على الكوفة. وكان من الطبيعي أن ينضم الموالي الفرس إلى هذه المجموعة.

بهذه الخلفية السياسية والسكانية والاجتماعية والاقتصادية بدأ الفصل الثالث من تاريخ الكوفة، وهو الأكثر خطورة ودقة. فالفصل الأول شهد إنشاء المدينة عام ١٧هـ ٦٣٨م وتوسيعها حتى وفاة عمر عام ٢٢هـ ٧٤٤م، والفصل الثاني انتهى بوفاة عثمان سنة ٣٥هـ ٦٥٥م، وحدد بداية الفصل الثالث الذي طغت عليه أحداث وصول علي إلى الخلافة في العام نفسه. وكما ذكرنا في الفصل الرابع من هذا الكتاب، فإن علي وصل إلى الخلافة بفضل صوت الأنصار في المدينة المنورة وكتائب الثوار على عثمان القادمين من الولايات. وكانت القوات التي قدمت المدينة من الكوفة بقيادة مالك بن الأشتر أول من بايع علياً. وكان من الطبيعي أن

ينظر إلى تأييد هؤلاء الكاسح لاختيار علي على أنه تهديد خطير لا للأرستقراطية الأموية وحدها التي استولت، خلال اثني عشر من خلافة عثمان على مصادر القوة جميعها، واختصت نفسها بما أرادت من الموارد فحسب، بل وعلى قريش بشكل عام. فبالإضافة إلى معارضة بني أمية لعلي من سورية (معاوية والي دمشق)، فقد ظهر في مكة كتلة من القرشيين معظمهم من الصحابة المهاجرين الذين رغم معارضتهم لبني أمية تحت غطاء أنهم مهاجرون، فإنهم كانوا يفضلون سيطرة قريش على الخلافة.[٥٩] وتوزعت القوة العسكرية بين معسكرين متنافسين، الكوفة والبصرة بحدود جغرافية واسعة تابعة لكل منهما، أما معسكر سورية فكان بكامله تحت سيطرة الأمويين المحكمة.

استغل المكّيون (طلحة والزبير وعائشة وهم الذين مثلوا المعارضة لعثمان، ولم يرضوا باختيار علي مكانه) التنافس بين معسكري البصرة والكوفة، وتحركوا نحو البصرة لاستنهاض تأييد القبائل لهم. وبالتالي لم يبق أمام علي خيار غير الانتقال إلى الكوفة معتمداً على تأييدها الذي أبدته له. وصل علي ومعه حوالي ١٠٠٠ من اتباعه جاءوا معه من المدينة، فانضم إليه فوراً ١٢٠٠٠ كوفي.[٦٠] وشكلوا الجزء الرئيسي من قواته في معركة الجمل. استطاع علي أن يهزم تحالف البصرة ومكة ويسيطر على الوضع في البصرة ويعين عبد الله بن عباس والياً عليها. عاد علي بعدها إلى الكوفة لا ليتخذها عاصمة وإنما لجمع مؤيديه وتنظيم الكوفة من أجل المواجهة الأكثر خطورة مع معاوية.

إن ما يجب ملاحظته هنا هو أنه بينما انضم إلى علي قسم كبير من الكوفيين في معركة الجمل، فإن بعض قادة القبائل الذين توسع نفوذهم خلال خلافة عثمان إما أنهم كرهوا الانضمام إلى علي، وإما لم يقوموا بواجب التزامهم تجاه علي كما يتوقع المرء. وهؤلاء القادة القبليون امثال الأشعث بن قيس وجرير بن عبد الله وسعيد بن قيس فقد شعروا بالخوف الأكيد من علي كما شعر بذلك المكيّون والأمويون. ولكي يقوّي علي سلطته في الكوفة توجب عليه أن يقيم نظاماً اجتماعياً سياسياً إسلامياً نقياً، وهذا اقتضى إعادة القيادة الإسلامية القديمة مكان الأرستقراطية القبلية التقليدية التي انتعشت خلال خلافة عثمان. وكما أوضحنا سابقاً، فقد كان سكان الكوفة مقسمين إلى سبعة أقسام قبلية بحسب السلالات أو التحالفات. ومن خلال هذا التقسيم القبلي استطاعت القيادة الجديدة أيام عثمان أن تتجذر. وكان الإجراء الأول الذي اتخذه علي لإضعاف هذه القيادة هو إجراء تغيير سريع في التركيب الخارجي لهذه المجموعات السبع عن طريق إعادة توزيع القبائل وتحويلها من مجموعة لأخرى. وبهذه الطريقة حاول إعادة السلطة لأولئك القادة الذين يستحقونها على أساس "السابقة في الإسلام" ومن ثم نرى رجالاً مثل مالك بن حارث الأشتر وحجر بن عدي الكندي وعدي بن حاتم الطائي الذين طمستهم القيادة القبلية عادوا إلى الظهور مجدداً. فقد تم عزل الأشعث بن قيس واستلم مكانه حجر بن عدي ومنح قيادة كندة في معركة صفين.[٦١] وصار الأشعث قائداً لبطن جديد مؤلف من مذحج ونخاعة وبعض الفروع الأقل شأناً. ثم قوي مركزه إلى حد بعيد حين

عينه علي والياً على الجزيرة.[٦٢] وأيد علي عدياً بن حاتم ليصبح قائداً أوحد لقبيلة طيء رغم معارضة بعض بطون طيء لهذا الاختيار.[٦٣]

شكل قادة مثل الأشتر وحجر وعدي مع أتباعهم وبخاصة المهاجرين الجدد إلى الكوفة من أبناء قبائلهم العمود الفقري لمؤيدي علي وكانوا نواة شيعة الكوفة. ومن جهة أخرى، فإن قادة البطون الأقوياء الذين استندوا في بناء سلطتهم على قوة قبائلهم فلم يظهروا اهتماما كبيراً بعلي. وقد وضح هذا التباين الحاد بين المجموعتين (القادة الذين عينهم علي والقادة الذين وصلوا للقيادة أيام عثمان) من خلال حقيقة أنه منذ وصول علي إلى الكوفة حثة الأشتر وحجر وعدي باستمرار على مهاجمة معاوية دون تأخير، وبدون الدخول في مراسلات معه، بينما نصحه قادة القبائل الأقوياء في الكوفة بعدم الاستعجال بالتحرك ضد معاوية.[٦٤] وعندما تواجه جيشا علي ومعاوية في صفين وجد هؤلاء القادة أنفسهم في وضع مزعزع. فلم يستطيعوا الابتعاد عن علي وتوجب عليهم الظهور إلى جانبه في المعركة، ومع ذلك بقوا فاتري الهمة. وفي الواقع رأوا أن مصالحهم تتحقق بإفشال المفاوضات بين علي ومعاوية. فقد وقعوا في حيرة، فانتصار علي يعني فقدان سلطتهم القبلية، ومن جهة أخرى فإن انتصار معاوية يعني فقدان استقلال العراق حيث يمارسون فيه سلطتهم. وباختصار، فإن موقف هؤلاء القادة ومنذ وصول علي إلى الكوفة وطوال حياته وخلال الصراع في صفين والتطورات التي تلت صفين ظل كما هو أي أن يبقى الصراع بين علي ومعاوية دون حسم. أما قادة الشيعة فقد حضوا علياً على قتال معاوية وعارضوا التحكيم المقترح ونذروا أنفسهم

لعلي دون أية شروط. أظهر معظم قادة البطون العثمانيون عدم الرغبة في محاربة معاوية، وذهبوا إلى صفين بروح اللامبالاة، وقبلوا فوراً بعرض السلام الذي اقترحه الحكمان.[٦٥]

من المعروف بشكل عام أن القراء هم الذين أجبروا علياً على قبول التحكيم، ولكن يبدو أن قادة القبائل العثمانيين وأتباعهم هم المسؤولون عن ذلك، لأنهم رأوا أنهم لن يربحوا شيئاً من القتال، بل على العكس يربحون كثيراً من جمود الموقف. وكذلك فمن المعروف أن القراء أجبروا علياً على تعيين أبي موسى الأشعري حكماً من جانبه رغم أن سيرة أبي موسى تشير إلى أنه يفضّل جانب المكّيين وسيطرة قريش.

إن مصطلح "القراء" الذي ورد كثيراً في روايات صفين يجب أن يعالج بكثير من الحذر. إن قراء الكوفة الأوائل الذين ثاروا على عثمان اتخذوا من مالك وحجر وعدي قادة لهم وكانوا مؤيدين مخلصين لعلي. وإلى جانب هؤلاء القراء الكوفيين نجد في الروايات التي تحدثت عن مجريات صفين عدداً كبيراً من الناس الذين وصفوا بـ "القراء" بصورة غير أكيدة. وقدم بعض هؤلاء الموصوفين بالقراء من البصرة، وآخرون قدموا من أماكن بعيدة جداً عن حدود ولايتي الكوفة والبصرة. ويبدو أنهم كانوا قبليين حاولوا تحقيق مصالحهم عبر ادعائهم "السابقية في الإسلام" وهؤلاء هم الذين ضللهم قادة القبائل العثمانيون فقبلوا التحكيم ثم ثاروا عليه. وهم الذين صاروا فيما بعد الخوارج، وعقب معركة صفين أضعفوا موقف علي داخلياً في مواجهة معاوية.

إن السبب الرئيسي لموقف "أشراف القبائل في الكوفة" المستاء هو سياسة المساواة التي فرضها علي. فقد أعاد علي نظام توزيع الأرزاق فألغى التمايز بين المهاجرين الأوائل إلى الكوفة والقادمين الجدد، وأقرّ معيار لا السابقة في الإسلام فقط وإنما الالتزام بقيم الإسلام أيضاً. وهذا واضح من خلال الخطب التي ألقاها خلال إقامته في الكوفة، وكما هي معروفة في نهج البلاغة.[66] فعندما قدم علي إلى الكوفة رافقه دفقة من المهاجرين الجدد عاملهم على قدم المساواة بغض النظر عن أماكن سكنهم قبل مجيئهم إلى الكوفة. وكان هذا الإجراء خطراً محدقاً بقادة القبائل العثمانيين الذين اختصوا أنفسهم بنصيب كبير من بيت مال الكوفة، الذي كانت موارده في تضاؤل نظراً لتوقف الفتوحات. وتبع ذلك إقرار علي المساواة بين العرب وغير العرب. وهذا ما أهاج "أشراف القبائل لاعتبارهم أن الموالي بصفتهم الناس المغلوبين، لا تجوز معاملتهم على قدم المساواة مع الفاتحين العرب.[67]

كان من المؤكد والواضح لقادة القبائل وأفراد قبائلهم أنهم تحت حكم علي سيفقدون كل ما استحوذوا عليه بطريقة غير شرعية وبسبب قوة القبائل تحت حكم عثمان. وعلى كل حال، لم يكن بمقدورهم أو من مصلحتهم أن يثوروا على علي ضمن الظروف التي كانت تعيشها الكوفة. ومع ذلك فبعد نتائج معركة صفين غير الحاسمة وبعد ما نتج عن التحكيم غير المرضي وما تبعه، كان قادة القبائل يتقلبون بين اللاإكترات، وبين الخيانة وآرائهم المناوئة لموقف علي. ومع أن علياً أبقاهم في مراتبهم وأماكنهم ضمن جيشه الذي كان يجهزه لملاقاة معاوية الأخير والحاسم،

فإنهم تجاهلوا دعواته للخروج لقتال السوريين. وبدلاً من ذلك أصـــروا علي قتال الخوارج الذين تجمعوا في النهروان.[٦٨] وما كان يعنيهم هـــو المحافظة علي مكانتهم بين قبائلهم، في الوقت الذي هددهم فيه الخوارج بالخطر ولم يكن معاوية كذلك. وبعد هزيمة الخوارج في النهروان، دعاهم علي للتحرك ضد معاوية، ولكن الأشعث والقادة الآخـــرين الأقويـــاء رفضوا لأسباب غير حقيقية ولا معقولة، وهكذا اضطر علي للعـــودة إلى الكوفة.[٦٩] وازداد موقف علي ضعفاً منذ معركة النهروان حيث اكتسب المزيد من الخصوم ضمن أقارب الخوارج الـــذين قتلـــوا في النـــهروان، بالإضافة إلى أن قادة القبائل تقووا بسبب تناقص شعبية علي بين أفـــراد القبائل. وأكثر من ذلك، فمع التحكيم وبعده واصل معاوية اتصـــالاته المستمرة مع هؤلاء القادة، محاولاً كسب تأييدهم من خـــلال عـــروض تعيينهم في مناصب عالية وإغرائهم بالثروة. وهكذا كانوا يفكرون ملياً فيما يخدم مصالحهم أكثر.

إن أفضل ما يوضح موقف الكوفيين هذا هو عدد من الخطب التي ألقاها علي خلال هذه الفترة. ومن هذه الخطب التي ألقاها قبل اغتياله بوقت قصير خاطب الناس قائلاً:

"ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، وسراً وإعلانـــا، وقلت لكم، اغزوهم قبل أن يغزوكم، فوالله ما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا. فتواكلتم وتخاذلتم حتى شنت عليكم الغارات، وملكت عليكم الأوطان... فيا عجباً! عجباً–والله– يميت القلب ويجلب الهم من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم، وتفرقكم عن حقكم! فقبحاً لكـــم وترحـــاً

(الترح: الهم والحزن والفقر) حين صرتم غرضا يرمى: يغار عليكم ولا تغيرون، وتُغزون ولا تَغزون، ويعصى الله وترضون! فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحرّ قلتم. هذه حمّارة القيظ (شدة الحر)، أمهلنا حتى يسبّخ (يخفف) عنّا الحر ، وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء قلتم. هذه صبّارة القرّ، أمهلنا ينصلخ عنا البرد، كلّ هذا فراراً من الحرّ والقرّ، فإذا كنتم من الحرّ والقرّ تفرّون، فأنتم والله من السيف أفرّ يا أشباه الرجال ولا رجال، حلوم الأطفال، وعقول ربات الحجال (النساء)، لوددت أنني لم أركم ولم أعرفكم معرفة –والله– جرّت ندماً، وأعقبت سدما(الهم والأسف والغيظ).

قاتلكم الله! لقد ملأتم قلبي قيحاً، وشحنتم صدري غيظاً، وجرّعتموني نغب التّهام (نغب التّهام: كؤوس الهم) أنفاساً (أي مرة بعد أخرى) وأفسدتم علي رأيي بالعصي والخذلان، حتى لقد قالت قريش: إن ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب.

لله أبوهم! وهل أحد منهم أشد لها مراسا، وأقدم فيها مقاماً مني! لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين، وهاأنذا قد ذرفت (نيفت) على الستين! ولكن لا رأي لمن لا يطاع" [٧٠]

ترك علي سكان الكوفة خلفه منقسمين إلى مجموعتين محددتين ومصالحهما متضاربة، ويمكن تصنيفهما بسهولة أكثر مما كانوا عليه يوم قدم إلى الكوفة قبل خمس سنوات. فأولاً: كان هناك مجموعة من المخلصين له مؤلفة من المسلمين الذين وصلوا الكوفة يوم تأسيسها،ومن الذين هاجروا إليها فيما بعد، وجميع أعضاء هذه المجموعة التزموا مع علي طيلة حياته،

وآمنوا أيضاً بأن القيادة يجب أن تبقى وتستمر في أهل بيت النبي. وفي هذه المجموعة ظهرت اعتبارات ذات طبيعة اجتماعية- اقتصادية، ولكن هذه الاعتبارات برزت بالتوافق مع فكرة قيم العدالة والمساواة وكما اعتقد أفراد هذه المجموعة أنه يمكن تجسيد هذه القيم من خلال قائد ملهم من الله فقط. وكان بين أعضاء هذه المجموعة عدد قليل آمنوا بأن الاعتبارات الدينية والروحية هي القوة الدافعة الوحيدة (الأتقياء)، أما العوامل الاقتصادية برغم تسببها ببعض الأحداث المحددة، فلا علاقة لها بالولاء لعلي، أما الآخرون من أفراد هذه المجموعة فأعطوا للعوامل الاقتصادية دوراً ولكنهم قالوا أن تجسيد هذه العوامل جميعها: " الاقتصادية والدينية الروحية، وقيم العدالة والمساواة" فيمكن تجسيدها من خلال قيادة علي فقط. وبرغم التباين في الآراء بالتركيز على هذا العامل أو ذاك، فإن الجميع اتفقوا على أن القيادة العليا للمسلمين يجب أن تبقى في عائلة النبي.

وثانياً كان هناك مجموعة مؤلفة من بطون متعددة وقادة القبائل (أشراف القبائل) وإلى جانبهم أولئك الذين وجدوا أن تحقيق مصالحهم يعتمد على ولائهم لقادة القبائل. كان هؤلاء جميعاً مهتمين بالحفاظ على مواقعهم السياسية، واحتكاراتهم الاقتصادية التي كانت مهددة بقوة لو استطاع علي تأكيد سلطته في الكوفة. فما كانوا يبالون بمصير علي، وفي الواقع مالوا إلى معاوية الذي رأوا فيه الضمان لمواقعهم ومنافعهم الخاصة. ولكنهم في الوقت عينه ترددوا في التسليم لمعاوية وبالتالي يفقدون فرص المساومة. ولهذا السبب بقوا ظاهرياً ضمن صفوف قوات علي، وباشروا

الضغط على معاوية لضمان تحقيق رغباتهم. وتصنعوا أنهم مؤيدون لقضية الشيعة. وهؤلاء هم الذين ناقشنا حالهم في الفصل الرابع، وهم الذين شكلوا أغلبية المؤيدين السياسيين لعلي.

وبالإضافة لهاتين المجموعتين من ذوي المصالح المتناقضة يجب أن نذكر مجموعة ثالثة مؤلفة من جماهير الكوفة الغفيرة، ومعظمهم من اليمنيين والموالي الذين مالوا بأفكارهم إلى النظرية الشيعية في القيادة، ولكن لم تتوفر لديهم العزيمة لمواجهة أي خطر قد يحل بهم. فحينما يرون أي أمل في نجاح أحد من أهل البيت يتجمهرون حوله، وعملياً يتخلون عنه لحظة يجدون أن الأمل ذوى بعيداً. وفي الحقيقة كانت تنقصهم الشجاعة وثبات الموقف لمواجهة لحظة الامتحان.

والأحداث التي سنصفها في الفصلين التاليين ستشرح تصرفات ومواقف هذه المجموعات الثلاث.

بقي لنا الآن أن نلحظ أنه بعد وفاة علي وتنازل الحسن عن الخلافة وسيطرة معاوية على الكوفة، قام قادة القبائل الأقوياء بدور الوسطاء بين السلطة المركزية في دمشق وشعب العراق (ولاة محليون). واهتمت السلطة الأموية بفرض سيطرتها من خلالهم. وعاد النظام القبلي التقليدي إلى الانتعاش والقوة، وهكذا صارت طريقة الحكم تعتمد على هذا النظام القبلي وعادت السلطة المركزية تدعم قادة القبائل وهم بدورهم يدعمونها. ولحظة توفي علي ظهر الانقسام الحاد في معسكر الكوفة بين مؤيديه الحقيقيين وقادة القبائل ومواليهم، أما الجماهير فكانت تراوح بين

هؤلاء وهؤلاء وكانت السنوات القليلة التالية كافية لتوضيح وتأكيد هذا
التعارض في مصالح الطرفين

ملاحظات الفصل الخامس

١- البلاذري فتوح البلدان. توجمة إلى الإنكليزية فيليب حتي بعنوان: "أصول الدولة الإسلامية" بيروت ١٩٦٦ ص٤٣٤ ياقوت الحموي معجم البلدان، طهران١٩٦٥ جـ٤ ص٣٢٣ الطبري جـ١ ص٢٤٨٥، خليفة بن خياط، تاريخ، تح. زكّار القاهرة ١٩٦٧ جـ١ ص١٢٩

٢- انظر مصادر الملاحظة السابقة.

٣- محمد حسين الزبيدي الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة، القاهرة ١٩٧٠ ص٢٥ ويوسف خليف حياة الشيعة في الكوفة، القاهرة ١٩٦٨ ص٢٣

٤- الطبري جـ١ ص٢٣٦٠ وياقوت معجم البلدان جـ٤ ص٣٢٢

٥- البلاذري، أصول ص٤٣٤

٦- م.هند الأنساق السياسية في الكوفة في القرن السابع، مقال في مجلة الدراسات الإسلامية الدولية في الشرق الأوسط أكتوبر ١٩٧١ ص٣٥١ E

٧- البلاذري أصول ٤٣٥ وياقوت جـ٤ ص٣٢٣

٨- الطبري جـ١ ص٢٤٩٥

٩- سابقه

١٠-عن كنانة. انظر عمر رضا كحالة معجم قبائل العرب، دمشق ١٩٤٩ ص٩٩٦ والعقد الفريد جـ٣ ص٣٣٩ وعن جديلة من قيس عيلان نفسه ص١٧٣ والعقد جـ٣ ص٣٥٠

١١- من أجل معرفة تفاصيل القبائل اليمنية انظر كحالة ص٩٥٧، ٨٤٤ والعقد جـ٣ ص٣٧١، ٣٨٢، ٣٨٥،٣٧٥،٤٠٣،٣٩١،٣٨٨.

١٢- كحالة ص٦٤ العقد جـ٣ ص٣٨٨

١٣- قاد وفد الكوفة إلى المدينة عام ٩هـ ٦٣٠م لقبول الإسلام. كحالة ص٩٩٩

١٤- من مذحج خرجت بطون مهمة مثل نخاعة طيء. انظر كحالة ص١٠٦٢ والعقد جـ٣ص٣٩٣

١٥- كحالة ص٣٠٥ وما يليها والعقد جـ٣ ص٣٦٩

١٦- كحالة ص١٢٢٥ والعقد جـ٣ ص٣٨٩ وما يليها

١٧- كحالة ص١٢٢٥ والعقد جـ٣ ص٣٨٩

١٨- كحالة ص١٢٦ و٣١٥و١٢٣١والعقد جـ٣ ص٣٤٤و٣٤٣و٣٥٣

١٩- كحالة ص٢١و٨٨٨و١٤٢و١٢٠، ٦٦٤، ١١٩٢ والعقد جـ٣ ص٣٩٥، ٣٥٦، ٣٥٨، ٣١٩، ٣٥١، ٣٤٠

٢٠- كحالة ص٢٠ وما يليها

٢١- غير محددي الأصل بعضهم قال أنهم قحطانيون وآخرون قالوا عدنا نيون من الديث بن عدنان. انظر كحالة ص٨٠٢ وما يليها

٢٢- كحالة ص٧٢٦ والعقد جـ٣ ص٣٥٧

٢٣- كحالة ص٧٢٦

٢٤- البلاذري أصول ص٤٤٠ ودائرة المعارف الإسلامية "ديلم" E

٢٥- كحالة ص٧٢٦

٢٦-كحالة ص٦٩١

٢٧- مقاتل ص٦١ وشرح النهج جـ١٦ ص٣٨ وهامش ص١٤٢

٢٨- كحالة ص٦٨٩

٢٩- الطبري جـ٢ ص٣٠٤ وص٢٠٠

٣٠- ماسينون الخطط ص١١ والطبري جـ١ص٣١٧٤ وخليف حياة الشيعة في الكوفة ص٢٩

٣١- ماسينون خطط ص١٥ والطبري جـ٢ ص١٣١

٣٢- الطبري جـ٢ ص١٣١

٣٣- الطبري جـ١ ص٢٢١

٣٤- ياقوت معجم البلدان جـ٣ ص٣٢٤

٣٥- البلاذري أصول ص٣٤٦ و ٤٤٠ وياقوت جـ٤ ص٣٢٣

٣٦- ابن سعد جـ٦ ص٩
٣٧- نفس المصدر السابق ص١٢-٦٦
٣٨- نفس المصدر السابق ص٧ والبلاذري أصول ص٤٤٨
٣٩- ابن سعد جـ٦ ص١٣ والطبري جـ١ ص٢٦٤٥
٤٠- ابن سعد جـ٦ ص٧
٤١- الطبري جـ١ ص٢٤١٤
٤٢- الطبري جـ١ ص٢٤٩٦ ودائرة المعارف الإسلامية مثال عرين E
٤٣- الطبري جـ١ ص٢٦٣٣
٤٤- الطبري جـ١ ص٢٨٠٥
٤٥- الطبري جـ١ ص٢٤١٨
٤٦- ماسنيون خطط ص١٣ و الطبري جـ١ ص٢٤١٨
٤٧- الطبري جـ١ ص٢٤١٨
٤٨- ابن سعد جـ١ ص١١
٤٩- الطبري جـ١ ص٢٤٦٤
٥٠- س.ا.آ علي التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة بيروت طبعة٢ ١٩٦٩ ص٨٨
٥١- سابقه ص٨٢
٥٢- الطبري جـ٢ ص١٠٧٢
٥٣- الطبري جـ١ ص٢٦٦٨
٥٤- الطبري جـ١ ص٢٩٢٧
٥٥- سابقه
٥٦- الطبري جـ١ ص٢٦٥١
٥٧- البلاذري انساب جـ٥ ص٤٦
٥٨- الطبري جـ١ ص٣٠٧٥ ، والإمامة والسياسة جـ١ ص٤٧
٥٩- هند مصدر سابق ص٣٦١ E

٦٠- الطبري جـ١ ص٣١٧٤

٦١- نصر وقعة صفين ص١٠٥

٦٢- ابن الأعثم جـ٢ ص٣٥٠ ونصر وقعة صفين ص١٢

٦٣- الطبري جـ١ ص٣٢٧٩

٦٤- الطبري جـ١ص٣٢٥٦

٦٥- هند مصدر سابق ص٣٦٣ E

٦٦- الخطب رقم ٢١و٢٤و٤٢ واقتصرنا علي واحدة

٦٧- لمعرفة موقف علي من الشؤون المالية والمساواة انظر الطبري جـ١ ص٣٢٢٧

٦٨- مسعودي المروج جـ٢ ص٤٠٤

٦٩- سابقه ص٤٠٧

٧٠- نهج البلاغة جـ١ ص٧٦-٧٩ والكامل جـ١ ص٢٠ مع قليل من الخلاف أخذت النص من نهج البلاغة.

الفصل السادس

تنازل الحسن

خلال السنة الأخيرة من خلافة علي، استطاع معاوية بن أبي سفيان والي سورية ومنافس علي الرئيسي ضم جزء كبير من الإمبراطورية الإسلامية إلى سلطته. كما استطاع مندوبه إلى التحكيم بعد صفين عمرو بن العاص أن يسبغ على سلطته بعض الشرعية رغم أن ذلك تم في ظل ظروف من الغموض والشك. ومع ذلك لم يستطع أن يدعي إمرة المؤمنين ما دام علي على قيد الحياة. فعلي كان هو الخليفة الشرعي الوحيد الذي اختاره المسلمون في المدينة، وهذا ما لم تتنصل منه الأمة الإسلامية، ولم يغيره تصريح أبي موسى الأشعري مندوب علي إلى التحكيم في أذرح ولم يطعن بصحته تثبيت عمرو بن العاص لمعاوية في السلطة، الأمر الذي لم يقبل به المهاجرون والأنصار. ولذلك وبرغم نجاح معاوية العسكري والسياسي فإن ذلك لم يغير في صفته الرسمية وبقي يدعى "بأمير"[1] مهّد اغتيال علي الطريق أمام معاوية لتحقيق طموحاته. سادت الظروف المواتية جداً لمعاوية والمركبة من الضعف التام في المدينة، وخمود نشاط الأتقياء الدينيين وطبيعة المؤيدين العراقيين للحسن بن علي المترددة مضافاً إلى كل ذلك دهاء معاوية مما جعل من السهل عليه إكمال مبادرته التي بدأها يوم مقتل عثمان وهي القبض على الخلافة له ولعائلته من بعده.

بايع الحسن بن علي وفاطمة بالخلافة أربعون ألفاً من الكوفيين مباشرة بعد وفاة علي.[2] تخبرنا المصادر بأن جيش علي في معركة صفين (صفر ٣٣هـ تموز ٦٥٧م) ضم سبعين صحابياً ممن اشتركوا في معركة بدر الكبرى،

وسبعمائة ممن اشتركوا في بيعة الرضوان يوم الحديبية، وأربعمائة آخرين من المهاجرين والأنصار. وكان معظم هؤلاء يسكنون الكوفة عندما كان علي يستعد لمعركته الحاسمة مع معاوية. ومن المفروض أنهم اشتركوا في مبايعة الحسن بن علي خليفة بعد أبيه وإلا فإن المصادر كانت قد ذكرت معارضتهم لهذه البيعة. وهذا ما لم يذكر على الإطلاق. ويبدو أن أهل المدينة ومكة رضوا بالبيعة حين وصلتهم أخبارها، أو على الأقل اكتفوا بالهدوء. وهذا واضح لأننا لا نعثر في المصادر التاريخية على ذكر أي صوت للمعارضة أو الاحتجاج على بيعة الحسن.

ثمة سببان رئيسيان يمكننا ابرازهما لصالح هذا الموقف. الأول عندما توفي علي كان كل صحابة النبي البارزون من المهاجرين تقريباً قد توفوا. وكان سعد بن أبي وقاص هو الوحيد الحي من بين مجلس الشورى الذي عينه عمر عند وفاته؛ وكذلك بالنسبة للطليعة البارزة بين المسلمين فقد أدركتهم الوفاة. أما فيما يخص الجيل الثاني من المسلمين البارزين أمثال عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير ومحمد بن طلحة وعبد الله بن عمر فما من أحد من بين هؤلاء كان قادراً على منافسة الحسن أكبر أحفاد النبي. فأهل المدينة كانوا ما يزالون يتذكرون الحب الغامر والعطف الذي أظهره النبي لحفيديه حين قطع خطبته ونزل عن المنبر لالتقاط الحسن الذي تعثر بثوبه الطويل ووقع على الأرض حين دخل المسجد؛[٤] وحين سمح لحفيديه بالتسلق على ظهره أثناء سجوده في الصلاة.[٥] وثمة روايات عديدة تصف الحظوات غير العادية؛ التي أولاها النبي لحفيديه وهي مسجلة في المصادر الشيعية والسنية أيضاً.[٦] وثمة إجماع بين كتاب السير

على أن الحسن كان عظيم الشبه بجده النبي.[٧] الثاني: لم يكن يتوقع من سكان المدينة ومكة طبيعياً أن يسروا لرؤية معاوية بن أبي سفيان الأموي قائدهم. وأبو سفيان هو الذي نظّم المعارضة ضد محمد وقاد جميع الحملات ضده. ولم يدخل الأمويون بعامة في الإسلام وبخاصة الفرع السفياني الذي لم يسلم حتى فتح مكة؛ ولذلك أعتبر إسلامهم هشاً وغير مبني على قناعة. أما فيما يخص معاوية بالذات فقد اعتمد على تأييد السوريين الذين جمعهم حوله وكان لصيقاً بهم حيث أمضى ما يقارب العشرين عاماً والياً على دمشق، وكذلك على دعم مواليه وأقاربه وحلفائهم الذين تجمهروا حوله. لذلك كان من الطبيعي ألا يعارض سكان الحرمين نواة الأمة خلافة الحسن بن علي، وبخاصة حين كان بديله ابن أبي سفيان وهند.

أما فيما يخص العراقيين فإن الحسن أكبر أولاد علي كان الخيار الوحيد المنطقي، رغم أن مؤيديه لم يكونوا كلهم من ميول واحدة. فخلافة الحسن كانت تعني لبعضهم استمراراً لأسلوب علي في الإدارة ومواجهة معاوية وسيطرة السوريين على العراق. وهناك من رأى في بيعة الحسن أنه الشخص الوحيد الجدير بقيادة الأمة على أسس دينية. وكيفما كانت الظروف والأسباب فإن العراقيين اختاروا الحسن للخلافة بصفته حفيد النّبي من علي وفاطمة. وتشير بيعة الحسن العفوية عقب وفاة علي مباشرة، برغم الشروط المبهمة، إلى شرعية وراثة قيادة الأمة في ذرية علي. ويبدوا أن العراقيين – وحتى في الفترة المبكرة– كانوا واضحين في تمييز سلالة النبي عبر فاطمة من بقية أعضاء الأسرة الهاشمية، وإلا لكانوا

اختاروا عبد الله بن العباس وهو ابن عم النبي وأكبر من الحسن سناً وخبير في إدارة شؤون الحكم بصفته كان والياً على البصرة قرينة الكوفة لعلي.[8] وكانت صلة الحسن القريبة بالنبي هي الميزة البارزة التي استند إليها العراقيون ورددها المصادر.

ومتابعة للعادة التي أوجدها أبو بكر ألقى الحسن خطبته عقب مبايعته بالخلافة. وفي هذه الخطبة-التي أوردها مصادر عديدة لكن بتفاوت في الطول والكلمات- امتدح الحسن خصائص عائلته وحقوقهم الخاصة وميزات والده. وأكد قرابته الفريدة وصلاته الحميمة بالنبي، ووصف جدارته وحقوقه واقتبس الآية القرآنية التي تعلي مكانة أهل البيت.[9] وكان أول من بايع الحسن هو قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري موالي علي المتحمس وقائد جيشه. وقام الأربعون ألفاً الذين بايعوا علياً "على الموت" بمبايعة الحسن فوراً خليفة.[10] ويبدو ان قيس عبر بكلماته الخاصة ونيابة عن الجيش العراقي عن البيعة هي على القرآن والسنة النبوية وعلى شرط قتال الذين أحلوا الحرام. وتجنب الحسن – على كل حال- الشرط الأخير باعتباره متضمناً في الشرطين الآخرين. ولم يكن العراقيون ذوو النزعة القتالية الراغبون في الجهاد ضد معاوية يفضلون استبعاد الشرط الثالث من بين بنود البيعة للحسن، ولكنهم على كل حال بايعوه.[11] وقد بينت الأحداث اللاحقة أن الحسن كان من البداية مشمئزاً من طبيعة العراقيين المترددة وعدم ثباتهم عند الامتحان؛ لذلك تجنب الالتزام بموقف فعال قد يقود إلى كارثة حقيقية كاملة. وكان هو نفسه رجلاً ميالاً للسلم ذا مزاج معتدل يكره أن يرى دماء المسلمين

تراق.[١٢] وعلى كل حال، وبحسب معظم المصادر فإن، نص البيعة الذي أعطاه المبايعون ساعتها نص على " أن يقاتل المبايعون من يقاتل الحسن، ويصالحوا من يصالح الحسن" [١٣]

امتداح العراقيين الحسن بصفته خليفة والاستحسان الضمني أو على الأقل غياب أية معارضة أو احتجاج من الحجاز واليمن وبلاد فارس كان سبباً كافياً لإنذار معاوية، الذي كان يعمل بدأب للوصول إلى الخلافة منذ مقتل عثمان وبعد خمس سنوات من الصراع المستمر وجد طريقاً واضحاً لسلطته المطلقة بعد أن توفي علي. فلم يضيع أي وقت بلا عمل. فبادر إلى استنكار بيعة الحسن بتصريحات شفهية وبرسائل أعلن فيها أنه لن يقبل بالحسن خليفة.[١٤] وأرسل كثيراً من مناصريه وجواسيسه لاستنهاض الناس ضد الحسن. وكان هؤلاء المناصرون يعملون في اليمن وبلاد فارس والحجاز هذه الولايات التي كانت ما تزال تحت سلطة علي حتى وفاته وإن لم يكن يسيطر عليها كلية. وكان هؤلاء الجواسيس ينشطون في قلب العراق والكوفة ذاتها حيث مصدر ثقل مناصري علي. وما من شك البتة حول هذه النشاطات. نشّط معاوية هذه الشبكة التجسسية إلى أبعد مدى ممكن. وثمة رسائل عديدة حول أعمال هؤلاء الجواسيس جرى تبادلها بين الحسن ومعاوية وعبد الله بن عباس ومعاوية.[١٥] ولم ينكر معاوية هذه الأعمال التخريبية. ثم بدأ أخيراً التحضير للحرب واستدعى جميع قواده في سورية وفلسطين والأردن للانضمام إليه، ولم يتأخر في تسيير جيش مؤلف من ستين ألف مقاتل،[١٦] واتخذوا الطريق المعتاد عبر البادية إلى مسكن على الدجلة على حدود الموصل مع السواد. وعندما

أصبح توجه معاوية نحو الحرب واضحاً أصبح الحسن مضطراً لمواجهته، وكان عليه أن يحتل حقل المعركة قبل أن يستطيع هذا الأخير تقوية مركزه أو الانتباه إلى الخلل في إدارة الحسن بعد وفاة والده.

كان الهدف من حركة معاوية السريعة ذا وجهين الأول: لقد أمل من وراء إظهار سلاحه وقوته أن يجبر الحسن على الاتفاق؛ إذا فشل هذا الوجه فإنه يستطيع مهاجمة القوات العراقية قبل أن تدعم مراكزها. وكان الوجه الأول السابق وراء مسير معاوية البطيء فقد تابع إرسال الرسائل للحسن محذراً إياه ألا يلجأ للمواجهة العسكرية ومحفزاً إياه على قبول الاتفاق. إذا خسر الحسن المعركة، فإن ذلك يمنح معاوية السلطة والسيادة فقط؛ أما إذا تخلى الحسن عن حقه فإن هذا يمنح معاوية الأساس الشرعي ويجعل سلطته قانونية أيضاً. وهذا ما كان معاوية يحاول تحقيقه. حتى إذا خسر الحسن وحتى لو قتل فإن الخطر على معاوية يظل قائماً ما لم يتخل عن الخلافة، لأن أي هاشمي يستطيع ببساطة أن يخلف الحسن. أما إذا تخلى الحسن عن حقه في الخلافة لمعاوية فلا يعود للهاشميين الحق في منافسته وبالتالي يصبح موقف الأمويين آمناً. وثبت أن هذه الاستراتيجية صحيحة، كما سنرى فيما بعد. حتى بعد وفاة الحسن بعد تخليه بعشر سنوات، وعندما فاتح العراقيون أخاه الأصغر الحسين نصحهم الحسين بالتريث ما دام معاوية حياً بسبب اتفاق الحسن ومعاوية.

تشكل المراسلات بين الحسن ومعاوية التي استمرت خلال هذه الفترة مادة مفيدة للقراءة وتضيف معلومات مجدية. وقد جادل بعضهما بعضاً حول موضوع الخلافة. في واحدة من الرسائل المطولة التي بعث بها الحسن

إلى معاوية، يوضح الحسن حقه في الخلافة على أساس أن الخلافة تنبعث من نبي الله الذي هو أفضل الرجال على الأرض بامتياز والذي أخرجت هدايته العرب من الظلمات إلى النور وحققت لهم الشرف والمجد حيث كانوا يعانون الخزي والعار، وأن الحسن هو الأقرب إلى النبي بالدم والفكر. ثم يقتبس رأي والده علي حين جادل أبا بكر عقب وفاة النبي قائلاً: إذا كانت قريش أحق بالخلافة من الأنصار على أساس أن النبي من قريش فالأولى أن أفراد عائلته (الهاشميين) وهم الأقرب إليه من كل الجهات أن يكونوا هم الأحق بقيادة الأمة. وفي الجزء الأخير من الرسالة قال الحسن " وقد تعجبنا لتوثب المتوثبين علينا في حقنا، وسلطان نبينا صلى الله عليه وآله وإن كانوا ذوي فضيلة وسابقة في الإسلام، فأمسكنا عن منازعتهم مخافة على الدين أن يجد المنافقون والأحزاب بذلك مغمزاً يثلمونه به، أو يكون لهم بذلك سبب لما أرادوا به من فساده. فاليوم فليعجب المتعجب من توثبك يا معاوية على أمر لست من أهله، لا بفضل في الدين معروف، ولا أثر في الإسلام محمود، وأنت ابن حزب من الأحزاب، وابن أعدى قريش لرسول الله صلى الله عليه وآله، ولكن الله خيبك، وسترد فتعلم لمن عقبى الدار... فدع التمادي في الباطل، وادخل فيما دخل فيه الناس من بيعتي، فإنك تعلم أني أحق بهذا الأمر منك عند الله وعند كل أواب حفيظ، ومن له قلب منيب، واتق الله، ودع البغي واحقن دماء المسلمين. فو الله مالك من خير في أن تلقى الله من دمائهم بأكثر مما أنت لاقيه به، فادخل في السلم والطاعة، ولا تنازع الأمر أهله، ومن هو أحق به منك."[١٧] (ونقل المترجم النص من مقاتل الطالبيين).

وجواب معاوية المفصل للحسن هو أكثر إمتاعا، وبخاصة لأنه استخدم الجدل الذي استخدمه عمر بن الخطاب ضد علي. يقول معاوية

....بلغني كتابك، وفهمت ما ذكرت به رسول الله صلى الله عليه وآله من الفضل، وهو أحق الأولين والآخرين بالفضل كله قديمه وحديثه وصغيره وكبيره فقد والله بلّغ فأدّى، ونصح وهدى، حتى أنقذ الله به من التهلكة، وأنار به من العمى، وهدى به من الضلالة... وذكرت وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتنازع المسلمين من بعده، فرأيتك صرحت بتهمة أبي بكر الصديق وعمر الفاروق وأبي عبيدة الأمين وحواري الرسول صلى الله عليه وآله وصلحاء المهاجرين والأنصار، فكرهت ذلك لك فإنك امرؤ عندي وعند الناس غير ظنين ولا المسيء ولا اللئيم، وأنا أحب لك القول السديد والذكر الجميل.

إن هذه الأمة لما اختلفت بعد نبيها لم تجهل فضلكم، ولا سابقتكم ولا قرابتكم من النبي، ولا مكانتكم من الإسلام وأهله، فرأت الأمة أن تخرج من هذا الأمر لقريش لمكانتها من نبيها، ورأى صلحاء الناس من قريش والأنصار وغيرهم من سائر الناس وعامتهم أن يولوا هذا الأمر من قريش أقدمها إسلاما وأعلمها بالله وأحبها له وأقواها على أمر الله، واختاروا أبا بكر. فكان ذلك رأي ذوي الحجى والدين والفضيلة والناظرين للأمة، فأوقع ذلك في صدوركم لهم التهمة، ولم يكونوا بمتهمين، ولا فيما أتوا بمخطئين، ولو رأى المسلمون فيكم من يغني غناءه أو يقوم مقامه، أو يذب عن حريم المسلمين ذبه، ما عدلوا بذلك الأمر إلى غيره رغبة عنه.

وقد فهمت الذي دعوتني إليه من الصلح، والحال فيما بيني وبينك اليوم مثل الحال التي كنتم عليها أنتم وأبو بكر بعد النبي صلى الله عليه وآله، ولو علمت أنك اضبط مني للرعية، وأحوط على هذه الأمة، وأحسن سياسة، وأقوى على جمع الأموال، وأكيد للعدو، لأجبتك إلى ما دعوتني إليه، ورأيتك لذلك أهلا، ولكني قد علمت أني أطول منك ولاية، وأقدم منك لهذه الأمة تجربة، وأكثر منك سياسة، وأكبر منك سنا، فأنت أحق أن تجيبني إلى هذه المنزلة التي سألتني، فادخل في طاعتي ولك الأمر من بعدي."[١٨] (والنص من المقاتل، المترجم)

رسالة معاوية وثيقة هامة لأنها ترسم فكرة واضحة لاتجاه دولة المسلمين الذي اختارت السير عليه. وتظهر حجج معاوية لحقوقه في الولاية الخطوط العريضة والمبادئ التي اتبعت سابقا لتقرير موضوع الخلافة في حالات الخلفاء الثلاثة الأوائل (أبو بكر وعمر وعثمان)، وادعى معاوية ان الاعتبارات ذاتها يجب أن تبقى هي العوامل المقررة في تلك الفترة وما يليها مستقبلا. فقد كانت مصلحة الدولة ومفاهيم الأمة العلمانية هي التي يجب أن تقرر مصير القيادة (الخلافة).

لم ينف معاوية موقع الحسن السامي فيما يخص قرابته بالنبي، وموقعه المتميز في الإسلام، ولكنه أدعى أن هذا ليس معيارا لقيادة الأمة الإسلامية. وبدلا من ذلك رأى أن المؤهلات المطلوبة للقائد هي القوة الشخصية والسلطة والقدرة على تسيير الشؤون السياسية والإدارية، وتوسيع حدود الدولة، والقدرة للدفاع عن المسلمين وحكم الشعب. وبذلك أوضح معاوية ما كان حتى تلك اللحظة مضمونا: لقد تم الفصل بين مبادئ الدين

والدولة منذ تلك اللحظة. وبالتالي، وبمرور الزمن، فإن الغالبية العظمى من المسلمين ألقت مسؤولية القيادة الدينية على "الجماعة" ممثلة بالعلماء بصفاتهم رعاة الدين ومفسري القرآن والسنة وفي الوقت ذاته يقبلون بسلطة الحكومة بصفتها سلطة موحّدة. وهؤلاء صاروا يعرفون بالسنة ومن جهة أخرى فإن أقلية من المسلمين لم تجد أن هذا الترتيب يحقق طموحاتهم الدينية، وأن تحقيق ذلك يتطلب وجود قائد محبوب ومبجل charismatic leader من آل النبي باعتباره المفسر الوحيد للقرآن والسنة النبوية ، مع أنه فرض على هذه الأقلية القبول بسلطة الحكومة.ودعيت هذه الفئة"الشيعة"

وقبل أن نتابع محاولتنا في ترتيب الأحداث التي أدت في النهاية إلى تخلي الحسن عن الخلافة، فإن لدينا ما نقوله حول مصادر المعلومات الخاصة بهذا الموضوع.

إن الصراع بين معاوية والحسن وهو أحد المفاصل الهامة في تاريخ الجماعة الإسلامية، ما يزال غامضاً، ولم تجر عليه دراسات نقدية دقيقة. فلهوزن قدم موجزاً سريعاً لتخلي الحسن،[19] وهو يتذمر لأن تدوين الأحداث ترافق بغموض وتقطع، بحيث صار من الصعب ترتيب تفاصيل معينة بدقة في مسيرة هذا المنعطف الهام. والترتيب الزمني هو دائماً مشكلة صعبة في تواريخ المسلمين المبكرة. ولكن يبدو أن فلهوزن اعتمد على اليعقوبي[20] والدينوري[21] والطبري[22] في وصفه المختصر لهذا الموضوع. وكلاً من اليعقوبي والدينوري يتغاضيان عن التفاصيل في كتابيهما المحكمين والمختصرين، والبحث في كتابيهما عن رواية شاملة لتخلي الحسن عمل لا

جدوى منه. والطبري يقدم معلومات أكثر من سابقيه، ولكنه لايغطي هذا الموضوع بدقته المعهودة ويترك الباحث غير راض حيال العديد من الأسئلة الهامة. وينقص هذه المصادر الثلاث أنها لم تقدم عرضها للأحداث بتعاقب زمني، وهذا ما يجعل من الصعب تحديد ما إذا كان الحسن تخلى عن الخلافة بإرادته الحرة أو أجبرته الظروف على ذلك.

على كل حال، ثمة مصادر ثلاثة لم يستخدمها فلهوزن، أو أنها لم تكن متاحة له. وهذه المصادر كتبها ابن الأعثم الكوفي،[٢٣] (توفي حوالي ٣١٤هـ ٩٢٦م) وأبو الفرج الأصفهاني،[٢٤] (توفي ٣٥٦هـ ٩٦٧م)، وابن أبي الحديد[٢٥] (توفي ٦٥٥هـ ١٢٥٧م). ينقل أبو الفرج كامل الحدث عن أبي مخنف مع تعديلات وإضافات من خمس سلاسل رواة آخرين ويعلق قائلاً: "هذه الروايات ممتزجة الواحد منها بالآخر، ولكنها قريبة في المعاني." أما ابن أبي الحديد فبرغم أنه مؤلف متأخر فهو من أفضل المخبرين. فهو ينقل روايته عن مؤرخ مبكر مشهور هو المدائني، ويكملها من أبي مخنف. فالجزء الثاني من رواية ابن أبي الحديد مماثل لما أخذه أبو الفرج؛ وحقيقة أن أبا مخنف والمدائني كتبا عن الموضوع مؤكدة من قائمة أعمالهما المذكورة في فهرست ابن النديم[٢٦]

أما "كتاب الفتوح" لأبي محمد أحمد بن الأعثم الكوفي الكندي فيجب إعطاؤه أهمية خاصة، ربما لأنه أحد الأعمال المنظمة والشاملة والمبكرة جداً لفتوح المسلمين الأولى، والنزاع المدني ضمن الأمة الإسلامية. وبحسب تقرير الدكتور شعبان[٢٧]، وهو أستاذ معاصر فإن "كتاب الفتوح" كتب عام٢٠٤هـ ٨١٩ م؛ وهذا معناه أن وفاة ابن الأعثم تمت حوالي

منتصف القرن الثالث التاسع الميلادي وليس عام٣١٤هـ-٩٢٦ م كما أفترض حتى الآن. وفي جميع الحالات فإن تاريخه أثبت أنه المصدر الرئيسي لتاريخ العرب المبكر وخاصة لأحداث العراق. وكان ابن الأعثم محظوظا لأنه حصل على أعمال الزهري وأبي مخنف وابن الكلبي وآخرين أقل تقليدية وبأشكالها الأصلية غير المفسّدة. وطريقته- كما يتضح من كتاب الفتوح- هي مزج روايات سابقيه في سرد مترابط متماسك وبدون تفسيرات أو ذكر لمصادره بالتفصيل. لكنه حين يروي حدثاً هاماً يسمي مصدره؛ وفي مثل هذه الحالة فإن المدائني يحتل المقام الأول. وبرأي شعبان أن ابن الأعثم عاصر المدائني لذلك حاز سبقاً من خلال اقتباسه هذا المصدر العظيم (المدائني) خلال حياته.[٢٨] بمقارنة روايات ابن الأعثم بروايات المدائني كما سجلها تظهر أن ابن الأعثم لم يزودنا بما ندقق به روايات الطبري فحسب، ولكنها بقيت محفوظة في كتاب الفتوح. وبالتالي فإن سلسلة الأحداث التي جرت للحسن كما دونها المدائني قد وصلتنا كاملة من خلال ابن الأعثم. وهذا ثابت من خلال مقارنة رواية ابن الأعثم برواية ابن أبي الحديد، الذي ينقل عن المدائني أيضاً؛ ولكنه يقدم رواية موجزة لتخلي الحسن عن الخلافة، أما ابن الأعثم فسجل وصفاً كاملاً لمسيرة الأحداث كما رواها المدائني.

لقد زودتنا هذه المصادر الثلاثة بنصوص كاملة للمراسلات المطولة بين الحسن ومعاوية، وقد اقتبسنا رسالتين منها سابقاً. وليس ثمة شك في صحة هاتين الرسالتين. وهناك تراث غني في المراسلات المتبادلة بين شخصيات هامة خلال الفترة الكلاسيكية الإسلامية.[٢٩] ومراسلات الحسن ومعاوية

جزء من هذا التراث، ويجب إعطاؤه أهمية مناسبة. إن دراسة جميع المصادر التي اهتمت بهذا النوع من الأدب تعيننا على تشكيل صورة أوضح لهذه الفترة مما كانت عليه حتى الآن.

يروي الطبري الأحداث في روايتين مستقلتين الأولى عن الزهري والثانية عن عوانة. ويبدو أن رواية الزهري تميل لصالح موقف معاوية على حساب الحسن،[٣٠] أو على الأقل تتغاضى عن التفاصيل التي تضعف موقف مؤسس الخلافة الأموية. وهذا مفهوم لأن الزهري كان على صلة وثيقة بالقصر الأموي، وكان يكتب تحت رعاية خلفاء معاوية. فروايته غامضة ومعزولة بمعنى أنها وحيدة لم يسجلها أي مصدر آخر؛ وهي على عكس رواية عوانة التي تبدو أكثر توازناً في وصفها للظروف التي أدت إلى تخلي الحسن. وتحمل رواية عوانة مصداقية تاريخية، فهي تتوافق إلى حد كبير مع روايات مؤرخين آخرين مثل اليعقوبي والدينوري.

بحسب الزهري، كان الحسن ميالاً منذ البداية لتسليم الخلافة لمعاوية مقابل ضمان أفضل للشروط التي يمكنه حيازتها من منافسه لنفسه. وكان علي قبل وفاته قد ائتمن قيس بن سعد أحد ثقاته ومؤيديه المتحمسين على قيادة جيشه المؤلف من أربعين ألف مقاتل ليقودهم ضد معاوية. وكان قيس عدواً لدوداً لمعاوية والسوريين، وبايع علي على الموت. وعرف الحسن أن قيس لن يوافق على خطته بالتخلي لصالح معاوية، لذلك عزل قيس وعين مكانه عبد الله بن عباس. وكان الكوفيون مترددين حيال نوايا الحسن لأنه لم يلتزم بحرب معاوية عندما بويع بالخلافة. وسرعان ما أدركوا أن الحسن لم يكن الشخص المناسب لقيادتهم ضد خصومهم

السوريين، وبالتالي ازدادوا قلقاً. ولم يمض وقت طويل حتى أدرك الحسن شعورهم السلبي تجاهه، فقد هوجم وجرح في فخذه. وعلى العكس من جميع المؤرخين الآخرين، فإن الزهري لم يحدد مكان وتاريخ الهجوم على الحسن، مما يجعل روايته أكثر غموضاً والتباساً.

وعقب الهجوم عليه أسرع الحسن بالكتابة إلى معاوية معلناً اعتزاله الخلافة بشرط تسلمه مبلغا معيناً من معاوية. وحالما أرسل الحسن رسوله إلى معاوية، أجاب معاوية بأن أوفد رسوله الخاص إلى الحسن ومعه ورقة بيضاء في أسفلها توقيع وخاتم معاوية مما يعني أنه سمح للحسن بوضع شروط الاتفاق التي يريدها مقابل التخلي، وتم وصول الرسالتين لكل منهما. وعندما تلقى معاوية رسالة الحسن وفيها قراره بالتخلي من غير شروط صعبة طار فرحاً، واحتفظ برسالة الحسن دلالة على تخليه، وأعلمه بقبوله بجميع شروطه. وعندما تسلم الحسن رسالة معاوية التي تترك له حرية التصرف (شيك على بياض)، أضاف الحسن مطالب مالية أخرى عليها. وأثناء اجتماع الحسن ومعاوية سأله الحسن أن يعطيه الشروط التي شرط في السجل الذي ختم معاوية في أسفله، ويتجاهل رسائله السابقة. فأبى معاوية أن يلتزم بشروط هذا السجل (الرسالة)، وقال: لك كل ما كنت كتبت إليّ سابقاً–فقال الحسن وأنا قد اشترطت حين جاءني كتابك، وأعطيتني العهد على الوفاء بما فيه. فاختلفا في ذلك، فلم ينفذ معاوية للحسن من الشروط شيئاً. ولم يستطع الحسن الحصول من معاوية على أي شيء، وأسف لتسرعه في كتابة شروط اتفاق تخليه.[٣٢]

يخبرنا الزهري أيضاً أنه حالما لاحظ عبد الله بن عباس أن الحسن كان يناقش بنود تخليه مع معاوية، سارع هو نفسه سرّاً إلى التعامل مع معاوية من أجل سلامته وضمان الحصول على مبلغ من المال. ووافق معاوية بسرعة على شروط ابن عباس، ولذلك غادر ابن عباس معسكر الحسن إلى معسكر معاوية تحت جنح الظلام.[٣٣] وحالما وجد جيش الحسن نفسه من غير قائد، اختار قيس مرة أخرى قائداً لهم بشرط أن يتابع الحرب حتى يضمن أتباع علي عفواً عنهم وسلامة ممتلكاتهم. واستطاع قيس الحصول على هذه التنازلات من معاوية بسهولة فمعاوية كان يرغب بتوفير التسهيلات إذا كانت تمكنه من الوصول إلى تسوية سلمية تجنبه الصدام مع جيش قيس القوي. وقدم عرضاً مباشراً لقيس نفسه، ولكن قيساً رفض المال الذي عرضه عليه معاوية، ومن غير أي اتفاق يخصه نفسه، تخلى عن المقاومة بشرط ضمان العفو عن الجيش العراقي وسلامته.[٣٤]

إن ذرائعية Pragmatism الزهري في روايته لأحداث تخلي الحسن تثير أسئلة أكثر مما تقدم إجابات. هذه الرواية التي تشير إلى مقاومة ضعيفة من طرف الحسن، صنعها الأمويون الذين، تجاهلوا المبادئ الثلاثة: الإجماع والنص والشورى التي حددت اختيار الخلفاء الأربعة السابقين وبحثوا عن أساس شرعي لحكمهم. إن تخلي الحسن الطوعي لمعاوية، كما أرادنا الزهري أن نعتقد يزود الأمويين الخلفية الشرعية (القانونية). ومن الطبيعي أن الزهري في ظل أمويي دمشق تبنى التقليد السائد والمعروف هناك. وليست الأحداث التي أدت إلى تخلي الحسن هي بالبساطة كما صورها الزهري.

أما رواية عوانة كما هي في الطبري ومصادر أخرى ذكرناها سابقاً تقف على نقيض رواية الزهري. فبحسب عوانة لم يقد قيس كامل جيش علي خلال حياته، وإنما قاد طليعة مكونة من ١٢٠٠٠ مقاتل، واستمر في قيادتها حين خلف الحسن أباه. وحين وصلت أخبار توجه معاوية نحو العراق، أرسل الحسن قيس مع قواته كطليعة لمراقبة جيش العدو حتى يصل الحسن بكامل قواته.[٣٦] وبحسب اليعقوبي وأبي الفرج وابن أبي الحديد ارسل الحسن طليعة جيشه بقيادة عبيد الله بن عباس وأرسل معه قيس بن سعد وسعيد بن قيس بصفتهما مستشارين يعتمد عليهما عبيد الله في قراراته.[٣٧] وسبب تأخر الحسن هو قلة حماس مؤيديه للحروب. وهذا واضح من رواية تقول أنه عندما ناشد الحسن الكوفيين الخروج للقاء معاوية تلقى استجابة بائسة. ولم يتحركوا حتى خطب فيهم عدي بن حاتم مؤيد علي القديم وزعيم قبيلة طيء حاثاً إياهم على الاستجابة لدعوة إمامهم "ابن بنت رسول الله" [٣٨]

وحالما غادر الحسن الكوفة مع جيشه الرئيسي ووصل المدائن وعسكر هناك، كان قيس قد وصل إلى مسكن وتقابل مع جيش معاوية. وعرض معاوية على قيس رشوة من مليون درهم إن هو تخلى عن الحسن وجاءه. رفض قيس العرض بإزدراء قائلاً "أردت ان تغشني في ديني" [٣٩] عندئذ قدم معاوية العرض نفسه لعبيد الله ابن عباس أو لأخيه الأكبر عبد الله الذي قبله، وانضم إليه مع ٨٠٠٠ مقاتل. وهكذا بقي قيس مع ٤٠٠٠ مقاتل منتظراً قدوم الحسن.[٤٠] ومما تجب ملاحظته هنا هو أنه رغم أن عبيد الله انضم إلى معاوية فعلاً قبل تخلي الحسن، فإن التوقيت الذي ذكره

اليعقوبي يبدو خاطئاً. والأصح أن هروب عبيد الله حصل قبل وقت قصير من تخلي الحسن، كما سنذكر لاحقاً.

بينما كانت طليعة جيش الحسن منتظرة في مسكن وصول الحسن وجيشه الرئيسي، تعرض الحسن في المدائن لموقف خطير. فقد ثار عليه جزء من جيشه ونهب خيمته ووثبوا عليه نفسه. وهناك خمس روايات لحادثة التمرد هذه في المصادر. فبحسب عوانة[٤١] أن أحدهم اندفع ينشر الأخبار في معسكر الحسن أن قيس خسر المعركة وقتل وهربت قواته. عندئذ هاجم جيش الحسن خيمته ونهبها وهجم عليه نفسه. إذا كانت هذه الرواية صحيحة، فإن انتشار الشائعة يدل على أنها خدعة مخططة بدقة وعملية جاسوسية قام بها جواسيس معاوية الذي-بدون أدنى شك- نفذ إلى كبار قواد جيش الحسن وعرف مواقفهم الضمنية بدقة. الرواية الثانية سجلها اليعقوبي،[٤٢] الذي يقول أنه حالما وصل الحسن إلى المدائن، أرسل معاوية المغيرة بن شعبة وعبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن أم الحكم إلى الحسن بصفتهم وفد وساطة. وتحادثوا سراً مع الحسن وحالما خرجوا من خيمته نشروا خبر أن الحسن وافق على التخلي لصالح معاوية، عندها وثب جيش الحسن عليه ونهب خيمته. ويذكر اليعقوبي أيضاً أن معاوية أرسل رجالاً إلى معسكر الحسن لينشروا الأخبار بأن قيساً صالح معاوية وانضم إليه، وفي الوقت عينه نشر الأخبار بين قوات قيس أن الحسن صالح معاوية.[٤٣] وفي هذه الرواية أيضاً تكون أجهزة معاوية مسؤولة عن عصيان جيش الحسن.

والرواية الثالثة جاءت في الدينوري، وفيها أن الحسن غادر الكوفة إلى المدائن وحين وصل ساباط في ضواحي المدائن أدرك أن قسماً من قواته يظهر التردد وغياب الهدف واللامبالاة وكره الحرب.[٤٤] فخطبهم قائلاً: " أيها الناس، إني قد أصبحت غير محتمل على مسلم ضغينة، وإني ناظرلكم كنظري لنفسي، وأرى رأياً فلا تردوا عليّ رأيي، إن الذي تكرهون من الجماعة أفضل مما تحبون من الفرقة، وأرى أكثركم قد نكل عن الحرب، وفشل عن القتال، ولست أرى أن أحملكم على ما تكرهون."[٤٥]

عندما سمع قومه هذا، نظر بعضهم إلى بعض، مظهرين ارتيابهم. وكان بينهم من يميل إلى رؤيا الخوارج، وقالوا "كفر الحسن كما كفر أبوه قبله" ووثبوا عليه، وسحبوا السجادة من تحته، ومزقوا قميصه. فطلب المساعدة من أنصاره من ربيعة وهمدان الذين هرعوا إليه ودفعوا الواثبين عليه.[٤٦]

الرواية الرابعة أوردها ابن أبي الحديد،[٤٧] نقلاً عن المدائني، فيقول أنه بينما كان الحسن في طريقه إلى المدائن جرح برمح في ساباط ونهبت خيمته، وعندما وصلت هذه الأخبار إلى معاوية، نشرها في كل الأنحاء، عندها هجر الأشراف والقادة بين طليعة جيش الحسن المؤلفة من ١٢٠٠٠مقاتل وانضموا إلى معاوية. أخبر عبد الله ابن عباس الحسن بالموقف الخطير، وعندها دعا الحسن القادة العراقيين في كل جيشه وبأسف كبير أخبرهم بنيته بإنهاء الصراع والتخلي عن الخلافة. وقبل الانتقال إلى الرواية الخامسة، نرى أن من الأنسب أن نذكر انه بناءً على الروايات الأربعة فإن

قرار الحسن بالتخلي فرضته الظروف، ولم يكن قراراً نابعاً من إرادته الحرّة.

الرواية الخامسة سجلها ابن الأعثم و أبو الفرج،[٤٨] وهي غير واضحة. فابن الأعثم غالباً لا يذكر مصدره. أما أبو الفرج فيقتبس في البداية أبا مخنف بالإضافة إلى خمسة مخبرين آخرين. وبذلك لم نعد نعرف إن كان ينقل عن أبي مخنف أم من مصدر آخر من الخمسة. فبحسب روايته، أنه عندما وصل الحسن إلى المدائن توقف فجأة هناك وألقى خطبة أعلن فيها عن نيته في التخلي. ونص الخطبة التي نقلها أبو الفرج مماثلة لما نقلناه عن الدينوري سابقاً مع القليل من الاختلاف في المفردات. وفي نهاية الخطبة هاجمه جيشه ونهب ممتلكاته وشق قميصه. هذه الرواية على عكس الروايات التي وصفناها أعلاه ، لم تبين سبب قرار الحسن لإلقاء هذه الخطبة في تلك الساعة الخطيرة في المدائن، وبالتالي تبدو مبهمة. وهي تبرز تناقضات خطيرة، وتثير أسئلة عديدة لا نجد لها جواباً. قد يسأل المرء مثلاً لماذا دعا الحسن شعبه وألقى الخطب فيهم وشجعهم على الانضمام إلى جيشه لحرب معاوية، كما نقلنا سابقاً عن أبي الفرج نفسه. لماذا خرج من الكوفة إلى المدائن مع ما كلفه ذلك من تحضيرات، ثم فجأة يغير رأيه ويعلن نيته في السلم في المدائن؟ هنا نجد ان علينا أن نقبل إحدى الروايات الأربعة السابقة ولعل رواية الدينوري هي الأكثر احتمالاً والتي تؤكد أن خطبة الحسن وإعلانه الاستقالة من الخلافة يعودان إلى موقف الخونة العراقيين. وختم هذا الموقف نجاح معاوية في استخدام الجاسوسية والدبلوماسية.

فبعد المعاملة التي تلقاها من قواته، وجد الحسن المحبط واليائس أن من المستحيل البقاء في معسكره؛ فركب فرسه بحراسة المخلصين من مرافقيه وأتباعه وسلك طريقاً آمناً إلى القلعة البيضاء في المدائن وهي مقر واليه. وقبل أن يصل القلعة كمن له خارجي متطرف هو الجراح بن سنان الأسدي، وطعنه بخنجر في فخذه هاتفاً "لقد كفرت مثل أبيك قبلك."[49] ولكن الجراح حوصر وقتل؛ ثم حمل الحسن الجريح وهو ينزف إلى القلعة، حيث اعتنى به واليه عليها سعد بن مسعود الثقفي. وأشاع معاوية ما جرى للحسن. وهذا ما ضاعف تخاذل جيش الحسن المتردد أصلاً، وأدى إلى هروب الكثيرين من قواته.

بعد هذا الوصف، لا يقدم لنا اليعقوبي والدينوري والطبري إلا تفاصيل قليلة لوصف الأحداث اللاحقة، بل أسرعوا في وصف تخلي الحسن، برغم أن اليعقوبي والدينوري يحويان جملاً قليلة وعرضية ليس لها إلا قيمة تاريخية ضئيلة. وإذا أخذنا في الاعتبار اسلوبهما، يصبح هذا الإيجاز مفهوماً، بينما يصف لنا ابن الأعثم وأبو الفرج بالتفصيل الأحداث التي وقعت بين الهجوم على الحسن وتخليه. وثمة اختلاف في روايتيهما يجب معالجته على انفراد.

تقول رواية ابن الأعثم أنه بينما كان الحسن يواجه هذه الصعوبات في المدائن، كانت طليعة جيش الحسن الـ ١٢٠٠٠ مقاتل بقيادة قيس بن سعد في معسكر مسكن بمواجهة جيش معاوية، منتظرة وصول جيش الحسن الرئيسي. وحالما علم قيس بالهجوم على الحسن رأى أن من الأفضل إشغال قواته بالاشتباك مع جيش معاوية، كي لا يتاح لهم الوقت

لإطالة التفكير بالموقف، وبالتالي هبط معنوياتهم. وبالفعل جرى الاشتباك ونتج عنه خسارة في الجيشين. عندها قدم موفد معاوية إلى قيس وقال له "لماذا تقاتلنا الآن وتقتل نفسك؟ لقد وصلتنا الأخبار المؤكدة بأن سيدك تخلى عن أتباعه، وطعن بخنجر وهو الآن مشرف على المـوت. وعليـك وقف القتال حتى تصلك الأخبار المؤكدة عن الوضع" وهكذا أجبر قيس على وقف القتال وانتظر وصول الأخبار الرسمية عما حدث من الحسن. وخلال ذلك بدأت قواته بالهروب إلى معاوية. وعندما عرف قيس ذلك كتب إلى الحسن بخطورة الموقف.[51]

وحين استلم الحسن رسالة قيس انتابه اليأس، فـدعى قـادة العـراقيين وأشرافهم وخطب فيهم وهو محزون مشمئز قائلاً "يا أهل العراق، ماذا أفعل بكم وأنتم معي؟ هذا كتاب قيس بن سعد يخبرني أنه حتى الأشراف منكم قد انضموا إلى معاوية. والله، إنها لصدمة وسلوك شنيع مـنكم! أنتم أكرهتم أبي على قبول التحكيم في صفين؛ وبعد أن حصل التحكيم الذي طلبتموه انقلبتم عليه. وحين دعاكم لقتال معاوية مـرة أخـرى تكاسلتم وفترتم. وبعد موت أبي جئتموني وبايعتموني برغبة منكم وإرادة. فقبلت بيعتكم وخرجت إلى معاوية؛ والله وحده يعرف كم كنت أقصد ذلك. والآن عدتم إلى قديم عهدكم. يا أهل العراق، لقد نلت منكم ما يكفي، ولا تضلوني في ديني، لأنني الآن سأترك هذا الأمر لمعاوية."[52] [إن المترجم يعبر عن بالغ أسفه لأنه لم يستطيع العثور على المصدر الذي نقل عنه المؤلف فترجم النص بأقرب ما استطاع لأسلوب الحسن(ع)].

ويقدم اليعقوبي السبب نفسه لقرار الحسن، رغم أنه يتحدث عن الموضوع باختصار شديد.

إذا كانت هذه الخطبة صحيحة، فهي كافية لتفسير كامل الموقف والظروف التي حدت بالحسن للتخلي عن الخلافة لمعاوية. وهذه الخطبة تعكس بوضوح تام أن الحسن كان منذ البداية وحتى منذ صفين مرتاباً بتصرفات العراقيين التي لايصح الإعتماد عليها. فهم بالنسبة للحسن قوم ينقادون لنزواهم، ويتكلمون بعاطفة، ولكن عندما يأتي وقت العمل والامتحان لا يثبتون. هذه الحقيقة حول تخلي الحسن لم تذكرها المصادر بالتفصيل، ولكنها تظهر بوضوح أكثر حين دعوا أخاه الحسين ليقود ثورهم. وكل الذين نصحوا الحسين بعدم الاستجابة لدعوهم ذكروه بتخاذلهم عن نصرة أبيه وأخيه في أوقات الشدة.[٥٣] ولم تكن مشاعر الحسن إلا صدى لموقف علي من غالبية أنصاره العراقيين، ذلك الإحساس الذي عبّر عنه أكثر من مرة في خطبه المبثوثة في نهج البلاغة ومصادر أخرى كثيرة.

وبعد هذه الخطبة أمام أهل العراق، أرسل الحسن خبراً لمعاوية يعلمه فيه بأنه رضي بالتخلي عن الخلافة. وحين وصلت أخبار هذا القرار إلى قيس، أخبر مقاتليه؛ والآن عليكم أن تختاروا أحد اثنين "إما أن تقاتلوا بغير إمام وإما أن تبايعوا الضال معاوية." فأجابوه "البيعة أهون علينا من سفك الدماء." بعدها انسحب قيس وقليل ممن معه من مسكن عائدين إلى الكوفة. ومن الملاحظ أن اسم عبيد الله بن عباس لم يظهر في هذه الرواية.

نعود الآن إلى أبي الفرج، فروايته تخبرنا أن قائد طليعة جيش الحسن المؤلفة من ١٢٠٠٠ مقاتل كان عبيد الله بن العباس وليس قيس بن سعد. وأن معاوية وعبيد الله بن العباس وصلا معسكن مع جيشهما في مساء اليوم نفسه الذي وصل فيه الحسن المدائن. وفي صباح اليوم التالي وبعد صلاة الفجر وبينما كان الحسن يواجه عصيان قواته، ويصاب بجرح، حصلت مواجهة قصيرة بين معاوية وعبيد الله. وعند وقوع الليل أرسل معاوية رسالة إلى عبيد الله قائلاً " إن الحسن قد راسلني وإنه راغب في السلم، وتسليم الأمر إلي. فإما تنضم إلي وأنت متبوع، وإما أنفذ إليك وعندها تأتي وأنت تابع. ولك إن جئتني الآن أن أعطيك ألف ألف درهم نصفها الآن ونصفها عندما أدخل الكوفة."[٥٤]

وخلال الليل انسل عبيد الله بن العباس إلى معاوية. وانتظره القوم في الفجر كي يأتيهم ويؤمهم في الصلاة. وعندما بحثوا عنه ولم يجدوه جاء قيس وأم الصلاة، وبعدها ألقى خطبة حماسية هاجم فيها عبيد الله وأباه العباس وأخاه عبد الله لتراخيهم وترددهم في تعاطيهم الشؤون السياسية. وحين سمع الناس كلام سعد صاحوا "الحمد لله ترك عبيد الله معسكرنا، والآن سننهض للقاء عدونا"، وبدأ الهجوم. فتقدم بسر بن أرطأة وهو من يثق به معاوية مع ٢٠٠٠٠ مقاتل وصاح "هذا هو قائدكم عبيد الله معنا، وقد بايع معاوية، والحسن وافق على الصلح، فلماذا تقتلون أنفسكم؟" عندئذ خاطب قيس أصحابه قائلاً "اختاروا أحد اثنين: إما أن تقاتلوا بغير إمام وإما أن تبايعوا معاوية بيعة ضلال وخداع." فأجابه أصحابه أنهم سيقاتلون حتى بغير إمام، وقاموا بهجوم سريع على قوات

معاوية، ثم عادوا إلى مخيمهم. حين اتضح لهم أن الحسن وافق على التخلي، عادوا إلى الكوفة.[55]

إن عرض أبي الفرج للأحداث ما بين الهجوم على الحسن وتخليه هام لأنه يقدم توقيتاً منطقياً ومفهوماً لقرار عبيد الله الذي روته المصادر الأخرى بشكل مبهم. ورواية أبي الفرج توضح أيضاً حال الأخوين ابني العباس، فالذي فرّ إلى معاوية هو عبيد الله وليس أخاه الأكبر عبد الله المذكور في رواية الزهري فقط. وعلى كل حال، فإن أبا الفرج يذكر أن العراقيين أجابوا قيساً بأنهم سيتابعون القتال حتى بدون إمام، وهذه الرواية يجب رفضها، وذلك ببساطة لأنها تخالف رواية المصادر الأخرى التي أجمعت على أن تلك القوات كانت تفضل مبايعة معاوية.

أما بنود وشروط اتفاق تخلي الحسن فكما هي في المصادر ليست متباينة فقط لكنها مبهمة ومشوشة أيضاً. فاليعقوبي والمسعودي لا يذكران بنود الاتفاق أبداً. ويذكر الطبري ثلاثة شروط مباشرة ويذكر الرابع مواربة في سياق مختلف. فالشروط الثلاثة هي

١- أن يحتفظ الحسن بخمسة ملايين درهم الموجودة يومها في خزينة الكوفة.
٢- أن تكون موارد دار بيجرد الفارسية السنوية للحسن.
٣- ألا يسب علي أو يهان، كما جرت عادة معاوية منذ خلافة علي أو على الأقل ألا يتم ذلك بحضور الحسن.[56]

أما الشرط الأول القاضي باحتفاظ الحسن بما في خزينة الكوفة لغير معقول لسببين ظاهرين. الأول لأن الحسن حتى تخليه كان الخليفة الحاكم الوحيد في الكوفة، وبالتالي كانت محتويات الخزينة بتصرفه. الثاني تؤكد مصادرنا أنه كان من عادة علي أن يفرغ الخزينة في نهاية كل أسبوع. وهكذا يصبح من الصعب القبول بأنه خلال أشهر معدودة من خلافة الحسن صارت الخزينة تحوي خمسة ملايين درهم. وبخاصة أن الحسن قاد جيشاً للحرب مما يعني أنه دفع نفقات باهظة لتجهيزه.[٥٧] وكانت الإدارة التي تجمع الضرائب في حالة فوضى بسبب موت علي المفاجئ. ومن المهم ملاحظة أنه بعد فجوة كبيرة في تاريخه وصف فيها وحشية بسر بن أرطأة في إدارة البصرة، عاد فذكر الشرط الرابع من شروط تسليم الخلافة لمعاوية.

وفيه يخبرنا أن الحسن اشترط على معاوية ألا يضار أصدقاء وأنصار وأولياء علي حيثما كانوا بل يجب ضمان سلامتهم.[٥٨] وهذا الشرط ذكرته المصادر الأخرى في مكانه المناسب.

أما الشروط التي ذكرها الدينوري فهي:

١- أن لا يحتقر أحد من أهل العراق، وأن تضمن سلامة كل فرد بغض النظر عما قد ينسب إليه من تهمة أو فعل.

٢- أن تكون الواردات المالية لمنطقة الأهواز من نصيب الحسن (بدلاً من داربيجرد كما ذكر الطبري).

٣- أن يفوق نصيب الهاشميين (العلويين والعباسيين) من العطاء نصيب بني عبد شمس (الأمويين).[٥٩]

أما ابن عبدالبر وابن الأثير وهما من أصحاب الرأي السديد، وقد كتبا عن حياة صحابة النبي، ومصادر أخرى فأضافت شرطين آخرين وهما:

١- ألا يؤخذ من أحد من سكان المدينة والحجاز و العراق أي من الممتلكات التي حازوها أيام خلافة علي.

٢- أن تعاد الخلافة إلى الحسن بعد معاوية.

يبدو أن أبا الفرج لم يكن مهتماً بذكر الشروط بالتفصيل. فهو يذكر أن معاوية أرسل كلاً من عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سمرة وفداً إلى الحسن لمناقشة شروط السلم. "وضمنا شروط السلم للحسن، وهي الشروط التي وافق عليها معاوية وهي ألا يساء لأحد من شيعة علي. ألا يذكر علي إلا بخير، وأشياء أخرى طلبها الحسن."[٦١]

أما الرواية الأشمل فقد وردت عند ابن الأعثم، ويجب أن تكون مأخوذة عن المدائني، لاسيما وأن ابن أبي الحديد[٦٢] قد ذكر الشروط نفسها وقد اقتبسها من المدائني بصفته مخبره. فبحسب ابن الأعثم أنه بعد أحداث المدائن وبعد خطبة الحسن أمام أشراف العراق -كما ذكرنا سابقاً- أرسل عبد الله بن نوفل بن الحارث إلى معاوية ليخبره برغبة الحسن بالتخلي، ومناقشة شروط الاتفاق معه نيابة عن الحسن. وكان الشرط الوحيد الذي طلبه الحسن هو العفو العام عن الجميع. وعندما وصل عبد الله إلى

مسكن، أخبر معاوية أن الحسن فوضه بمناقشة شروط السلام نيابة عنه، وكانت شروطه هي

١- أن تعود الخلافة للحسن بعد وفاة معاوية.
٢- أن يستلم الحسن خمس ملايين درهم من خزينة الدولة.
٣- ان يستلم الحسن الموارد المالية السنوية لمنطقة داربيجرد.
٤- أن تضمن سلامة جميع الناس."[١٤]

وحالما سمع معاوية هذا أخذ صحيفة بيضاء، ثم وقع في أسفلها وختمها وقال لعبد الله "خذ هذه الصحيفة الموقعة والمختومة carte blanche للحسن وقل له ليكتب فيها ما يشاء." وطلب معاوية من صحبه أن يشهدوا على توقيعه ووعده. عندها عاد عبد الله وجماعة من قريش منهم عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سمرة وآخرون من النبلاء السوريين إلى الحسن وأخبره قائلاً "وافق معاوية على جميع الشروط التي طلبتها منه لك، والتي يمكنك تدوينها في هذه الصحيفة." فأجاب الحسن أنا غير مهتم بالخلافة، ولو كنت أريدها لما سلمتها لمعاوية، أما المال، فإن معاوية لا يستطيع أن يمنعه بأي حال، فهي مسألة تهم الأمة كلها. ثم طلب كاتبه وأمره أن يكتب "هذه هي الشروط التي بموجبها يسالم الحسن بن علي بن أبي طالب معاوية بن أبي سفيان ويسلمه حكومة أمير المؤمنين علي

١- على معاوية أن يحكم بكتاب الله وسنة نبيه وسلوك الخلفاء الراشدين.
٢- لا يسمي ولا يعين معاوية أحداً بعده للخلافة، بل يجب ترك الاختيار شورى للمسلمين.

٣- يترك جميع الناس يعيشون في سلام حيث هم في أرض الله.
٤- يضمن معاوية سلامة أصحاب علي وأتباعه، حياتهم وممتلكاتهم ونسائهم وأبنائهم، وهذا عهد الله وميثاقه يلتزم معاوية بن أبي سفيان الوفاء به.
٥- لا يقوم معاوية بأي عمل خطر أو يؤذي الحسن بن علي وأخاه الحسين أو أي فرد من أهل بيت النبي.

وشهد على ذلك عبد الله بن نوفل وعمر بن أبي سلمى وفلان وفلان.

عرض ابن الأعثم لهذه الشروط كما أملاها الحسن يحلّ قضايا عديدة، ويفسر إبهام روايات المصادر الأخرى المتباينة. إن توقيت إرسال هذه الصفيحة من معاوية إلى الحسن مبهم في رواية الطبري؛ بينما هذا التوقيت مفهوم في رواية ابن الأعثم. في رواية الطبري وأبي الفرج وبعض المصادر الأخرى يذكر اسم عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سمرة بصفتهم وفد معاوية للحسن لمناقشة شروط السلم؛ أما ابن الأعثم بينما يؤكد هذا الحدث يحدد المناسبة بدقة منطقية ومهمة الوفد. كما يذكر ابن العثم الشروط في جزأين الأول : هي التي دونها موفد الحسن عبد الله ابن نوفل، والثاني حين أملاها الحسن بنفسه- كما ذكرناه سابقاً- إذا نظرنا إلى الشروط مجتمعة نجدها باستثناء الأول والثاني المذكورين أعلاه مذكورة متفرقة وغير منظمة في المصادر الأخرى. فالشرط الأول القاضي بأن يحكم معاوية بكتاب الله وسنة نبيه وسلوك الخلفاء الراشدين تعكس بقوة الميل والروحانية السائدين في تلك المرحلة، وهي قيود تضبط تصرفات شاغل مهمة الخلافة. وفي جميع الاحتمالات، فإن خنيفة علي

والخلفاء الراشدين لم يكن باستطاعته تسليم الخلافة من غير تأكيد هذا الشرط التقليدي؛ على الأقل ظاهراً، هذا إذا كنا شكاكين جداً في قبول رواية كهذه. ومن الجدير بالملاحظة- على كل حال- أنه منذ الشورى فإن علياً وآله ومؤيديه أكدوا دوماً ضرورة إتباع السنة النبوية ورفضوا الاعتراف بصلاحية سنة الخلفاء الثلاثة الأول. وبالتالي فمن المحتمل أن تكون الإشارة إلى سلوك الخلفاء الراشدين قد أضيفت مؤخراً في محاولة لمصالحة "الجماعة" كما ذكر سابقاً. فمن المؤكد أن الحسن ما كان قادراً على مخالفة موقف أبيه في الشورى، حين رفض إتباع سنة أبي بكر وعمر.

أما الشرط الثاني وهو أن لا يعين معاوية ولا يسمي أحداً بعده للخلافة، بل يتركها شورى بين المسلمين فليس من الصعب علينا قبوله. إن سابقة تسمية الخليفة التي أحدثها أبو بكر حين سمى عمر أيدها قلة من الشخصيات المؤثرة. فقرار أبي بكر كان- على كل حال- تحت تأثير إخلاص واهتمام بمصالح الأمة الإسلامية عامة، وهو لم يعين ابنه أو قريبه لمنصب رسمي. والحال ليست كذلك عند معاوية والأمويين. وبالتالي كان هذا الشرط لازمة طبيعية يجب فرضها على معاوية من طرف الحسن في ذلك الموقف. أما الشرط الذي ذكرته المصادر الأخرى والقاضي بأن تعود الخلافة للحسن بعد موت معاوية فيجب مناقشته. فمن رسالة معاوية التي ذكرناها سابقاً، قد يمكننا أن نستنتج أن معاوية أشار إلى خلافة الحسن بعد وفاته هو نفسه باعتبار ذلك احتمالاً قوياً، لكن بدون أن يلزم نفسه به. وبعد مضي بعض الوقت تجمع الشيعة وأظهروا احتجاجهم على

حقيقة أن الحسن لم يطلب ضماناً كافياً، ولم يؤكد ما يلزم معاوية كتابة بأن يعيد الخلافة إليه بعد وفاته.[٦٦]

أخيراً، فإن قبول معاوية بالعفو العام عن جميع أتباع وأصحاب علي هي القضية الأكثر أهمية على ما يبدو. فقبول هذا الشرط الخاص يفضح زيف السبب الذي أعلنه معاوية للقتال، وهذا السبب هو الثأر لدم عثمان ومعاقبة المسؤولين عن قتله. فمن بين شيعة علي الذين منحهم معاوية عفواً تاماً بحسب شروط الاتفاق مع الحسن كان هناك رجال مثل عمرو بن الحمق الخزاعي الذي قيل أنه اشترك في قتل عثمان، ومالك بن الأشتر الذي كان قائد ثوار الكوفة. وبذلك وضح أن السبب بالثأر لدم عثمان كان– كما أوضحنا سابقاً– ذريعة استخدمها معاوية لتحقيق طموحه للقبض على الخلافة لنفسه.

وتم تنفيذ الاتفاق، فعاد الحسن إلى الكوفة، حيث انضم إليه قيس. ودخل معاوية بكامل قواته الكوفة بعد عودة الحسن مباشرة. وحصل اجتماع عام قامت خلاله مجموعات مختلفة بمبايعة معاوية الواحدة بعد الأخرى. وتعرض المصادر مشاعر الناس المتباينة وهم يقبلون بمبايعة معاوية قائداً جديداً لهم. بعضهم أخذ الأمر على أنه موقف مؤقت لحماية مصالحهم، وآخرون لم يستطيعوا إخفاء امتعاضهم بل وكرههم لحكم معاوية، ولكن مع ذلك اضطروا لتطويع أنفسهم بحسب الموقف.[٦٧] فالإشارات الحادة، والخطابات المريرة والأشياء المتبادلة بين الطرفين توفر مادة ممتعة للدراسة ومصدراً للمعلومات ولكنها تخرج عن إطار اهتمامنا هنا. لكن خطاب الحسن الذي ألقاه بناء على إصرار عمرو بن العاص ومعاوية يستحق

الاهتمام. فبرغم أن جميع المصادر أوردت هذا الخطاب لكن مع اختلافات في المفردات والمحتوى. وأقصر الروايات حفظها الطبري نقلاً عن الزهري وهي كما يلي "أما بعد، أيها الناس، فإن الله قد هداكم بأولنا- ويقصد محمد وعلي- وحقن دماءكم بآخرنا- ويقصد نفسه- وإن لهذا الأمر- الخلافة- مدة، والدنيا دول، وإن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم ((وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين)) سورة الأنبياء ١١١ فلما قالها، قال معاوية وقد تنبه للخطر: اجلس فلم يزل ضرماً على عمرو بن العاص، وقال هذا من رأيك."[٦٨]

روى المدائني كما ورد عند ابن أبي الحديد نصاً أطول لهذا الخطاب، حيث فسّر الحسن أسباب تخليه، وكما ذكر فيه إضافة إلى طموحات معاوية وعصيانه، موقف مؤيديه المتخاذل والمتردد والخائن. كما أشار الحسن إلى أيام خلافة والده وكيف خذله العراقيون.[٦٩] أما أبو الفرج فيروي جملة واحدة من كامل الخطاب وهي "إن الخليفة من سار بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، وليس الخليفة من سار بالجور، ذلك ملك ملكاً يتمتع به قليلاً، ثم تنقطع لذته، وتبقى تبعته ((وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين)) الآية.[٧٠] ومن المفيد أن نلاحظ أنه إذا كان هذا الاقتباس تاريخياً، صحيحاً، فيكون هو المصدر الأول لاستخدام مصطلح "ملك" بدلاً من خليفة لمعاوية وخلفائه والذي أطلقه المؤرخون المسلمون عليه منذ وقت مبكر. وعلى كل حال، ثمة حالات عديدة مدونة حيث قال معاوية عن نفسه "أنا أول ملك في الإسلام."[٧١]

إن الروايات التاريخية للظروف التي واجهت الحسن منذ بداية خلافته تشير إلى أن تخليه لا يعود إلى ملذات الحياة وسهولة العيش المترف، كما يريدنا بعض الكتاب المعاصرين أن نعتقد.

تحدد المصادر أسباب تخلي الحسن مثل حبه للسلم، وكرهه للسياسة ومناوراتها، ورغبته في حقن دماء المسلمين. وأكثر من ذلك، لقد قدّر الموقف بطريقة واقعية، وكان مدركاً العواقب المدمرة له ولأفراد عائلته وللقلة من أتباعه المخلصين إذا أصر على حل مشكلة عصيان معاوية عن طريق العنف.[٧٢] وبالتالي قبل الحقائق السياسية السائدة يومها بينما استفاد من الوقت المتاح للشيعة من أجل التفكير بطريقة ما لتدعيم موقعها وأتباعها على أسس إيديولوجية. وهذا واضح من أية رواية متوفرة لدينا لخطابه الذي ألقاه عند تحويل الخلافة إلى معاوية كما ذكرناه سابقاً.

وبرغم تخلي الحسن عن الخلافة استمر قائداً للشيعة بصفته إمام الشيعة بعد أبيه. وحتى أولئك الشيعيون الذين انتقدوا عملية تخليه، لم يتوقفوا البتة عن تأكيد أن والده عينه لخلافته بصفته أمير المؤمنين. إن تفاصيل نظرية الإمامة نظمت بالتأكيد في وقت لاحق، لكن الحقيقة بقيت وهي أن الشيعة اعتبرته طيلة حياته رأس البيت العلوي (نسبة إلى علي)، وكذلك فعل أفراد الأسرة من آل بيت النبي، وكان هذا كافياً للشيعة لاعتباره– عبر التاريخ– الإمام الثاني بعد علي.

كان تخلي الحسن موضع إدانة واشمئزاز العراقيين الذين ناصروه وأباه من قبله مبدئياً بسبب كره سيطرة السوريين. وعلى المستوى نفسه، كان تخليه مزعجاً للخوارج الذين تجمعوا حوله لمحاربة معاوية؛ وكان الذي

طعنه رجل خارجي (هو الجراح بن سنان الأسدي) حين علم بنيته في التخلي. وكان هناك مجموعة أخرى مثل حجر بن عدي الكندي أقلقها قرار الحسن بالتخلي، لكن أسباب قلقها مختلفة. لقد كانت هذه المجموعة هي التي تمثل شيعة علي الحقيقية في تلك المرحلة. آمنت هذه المجموعة بأحقية علي وذريته في الخلافة على أسس دينية، على عكس مؤيدي علي ومن بعده الحسن الذين ناصروهما لاعتبارات سياسية أو اقتصادية. وبالتالي فإن التشيع لعلي اتخذ اتجاهين منذ تولى عثمان الخلافة وسيطر الأمويون على مقدرات الأمة اتجاه ديني واتجاه سياسي.

وجد أصحاب هذين الاتجاهين أنفسهم موحدين أثناء الحرب الأهلية بين علي ومعاوية ضد عدو مشترك. ولكن عندما حسم معاوية الموقف لصالحه من خلال تفوقه السياسي والعسكري، فإن أصحاب الاتجاه السياسي في معسكر الحسن انهاروا، وتفرقوا، وهربوا جماعات إلى جانب معاوية؛ بينما بقي أصحاب الاتجاه الديني ثابتين على عقيدتهم. لقد خاب أملهم بتخلي الحسن، ولكنهم استمروا مصرين على مثلهم وطموحاتهم فيما يخص القيادة الإسلامية. لم يضيعوا هويتهم بصفتهم معارضين لمنافسي أهل بيت النبي، حتى بعد انهيار التأييد السياسي لعائلة محمد؛ ورفضوا قبول[٧٣] ما قبلت به الأكثرية بإرادتها أو مكرهة، كما سنرى فيما يلي.

في وقت متأخر، حين دونت أحداث الإسلام الأولى بطريقة منهجية (في عصر التدوين = القرنين الثاني والثالث الهجريين) فسر المؤرخون والمحدثون السنة والشيعة عمل الحسن بأنه "عمل يستحق التقدير" وجمع الفريقين. ودعي العام الذي تمت فيه هذه المصالحة "عام الجماعة"، وذكر

حديث نسب للنبي قال فيه "إن ابني هذا سيد يصلح الله به بين فئتين عظيمتين"[٧٤] (والنص من أسد الغابة هذا الحديث يعكس جهود النصف الثاني من القرن الأول وأوائل القرن الثاني حين ظهرت جماعة الوسطية أو"الجماعة" من وسط وضع مشوش، بالتالي عكست بوضوح ميلاً تأسست بناءً عليه. وهكذا فإن الشيعة دافعوا عن موقف الحسن بالتخلي أمام المغالين في لومه على تخليه؛ ومن جهة ثانية قبل السنة هذا التفسير بصفته يؤكد حاجتهم للتوفيق بين متعارضين حزب عثمان الذي يقوده معاوية، وحزب علي الذي يقوده الحسن. هذه المجموعة الوسطية عرفت فيما بعد باسم "الجماعة" وتركت خلفها متصلبين وهم الذين لم يوافقوا على المصالحة، ولم ينضموا إلى توليفة هذه الجماعة الوسطية " central body" "الجماعة"

برغم أن الحسن أوقف سفك الدم بحلٍّ تخلى فيه عن الخلافة لصالح معاوية، فإنه لم يعد اللحمة إلى الأمة. والحقيقة هي أن تخليه جلب عواقب بعيدة المدى في تطور التشيع. فحتى تخليه، كان الحسن- اسمياً على الأقل- رئيس كتلة المسلمين المركزية، لكن الأحداث تطورت في اتجاه معاكس بحيث صار حزب العثمانية والذي يقوده معاوية هو الكتلة المركزية، بينما الشيعة تحولت إلى حزب معارضة صغير دفع باتجاه موقف معاند. ولم يعد الحسن هو الحسن الناطق باسم هذه المعارضة بل حجر بن عدي الكندي. وأيده عدد من المتحمسين الأشداء من شيعة الكوفة، فتابع احتجاجه المستمر ضد معاوية وأوامره بسب علي على المنابر- تلك السياسة التي فرضها معاوية كحملة دعائية.

خلال فترة السنوات التسع من تخلي الحسن عام ٤١هـ ٦٦٠م وحتى وفاته عام ٤٩هـ ٦٦٩م مرت المشاعر والميول الشيعية في مرحلة يمكن وصفها بحالة الجمر تحت الرماد، بلا أنشطة ظاهرة متميزة على السطح.

إن الاستعراض التاريخي لتطور الطموحات الشيعية خلال هذه الفترة صعب جداً لأن مصادرنا لا تعرض شيئاً مهماً. ومع ذلك، فإن هذه الفترة لم تخل تماماً من أصوات ترتفع هنا وهناك مؤيدة لأهل بيت النبي ومعارضة لمعاوية ونظامه. فقد كان أفراد أو جماعات صغيرة العدد من الكوفة تتردد على الحسن والحسين تدعوهما للثورة- ولكن هذه الدعوات لم تلق استجابة.[٧٥]

إن صمت الشيعة خلال هذه الفترة يعود إلى سببين : الأول الإحكام التام على شؤون الإمبراطورية الذي حققه معاوية من خلال الكادر الإداري السوري المدرب جيداً والموالي للنظام والذي منع أية إمكانية للتحرك ضد معاوية. والثاني هو أن الشيعة لم تكن منظمة جيداً للقيام بعمل ضد سلطة قوية جداً. ومع ذلك فإن الشيعة كانت تمر بصيرورة تطورية طبيعية توصلها إلى تجميع وتنظيم تأييد واسع، تترجمه في عمل ما. وكان معاوية يدرك ويعي المشاعر الشيعية القوية عند عناصر معينة من سكان الكوفة، فاتخذ اجراءات مختلفة لمنع تحركاتها. فحالما دخل الكوفة نقل قبائل معروفة بولائها لعلي وآله من المدينة، واستبدلها بقبائل موالية له استقدمها من سورية والبصرة والجزيرة.[٧٦]

بعد تخلي الحسن، غادر الكوفة واستقر في المدينة، وعاش حياة هادئة، لم تشهد أي نشاط سياسي حقيقي. ويمكن تفهم موقفه من واقعة أنه خلال

رحلة عودته من الكوفة إلى المدينة، وحين كان في القادسية تلقى رسالة من معاوية طلب فيها معاوية من الحسن المشاركة في حملته على الخوارج الذين نهضوا ضده للتو. وأجاب الحسن أنه تخلى عن قتال معاوية كي يحقق السلام في المجتمع الإسلامي، لذلك لن يشاركه في أية حملة.[٧٧] وحافظ الحسن على هذا الموقف المتقاعد تجاه معاوية، والمهدئ لأولئك الشيعة الذين ترددوا عليه معبرين عن مشاعرهم المريرة من حكم بني أمية.

لم يعش الحسن طويلاً. فقد توفي عام٤٩هـ-٦٦٩م قبل منافسه (معاوية) بزمن طويل. فقد تسلّم معاوية الخلافة من الحسن وهو في سن٥٨ وتوفي عام٦٠هـ-٦٨٠م وعمره ٧٧ عاماً. ومن المهم ملاحظة هذا الفارق في السن، وبخاصة حين نقرأ خطط معاوية الطموحة لإبقاء الخلافة في ذريته وقد عين ابنه يزيد لوراثته. ولم يكن ذلك ممكناً، وذلك بسبب بنود اتفاق تخلي الحسن لمعاوية، ومع أخذ فارق السن الكبير بينهما بالإعتبار، فإن معاوية لم يكن يأمل أن يتوفى الحسن قبله. ولكي يتابع تنفيذ مخططه، ويحقق رغبته، اضطر لإزاحة الحسن من مسرح الأحداث. تورد غالبية المصادر سنية وشيعية على السواء سبب وفاة الحسن وهو أنه بسم دسته له إحدى زوجاته جعدة بنت الأشعث.[٧٨] يقال أن معاوية أغراها بأن وعدها بمبلغ كبير من المال وأن يزوجها من ابنه يزيد. وبعد أن أكملت مهمتها، دفع لها معاوية ما وعدها به من مال، ولكنه رفض تزويجها من يزيد قائلاً أنه يخشى منها على حياة ابنه.[٧٩]

وتؤكد المصادر التاريخية رغبة معاوية في تعيين ابنه وارثاً له، وهذا ما فعله عقب وفاة الحسن مباشرة، وهناك إشارات في مصادر أخرى تجعل من

المحتمل جداً أن يكون معاوية وراء سم الحسن، رغم أن تأكيد تلك العملية سيبقى من الصعب القطع بصحتها. ومع ذلك، فإن حقيقة موت الحسن بسبب السم الذي دسته زوجته جعدة تبقى حقيقة تاريخية مؤكدة. فبحسب تصريح الحسن أن ذلك الحدث كان الثالث من نوعه، وأن السم الذي وضعته جعدة كان قاتلاً أكيداً. وتخبرنا المصادر أنه حين وصلت أخبار وفاة الحسن، لم يستطع معاوية إخفاء مشاعر الإرتياح وحتى السرور حين نقل ذلك الخبر إلى ابن عباس.[٨٠] وتؤكد المصادر بالإجماع حقيقة أخرى أنه عقب وفاة الحسن مباشرة بدأ معاوية عملية تعيين ابنه يزيد وريثاً له،[٨١] وهذا ما سنبحثه الآن.

بينما استغل معاوية موت الحسن لضمان وراثة ابنه يزيد له في الخلافة، وجد شيعة الكوفة الفرصة مناسبة لمحاولة إعادة الخلافة إلى ذرية علي. فحالما علم الشيعة في الكوفة بوفاة الحسن، تنادوا إلى اجتماع في بيت سليمان بن صرد الخزاعي وكتبوا رسالة طويلة إلى الحسين. وفيها بعد التعبير عن مشاعر الحزن والأسى والمؤاساة للحسين بوفاة "ابن الوصي وابن بنت النبي وعلم الهداية" دعوا الحسين للثورة على معاوية، ووعدوا بتضحية حياتهم في سبيله. والتزاماً من الحسين باتفاق أخيه الحسن مع معاوية رفض الاستجابة لدعوتهم، ونصحهم بالابتعاد عن التحريض. والسكون في بيوتهم ما دام معاوية على قيد الحياة.[٨٢]

ولكن الشخص الأكثر حماسة واندفاعاً بين الشيعة لم يستطع الركون. فخرج حجر بن عدي الكندي مع صحابته– وهم الذين لم يتنازلوا أبداً عن مثلهم– في ثورة علنية ضد معاوية وقائده العسكري زياد ابن أبي

سفيان وواليه على البصرة والكوفة بعد وفاة والي الكوفة المغيرة بن شعبة عام ٥١هـ-٦٧١م. ولقد سجلت المصادر تفاصيل الثورة، وأظهرت مشاعر الحركة الشيعية القوية فور تحركها على هذا المستوى. وبالرغم من أن هذه الحركة انتهت من غير أي نشاط عسكري، فإن الحقيقة وهي أن المصادر خصصت حيزاً واسعاً لنشاط حجر[٨٣] تبين أن هذا الفصل من الحركة الشيعية لم يكن قليل الأهمية في الأحداث الثورية من تاريخ الإسلام المبكر.

تخبرنا المصادر التاريخية أن هؤلاء السياسيين الثابتين على مبادئهم من الشيعة كانوا يحتجون باستمرار لا على شتم علي فقط، بل وضد حكم معاوية أيضاً الذي اعتبروه غاصباً حقوق آل علي في الخلافة. وكان شعارهم "لا تصح الخلافة ولا تجوز إلا لذرية أبي تراب."[٨٤] وبينما كان زياد في البصرة وكان نائبه عمرو بن الحريث يدير الكوفة، كان الشيعة يذهبون إلى المسجد ويدينون علناً معاوية وزياد. وحين حاول عمرو تحذيرهم خلال خطبة إحدى الجمع من عواقب هذا العصيان العلني ضربوه بالحجارة وأجبروه على الالتجاء إلى قصر الأمارة.[٨٥] ويمكن تقدير عدد هؤلاء الذين أظهروا ولاءهم للقضية الشيعية من الرواية التي تقول بأنهم "كانوا يشغلون نصف مساحة المسجد."[٨٦] ومن المفيد معرفة أن مسجد الكوفة كان يتسع لحوالي أربعين ألف.

حين أخبر عمرو بن الحريث زياداً بالموقف الحرج، أسرع زياد عائداً إلى الكوفة. وبعث أولاً في طلب بعض قادة القبائل اليمنية ممن لهم ميول شيعية، وتؤكد المصادر أن زياداً حاول منذ توليه الكوفة

عام٥١هـ ـ٦٧١م جاهداً أن يستميل حجراً إلى جانبه. فقد عرض عليه موقعاً خاصاً في مجلس إدارته، ورغب في إعلاء موقعه في قبيلة كندة. ولكن كل محاولاته لم تغير موقف حجر. وبالفعل، لو كانت القضية ذات طبيعة سياسية محضة، فإنه يجب أن نبين أن زياداً قدم كل التنازلات السياسية الممكنة تقريباً والإغراءات المادية لإرضاء حجر. وأكثر من ذلك، إن رفضه قبول أي من عروض التنازلات التي قدمها زياد إليه، لم تترك له مجالاً لمزيد من طموحات ربما رغب بها ناشط سياسي. كان حجر ببساطة رجلاً متقدماً في العمر. وحتى لو نجح في إيصال الشيعة إلى السلطة من خلال وصول الحسين إلى الخلافة، فإن وضعه لن يكون أفضل مما كان عليه أيام خلافة علي. لقد عرض عليه زياد كل ما يرفع من شأنه الشخصي، ولكنه رفض جميع العروض. وفي التحليل الأخير نجد أنفسنا أمام خيار وحيد وهو أن نقبل أن دافع حجر كان القناعة الدينية الخالصة وإيمانه العميق بقيادة أهل البيت. لقد فشل قادة القبائل الذين أرسلهم زياد لاسترضاء حجر وبعضهم من أصدقائه القدماء، ولكنهم التمسوا من الوالي (زياد) أن يعامل حجراً برفق.[٨٧] وهذا يظهر تقديرهم وتبجيلهم العميقين لحجر. إن المرء لا يستطيع قبول فكرة أن قادة القبائل يمكن أن يدافعوا عن شخص يبحث عن سلطة وذي دوافع سياسية ومحرض اجتماعي يمكن أن يتحدى أو يقلل من هيبتهم القيادية. وإنما ومن جهة أخرى نقبل أنهم دافعوا عن رجل ذي قناعات دينية عميقة جداً تتفق مع قناعاتهم لكنه أكثر شجاعة منهم وثباتاً على مبادئه.

ولكن على كل حال، رفض زياد مناشدهم بخصوص حجر، وبعث بشرطة للقبض عليه، إلا أن مؤيدي حجر الناشطين استطاعوا رد الشــرطة. عندها أدرك زياد خطورة الموقف فأرسل خلف الأشراف وقادة القبائــل وبخاصة اليمنية منهم وخطب فيهم قائلاً أن جماعتكم مع حجــر، وإن لم يعودوا عن ذلك هددهم باستدعاء قوم من السوريين "أقيم بهم أودكــم وصعركم". وهناك جملة من خطبة زياد توضح موقف هــؤلاء القــادة وميزاهم. فقد أورد الطبري أن زياداً قال: "أبدانكم معي وأهواؤكم مع حجر."[88] ويقتبس أبو الفرج جملة من خطبة زياد تزيد الأمر جلاء وهي "أبدانكم معي، لكن أهواءكم مع حجر هذا الرجل المذبوب؛ أنتم معي لكن اخوانكم وأبناءكم وأبناء عشائركم مع حجر."[89] وخــاف قــادة القبائل هؤلاء أن يفقدوا مواقعهم، فأظهروا ضعف مزايــاهم واقنعــوا رجالهم بعدم تعرضهم للقوات السورية. وبينما تفرق غالبيــة مؤيــدي حجر، بقيت جماعة منهم ممن لايساومون حول حجر رفضوا التخلي عنه وقاوموا اعتقاله. فاضطر زياد لإستدعاء فريق من المقاتلة واختار فريقــاً منهم من أصول يمنية لمعالجة الوضع.

لم يكن من السهل معالجة الموقف، لا بسبب هيبة حجر والتأييد الواسع الذي يتمتع به بين جماهير الكوفة وحدهما، وإنما بسبب التعقيدات القبلية أيضاً. وتدبر زياد السياسي الماهر والمتعدد المواهب في معالجة التمرد بأن استدعى بعض القوات اليمنية التي ينتمي حجر إليها وطلب منها اعتقال حجر، وتجنب بذلك خطراً أعظم لو أنه أشرك قبائل نزارية في العمليــة؛ فقد كان من المحتمل أن تنشب خلافات قبلية بين الفريقين. وأوقع بــين

القبائل اليمنية وحرض بعضهم ضد بعض، وهدد أشراف وأفراد قبيلة كندة- وهي قبيلة حجر نفسه- بالموت وبتخريب ممتلكاتهم إن هم رفضوا تسليم حجر له. فالرواية التي نقلها ابو مخنف في الطبري وأبو الفرج ممتعة من نواح عدة. كيف استغل زياد مصالح قادة القبائل ضد مثلهم الدينية، وكيف أوقع بين المتنافسين منهم، وكيف قهر مؤيدي حجر، وكيف نجح زياد أخيراً في اعتقال أحد أكثر قادة الشيعة احتراماً في الكوفة، وكيف أخمد حركة عميقة الجذور.

وإلى جانب حجر تم اعتقال ثلاثة عشر رجلاً من قادة الشيعة البارزين وتصفيدهم بالقيود.[٩٠] وكان الرجال الأربعة عشر يتوزعون على القبائل كما يلي رجلان من كندة، وواحد من حضرموت، واثنان من عبس، وواحد من خثعم، واثنان من بجيلة، وواحد من ربيعة، وواحد من همدان، وثلاثة من تميم، وواحد من هوازن. ومن الممتع ملاحظة أن من بين الرجال الأربعة عشر هناك ثمانية من قبائل يمنية (كندة وحضرموت وخثعم وبجيلة وهمدان) وستة من قبائل نزارية شمالية (عبس وربيعة وتميم وهوازن). وهذا يظهر أبعاد الحركة ويدل على أن المشاعر الشيعية في الكوفة لم تقتصر على اليمنيين.

وقرر زياد إرسال أسراه إلى دمشق كي يتعامل معاوية معهم. وتوجب عليه أن يرسل معهم لائحة إتهام يشهد على صحتها القضاة. وبالتالي استدعى زياد أربعة من رؤوساء الأقسام الإدارية في الكوفة،[٩١] ورتبت لجنة زياد هذه اتهاماتها ضد حجر كما يلي

١- جمع حجر الجماهير حوله وشتم وسب الخليفة علناً.

٢- حرض الناس على قتال أمير المؤمنين.

٣- سبب خرابا في المدينة وأخرج والي الخليفة منها.

٤- هو يعتقد أن الخلافة لا تصح إلا في آل بيت أبي طالب، ويدعو لذلك.

٥- إنه ينشر بين الناس أن أبا تراب (علي) كان معصوماً، ويمتدحه، ويدعو الناس لحبته واحترامه.

٦- يدعو للابتعاد عن أعداء علي وإدانتهم، وكل الذين قاتلوه معهم.

٧- إن الرجال الذين بعثهم زياد إلى معاوية مع حجر هم قادة أتباعه ويتبعون مبادئه عينها.[٩٢]

إن التهم الموجهة إلى حجر في هذه الوثيقة من طرف لجنة الاتهام المؤلفة من أربعة قادة من الكوفة، كانت بلا شك صحيحة وتمثل تفكير ومشاعر ونشاطات حجر وأتباعه وهذه الوثيقة التي حفظت بدون أية محاولة لتزييف أو حذف أي من بنودها، تعطينا الصورة الأكثر وضوحاً لموقف الشيعة الديني خلال حياة حجر، ومشاعرهم وطموحاتهم، وحبهم لبيت علي، كرههم لمعاوية بصفته مغتصباً.

لم تعجب لائحة الاتهام زياداً. وقد سجلت المصادر السبب بوضوح، وهو من الأهمية بحيث أنه يلقى الضوء على الموقف الحقيقي. وحالما قرأ زياد لائحة الاتهام قال "لا أظن أن لائحة الاتهام هذه كافية، أريد شهادات أكثر من شهادة هؤلاء القادة الأربعة تثبت عليها."[٩٣] الاتهامات الموجهة إلى حجر في الوثيقة الأصلية تذكر قضية حجر الشيعية بشكل شامل وحبه

لبيت علي. اعتقد زياد أن معظم اليمنيين الذين دعاهم للشهادة على الوثيقة لن يوقعوا على لائحة الاتهام، على أساس أنها تشرح نشاطات حجر في سبيل القضية الشيعية وطموحاتها. كان معظم اليمنيين من ذوي الميول الشيعية، ولكن بدرجات متفاوتة من الالتزام، كما هو طبيعي. ويبدو أن زياداً كان متردداً في إخبار معاوية رسمياً بالمشاعر الشيعية وأن نشاط الشيعة كان قوياً وظهر إلى العلن في الكوفة وزياد واليها. وكان زياد قد حظي بحق خاص جداً حين عينه معاوية لولاية البصرة والكوفة معاً، الأمر الذي لم يسبقه إليه أحد.

لذلك تم تنظيم لائحة اتهام جديدة تتضمن الاتهامات التالية

١- حجر بن عدي تخلى عن بيعة الخليفة.
٢- خلق شرخاً في الجماعة.
٣- سب الخليفة.
٤- دعى إلى الحرب وخلق فوضى.
٥- جمع الناس حوله وحرضهم على خلع بيعة أمير المؤمنين وإزاحته من الخلافة.
٦- إنه لا يؤمن بالله.[٩٤]

الاختلاف المحدد بين الوثيقتين واضح بشكل كاف. فبينما تركزت الاتهامات في اللائحة الأولى على نشاطات حجر وتمرده العلني من أجل القضية الشيعية، فإن اللائحة الثانية تؤكد تمرده ضد الدولة وسلطة معاوية، بدون أية إشارة إلى الحركة الشيعية. الوثيقة الأولى تؤكد حب حجر الراسخ لعلي وإخلاصه لعائلة علي على أسس دينية؛ فإن اللائحة

الثانية تستبدل هذا الاتهام (حب وإخلاص لعلي وذريته) بعدم إيمانه بالله، والذي- بحسب السابقة التي أجراها أبو بكر (الارتداد)- يعرضه للقتل. إن كل البراهين المتوفرة بين أيدينا تجعلنا لا نشك بأن الاتهامات المدرجة في اللائحة الأولى صحيحة، بينما اللائحة الثانية ما هي إلا مراجعة مزيفة للأسباب المذكورة آنفاً. وهذا ما يفسر الرواية التي تقول إن معاوية كان متردداً في قبول لائحة الاتهامات، وراغباً عن اتخاذ إجراء عنيف ضد حجر. وأكثر من ذلك، كما سترى لاحقاً، فإن الشرط الوحيد الذي وضعه معاوية أمام قادة الشيعة لإنقاذ حياتهم هو سب علي وإدانته. وهذا يتضمن أيضاً أن جريرتهم الرئيسية هي نشاطهم لصالح الشيعة، وليس جرائم ضد الدولة والخليفة كما عرضت الوثيقة الثانية.

إننا لا نحتاج لتأكيد أن سكان الكوفة نظروا إلى حجر على أنه قائد شيعي متحمس ولا يقبل التنازلات. كما أنهم اعتبروه رجلاً مسلماً تقياً. ويشهد بذلك حتى أولئك الذين ليست لديهم ميول شيعية. كتب القاضي شريح بن الحارث إلى معاوية قائلاً "أما بعد: فإنه بلغني أن زياداً كتب إليك بشهادتي على حجر بن عدي، وإن شهادتي على حجر أنه ممن يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويديم الحج والعمرة ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حرام الدم والمال، فإن شئت فاقتله وإن شئت فدعه."[٩٥] فقرأ معاوية كتابه على وائل بن حجر وكثير (مبعوثي زياد إلى معاوية آخذي حجر بن عدي وأصحابه إليه) فقال معاوية ما أرى هذا إلا قد أخرج نفسه من شهادتكم.

مع ذلك، فإن زياداً استدعى القوم للشهادة بصحة الاتهامات. وشهد بذلك سبعون رجلاً منهم خمسة وأربعون ذكرت أسماؤهم، وأنهم وقعوا على لائحة الاتهامات.[96] بعض هذه التواقيع كانت بالتأكيد مزيفة، كما هو مفهوم من المصادر التي ذكرت أسماء الموقعين. فقد احتج القاضي شريح في رسالته إلى معاوية (المذكورة أعلاه) بأنه لم يوقع على لائحة الاتهامات البتة، وأن اسمه أضيف من غير معرفته. واعتذر بعض الذين وقعوا عن فعلتهم، وهذا يدل على أن زياداً أجبرهم على الشهادة بالاتهامات التي زيفها.[97]

عندما وصل الأسرى إلى معاوية، واجه ضغطاً من قبائل عدة لتحرير أقاربهم. وبالفعل تم تحرير سبعة من الأسرى نتيجة لجهود وتأثير أقاربهم. وأعطي حجر والستة الآخرون الفرصة لإنقاذ أنفسهم بسب علي وإدانته علناً. فقد أخبرهم منفذو أوامر معاوية "إنا قد أمرنا أن نعرض عليكم البراءة من علي واللعن له، فإن فعلتم تركناكم، وإن أبيتم قتلناكم، وإن أمير المؤمنين يزعم أن دماءكم قد حلت له بشهادة أهل مصركم عليكم، غير أنه قد عفا عن ذلك، فابرؤوا من هذا الرجل نخل سبيلكم. قالوا اللهم إنا لسنا فاعلي ذلك." فقتلوهم.[98]

إن تضحية هؤلاء الرجال بأنفسهم، بدلاً من البراءة من علي ولعنه قضية لا يمكن الاستهانة بها، إنها تحمل دلالة أعمق من مجرد مصالح سياسية. فالتاريخ مليء بأخبار رجال ضحوا بنفوسهم، ولم يقبلوا التنازلات في عقيدتهم، ولا يمكن تفسير تاريخ البشرية بمجرد علاقات سياسية واقتصادية. إن فهم التاريخ على أسس مادية فقط، هو ظاهرة مؤسفة يقع

فيها بعض المؤرخين المعاصرين. ومن جهة أخرى، فإن قبول أهمية الوعي الديني في حالة ما ورفضها في حالة أخرى برغم تشابه الظروف، هو أيضاً مثال مؤسف للتحيز. وبالتأكيد، إن معظم الحركات الشعبية في المجتمع الإنساني تأثرت أو سيطرت عليها عوامل سياسيه واقتصادية، ومع ذلك تبقى حالات حيث نجد الوعي الشخصي يذهب إلى أبعد من هذه الاعتبارات. وقضية حجر بن عدي كانت إحدى هذه الحالات. فهو لم يمنح الفرصة لإنقاذ حياته فقط، بل وعرض عليه زياد مغريات سياسية واقتصادية، ورفض ذلك. أجل كان هناك دلالات سياسية في هذا الفصل فقط على ضوء اعتبارات سياسية ثانوية القيمة للأهداف الدينية. فاهتمام حجر- بناءً على ما قلناه- كان قضية من يصلح لأن يكون خليفة لا على أسس سياسية أو اقتصادية، بل إنه كان يعتقد أن مزايا خاصة ضمنها الله في آل النبي هي وحدها المناسبة لمن يكون خليفة، وكان مستعداً للموت في سبيل اعتقاده هذا، وقد فعل.

وهكذا، يجب اعتبار حجر وصحبه ممثلي أولئك الشيعة الأوائل الذين رفعوا أصواتهم مجاهرين بآرائهم الدينية تأييداً لعلي مباشرة عقب وفاة النبي، وكانوا السابقين في تطوير الحركة التي تركزت سريعاً بصفتها فريقاً إسلامياً متميزاً. لقد كان حجر صحابياً متميزاً نال احتراماً واسعا لتقواه، والتزامه بالممارسات الدينية، مع إخلاصه الكامل لعلي. وقد سبب قدره التراجيدي موجات من الحزن والآسى وصدمة شديدة في المدينتين المقدستين (مكة والمدينة). حتى أن أرملة النبي عائشة وعبد الله بن عمر احتجا بعنف لقتله.[99] ومن المهم ملاحظة أن تراجيديا حجر بدأت أدب

"الشهادة" الشيعي الغني، وكان موته مناسبة للعديد من الرثائيات التي تطورت إلى نوع خاص من الأدب في التراث الشيعي الإسلامي. ومن الطبيعي أن تترك هذه التراجيديا أثراً خاصاً على الكوفة والكوفيين. وأشاعت مشاعرهم إحساساً بالنكبة فأحدثت ردود فعل خطيرة وجدية. فأرسل الكوفيون بعثة إلى الحسين في المدينة، تدعوه لقيادة حركة مسلحة ضد معاوية. ورد الحسين دعوتهم، ونصحهم بالهدوء، كما مر سابقاً. ولم يكن معاوية غافلاً عن هذا التحول إلى الحسين، وانتبه لهذه الأنشطة، وبخاصة حين استلم رسالة من واليه على المدينة مروان بن الحكم، محذراً بأن بعثة الكوفيين مكثت في المدينة واجتمعت تكرارا مع الحسين. فكتب معاوية رسالة تحذير إلى الحسين، لكن جواب الحسين أوضح موقفه المهادن اتجاه النظام القائم وطمأن معاوية أنه مستمر في الالتزام باتفاق معاوية وأخيه الحسن.[١٠١]

كانت الفترة ما بين وفاة الحسن ووفاة معاوية فترة هدوء وقهر، عدا ثورة حجر بن عدي التي قمعت بأقسى معايير العنف. والانطباع العام الذي يمكن أن نستخلصه من المصادر التاريخية هو جو من الخوف والحذر من كلا الطرفين. إن خوف معاوية من أي تحرك شيعي يوضحه مستوى العنف المبالغ فيه تجاه ثورة حجر المحدودة والخطيرة معاً. إن الحقيقة المعروفة جيداً عن معاوية هي دهاؤه الدبلوماسي في تحقيق أهدافه، لكن ذلك لم يبد في تصرفه تجاه حجر بل عامله بمنتهى العنف وهذا يدل على موقف معاوية الصلب تجاه أية عواطف شيعية، وهو موقف ناتج عن معرفته الأكيدة بعمق الحركة الشيعية، وبخاصة في الكوفة حيث تتمتع

الحركة بتأييد قوي. أما موقف الحسين حين رفض تكراراً قيادة المتحمسين الشيعة في ثورة علنية فإنها تكشف عن موقف حذر ورغبته في تجنب منح معاوية أي عذر للقضاء نهائياً على مؤيدي بيت علي. وخلال هذه الفترة بدا معاوية محاولاً القضاء على أتباع علي الذين لم يتمكن من استمالتهم أو إنهائهم من الوجود لدى أي سابقة تسمح له بذلك؛ فقد تحقق لديه أنه ما لم يتم ذلك فإن الخلافة الأموية تبقى في خطر.

لم يكن بعيداً عن الاحتمال أن أحد أسباب سب علي على المنابر كان بقصد استثارة المتعاطفين مع الشيعة للقيام بثورة علنية، وبالتالي القضاء عليهم على يد القوات الأموية. فعندما عين معاوية المغيرة بن شعبة عام٤١هـ-٦٦١م والياً على الكوفة كانت إحدى واجباته التي حددها معاوية هي تكثيف وتقوية حملته في سب علي في أهم مراكز الشيعة، ونشر فضائل عثمان ومؤيديه وفي الوقت ذاته اصطناع قبائح ونسبتها لعلي. وعندما توفي المغيرة عين معاوية زياد بن أبي سفيان مكانه والياً على الكوفة وأعطاه التوجيه نفسه.[١٠٢] وقد نفذ كلا الواليين هذا الأمر بما أرضى معاوية. لم يستطع حجر وقلة آخرون التسامح مع هذه الحملة العدائية المستمرة على الشيعة فوقعوا في المصيدة، في حين بقي معظم الشيعة الآخرون حذرين محترسين. أما الحسين من طرفه فقد فهم الوضع تماماً، فتجنب بحكمة أي تحرش بمعاوية، وانتظر حتى تتاح له الفرصة المناسبة للحركة. وبذلك أنقذ نفسه وأتباعه من قمع عنيف أكيد، والتزم باتفاق أخيه مع معاوية، مما يعني أنه كان مشمولاً بتلك الاتفاقية بشكل غير مباشر. لعل الحدث الأهم في تاريخ تطور "الألم" الشيعي هو تسمية

معاوية ابنه يزيداً لخلافته. فلم يكن الخليفة قادراً على تصرف من هذا القبيل ما دام الحسن حياً ، وكان من الأهمية بمكان أن معاوية حين تلقى خبر وفاة الحسن بدأ ينشط في تفعيل خطته التي تحقق رغبته في استمرار حكم أسرته. ولم تكن تلك مهمة سهلة، وكان عليه أن يستعمل دهاءه إلى أبعد حد ممكن ويستخدم كل أدوات نظامه؛الدبلوماسية، والهدايا السخية والرشاوى وأخيراً التهديد والوعيد. وليس من اهتمامنا هنا بيان تفاصيل خطة معاوية تلك وكيف اشترى ضمائر قادة القبائل، وأخرس بعضهم الآخر بأقسى أنواع العنف. هذه التفاصيل روتها جميع المصادر بدون أية اختلافات تستحق الذكر.

يكفينا هنا أن نذكر أنه من أجل تحقيق هذا الهدف تدبر معاوية بالتعاون مع ولاته استحضار وفود من معظم الولايات إلى دمشق كي يعلنوا بيعتهم ليزيد كوريث لعهد معاوية كما خطط سلفاً.[١٠٣] لكن الوضع في الحجاز كان مختلفاً حيث كان يعيش نبلاء المسلمين وأشرافهم من أمثال أبناء الصحابة والخلفاء الأكثر شهرة واحتراماً من أمثال الحسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر. فكل وفد من المدينة لا يضم هؤلاء كان بلا معنى، وعدم تعاونهم كان يشكل خطراً أكيداً. لذلك ذهب معاوية بنفسه إلى المدينة مصحوباً بألف فارس اختارهم لمرافقته كي يتعامل مع هؤلاء الرجال الصعبي المراس.

بحسب إحدى الروايات، وصل معاوية إلى ضواحي المدينة فاستدعى هؤلاء الأربعة، وأظهر لهم بأسه وعاملهم بقساوة، مما جعلهم يفرون إلى مكة. وهذا ما خطط له معاوية، وفي غيابهم أعلن معاوية ترشيح ابنه يزيد،

فاستحسن ذلك مؤيدوه، بينما لم يظهر الآخرون أية معارضة. وهكذا حل معاوية مشكلته مع أهل المدينة، ثم توجه معاوية إلى مكة. وهناك غير موقفه، فحاول في البداية استمالة هؤلاء الأربعة من خلال معاملتهم بمنتهى اللين والصداقة. وبعد أن أمضى معهم بعض الوقت مظهراً لهم عطفه وتقديره لهم، وقبل أن يبدأ رحلة عودته إلى دمشق عبر عن رغبته في أن ينال تأييدهم ليزيد. شرح لهم بأنه لا يطلب منهم الكثير، وذلك أن يزيداً سيحكم بالاسم فقط، وهم أنفسهم يسيطرون باسم يزيد على الحكم، مما يعني أنهم الحكام الفعليون. وبعد فترة صمت تكلم ابن الزبير نيابة عن الجميع رافضاً اقتراح معاوية. فقال معاوية الغضبان: "في مناسبات أخرى عندما أتحدث من على المنبر سأسمح لأي منكم أن يعارضني إذا رغب، أما من يعارضني اليوم فإن السيف سيسكته" ثم دخل مسجد مكة بصحبة هؤلاء الأربعة وأعلن "إن هؤلاء الأربعة، الذين لا يجري أمر بدونهم قد وافقوا على ترشيح يزيد؛ ولذلك فما من أحد منكم أيها الناس يجد صعوبة في الاقتداء بهم" فبايع الناس يزيدا بينما بقي هؤلاء الأربعة صامتين خوفاً.[١٠٤] فحتى إذا تعاملنا مع هذه الرواية بحذر على أنها نظمت في وقت لاحق، فإن ذهاب معاوية إلى الحجاز لإجبار هؤلاء الأربعة وضمان عدم معارضتهم ليزيد لا يمكن إنكاره.

ملاحظات الفصل٦

١- الطبري جـ٢ ص٥

٢- الطبري جـ٢ ص١ وما يليها، المسعودي مروج جـ٢ ص٢٤٠، التنبيه ص٣٠٠، العقد جـ٤ ص٣٦١، اليعقوبي جـ٢ ص٢١٤ وما يليها، الدينوري ص٢١٦، الاستيعاب جـ١ ص٣٨٥، أسد الغابة جـ٢ ص١٤

٣- اليعقوبي جـ٢ ص١٨٨، وبحسب ابن سعد جـ٦ ص٤و٣٧٠ يقول أن بعض الصحابة توجهوا إلى الكوفة واستقروا هناك حالما أسس عمر بن الخطاب مدينة الكوفة ومعسكرها.

٤- أسد الغابة جـ٢ ص١٢، الترمذي جـ٢ ص٣٠٦، مسند أحمد جـ٤ ص٣٥٤، ابن أبي الحديد الشرح جـ١٦ ص٢٧

٥- مسند أحمد جـ٢ ص٥١٣.

٦- أفردت كتب الحديث فصلاً لمناقب الحسن والحسين.

٧- ابن حبيب المحبّر ص٤٦، صحيح البخاري جـ٢ ص١٥٧و١٩٨، أسد الغابة جـ٢ص١٣

٨- بحسب أبي الفرج الأصفهاني مقاتل الطالبين ص٥٢ عبد الله بن عباس نفسه هو أول من رشح الحسن للخلافة ودعا الناس لمبايعته فور وفاة علي. انظر شرح النهج أيضاً جـ١٦ص٣١.

٩- الدينوري ص٢١٦، المقاتل ص٥٢، الشرح جـ١٦ص٣٠

١٠- الطبري جـ٢ص١، أسد الغابة جـ٢ص١٤، الاستيعاب جـ١ص٣٨٤، الشرح في الملاحظات السابقة.

١١- انظر الملاحظات السابقة.

١٢- سابقة.

١٣- ابن الأعثم جـ٤ص١٤٨، الطبري جـ٢ص٥، الشرح جـ١٦ص٣١.

١٤- مقاتل ص٥٢، الشرح جـ١٦ص٢٥ وما يليها.
١٥-الأغاني جـ٢١ص٢٦، مقاتل جـ١٦ص٢٢، اليعقوبي جـ٢ص٢١٤، الشرح جـ١٦ص٣١.
١٦- ابن الأعثم جـ٤ص١٥٣، الشرح جـ١٦ص٢٦
١٧- مقاتل ص٥٦ نقلاً عن أبي مخنف، ابن الأعثم جـ٤ص١٥٢، الشرح جـ١٦ص٢٤ نقلاً عن المدائني ص٢٣ نقلاً عن أبي مخنف مع بعض الاختلاف.
١٨- مقاتل ص١٧ نقلاً عن أبي مخنف، ابن الأعثم جـ٤ص١٥٢، الشرح جـ١٦ص٢٥ نقلاً عن المدائني ص٣٥ نقلاً عن أبي مخنف مع بعض الاختلاف.
١٩- مملكة العرب ص١٠٤-١٠٧ E
٢٠- تاريخ جـ١١ص٢١٤ وما يليها.
٢١- اختيار ص٢١٧ وما يليها.
٢٢- تاريخ جـ٢ص١-٨.
٢٣- كتاب الفتوح جـ٤ص١٤٨-١٦٧
٢٤ مقاتل ص٤٦-٧٧
٢٥- الشرح جـ١٦ص٩-٥٢
٢٦- فهرست ص٩٣و١٠١ومايليها وأهمية هذين المؤرخين ناقشناها في الفصل٢.
٢٧- ماجد شعبان دائرة المعارف الإسلامية الطبعة٢مثال بعنوان "ابن الأعثم"
٢٨-شعبان سابقه، ياقوت إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب تح د.س. مارجيوس طبعة ليدن١٩٠٧جـ١ص٣٧٩وسي ي ستوري الأدب الفارسي، عرض ببيو غرافيا لندن١٩٢٧ جـ١ص١٢٦٠
٢٩- انظر أحمد زكي صفوت جمهرة رسائل العرب في العصور العربية الزاهرة، القاهرة١٩٣٧حيث تم تجميع كل الرسائل من أيام النبي حتى نهاية الحكم العباسي ووثقت في عمل ضخم من أربع مجلدات.

٣٠- الطبري جـ٢ص١ وما يليها، ويلهاوزن مملكة العرب ص١٠٧ E

٣١- الطبري جـ٢ص٢-٥

٣٢- الطبري جـ٢ص١-٥وما يليها.

٣٣- الطبري جـ٢ص٢و٧

٣٤- الطبري جـ٢ص٧-٩.

٣٥- الطبري جـ٢ص٢-٤.

٣٦- الطبري جـ٢ص٢

٣٧- اليعقوبي جـ٢ص٢١٤، المقاتل ص٦٢، الشرح جـ١٦ص٤٠.

٣٨- مقاتل ص٦١، الشرح جـ١٦ص٣٨.

٣٩- اليعقوبي جـ٢ص٢١٤.

٤٠- سابقة.

٤١- الطبري جـ٢ص٢

٤٢- اليعقوبي جـ٢ص١١٥

٤٣- سابقة.

٤٤- التعبير العربي هو "فلما انتهى إلى ساباط رأى من أصحابه فشل وتواكل عن الحرب"

٤٥- الدينوري ص٢١٦

٤٦- سابقة.

٤٧- الشرح جـ١٦ص٢٢.

٤٨- فتوح جـ٤ص١٥٤،مقاتل ص٦٣

٤٩- الدينوري ص٢١٧، ابن الأعثم جـ٤ص١٥٥، اليعقوبي جـ٢ص٢١٥، المقاتل ص٦٤

٥٠- سابقة.

٥١- ابن الأعثم جـ٤ص١٥٦ومايليها.

٥٢- سابقة.

٥٣- الطبري جـ٢ص٢٢٠و٢٢٣، الدينوري ص٢٤٣و٢٩٩، العقد الفريد جـ٤ص٣٧٦

٥٤- مقاتل ص٦٤وما يلها.

٥٥- مقاتل ص٦٥وما يليها.

٥٦- الطبري جـ٢ص٤-٧

٥٧- أقصر مدة لخلافته هي ثلاثة أشهر وأطولها سبعة.

٥٨- الطبري جـ٢ص١٣

٥٩- الدينوري ص٢١٨

٦٠- الاستيعاب جـ١ص٣٥٥، أسد الغابة جـ٢ص١٤ويضيف "وبعض الشروط الأخرى مثل ذلك" انظر أيضاً ابن حجر الهيثمي الصواعق المحرقة ص١٣٤، الإمامة والوصاية جـ١ص١٤٠

٦١- المقاتل ص٦٦، الشرح جـ١٦ص٤٣وما يليها.

٦٢- ابن الأعثم جـ٤ص١٥٨وما يليها.

٦٣- الشرح جـ١٦ص٢٢وما يليها.

٦٤- ابن الأعثم جـ٤ص١٥٨

٦٥- ابن الأعثم جـ٤ص١٥٩، الشرح جـ١٦ص٢١٥

٦٦- ابن الأعثم جـ٤ص١٦٥

٦٧- انظر ابن الأعثم جـ٢ص١٦١-١٦٧، مقاتل ص٦٨-٧٣، الطبري جـ٢ ص٦-٩، اليعقوبي جـ٢ص٢١٦ومايليها.

٦٨- الطبري جـ٢ص٦، اليعقوبي جـ٢ص٢١٥.

٦٩- الشرح جـ١٦ص٢٨

٧٠- مقاتل ص٧٢ومايليها.

٧١- الاستيعاب جـ٣ص١٤٢٠، ابن كثير البداية والنهاية جـ٨ص١٣٥.

٧٢- انظر جوابه لحجر بأنه تخلى لانقاذ حياة أوليائه الحقيقين القلة. الدينوري ص٢٢٠

٧٣- ابن الأعثم جـ٤ص١٦٤، مقاتل ص٦٧، اليعقوبي جـ٢ص٢١٦، الدينوري ص٢٢٠، الاستيعاب جـ١ص٣٨٧.

٧٤- أسد الغابة جـ٢ص١٣ الاستيعاب جـ١ص٣٨٤، صحيح البخاري جـ٢ص١٩٨، الطبري جـ٢ص١٩٩، الجاحظ، الرسائل رسالة في بني أمية ص٦٥، العاملي أعيان جـ٤ص٥٤.

٧٥- الدينوري ص٢٢٠

٧٦- الطبري جـ١ص١٩٢٠

٧٧- البلاذري أنساب جـ٤ص١٣٨، الشرح جـ١٦ص١٤، ومقاتل فاغليري في دائرة المعارف الإسلامية طبعة٢ مقال "الحسن"

٧٨- المسعودي مروج جـ٢ص٤٢٦، مقاتل ص٧٣، الشرح جـ١٦ص١٠، الاستيعاب جـ١ص٣٨٩، أسد الغابة جـ٢ص١٤، اليعقوبي جـ٢ص٢٢٥، ابن خلكان وفيات الأعيان جـ٢ص٦٦

٧٩- المسعودي مروج جـ٢ص٤٢٧، مقاتل ص٧٣، الشرح جـ١٦ص١١

٨٠- الدينوري أخبار ص٢٢٢، اليعقوبي جـ٢ص٢٢٥، العقد الفريد جـ٤ص٣٦١.

٨١- ابن الأعثم جـ٤ص٢٠٦و٢٢٤، مقاتل ص٧٣، ياقوت جـ٢ص٢٢٨، الاستيعاب جـ١ص٣٩١

٨٢- اليعقوبي جـ٢ص٢٢٨، الدينوري ص٢٢١.

٨٣- الطبري جـ٢ص١١١-١٥٥، البلاذري جـ٤ص٢١١-٢٣٦، الأغاني جـ١٧ص٧٨-٩٦، الدينوري ص٢٢٣-٢٢٥، الاستيعاب جـ١ص٣٢٩-٣٣٣.

٨٤- الطبري جـ٢ص١٣١، الدينوري ص٢٢٣، الأغاني جـ١٧ص٧٩

٨٥- الأغاني جـ١٧ص٨١، البلاذري جـ٤ص٢١٤

٨٦- سابقة.

٨٧- ابن سعد جـ٦ص٢١٩،

٨٨- الطبري جـ٢ص١١٧، البلاذري جـ٤ص٢١٤

٨٩- الأغاني جـ١٧ص٨٢.

٩٠- الطبري جـ٢ص١١٧

٩١- بعد أن أحكم زياد حكمه على الكوفة أعاد تجميع كامل سكانها وقسمهم إلى أربعة أقسام إدارية وعين رئيساً لكل قسم. وقد تمت مناقشة ذلك في الفصل٥ في علاقته بتقويم الموقف في الكوفة.

٩٢- الطبري جـ٢ص١٣١، الأغاني جـ١٧ص٨٩.

٩٣- سابقة.

٩٤- الطبري جـ٢ص١٣٢، البلاذري جـ٤ص٢٢١والأغاني سابقة.

٩٥- البلاذري سابقة، الطبري جـ٢ص١٣٧

٩٦- الطبري جـ٢ص١٣٣، البلاذري جـ٤ص٢٢١ مع بعض الاختلافات، الأغاني جـ١٧ص٨٩.

٩٧- انظر الملاحظة ٩٥

٩٨- الطبري جـ٢ص١٤٠، البلاذري جـ٤ص٢٢٤والأغاني جـ١٧ص٩٢.

٩٩- الطبري جـ٢ص١٤٥، الاستيعاب جـ١ص٢٢٩، البلاذري جـ٤ص٢٢و٢٢٨و٢٢٩.

١٠٠- الدينوري ص٢٢٤

١٠١- سابقة.

١٠٢- الطبري جـ٢ص١١١، البلاذري جـ٤ص٢١١

١٠٣- انظر من أجل تفاصيل أكثر الطبري أحداث السنوات ٥٦-٦٠، والمسعودي مروج جـ٣ص٢٧

١٠٤- انظر من أجل تفاصيل أكثر :ك ابن الأعثم جـ٤ص٢٣٥-٢٤٩، ابن الأثير الكامل في التاريخ (بيروت١٩٦٥) جـ٣ص٥٠٨-٥١١.

١٠٥- انظر مراجع الملاحظتين١٠٣و١٠٤والطبري جـ٢ص١٧٥وما يليها.

الفصل السابع

استشهاد الحسين

فور وفاة معاوية في رجب ٦٠هـ آذار ٦٨٠م استلم ابنه يزيد الخلافة حسب وصية والده معاوية غير السابقة(لم تحصل سابقاً). وهذه الحالة تمثل أسلوباً في الحياة العامة شائعا في الأرستقراطية الأموية مما قبل الإسلام، مع أن يزيد لم يكن يحظى بأي احترام بين المسلمين. لقد جلب له تصرفه المنافي للقيم الإسلامية وممارساته العلنية المخالفة للدين والمعروفة جيداً بين المسلمين الاشمئزاز والاستياء وبخاصة من أولئك الذين يهتمون بالقضايا الدينية. حتى الكتّاب الذين حاولوا كتم بعض المعلومات غير المستحبة لدى البيت الأموي لم يستطيعوا الأحجام عن ذكر أن يزيد كان أول الخلفاء الذين شربوا الخمر علناً، وضم إليه صحبة سيئة، وصرف وقته في ملذات الموسيقى والغناء، وتسلية نفسه باللعب مع القرود وكلاب الصيد. ولم يكن تقياً ولم يهتم بمشاعر الآخرين الدينية. وبما أن يزيد أدمن الخمر، وانجذب إلى المغنيات واستسلم لكل أنواع الملذات، فإننا لا نجد كاتباً مسلماً في أية فترة عاش ولأي مدرسة فكرية انتمى ذكر يزيد بقول حسن. وما زاد الأمر سوءاً هو إصراره على انتهاك القيم الإسلامية مما هزّ مشاعر المسلمين، وذلك لأنه أحد أقارب النبي والخلفاء الراشدين وهو الذي أدعى خلافتهم، واستقى سلطته من سلطتهم. ومع ذلك، فإن دهاء معاوية وتدبيره المحسوب جيداً إلى جانب القوة العسكرية القابضة على العالم الإسلامي، كل ذلك أدّى إلى وصول يزيد إلى الخلافة بهدوء. وهكذا صار يزيد "أمير المؤمنين" وَقَبِلَ ذلك كل قادة القبائل

وحكام الولايات؛ ومع ذلك فإنه لم يكن آمناً على لقبه ما لم يضمن بيعة الشخصيات الأربعة الأكثر أهمية في الإسلام، الذين لم يستطع معاوية – برغم كل الجهود التي بذلها– أن يشتري موافقتهم أو يجبرهم على القبول بيزيد كما فعل مع الوجهاء الآخرين وقادة القبائل.

بموت معاوية الذي كان الأخير من الجيل الأول الذي استطاع أن يدعي لنفسه على الأقل بعض الأهمية السياسية، فإن الخلافة صارت إلى الجيل الثاني (التابعين) بعد النبي. وأكابر التابعين هم كما وصفنا في الفصل السابق الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر، وهم أبناء الصحابة البارزين الكبار الذين تمتعوا باحترام المسلمين؛ وحاز الحسين بصفته الحفيد الأخير الحي للنبي على تقدير أعظم بين الأربعة. وبالتالي كان من المؤكد أنه بدون اعتراف هؤلاء بسلطة يزيد لم يكن من الممكن لها أن تبقى قوية. وكان معاوية مدركاً لأهمية هؤلاء الأربعة، وبما أنه فشل في ضمان تأييدهم لخلافة يزيد، فقد حذر ابنهُ من خطرهم قبل أن يلفظ نفسه الأخير. فقد نصح ابنه وهو على فراش الموت قائلاً: "يا بني إني قد كفيتك الرحلة والترحال (أو الرجال)، ووطّأت لك الأشياء وذلّلت لك الأعداء، وأخضعت لك أعناق العرب، وجمعت لك ما لم يجمعه أحد، وإني لا أتخوف أن ينازعك هذا الأمر الذي استتب لك إلاّ أربعة نفر من قريش: الحسين بن علي و عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر. فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذته العبادة وإذا لم يبق أحد غيره بايعك، وأما الحسين بن علي فإن أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه، فإن خرج عليك فظفرت به فاصفح

عنه فإن له رحماً ماسّة وحقاً عظيماً، وأما ابن أبي بكر فرجل إن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثلهم، ليس له هم إلا في النساء واللهو، وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد، ويراوغك مراوغة الثعلب، فإن أمكنته فرصة وثب، فذاك ابن الزبير فإن هو فعلها بك فقدرت عليه فقطّعه إرباً أرباً."[٢] (النقل من الطبري.المترجم). نقلت جميع المصادر وصية معاوية، وهي تؤكد أن جهود معاوية لضمان تأييد كبار المسلمين هؤلاء لخلافة يزيد لم تنجح. ولكي يضمن يزيد خلافته، فإن أول عمل قام به هو أن أمر والي المدينة الوليد بن عتبة أن يحصل على بيعة هؤلاء الأربعة الصعبي المراس، وبخاصة الحسين وابن الزبير. وفي رسالته إلى الوالي أمره بشدة ألاّ يسمح لهم بتأخير البيعة، وإذا رفضوا البيعة أمره بقتلهم. بعض المصادر تذكر اسم عبد الله بن عمر إلى جانب الحسين وابن الزبير في رسالة يزيد.[٣] أرسل الوليد بن عتبة يطلب الحسين وابن الزبير في ساعة متأخرة وغير معتادة من الليل وأمرهما أن يبايعا الخليفة الجديد. وعرفا فوراً أن معاوية مات، وقررا عدم مبايعة يزيد. لم يستجب ابن الزبير لدعوة الوالي وفر في اليوم التالي إلى مكة. أما الحسين فذهب إلى الوالي مصحوباً بجماعة قوية من مؤيديه محتملين وقوع خطر. ترك الحسين مؤيديه عند باب القصر ودخل وحده. قرأ الوليد رسالة يزيد عليه وطلب منه مبايعة يزيد فوراً. أجاب الحسين دون إلزام نفسه بشيء أن البيعة كي تكون شرعية يجب أن تتم علناً، وعلى الوالي أن يهيئ جمعاً في المسجد بحضره الحسين. وعند هذه الإجابة نهض الحسين ليغادر القصر، نبّه مروان بن الحكم وكان حاضراً الوليد قائلاً: " والله لئن فارقك الساعة ولم يبايع لا قدرت منه

على مثلها أبداً حتى تكثر القتلى بينكم وبينه، احبس الرجل، ولا يخرج من عندك حتى يبايع أو تضرب عنقه. فوثب عند ذلك الحسين، فقال: يا ابن الزرقاء أنت تقتلني أم هو! كذبت والله وأثمت." والحقيقة أن مروان كان قد نصح الوليد بطلب الرجلين للبيعة، وإن رفضا قتلهما حالاً قبل أن ينتشر خبر موت معاوية بين الناس. لكن الوليد لم يقبل نصيحة مروان وغادر الحسين القصر. واستدار الوليد إلى مروان وقال له: "وبّخ غيرك يا مروان، إنك اخترت لي التي فيها هلاك ديني. والله ما أحب أن لي ما طلعت عليه الشمس وغربت عنه من مال الدنيا وملكها، وإني قتلت حسيناً، سبحان الله! أقتل حسيناً إن قال: لا أبايع! والله إني لأظنُّ أمرءاً يُحاسب بدم حسين لخفيف الميزان عند الله يوم القيامة. (النص من الطبري-المترجم) إن جواب الوليد لمروان الذي أوردته جميع المصادر يوضّح ذلك التقدير والاحترام الخاصّين الذين تمتع بهما حفيد النبي لا من طرف مؤيديه فقط، بل من الغالبية العظمى للمسلمين. نجح الحسين في تجنب بيعة يزيد ليومين ثم توجّه مع أسرته ومعظم الهاشميين إلى مكة. ودفع الوليد بن عتبة جزاء ليونته مع الحسين فقد عزله يزيد من منصبه كوالٍ للمدينة.

أما عبد الله بن الزبير الذي وصل مكة قبل الحسين فقد جمّع الناس حوله ضد يزيد، وتذكر المصادر أنه كان يعمل سرّاً من أجل طموحاته في الوصول إلى الخلافة. ولكن حالما وصل الحسين إلى مكة انفض الناس عن ابن الزبير وتجمعوا حول الحسين. وكان هذا أمراً طبيعياً، فمصادرنا تذكر بوضوح أن "الحسين كان أعز عند الحجازيين وأكثر احتراماً من ابن

الزبير، الذي عرف أن سكان الحجاز لن يتبعوه مادام الحسين في مكة."[٥]
لقد كان تبجيل الحسين عظيماً جداً حتى أن الناس صلوا خلفه وطافوا معه حول الكعبة فور وصوله، وفضلوا البقاء إلى جانبه معظم الوقت.

فالحسين مثل أخيه الحسن يجمع في شخصه حقوقاً خاصة بصفته سليل النبي وعلي، وبعد وفاة الحسن أصبح المرشح الوحيد للخلافة من عائلة النبي. ولكنه في ما مضى من سنوات لم يفعل الكثير لدعم حقوقه، بل اكتفى بإظهار موقف سلبي من ترشيح يزيد للخلافة. ولم يكن بمقدوره أن ينشط لضمان حقوقه نظراً لأن معاهدة الحسن مع معاوية كانت تقيده مادام معاوية حيّاً. وهذا ما شرحه لشيعة الكوفة كلما حاولوا الثورة على معاوية. لكن موت معاوية غيّر الموقف. فمن جهة أولى حرر الحسين من تلك المعاهدة، ومن جهة أخرى ازداد إلحاح شيعة الكوفة عليه من أجل هدايتهم وقيادتهم. فحالما علم الكوفيون بموت معاوية عقدوا سلسلة من الاجتماعات معبرين عن تجديد ولائهم وحماستهم لنصرة الحسين. وأرسلوا إلى الحسين رسائل عديدة وواتروا بعض الوفود إليه طالبين منه القدوم إلى الكوفة لتولي قيادتهم، حيث أنهم لا يقرون إماماً سواه. فالرسالة الأولى التي تلقاها الحسين في ١٠ رمضان ٦٠هـ حزيران ٦٨٠م وقعها سليمان بن صرد الخزاعي والمسيب بن نجبة أو نجية ورفاعة بن شداد وحبيب بن مظاهر ومسلم بن عوسجة نيابة عن شيعة ومسلمي الكوفة وهي كما يلي "... أما بعد، فالحمد لله الذي قصم عدّوك الجبار العنيد الذي انتزى على هذه الأمة فابتزّها أمرها، وغصبها فيئها، وتأمر عليها بغير رضاً منها، ثم قتل خيارها واستبقى شرارها، وجعل مال الله

دولة بين جبابرها وأغنيائها، فبعداً له كما بعدت ثمود! إنه ليس علينا إمام، فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الحق. والنعمان بن بشير في قصر الإمارة لسنا نجتمع معه في جمعة، ولا نخرج معه إلى عيد، ولو قد بلغنا أنك قد أقبلت إلينا أخرجناه حتى نلحقه بالشام إن شاء الله والسلام ورحمة الله عليك."[٦]

هذه الرسالة الموقعة من الرجال الذين ذكرناهم سابقاً كانت حافز الحسين الرئيسي، لأن موقعيها كانوا من المؤيدين الموثوقين لعائلته منذ البداية وقد أثبتوا ولاءهم في معركتي الجمل وصفين إلى جانب علي. وبرغم أنهم قلقوا للغاية وأحبطوا بتخلي الحسن عن الخلافة لصالح معاوية، فإنهم بقوا مع ذلك موالين للحسن ومعادين لمعاوية. وإلى جانب هؤلاء الشيعة فإن كوفيين آخرين بعثوا برسائل عديدة وقّع كلاً منها قادة كبار يبغون الهدف نفسه.[٧] وهناك رسائل مماثلة بعثها شيعة البصرة طالبين فيها من الحسين التحرك لاستلام قيادتهم وتنشيطها. ومن المؤكد أن درجة حافزهم الديني تتفاوت: فقد كان لبعضهم رغبة سياسية في التخلص من السيطرة السورية.

وعلى كل حال، فإن أعمال الحسين من بدايتها وحتى نهايتها تظهر أن استراتيجيته كانت تهدف إلى هدف أسمى من مجرد استلام الخلافة. فليس لدينا برهان على أنه حاول –حين كان في مكة– أن يجند مؤيدين نشطين من بين الذين تجمعوا حوله، أو أن يشرح قضيته لجموع الناس القادمين إلى الحج؛ كما أنه لم يرسل مبعوثين إلى الولايات مثل اليمن وفارس حيث يوجد موالون كثر لعائلته لتحريك أي تمرد، رغم أن بعض أقاربه نصحه

بذلك. وفوق كل ذلك، فلو أنه تحرك بسرعة استجابة لدعوة الكوفيين حين كانت الولاية في قبضة الوالي الضعيف النعمان بن بشير لكان من المحتمل أن ينجح في مسعاه. إن وصوله السريع إلى الكوفة ما كان ليستبق أي عمل مؤثر من طرف الأمويين فقط، بل كان سيشيع حماساً حقيقياً بين الكوفيين. وهذا ما أكده قادة الحركة حين كتبوا قائلين: "بسم الله الرحمن الرحيم/ للحسين بن علي من شيعته المؤمنين والمسلمين. أما بعد: فحي هلا، فإن الناس ينتظرونك لا إمام لهم غيرك، فالعجل ثم العجل والسلام."[٨] (النقل من اليعقوبي)

هذه الرسالة الأخيرة وقّعها العديد من الناس وأرسلوها مع وفد مؤلف من هانئ بن هانئ السبيعي وسعيد بن عبد الله الحنفي وهما من أكثر الشيعة في الكوفة مصداقية. وعلى كل حال، أجاب الحسين بأن أرسل رسالة مع هذا الوفد. ومحتويات هذه الرسالة تستحق التوقف عندها وفيها: "بسم الله الرحمن الرحيم، من حسين بن علي إلى الملأ من المؤمنين والمسلمين. أما بعد: فإن هانئاً وسعيداً قدما عليّ بكتبكم، وكانا آخر من قدم عليَّ من رسلكم، وقد فهمت كل الذي اقتصصتم وذكرتم، ومقالة جلّكم: إنه ليس علينا إمام، فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى والحق. وقد بعثت إليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي، وأمرته أن يكتب إليَّ بحالكم وأمركم ورأيكم. فإن كتب إليّ أنه قد أجمع رأي ملئكم وذوي الفضل والحجي منكم على مثل ما قدمت عليَّ به رسلكم، وقرأت في كتبكم، أقدم عليكم وشيكاً إن شاء الله؛ فلعمري ما الإمام إلا العامل

بالكتاب، والآخذ بالقسط، والدائن بالحق، والحابس نفسه على ذات الله. والسلام."[9] (النقل عن الطبري)

تشرح الجملة الأخيرة من هذه الرسالة واجبات الإمام، وطبيعة الإمامة، وتساعدنا على فهم مقاربة الحسين وموقفه من كامل المعضلة. وحفظ لنا أبو مخنف رسالة الحسين إلى شيعة البصرة وهي تستحق أن نقتبسها وهي كما يلي: "أما بعد: فإن الله اصطفى محمداً صلى الله عليه وسلم على خلقه، وأكرمه بنبوته، واختاره لرسالته، ثم قبضه الله إليه وقد نصح لعباده، وبلّغ ما أرسل به صلى الله عليه وسلم، وكنّا أهله وأولياءه وورثته وأحق الناس بمقامه في الناس، فاستأثر علينا قومنا بذلك، فرضينا، وكرهنا الفرقة، وأحببنا العافية، ونحن نعلم أنا أحق بذلك الحق المستحق علينا ممن تولاه، وقد أحسنوا وأصلحوا، وتحروا الحق، فرحمهم الله، وغفر لنا ولهم. وقد بعثت رسولي إليكم بهذا الكتاب، وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه صلى الله عليه وسلم، فإن السنّة قد أميتت، وإن البدعة قد أحييت وإن تسمعوا قولي وتطيعوا أمري أهدكم سبيل الرشاد، والسلام عليكم ورحمة الله."[10]

إن محتويات هذه الرسالة هي نص كامل بعقيدة الشيعة في الإمامة حتى في هذا الوقت المبكر. لم تذكر المصادر التاريخية إلاّ القليل عما ندعوه النظرية الدينية – السياسية الشيعية وذلك بسبب حقيقة هي أن اهتمام هذه المصادر الرئيسي هو بالأحداث، وليس بالمبادئ المنضوية تحت هذه الأحداث. ومع ذلك فإن تسجيل المصادر للأحداث حفظ لنا وثائق معينة مثل الرسائل والخطابات التي تقدم لنا لمحات عن هذه الأفكار

الكامنة وراء الأحداث. فقد اقتبسنا رسائل الحسن في الفصل السابق وأشرنا عندها إلى تفكير أهل البيت. والآن، في أيام الحسين، أي بعد عشرين سنة، نجد رسائل الحسين تقدم الشريان الفكري عينه وبالضبط. فقد فسر الإمام الحسين في رسائله مفهوم الولاية بشكل مناسب جداً، والذي يعني أن الله منح عائلة النبي شرفاً وميزات خاصة، وبالتالي جعلهم حكاماً من نوع مثالي، وأنه من خلال وجودهم في الأرض ينشر الله نعمه. والمصطلحان العقائديان الآخران الهامان في هذه الرسالة هما: الوصاية والوراثة (الوصي والوارث). وقد رأينا في الفصل الرابع أنه حين انتخب علي للخلافة خوطب بهذين المصطلحين من طرف مناصريه المقربين. والآن بعد خمسة وثلاثين عاماً نرى الحسين يستخدمهما. مما يعني أن هذين المصطلحين يحملان فكرة أن الله أوصى وزكى عائلة النبي للناس، وأن محمداً أوصى بعلي، وعلي أوصى بالحسن الذي ترك هذا الإرث في سلالة الحسين. قد يبدو على كل حال، أنه من المبكر لهذين المفهومين أن ينضجا بمحتويات عقائدية، ومع ذلك يمكننا أن نرى حضور العقيدة في صورة المفهومين الجنينية.

والقسم الآخر الهام في رسالة الحسين هو تصريحه بأن قيادة الأمة حق خاص بآل النبي، وأنهم وحدهم القادرون على قيادة الأمة على الصراط المستقيم، أو بكلام آخر، إنهم وحدهم – وبفضل ميزاتهم الخاصة– يستطيعون أن يجمعوا السلطة الزمنية المادية والهداية الدينية معاً. وأكثر من ذلك، إن الحسين بهذه الرسالة حكم على خلافة كل من أبي بكر وعمر وعثمان. وبعدها، وبدعوة الحسين الأمة للتمسك بسنة النبي، فإن

الحسين رفض ضمناً تفسيرات الخلفاء الثلاثة الذين لا يشملهم مصطلح أهل البيت. وبالتالي، فإنه على أتباع أهل البيت أن يعودوا مباشرة إلى سنّة النبي والأئمة الملهمين.

وقرر الحسين أن يجيب الدعوة؛ وذلك بفضل عاملين ألهماه التحرك. الأول، إنه حفيد مؤسس الإسلام، فقد شعر أن واجبه يملي عليه أن يجيب دعوات هؤلاء المسلمين المتكررة؛ والثاني، إن ضغوط يزيد الهائلة للحصول على البيعة جعلت الحسين يمتنع عن قبول خلافة يزيد، لأنه يرى نفسه ابن النبي، ويأنف من مبايعة يزيد. كان الموقف صعباً. فقبول سلطة معاوية كرئيس للجماعة الإسلامية مختلف كثيراً عن قبول سلطة يزيد. فبرغم ميول معاوية المادية وعدم اكتراثه بالقضية الدينية فإنه لم يخالف المعايير الإسلامية بالكامل، على الأقل علناً. أما يزيد فلم يخالف المعايير القرآنية والسنة النبوية فقط، بل أخضعهما علناً للاستخفاف والازدراء كما أجمع على ذلك مؤرخو ذلك العصر. حتى عمال معاوية في تنفيذ خطته لترشيح يزيد للخلافة كانوا متحفظين على شخصيته. وبالتالي، عندما طلب معاوية من زياد أن يحضّر سكان البصرة والكوفة لقبول تسمية يزيد للخلافة، نصحه زياد أن يحاول إصلاح سلوك ابنه قبل الطلب من الناس بيعته.[١١٥]

إن من الخطأ الجسيم تقييم حالة يزيد بدون الأخذ بالاعتبار الأثر الحي للرسول والجيل الأول من المسلمين. إن التعارض الحاد بين هذا الأثر وطباع يزيد هو الذي قاد في النهاية إلى مأساة كربلاء، التي سنبحثها

الآن. ولكي نوالي سردنا فإن المعلومات الواردة في مصادرنا ومصداقيتها سنناقشها في نهاية هذا الفصل.

برغم المناشدات المتكررة والرسائل العديدة التي توجه بها وأرسلها الكوفيون، فإن الحسين لم يسرع في اتخاذ قرار، ولحذره أرسل ابن عمه مسلم بن عقيل إلى الكوفة كمبعوث له وبتوجيه محدد وهو أن يتأكد من حقيقة أولئك الممثلين للكوفيين، ثم يخبره بحقيقة ما يجد عندهم. وحالما وصل مسلم بن عقيل إلى الكوفة تم عقد اجتماع في بيت سليمان بن صرد الخزاعي، وحضره قادة الحركة فقط بسبب السريّة الضرورية في تلك المرحلة. وهناك قرأ مسلم بن عقيل رسالة الحسين التي اقتبسناها أعلاه أمام الحضور، فقام عابس بن أبي شبيب الشاكري ثم حبيب بن مظاهر الفقعسي ثم سعيد بن عبد الله الحنفي وأعلنوا تأييدهم للحسين حتى آخر نفس فيهم.[١٢] وسنرى فيما بعد أن كلامهم لم يكن بلا معنى فقد بقي هؤلاء على ولائهم وانجزوا ما وعدوا به وأخيراً سخوا بنفوسهم مع الحسين في كربلاء. وإلى جانب هؤلاء الأولياء المتحمسين لقضيتهم ديناً المناصرين لأهل البيت، فإن مؤيدي علي السياسيين من بين الكوفيين رأوا أن من الخطأ التخلف عن تأييد الحركة التي احتملوا أنها ستنجح في تخليصهم من السيطرة الأموية، وتفتح سبلاً جديدة لهم. وسريعاً ما حصل مسلم بن عقيل على آلاف الوعود بالمناصرة. أما عدد الناس الذين سجلوا أسماءهم وبايعوا مسلماً نيابة عن الحسين فيتراوح ما بين ١٢٠٠٠ و ١٨٠٠٠ ومعظم المصادر تذكر الرقم الأخير.[١٣] وسرعان ما أصبحت

الحركة علنية وتوسعت حتى أن مسلم بن عقيل استطاع أن يترأس اجتماعات عامة من على منبر جامع الكوفة.

وحينما وثق مسلم من تأييد الكوفيين كتب إلى الحسين أن أقدم على الكوفة لاستلام القيادة. ولم يحمل رسالة مسلم شخص عادي بل عابس بن حبيب الشاكري وهو من ثقاة قادة الحركة الشيعية في الكوفة.[١٤] وعندما تيقن الحسين من درجة حماس الكوفيين قرر الرحيل إلى العراق. والتقى الحسين في طريقه من مكة إلى المدينة بأخيه محمد بن الحنفية وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس فحذروه من المخاطر. ومرة أخرى أعاد ابن عباس وأصدقاء آخرون تحذير الحسين وأصروا وحاولوا إقناعه بعدم الاعتماد على وعود الكوفيين، وذكّروه بتقلب آرائهم، وأن الخيانة طبع فيهم، وكيف غدروا بأبيه وأخيه في ساعة المحنة.[١٥] ومن جهة ثانية فإن عبد الله بن الزبير أبدى اهتمامه بسلامة الحسين نفاقاً، ومع ذلك حثّه على المضي في خطته،[١٦] وذلك لأنه أراد الشروع بمغامرته الخاصة للوصول إلى السلطة. ومادام الحسين في الحجاز فمن المستحيل أن ينجح ابن الزبير، لأن الناس لن تفضله على حفيد النبي.[١٧] لذلك كان ابن الزبير مسروراً لرؤية الحسين يخلي له الساح في مكة. وبرغم كل النصائح التي تلقاها الحسين فإنه لم يتخل عن مشروعه، فقد كان يحمل في ذهنه خطة واستراتيجية محددتين، كما سنشرح فيما بعد.

حين علم يزيد بوصول مسلم بن عقيل إلى الكوفة، والتأييد الذي تلقاه، فقد ثقته بوالي المدينة الضعيف واللين الجانب النعمان بن بشير، فعيّن رجله القوي عبيد الله بن زياد واليه على البصرة والياً على الكوفة أيضاً وأمره

بالرحيل إلى الكوفة فوراً. وكانت مهمة عبيد الله الفورية هي سحق الحركة الشيعية بكل الوسائل التي يتطلبها الوضع. وقد حفظت لنا المصادر نص رسالة يزيد، وهذه الرسالة توضّح عنف موقف يزيد من حركة تأييد الحسين.[١٨] وكان ابن زياد مدركاً التمرد في الكوفة لصالح الحسين، فتوجه إلى الكوفة متنكراً مرتديا عمامة سوداء وهو متلثم، وأخذ معه مجموعة صغيرة من الفرسان. وحين دخل ابن زياد الكوفة ظنوه الحسين وكانوا ينتظرونه فأخذ لا يمر بجماعة من الناس إلا سلمّوا عليه وقالوا: مرحباً بك يا بن رسول الله قدمت خير مقدم، ويتجمعون حول حصانه.[١٩] وراقب ابن زياد حماس الكوفيين للحسين، ثم دخل المسجد واعتلى المنبر ثم كشف عن و جهه. وألقى خطبة ناريّة معلناً أنه سيعاقب بالقتل كل المتعاطفين مع الحسين، ووعد أولئك الموالين للخليفة. وأصاب الهلع الكوفيين المعروفين بقلة تمسكهم بمواقفهم، وضربهم الخوف، فتخلوا عن مسلم بن عقيل الذي حاول أن ينظّم ثورة فورية لكنه فشل في ذلك، وألقي القبض عليه وقتل مع هاني بن عروة المرادي حيث كان يقيم في بيته.[٢١] هذا الموقف الخائن الذي درج عليه الكوفيون بعامة يظهر ضعف طباعهم وترددهم كما حدّث به من لقي الحسين وهو في طريقه إليهم. فقد لقي الحسين الشاعر المعروف الفرزدق في مكان يدعى الصفاح وسأله عن حال الكوفين فأجاب: "قلوب الناس معك، وسيوفهم مع بني أمية."[٢٢]

غادر الحسين مكة يوم الثامن من ذي الحجة ٦٠ هـ الموافق العاشر من أيلول ٦٨٠م في اليوم نفسه الذي قتل فيه مسلم بن عقيل في الكوفة.

وخرج معه حوالي خمسون رجلاً مسلحاً من بين أقاربه وأصدقائه، إلى جانب نساء وأطفال رافقوه من مكة في تلك الرحلة المشؤومة. إن خروج الحسين المفاجئ من مكة قبل يومين من موسم الحج حيث قضى هناك خمسة أشهر وحيث كان عدد كبير من الناس يتوافدون لأداء الحج، لم يكن من غير سبب خطير. يذكر الطبري وآخرون قول الحسين نفسه: "أن الوالي الأموي بعث بعض الجنود المتسترين بزي الحجاج للقبض عليه أو حتى لقتله."[٢٣] وبرغم أن من الصعوبة بمكان إثبات مصداقية هذه الرواية، لكننا لا نستطيع استبعاد إمكانية حصول ذلك على ضوء ما حدث للمدينتين المقدستين على يد الجيش الذي بعث به يزيد لقمع تمرد ابن الزبير.

بينما كان الحسين متوجهاً نحو العراق، كان ابن زياد قد جعل من الكوفة مكاناً للهلع والإرهاب بعد قتل مسلم وهانئ. أولاً: أوقع ابن زياد ضغوطاً اقتصادية على السكان من خلال العرفاء، الذين كان واجبهم هو المسؤولية عن توزيع الأرزاق والمحافظة على القانون والنظام في المواقع المسؤولين عنها والتي ناقشناها في الفصل الخامس. فقد استغل هؤلاء وطلب منهم تدوين أسماء الغرباء والمتمردين والمشكوك بولائهم. وحمّلهم المسؤولية عن أية مشكلة قد تقع كلاً في منطقته، وهددهم بالصلب وبقطع الأرزاق عن تابعيهم إذا أخفوا عنه شيئاً. ثانياً: أعلن أن كل شخص يتوقع منه تأييد الحسين سيعدم بغير محاكمة، ويحرق بيته، وتصادر ممتلكاته.[٢٤] وبالتالي وقعت الكوفة حالاً في قبضته. ثم أغلق ابن زياد كل الطرق التي تؤدي من الحجاز إلى الكوفة، وأمر بمنع أي شخص من

مغادرة الكوفة أو القدوم إليها. ووضع قوة مسلحة من ٤٠٠٠ رجل تحت قيادة الحصين بن النمير التميمي في القادسية وهي محطة هامة على الطريق المعتادة بين الحجاز والكوفة. كما أنه وجه سرايا من الجيش الأموي إلى نقاط الحدود مثل القطقطانة ولعلع وكوفان التي تربط البصرة بالكوفة لحراستها؛[٢٥] فأصبح من المستحيل تقريباً على أحد الخروج أو الدخول إلى الكوفة. وعرف الحسين بهذه الإجراءات جميعها من البدو، ولكنه تابع رحلته غير متردد. وعندما وصل الثعلبية أخبره بعض المسافرين بقتل مسلم وهانئ في الكوفة؛ وعندما وصل زبالة عرف أن مبعوثه قيس بن مشير الصيداوي الذي أرسله من حاجر على بعد أربعة مراحل من مكة برسالة إلى الكوفيين يخبرهم بقدومه القريب إليهم، أن قيس هذا قد أُسر في القادسية وأخذ إلى ابن زياد فقتله في الكوفة، رمي من أ على قصر الإمارة حين رفض سب الحسين وأبيه وهو شرط ابن زياد لإنقاذ حياته.[٢٦] ولم يستطع الحسين أن يخفي دموعه لمصير وليه الثقة واقتبس آية تقول: ("منهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا." اللهم اجعل لنا ولهم الجنة منزلاً، واجمع بيننا وبينهم في مستقر رحمتك، ورغائب مذخور ثوابك.)[٢٧] قول الحسين هذا واضح بما فيه الكفاية لبيان أنه كان مدركاً تماماً لما ينتظره، وأنه كان مستعداً له. وهناك تعبير آخر عن تفكير الحسين أطلقه حين دعا أصحابه بعد أن عرف هذه الأخبار في زبالة؛ فقد خاطبهم فأخبرهم بالأنباء المؤلمة وخطر الموت المحدق بهم جميعاً، وطلب أن ينسحبوا ويتركوه لمصيره. وعندها غادره أولئك الذين انضموا إليه أثناء رحلته آملين بمكاسب مادية، وبقي معه أولئك

الذين خرجوا معه من الحجاز.[28] يجب أخذ تصريحات الحسين هذه بعين الاعتبار لأنها هامة لفهم تفكيره الذي نبحثه فيما يلي.

غادر الحسين زبالة واقترب من الكوفة إلى موقع يقال له بطن العقيق، عندها عرف تفاصيل القوة العسكرية المتمركزة في القادسية؛ فغيّر طريقه إلى الكوفة لدخولها من جهة أخرى. وعلم الحصين بن نمير أن الحسين غير طريقه فأرسل سرية قوامها ألف رجل بقيادة الحر بن يزيد التميمي اليربعي لاعتراضه. وعندما بدت هذه السرية للحسين في الأفق أمر أصحابه بالتوجه إلى مكان أكثر أمناً لهم هو "ذو حسم" ونصبوا خيامهم هناك. ولم يطل الوقت حتى وصلت سرية الحر إلى مواجهة الحسين وأصحابه. كان الطقس حاراً وقد نفذ الماء من قوات الحر بن يزيد؛ ولم يطق حفيد النبي أن يرى حتى خصومه يعانون العطش، فأمر أتباعه أن يسقوا الجيش الأموي وخيلهم. واشترك الحسين بنفسه في إرواء القوم.[29] كان الحر بن يزيد يكنّ بعض الاحترام للحسين حتى أنه وأصحابه صلّوا خلف الحسين. ورفض التعرض بالأذى لأربعة رجال من شيعة الكوفة استطاعوا الهرب منها والانضمام إلى الحسين رغم أن الحر استنكر ذلك.[30] وبعد كل صلاة كان الحسين يشرح لخصومه سبب قدومه قائلاً: " إني لم آتكم حتى أتتني كتبكم، وقدمت عليّ رسلكم: أن أقدم علينا، فإنه ليس لنا إمام، لعل الله يجمعنا بك على الهدى، فإن كنتم على ذلك فقد جئتكم، فإنكم إن تتقوا وتعرفوا الحق لأهله يكن أرضى لله، ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم وإن أنتم كرهتمونا،

وجهلتم حقنا، وكان رأيكم غير ما أتتني كتبكم وقدمت بـه رسـلكم، انصرفت عنكم."[٣١]

ثم طلب الحسين خرجين يضمان رسائل الكوفيين إليه وأراها للحر بـن يزيد، فأنكر الحر معرفته بهذه الرسائل قائلاً: "فإنا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك، وقد أمرنا إذا نحن لقيناك ألا نفارقك حتى نقدمك على عبيد الله بن زياد." رفض الحسين الاستسلام، ولم يجبره الحر بالقوة على ذلك. وبعد جدل قصير وهام بين الحسين والحر تم الاتفاق على أن يسير الحسين في طريق بمحاذاة الفرات لا توصله إلى الكوفة، ولا تـرده إلى المدينـة، ويتبعه الحر حتى تأتيه أوامر جديدة من ابن زياد. وحين وصل الحسين إلى نينوى جاء فارس من الكوفة. فوقف الجميع ينظرون إلى الفارس الـذي سلّم على الحر ولم يسلّم على الحسين، ودفع إلى الحر كتاباً من عبيد الله بن زياد فإذا فيه: "أما بعد فجعجع (أي أزعـج وأخـرج أي أحـبس) بالحسين، فلا تنزله إلاّ بالعراء من غير حصن ولا ماء."[٣٢] عندها اقترح زهير بن القين وهو أحد أتباع الحسين أن يهاجم سرية الحـر الصـغيرة. فقال له الحسين: "ما كنت لأبدأهم بالقتال." فقال زهير سرّ بنا إذن إلى هذه القرية الحصينة. فقال الحسين وأية قرية هي؟ فقال هـي العَقـر. وعلى كل حال، تدبر الحسين وضعه حتى وصل سهل كـربلاء وهنـاك نصب خيامه في الثاني من محرم ٦١هـ الثاني من تشرين الأول ٦٨٠م.

تدهور الوضع في اليوم الثالث من محرم حين وصل عمر بن سعد بـن أبي وقاص مع الجيش الأموي المؤلف من ٤٠٠٠ رجل، وتسلّم القيادة العليا في الميدان. حين وصل ابن سعد إلى كربلاء علم أن الحسين ينوي العودة

إلى المدينة، ولكن ابن زيادة وبرغم علمه بنية الحسين أمر بأن على جميـع "العصاة" مبايعة يزيد بن معاوية. وإلى أن يفعلوا ذلك يجب حرماهم من الوصول إلى النهر. عندئذٍ وضع عمر بن سعد سرية من ٥٠٠ فـارس على طريق النهر لمنع أصحاب الحسين من الوصول إلى الماء، وبالتالي عانى الحسين وأصحابه العطش لثلاثة أيام قبل المذبحة الشنيعة. تدبرت مجموعة من ثلاثين فارساً وعشرين راجلاً من أصحاب الحسين بقيادة أخيه العباس أمر الوصول إلى الماء وملأت بعض القِربَ القليلة. وحتى تلك اللحظـة كان عمر بن سعد يحاول إقناع الوالي ابن زياد أن يصل إلى حلٍّ سـلمي لتجنب قتل حفيد النبي، ولكن كل محاولاته ذهبت هباءً. أخيرا بعث ابن زياد أوامره النهائية مع شمر بن ذي الجوشن إلى عمر بن سعد وفيها إما أن تهاجم الحسين وأصحابه، وإما أن تسلّم القيادة لشمر نفسه،[٣٣] وكـان نص رسالة ابن زياد إلى عمر بن سعد كما يلي: "إني لم أبعثك إلى حسين لتكف عنه ولا لتطاوله، ولا لتمنيه السلامة والبقاء، ولا لتقعد له شافعاً عندي. انظر، فإن نزل حسين وأصحابه على الحكم واستسلموا، فابعث بهم إلي سلماً، وإن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثّل بهم، فإنهم لذلك مستحقون، فإن قتل حسين فأوطئ الخيل صدره وظهره، فإنه عاق مشاق قاطع ظلوم.."[٣٤] توجب على ابن سعد أن يتحرك للعمل، لأنه كان قلقاً على تعيينه نائباً لوالي الري، كما كان يدرك أن الحسين لن يستسلم أبداً، لأن في داخله "نفس أبية"

وهكذا حين وصلت أوامر ابن زياد الأخيرة مع شمر بن ذي الجوشن أمر قواته بالتحرك نحو مخيم الحسين مساء التاسع من المحرم. عنـدها بعـث

الحسين أخاه العباس مع بعض أصحابه لاستجلاء الخبر عن اقتراب جيش ابن سعد من المخيم. وحين أخبر العباس بالأوامر الأخيرة لابن زياد، عاد إلى الحسين وأخبره بذلك، فطلب منه الحسين أن يعود إلى ابن سعد ليطلب إمهاله تلك الليلة، وحصل على ذلك. عندها جمع الحسين أقاربه وأصحابه وخطب فيهم. وقد أوردت جميع المصادر هذا الخطاب بأسانيد مختلفة، وهو مفيد لمعرفة تفكير الحسين. قال الحسين فيه: "أُثني على الله تبارك وتعالى أحسن الثناء، وأحمده على السرّاء والضراء اللهم إني أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة، وعلّمتنا القرآن وفقهتنا في الدين، وجعلت لنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدة، ولم تجعلنا من المشركين أما بعد، فإني لا أعلم أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عني خيراً، ألا وإني أظن أن يومنا من هؤلاء الأعداء غداً، ألا وإني قد رأيت أو أذنت لكم فانطلقوا جميعاً في حلٍّ، ليس عليكم مني ذمام، هذا ليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً."[٣٥]

رفض أقاربه وأصحابه إلاّ قليلاً أن يتخلوا عنه أو يعيشوا بعده، وأظهروا ومن خلال كلماتهم التي سنبحثها لاحقاً إخلاصاً راسخاً لقضيته. واتخذ الحسين بعض الإجراءات خلال الليل مثل تقريب الخيام وربطها بعضها ببعض وحفر خندقاً خلفها وضع فيه الحطب والقصب، حتى إذا هاجم عدوهم الخيام من خلفها أشعل النار في الحطب لحماية الخيام، ثم أمضى الحسين وأصحابه الليل في الصلاة والدعاء وذكر الله.

انتهى ليل الهدنة، وانبلج صباح القدر المحتوم في العاشر من محرم وجاء معه بأصوات الموت والنهاية المأساوية لعائلة النبي وقلة من الأتباع. صف

الحسين جيشه الصغير أمام مخيمه، وكان جيشه مؤلفاً من ٧٢ رجلاً منهم ٣٢ فارساً و ٤٠ راجلاً من أعمار مختلفة، كان فيهم مسلم بن عوسجة وعمره سبعون عاماً والقاسم بن الحسن بن علي وعمره أربعة عشر عاماً. أشعلت النار في الحطب خلف المخيم لحمايته من هجوم الأعداء؛ وكان على ميمنة الحسين زهير بن القين، وعلى الميسرة حبيب بن مظاهر الأسدي، وعلى أهل البيت العباس بن علي. وحضّر الحسين نفسه فارتدى عباءة رسول الله وتطيّب بالمسك وركب فرسه، ووضع أمامه القرآن، وخاطب أعداءه ذاكراً الله تعالى في خطبة رائعة قائلاً: "اللهم أنت ثقتي في كل كرب، ورجائي في كل شدّة، وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعدة، كم من همّ يضعف فيه الفؤاد، وتقلّ فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديق، ويشمت فيه العدو، أنزلته بك، وشكوته إليك، رغبة مني إليك عمّن سواك، ففرجته وكشفته، فأنت ولي كل نعمة، وصاحب كل حسنة، ومنتهى كل رغبة."[٣٧]

وأجاب أعداء الحسين خطابه بعبارات تهكمية، ومنهم شمر الذي قال حين رأى النار خلف مخيم الحسين: "يا حسين، استعجلت النار في الدنيا قبل يوم القيامة." فأراد صاحب الحسين مسلم بن عوسجة الذي لم يعد يستطيع ضبط أعصابه أن يجيبه بسهم، لكن الحسين أوقفه قائلاً: "لا ترمه، فإني أكره أن أبدأهم."[٣٨] ازداد الموقف حرارة وأصبح هجوم الجيش الأموي واضحاً، عندها تقدم الحسين فحمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد وآله وخاطب عدوه قائلاً: "أما بعد، فانسبوني فانظروا من أنا، ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها، فانظروا هل يحلّ لكم قتلي وانتهاك

حرمتي؟ ألست ابن بنت نبيكم صلى الله عليه وسلم وابن وصيه وابن عمه، وأول المؤمنين بالله والمصدق لرسوله بما جاء به من عند ربه! أوليس حمزة سيد الشهداء عم أبي! أوليس جعفر الشهيد الطيار ذو الجناحين عمي! أولم يبلغكم قول مستفيض فيكم: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لي ولأخي: "هذان سيدا شباب أهل الجنة."! فإن صدقتموني بما أقول – وهو الحق– فوالله ما تعمدت كذبا مذ علمت أن الله يمقت عليه أهله، ويضر به من اختلقه، وإن كذبتموني، فإن فيكم من إن سألتموه عن ذلك أخبركم، سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري، أو أبا سعيد الخدري، أو سهل بن سعد الساعدي، أو يزيد بن أرقم، أو أنس بن مالك يخبروكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لي ولأخي، أفما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي؟ فإن كنتم في شك من هذا القول، أفتشكون أثراً ما إني ابن بنت نبيكم! فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري منكم ولا من غيركم، أنا ابن بنت نبيكم خاصة."[٣٩] وذهبت كل خطب الحسين ونداءاته عقب مقتل كل فرد من أصحابه هباءً. والجواب الوحيد الذي تلقاه هو أن عليه أن يستسلم ليزيد أو يقتل. وفي كل مرة كان جواب الحسين على هذا المطلب: "لا والله، لا أعطيهم –يقصد الأمويين– بيدي إعطاء الذليل، ولا أقرّ إقرار العبيد."

بدأ يوم المعركة الطويلة في الصباح وانتهى قبل غياب الشمس بقليل، وكانت المعركة تدور أحياناً بمبارزات فردية، وأحياناً أخرى بشكل جماعي. ويمكن متابعة أحداث المعركة بوضوح تام. فبعد خطبة الحسين

الأولى بدأ الجيش الأموي برشق السهام ثم جرت مبارزات. ولكن معظم الأحداث كانت على شكل مبارزات وحوارات بين المتخاصمين نناقشها لاحقاً. ويبدو أن هجومين رئيسيين قام بهما الجيش الأموي ضحى ذلك اليوم ولكن قابلهما مقاومة صامدة، ومع ذلك تابع فرسان الجيش الأموي و ٥٠٠ رامي سهام الضغط على جماعة الحسين القليلة العدد. وبما أن قوات الحسين كانت محصنة من الخلف، فقد أرسل ابن سعد بعض قواته لمهاجمة خيام الطالبيين من اليسار ومن اليمين لتخريبها، ولكن رجال الحسين اندفعوا بين الخيام ودافعوا عن المخيم بنشاط وحماس. وحاول شمر الذي كان يقود جمعاً غفيراً من الجيش الأموي اقترب من خيمة الحسين ونسائه وأراد إحراقها، لكن حتى أفراد مقاتليه لاموه على ذلك، فعاد عن ذلك خجلاً.[٤٠]

عند الظهر أدى الحسين وأنصاره صلاة الظهر بحسب طقوس صلاة الخوف. واشتد لهيب المعركة بعد الظهر، وراح مناصري الحسين يقاتلون أمامه الواحد بعد الآخر. ولم يلحق الأذى بأي فرد من عائلة الحسين حتى استشهد آخر رجل من أنصاره.[٤١]

ولكن عندئذ جاء دور قرابته. وكان أول من قتل هو علي الأكبر بن الحسين، تبعه فوراً عبد الله بن مسلم بن عقيل وثلاثة أخوة للعباس بن علي بن أبي طالب من زوجته أم البنين والقاسم بن الحسن وقد وصفه حميد بن مسلم كما ورد في الطبري قال: "خرج إلينا غلام كأن وجهه شقة قمر في يده السيف عليه قميص وإزار ونعلان قد انقطع شسع أحدهما، ما أنسى أنها اليسرى، فقال لي عمرو بن سعد بن نفيل الأزدي.

والله لأشدّن عليه. فقلت له: سبحان الله، وما تريد إلى ذلك! يكفيك قتل هؤلاء الذين تراهم فشدّ عليه فما ولّى حتى ضرب رأسه بالسيف فوقع الغلام لوجهه. فقال: يا عماه! قال: فجلّى الحسين كما يجلّي الصقر، ثم شدّ شدة ليث غُضُبٍّ، فضرب عمراً بالسيف، فاتقاه بالساعد، فأطنّها من لدن المرفق، فصاح، ثم تنحّى عن الغلام، وحملت خيل أهل الكوفة ليستنقذوا عمراً من حسين، فاستقبلت عمراً بصدورها، فوطئته حتى مات، وانجلت الغبرة، فإذا الحسين قائم على رأس الغلام، والغلام يفحص برجليه وحسين يقول: بُعداً لقوم قتلوك، ومن خصمهم يوم القيامة فيك جدّك! ثم قال: عزّ والله على عمك أن تدعوه فلا يجيبك، أو يجيبك ثم لا ينفعك! صوت والله كثر واتره، وقلّ ناصره." وكان الحسين يراقب سقوط كل فرد من أهل بيته، ثم يهجم فيكشف العدو عنه يجلبه إلى مخيمه ويضع الجسد في صف إلى جانب القتلى قبله أمام خيمته.[٤٢] واستشهد آل أبي طالب الواحد تلو الآخر ولم يبق سوى الحسين وأخوه العباس حامل راية جيش التهى. أشتهر العباس بقوته البدنية وشجاعته، وقد عرف بأنه "بدر بني هاشم" لجماله الفائق، وكان مؤيداً مخلصاً للحسين طيلة فترة العذاب والمحنة. وجاء دوره الآن لينازل الجيش الأموي المتعطش للدم. بقلوب منكسرة، ونفوس حزينة، وثياب ملطخة بدماء أعزائهما اندفع الأخوان نحو العدو. وشق العباس الغاضب صفوف أعدائه، وابتعد عن الحسين داخل الصفوف، ثم قتل بعيداً عنه.[٤٣] وحيداً، قلقاً عاد الحسين إلى مخيمه ليواسي النساء الخائفات المفجوعات، وليودعهن ويصبّرهن على ما سيحصل لهن بعده، وحاول أن يواسي

رضيعاً له عطشاً، حمله بين يديه فأصابه سهم فقتل الطفل. عندئذ رفعه الحسين بين يديه نحو السماء وقال: "قتل الله قوما قتلوك يا بني، ما أجرأهم على الرحمن، وعلى انتهاك حرمة رسول الله، على الدنيا بعدك العفاء."[44]

منهك ومضنى ومحزون وجريح ومدمّى وعطش جلس الحسين أمام خيمته. وتماوج الجيش الأموي لهنيهات و الرجال مترددون كلٌ يريد أن يكفيه غيره قتل حفيد رسول الله. وأخيراً تقدم شمر بمجموعة من جنوده، ولكنه نفسه لم يجرؤ أن يقوم بضربته الأخيرة للحسين، عندها حصلت مشادة بين الحسين وشمر. ثم نهض ابن علي وهجم على الجيش الأموي. ولكن هاجمه الطغاة من كل صوب حتى سقط على وجهه أمام خيمته على مشهد من النساء والأطفال. وأقبل إلى الحسين غلام من أهله هو عبد الله بن الحسن هلعاً فزعاً، لم تستطع النساء حبسه، وصاح: "يا ابن الخبيثة، أتقتل عمي! فأهوى عليه بحر بن كعب التميمي بالسيف فاتقاه الغلام بيده فأطنها إلاّ الجلدة.[45] عندها جاء سنان بن أنس بن عمرو ورفع سيفه يريد ضرب الحسين الضربة الأخيرة، فاندفعت زينب أخت الحسين من الخيمة وصاحت بابن سعد قائلةً: "يا عمر بن سعد، أيقتل أبو عبد الله وأنت تنظر إليه؟"[46]

ما كان باستطاعة أي شيء وقف المجزرة. فقد ذبح سنان حفيد النبي أمام الخيمة بينما النساء والأطفال يراقبون ويبكون. وأخذ خولي بن يزيد الأصبحي الرأس واحتفظ به لينقله إلى ابن زياد في الكوفة.[47] وعندها انتهت المعركة، واستدار الجنود الأمويون إلى السلب والنهب. فأخذوا ثياب الحسين وسيفه وكل ما كان بحوزته. وانتهبوا الخيام وحلي النساء

ومتاعهم، والعباءات وأغطية رؤوس النساء. ولم ينج من الذكور من ذرية الحسين سوى علي الذي كان يعاني مرضاً حقيقياً ويضطجع على جلد في إحدى الخيام. حتى ذلك الجلد سحب من تحته ونهب، وأراد شمر قتلـه، ولكن زينب بنت علي ألقت نفسها واحتضنته، ودفع عمر بن سعد شمر عنه.[48] وعرف ذلك اليوم بـ"العاشوراء"

لم تنته الوحشية عند هذا الحد. فقد نادى عمر بن سعد في أصحابه: "من ينتدب للحسين ويوطئه فرسه؟ فانتدب عشرة فأتوا فداسـوا الحسـين بخيولهم حتى رضوا ظهره وصدره وكأن جراحه وأحزانه وقتل ذريته وأهله لم تكف فترضي أعداء حفيد النبي."[49]

في صباح الحادي عشر من المحرم جمع عمر بن سعد أجساد قتلاه وصلى عليهم ودفنهم. أمّا جسد الحسين المقطوع الرأس وأجساد الذين قتلـوا معه فتركوا مكشفوين. جاء رجال من بني أسد من قرية الغادرية القريبة من كربلاء بعد أن رحل الجيش الأموي صباح الثاني عشر مـن محـرم ودفنوا جسد الحسين وأصحابه حيث جرت المذبحة.[50] ومـن الغريـب المذهل أن هذه الأجساد التي تركت في وضع محزن ومؤسف لم يسبق له مثيل تحولت مع قبورهم إلى مزارات مشرقة أو موضع للاحترام والتبجيل وأماكن للقداسة والتعبد فقد بنيت فوقها القباب المطلية بالذهب والحلاّة بأجمل الزينات، ثم صارت مكاناً للحج لعدد غير محدود مـن المـوالين. ولكن من المستحيل العثور على قبر أو نصب لأولئك الذين انتصروا في كربلاء، بينما أضرحة الحسين وأصحابه المقهورين بمآذنها العالية أصبحت

علامة مميزة ورمزاً ومكاناً للتبرك بها والصلاة عندها لطلب المعونة وتحقيق الأمل.

وشهد يوم الثاني عشر من محرم أحداثاً متعاقبة خاصة جداً، فقد عاد الجيش الأموي من كربلاء إلى الكوفة، رافعاً اثنين وسبعين رأساً على أسنة الرماح يتبعهم نساء آل النبي على الإبل. ويصف أبو مخنف رحيل زينب بنت علي ومن بقي معها من نساء آل النبي كأسرى كربلاء. وينقل ابو مخنف عن مرّة بن قيس التميمي قال: "نظرت إلى تلك النسوة لما مررن بحسين وأهله وولده صحن ولطمن وجوههن. قال: فاعترضتهن على فرس، فما رأيت منظراً من نسوة قط كان أحسن من منظر رأيته منهن ذلك اليوم، والله لهن أحسن من مها يبرين. قال: فما نسيت من الأشياء لا أنسى قول زينب ابنة فاطمة حين مرّت بأخيها الحسين صريعاً وهي تقول: يا محمداه، يا محمداه صلى عليك ملائكة السماء، هذا حسين بالعراء، مرمّل بالدماء، مقطع الأعضاء، يا محمداه وبناتك سبايا، وذريتك مقتّلة تسعى عليها الصبا. قال: فأبكت والله كل عدو وصديق."[٥٢]

وصلت الرؤوس والأسرى إلى الكوفة، وقدّمت لابن زياد. وينقل أبو مخنف عن حميد بن مسلم قال: "دعاني عمر بن سعد فسرّحني إلى أهله لأبشّرهم بفتح الله عليه وبعافيته، فأقبلت حتى أتيت أهله، فأعلمتهم بذلك: ثم أقبلت حتى أدخل فأجد ابن زياد قد جلس للناس، وأجد الوفد، الرؤوس والأسرى، قد قدموا عليه، فأدخلهم، وأذن للناس، فدخلت فيمن دخل، فإذا رأس الحسين موضوع بين يديه، وإذا هو ينكث بقضيب بين ثنيتيه ساعة، فما رآه زيد بن أرقم صحابي النبي ولم يكن يدري ما

حدث، قال له: "اعل بهذا القضيب عن هاتين الثنيتين، فوالذي لا إله غيره لقد رأيت شفتي رسول الله صلى الله عليه وسلم على هاتين الشفتين يقبلهما."[٥٣] وتتابع رواية حميد بن مسلم كما هي في الطبري تقول: " ثم انفضح الشيخ –زيد بن أرقم– يبكي. فقال له ابن زياد: أبكى الله عينيك! فو الله لولا أنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك لضربت عنقك. قال حميد: فنهض فخرج، لما خرج سمعت الناس يقولون: والله لقد قال زيد بن أرقم قولاً لو سمعه ابن زياد لقتله؛ قال: فقلت: ما قال؟ قالوا: مرّ بنا وهو يقول: ملّك عبد عبداً فاتخذتم تلداً، أنتم معشر العرب العبيد بعد اليوم، قتلتم ابن فاطمة، وأمّرتم ابن مرجانة فهو يقتل خياركم، ويستعبد شراركم، فرضيتم بالذل، فبعداً لمن رضي بالذل."[٥٤]

ثم أن ابن زياد نصب رأس الحسين في الكوفة، فجعل يدار به في الكوفة، ثم دعا زحر بن قيس فسرح معه برأس الحسين ورؤوس أصحابه إلى يزيد بن معاوية في دمشق. وليس من الواضح كم مضى على الأسرى في سجن تحت الأرض في الكوفة، ولكن يبدو أن مقامهم هناك لم يطل، بل أرسلوا مع رؤوس الضحايا إلى دمشق لعرضها على "الخليفة" وعندما تم عرضها على يزيد في قصره أمام الناس، كما كانت الحال عند ابن زياد، قام زحر بن قيس الذي قاد قافلة رؤوس الضحايا والأسرى من النساء والأطفال، فألقى خطبة تحدث فيها كيف جرى قتل الحسين وأصحابه أوردها الطبري نقلاً عن هشام عن الغاز بن ربيعة الجرشي من حمير قال: "والله إنّا لعند يزيد بن معاوية بدمشق إذ أقبل زحر بن قيس حتى دخل على يزيد بن معاوية، فقال له يزيد: ويلك! ما وراءك؟ وما

عندك؟ فقال: أبشر يا أمير المؤمنين بفتح الله ونصره، ورد علينا الحسين بن علي في ثمانية عشر من أهل بيته وستين من شيعته، فسرنا إليهم، فسألناهم أن يستسلموا وينزلوا على حكم الأمير عُبيد الله بن زياد أو القتال، فاختاروا القتال على الاستسلام، فعدونا عليهم مع شروق الشمس، فأحطنا بهم من كل ناحية، حتى إذا أخذت السيوف مأخذها من هام القوم، يهربون إلى غير وزر، ويلوذون منّا بالآكام والحُفر، لواذاً كما لاذ الحمائم من صقر، فوالله، يا أمير المؤمنين ما كان إلا جزر جزور، أو نومة قائل حتى أتينا على آخرهم، فهاتيك أجسادهم مجّردة، وثيابهم مرمّلة، وخدودهم معفّرة، تصهرهم الشمس، وتسفي عليهم الريح، زوّارهم العقبان والرّخم بقيّ سبسب (صحراء). وكانت ردة فعل يزيد مختلفة عن ردة فعل ابن زياد. وتأسف على تهور ابن زياد. ويبدو أن ذلك يناقض كل الروايات التي وصفت أوامر يزيد لواليه على المدينة المنورة، وأوامره إلى ابن زياد التي ورد فيها بوضوح بأن يحصلوا من الحسين وأتباعه على بيعتهم ليزيد أو قتلهم من دون تأخير. والحادثة التي جرت بين يزيد وكل من زينب بنت علي وعلي بن الحسين وفيها وبخ يزيد كليهما، وعاملهما بقساوة تلقي ضوءاً على ما زُعم من أسفه. وعلى كل حال، فقد ذكر ابن كثير –وهو تلميذ ابن تيمية، وعادة معاد لقضية الشيعة– أنه لو كان يزيد أسف حقيقة لما فعله واليه ابن زياد بصفته خطيئة حقيقية في تعامله مع الحسين لكان اتخذ شيئاً ما ضده. لكن ابن كثير يقول: أن يزيد لم يعزل واليه من منصبه، ولم يعاقبه بأي شكل من الأشكال، ولا حتى كتب له رسالة لوم لتجاوزه أوامره.[٥٦] وإذا كان

يزيد قد عبر عن أسفه، فإن ذلك كان بسبب خوفه من ردة فعل أو ثورة ما من طرف جزء من الأمة الإسلامية. أطلق يزيد سراح الأسرى، بعد وقت قصير وأرسلهم إلى المدينة. وهكذا انتهت أشنع مأساة في التاريخ الإسلامي. لم يستطع أدوارد جيبون، مع نقص معلوماتـه في التـاريخ الإسلامي، بل معتمداً على رواية أوتلي لحدث كربلاء، إلاّ أن يعلق قائلاً: "إن مأساة الحسين في مكان قصيّ وزمن بعيد ستوقظ تعاطف حتى أكثر القراء برودة."[٥٧] لقد رأينا في الفصل السابع كم كان النبي يعطف على حفيديه الحسن والحسين ويحبهما، لكن بعد خمسين سنة من وفاته فقط – كما يذكر الدينوري–[٥٨] بينما كان كثير من صحابة النبي ما يزالون على قيد الحياة ويتذكرون كم كان حب النبي لحفيديه عظيماً، فإن أحدهما – الحسين– قتل بوحشية غريبة على يد أولئك الذين يحسبون أنفسهم من أمة محمد.

إلى هنا وننهي بهذه الخلاصة الموجزة الروايات المطولة لمأساة نهاية الحسين، التي قصدنا بها أولاً إلى تحليل كيف أصبح من السهل على الأمويين القضاء عليه وسحق الحركة الشيعية من خلفه؛ وثانياً تحديد مكوّنات المشاعر الدينية النقيّة المنغرسة في عقول أولئك الذين ضحّوا بأنفسهم سخيّة مع الحسين، وبالتالي تقدموا خطوة أخرى باتجاه تدعيم الفكر الشيعي في الإسلام. لقد أشرنا سابقاً إلى أن الذين دعوا الحسين إلى الكوفة، وإلى أن الذين بايعوا موفده مسلم بن عقيل و عددهم ١٨٠٠٠ رجل لم يكونوا كلهم شيعة من حيث الإحساس الديني المحض، بل كانوا مؤيدين –بيت علي لأسباب سياسية– ذلك التمييز يجب أن يبقى في

الذهن لكي نفهم التاريخ المبكر للإسلام الشيعي. هؤلاء كتبوا مئات الرسائل إلى الحسين وقّع كلاً منها العديد منهم، وعندما قدم مسلم بن عقيل الكوفة التفّوا حوله، لكن ذلك كان تعبيراً منهم عن رغبتهم في التخلص من سيطرة السوريين، الهدف الذي اعتقدوا أنه يمكن تحقيقه في ذلك الوقت من خلال الحسين. ولكن حالما سيطر ابن زياد على حكم الكوفة المعروف في التاريخ الإسلامي بسياسته المعتمدة على القوة والعنف، وبعدما اتخذ ابن زياد الإجراءات الصارمة والمبالغ فيها لسحق تلك الحركة، عندها رأى الكوفيون آمالهم تتلاشت، وطغت سماتهم المشهورة في التردد والاسترخاء في ساعة الامتحان على طموحاتهم السياسية. فاستسلموا لواقعية الظروف، ولم يخاطروا بأنفسهم في سبيل قضيتهم.

وإلى جانب هؤلاء، كان في الكوفة مجموعة صغيرة دعت الحسين حفيد النبي ليقود حركتهم مدفوعين بمشاعرهم الدينية النقيّة. لكن، أين كان هؤلاء عندما عانى الحسين قانطاً في كربلاء ثم استشهد صابراً؟ لقد رأينا كيف أن الكوفة حوصرت بعد مقتل مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة ووضعت تحت السيطرة الكاملة من طرف ابن زياد وأنصاره، وقتل كل من أبدى مشاعر تعاطف مع الحسين. وبالتالي، كان من الطبيعي أن كل القادة المخلصين للحركة الشيعية تبنوا خدعة إخفاء أنفسهم لتجنب الاعتقال والقتل، لا لأنهم أرادوا تضليل الحسين وإنقاذ حياتهم، وإنما لأنهم أرادوا وضع أنفسهم مباشرة بتصرف الحسين الذي كان في طريقه إلى الكوفة كما سنرى لاحقاً. ويمكننا معرفة هؤلاء من خلال مقارنة أسماء

الذين ضحوا بأنفسهم إلى جانب الحسين، وبعد ذلك مع حركة "التوابين" بأولئك الذين كتبوا رسائل الدعوة إلى الحسين والذين كانوا يقودون الحركة في الكوفة. لقد شهدنا كيف أن أربعة من هؤلاء القادة انضموا إلى الحسين في ذي حصن رغم اعتراض الحر بن يزيد وحالما صار وصول الحسين إلى كربلاء معروفاً، فإن أولئك الذين استطاعوا تدّبر أمر الوصول إليه فعلوا ذلك رغم العوائق التي أقامها ابن زياد، وضحوا بأنفسهم سخيّة قبل أن يؤذى الحسين أو أي فرد من أهل بيته. أمّا أولئك الذين لم ينضموا إلى الحسين في كربلاء لأن بعضهم كان معتقلاً، والبعض الآخر لم يستطع الإفلات من الحصار الذي ضربه ابن زياد على الكوفة، فإنهم لم يستطيعوا الوصول إلى كربلاء إلا بعد فوات الأوان.

عندما غادر الحسين مكة كان معه خمسون فرداً، ١٨ من الطالبيين أو أقاربه الأقربين و٣٢ آخرون. أما بعد معركة كربلاء فكان هناك ٧٢ رأساً عرضت على ابن زياد منهم ١٨ من الطالبين و٥٤ من الشيعة الآخرين، بالرغم من أن الذين استشهدوا مع الحسين في كربلاء ربما كانوا أكثر من اثنين وسبعين فرداً. فالسماوي ومصادر أخرى تذكر أن عدد الذين استشهدوا مع الحسين هو ٩٢ فرداً عدا الطالبيين.[٥٩] وإذا صح هذا التقدير، فإن من الممكن أن رؤوس الذين ليس لهم هوية قبليّة لم يؤخذوا إلى ابن زياد، ومن هنا بدا أن عدد القتلى كان ٧٢ فقط. يحدد الطبري والدينوري أسماء القبائل وعدد الرؤوس الذين أخذهم قبائلهم إلى الكوفة كما يلي: كندة١٣؛ هوازن ٢٠؛ تميم ١٧؛ أسد ٦، مذحج ٧؛ ثقيف ١٢؛ الأزد ٥ بالإضافة إلى سبعة آخرين من قبائل غير معروفة

تحالفاتها.[٦٠] هناك بعض الاختلاف بين الطبري والدينوري. ويؤكد فحص دقيق للمصادر الأخرى أن ٧ رؤوس حملتها مذحج و١٢ رأساً حملتها ثقيف. وهذا يجعل مجموع الرؤوس التي عرضت على ابن زياد ٨٧ رأساً.

ويخبرنا الطبري ومصادر أخرى بالتفصيل كيف تدبر أتباع الحسين المخلصين خروجهم سراً من الكوفة ووصلوا كربلاء.[٦١] وبالإضافة إلى ذلك، نجد بعض الأسماء ممن جاؤوا إلى كربلاء ضمن الجيش الأموي، وعندما شاهدوا انتهاك الحرمات ومعاملة الجيش الأموي لحفيد النبي، لم يستطيعوا مقاومة مشاعرهم تجاه الحسين، فتركوا الجيش الأموي وألقوا بأنفسهم إلى جانبه. فقد ذكر أنه إلى جانب تحوّل الحر بن يزيد الذي روي بتفاصيل دقيقة ثمة ثلاثون من وجهاء الكوفة هربوا قبل المعركة وانضموا إلى الحسين صباح عاشوراء.[٦٢] وأكثر من ذلك، من الجدير بالملاحظة أن الحصار الذي فرضه الجيش الأموي على الكوفة وما حولها ومنع الدخول إليها والخروج منها جعل من المستحيل على غالبية شيعة الكوفة المختفين فيها و القاطنين في المدن الأخرى مثل البصرة الوصول إلى كربلاء لمساعدة الحسين. ومع ذلك، فإن قلة من الأفراد وصلوا كربلاء واشتركوا في المعركة.[٦٣] وبناء على ذلك، فإننا نستطيع الافتراض بأنه لولا العوائق الكثيرة، وضيق الوقت الذي لم يتح الفرصة "للتوابين" لتحريك قواهم، لكان هؤلاء -الذين ضحوا بأنفسهم على اسم الحسين- انضموا إلى الحسين في كربلاء. من جهة أخرى، إن هدف هذا الافتراض ليس القول أن أولئك الذين ضحّوا بأنفسهم مع الحسين وبعده في ظل

الظروف القائمة كانوا سيغيرون قدر الحسين. إن من المؤكد أنه لم يكن هناك مجال لذلك، بسبب وجود جيش أموي منظّم جيدا وقوة عسكرية جبارة إلى جانب طباع غالبية الكوفيين المتقلّبة مضافاً إلى ذلك ضعف وقلة تنظيم حركة الشيعية ذات الحوافز الدينية. إن ما نريد قوله في هذا الصدد هو لو كانت الظروف أقل قساوة لما حدث قدر كربلاء بهذا الشكل من المأساوية وبدون مقاومة تذكر، ولكنّا حصلنا على صورة أوضح لقوة الحركة الشيعية في تلك المرحلة. ولتأكيد نظرتنا يمكننا التذكير بالنجاحات التي تحققت بعيد كربلاء بزمن قصير -لكن تحت ظروف وفرص أفضل مما أتيح للحسين- حيث تحرك المختار وابن الزبير وكلاهما أقل أهمية من حفيد النبي.

ونود أن نشير هنا وسريعاً إلى أن المختار بن عبيد الله الثقفي تملّك الكوفة عام ٦٦هـ ٦٨٦م واستحوذ على العراق وبعض أجزاء من الولايات الشرقية من سورية معقل الأمويين الرئيسي باسم دم الحسين. ولكنه على كل حال، فقد كل ذلك وقتل عام ٦٧هـ ٦٨٧م. أما عبد الله بن الزبير فأعلن نفسه خليفة عام ٦١هـ ٦٨٠م وبحلول عام ٦٤هـ ٦٨٤م احتل العراق وكامل الجزيرة العربية وبعض أجزاء من سورية. لكنه قتل في معركة مع الحجاج عام ٧٣هـ ٦٩٢م بعد أن حكم حوالي تسع سنوات. إن تحليل وصف المصادر لحركة المختار وحركة ابن الزبير والتأييد الذي حازا عليه يؤكد أن بعض المجموعات من شيعة الحسين، الذين احسّوا باليأس والمضللين افسحوا المجال أمام مشاعرهم المناهضة للأمويين فانضموا إلى هذين المغامرين. وهذه المقارنة بين ما جرى للحسين

وما جرى لهذين المغامرين -المختار وابن الزبير- تقودنا إلى نقطة هامة أخرى. فقد نجح ابن الزبير والمختار في مغامرتهما وحققا نجاحاً سياسياً معتبراً واستطاعا بسط حكمهما على مناطق محددة من العالم الإسلامي لبضع سنوات، ولكن ما من أحد منهما استطاع أن يخلّف وراءه أي أتباع ذوي ميول دينية بعد سقوطه، برغم أنهما استشهدا كما استشهد الحسين. فليس لدينا أي إثبات أن ابن الزبير خلف أي أتباع كطائفة دينية، أما اسم المختار فقد بقي يتردد لوقت قصير، ثم اختفى واندمج اتباعه في مجموعة أكبر.[٦٤] والسبب في الحالين واضح جوهري. فلا المختار ولا ابن الزبير ولا أتباعهما كان لهم مثل محددة أو آراء خاصة يمكن أن تعيش في ذاكرة الفكر الديني الإسلامي. أما الحسين وقضيته، وبرغم الفشل العسكري الذي حلّ بهما، فقد التزم بها قسم كبير ومعروف من الجماعة المسلمة، وصار اسم الحسين رمزاً وهوية لثاني أكبر مجموعة في الأمة الإسلامية. وما ذلك إلاّ لحقيقة أن حركة الحسين كانت مؤسسة على عقيدة خاصة في القيادة الإسلامية التي أوضحناها في الفصلين الأولين من هذا الكتاب، والتي فصّلتها رسائل الحسن لمعاوية ورسائل الحسين للكوفيين. لقد انمحت ذكرى المختار وابن الزبير إلاّ من صفحات كتب التاريخ. أما ذكرى الحسين فبقيت حيّة في قلوب وعقول المسلمين وأصبحت موضوعاً متكرراً لقيم معينة. والفريق المسلم الذي تمسك بقضية الحسين وذكراه على حساب الوقائع السياسية وبغض النظر عنها بقي جزءاً عضوياً وأساسياً في الوجود الإسلامي، أفرزته الأكثرية المسلمة ليصبح بحكم

طائفة إسلامية استسلمت مكرهة للوقائع السياسية برغم فكرها ومشاعرها الدينية.

بعض المؤرخين المسلمين الذين كانوا يكتبون تحت تأثير السلطات الحاكمة آنئذ، وأولئك المتكلمون (كتاب الفرق) الذين حاولوا بشكل طبيعي إيجاد موقف وسط بين السلطات الحاكمة من جهة والمسلمين العاديين من جهة أخرى، وصفوا ما قام به الحسين بأنه محاولة طموحة للوصول إلى السلطة السياسية ولكنه خطأ في التقدير. والأكاديميون الغربيون الدارسون الإسلام في محاولاتهم السطحيّة لدراسة نشاط الحسين اتبعوا أسلوباً آليّاً محدداً يدعونه "مقاربة تاريخية علمية" فمدرسة الاستشراق الألمانية وهي الأولى التي دخلت حقل الاستشراق المعاصر –وبرغم أنها أنجزت مساهمات جادة وقيمة في بعض فروع الدراسات العربية الإسلامية بدقة وعمق مثيرين للإعجاب– تبنّت أسلوباً تاريخياً لم يمكّنها أبداً من فهم المشاعر الدينية والاستعدادات الفطرية وهما أمران حيويان وبالغا الأهمية لفهم التاريخ الديني وتطوراته. وكان تأثير المدرسة الألمانية قوياً جداً إلى درجة أن هذا التوجه تشبث بموقفه، وتابعه في ذلك المستشرقون الفرنسيون والبريطانيون مع استثناءات قليلة. وبالتالي فإن من المؤسف أن يدرس هؤلاء المستشرقون مأساة كربلاء بأسلوب التأريخ الميكانيكي mechanical historicism ولم يحاول أي منهم دراسة نشاط الحسين من خلال وسائله وهدفه. وبالتالي كان من الطبيعي أن يصف هؤلاء المستشرقون الحسين بمغامر سيء الحظ حاول الاستحواذ على السلطة

السياسية، ووصفوا حركته بأنها تمرد على النظام القائم، ونشاطه بأنه خطأ قاتل في تقدير وعود الكوفيين."[65]

لقد نوهنا سابقاً إلى أن الحسين كان واعياً بالموقف والنتائج. فقد حذره العديد من العارفين بالأمور أثناء رحلته من المدينة إلى مكة ومنها إلى الكوفة بأن "قلوب العراقيين معه وسيوفهم مع بني أمية" ولكن جواب الحسين لجميع هؤلاء الذين حاولوا ثنيه عن هدفه، كان جوابا واحداً: "يفعل الله ما يشاء أسأل الله أن يختار الأفضل لا يخاصم الله من يعمل للحق."[66] هذه الإجابات توضح أن الحسين كان واعياً تماماً بالمخاطر التي يواجهها، وأن لديه استراتيجية وخطّة في ذهنه، وذلك أنه كان يريد أن يولّد ثورة في وعي جماهير المسلمين. وأبعد من ذلك، إن من الواضح مما أوردته المصادر التي ناقشنا محتوياتها سابقاً أن الحسين لم يحاول تنظيم أو حشد تأييد عسكري، الأمر الذي كان سهلاً عليه أن يفعله في الحجاز، ولم يحاول حتى استغلال كامل القوة المتوفرة لديه. ومن بين أمثلة كثيرة تؤيد ما قلناه سنقتصر على اقتباس واحد منها فقط. فعندما وصل إلى مكان يدعى "عذيب الهجانات" وقد عرف أن الكوفيين انفضّوا عن مبعوثه مسلم بن عقيل، وسلموه لابن زياد فقتله، عندها تأكد الحسين أنه لا أمل له في الكوفين، ولا أمل حتى في العيش في الكوفة. ومع ذلك رفض الأمان الذي قدم له. يروي أبو مخنف وآخرون أنه في هذا المكان وصل أربعة من قادة الشيعة تدبروا أمر خروجهم وانضموا إلى الحسين بمساعدة من الطرماح بن عدي الطائي الذي قادهم كدليل، وهناك ناشد الطرماح الحسين قائلاً: "والله إني لأنظر فما أرى معك أحداً، ولو لم

يقاتلك إلا هؤلاء الذين أراهم ملازميك لكان كفى بهم –يقصد مجموعة من ١٠٠٠ فارس بقيادة الحر بن يزيد الرياحي كانوا يلازمون الحسين في مسيره–، وقد رأيت قبل خروجي من الكوفة إليك بيوم ظهر الكوفة وفيه من الناس ما لم تر عيناي في صعيد واحد جمعاً أكثر منه، فسألت عنهم، فقيل: اجتمعوا ليُعرضوا، ثم يسرّحون إلى الحسين، فأنشدك الله إن قدرت على ألاّ تقدم عليهم شبراً إلاّ فعلت! فإن أردت أن تنزل بلداً يمنعك الله به حتى ترى من رأيك، ويستبين لك ما أنت صانع فسر حتى أنزلك مناع جبلنا الذي يدعي "أجأ"، امتنعنا والله به من ملوك غسّان وحمير ومن النعمان بن المنذر ومن الأسود والأحمر، والله إن دخل علينا ذلّ قط؛ فأسير معك حتى أنزلك القرية، ثم نبعث إلى الرجال ممن بأجأ وسلمى من طيء، فوالله، فإن هاجلك هيج فأنا زعيم لك بعشرين ألف طائي يضربون بين يديك بأسيافهم، والله لا يوصل إليك أبداً ومنهم عين تطرف."[٦٧] وكان جواب الحسين الوحيد على هذا العرض الثمين الذي جاء في الوقت المناسب، حين تلاشى كل أمل بنصرة الكوفيين، هو قوله: "جزاك الله وقومك خيراً، إنه قد كان بيننا وبين هؤلاء القوم قول لسنا نقدر معه على الانصراف، ولا ندري علام تنصرف بنا وبهم الأمور في عاقبة."[٦٨]

لا يستطيع المرء إلاّ أنْ يتساءل كيف يمكن لرجل يحاول الحصول على التأييد أن يرفض قبول عرض بالتأييد. هل يمكن لأي إنسان أن يفكر أنه بعد أن عرف الحسين كل التطورات التي حصلت في الكوفة، أنه كان ما يزال يأمل أن يجد أي تأيد أو حتى أي حظ ولو ضئيل على العيش في

الكوفة؟ وأكثر من ذلك، فنحن نجد وصفاً تفصيلياً لحقيقة ما حدث في "زُبالة". فحين عرف الحسين بالإعدام الوحشي لمبعوثه قيس ابن مشير جمع أصحابه وطلب منهم أن يتخلوا عنه ويتركوه وحيداً ويطلبوا النجاة لأنفسهم. وبعد زبالة كرر الحسين هذه النصيحة لأتباعه مرات عديدة، آخرها ليلة عاشوراء. هل من المعقول أن أي شخص يكافح من أجل سلطة يدعو مؤيديه للتخلي عنه، مهما كان عددهم؟ لا يمكن أن يجيب أي عاقل على هذه الأسئلة بالإيجاب. فما الذي كان في ذهن الحسين؟ ولماذا تابع مسيره نحو الكوفة؟

إن مما يخيّب الآمال أن نرى الأساتذة الغربية في دراستها للإسلام، اهتمت كثيراً جداً بالوقائع التاريخية، وركّزت انتباهها على مظاهر حدث كربلاء الخارجية البارزة، ولم تحاول قط أن تحلل التاريخ الداخلي والصراع المؤلم في ذهن الحسين. إن علم تشريح جسم الإنسان يقدّم علماً عن مختلف الأعضاء وتركيبها، لكنه لا يقدم لنا فهماً للإنسان نفسه. أما في حالة الحسين، فإن الدراسة الجدّية وتحليل الأحداث في كربلاء جميعها تكشف عن حقيقة أن الحسين منذ البداية خطط لثورة كاملة في وعي المسلمين. وكل تصرفات الحسين تظهر أنه كان مدركاً لحقيقة أن نصراً يتحقق من خلال قوة عسكرية وجبروت هو دائماً نصر مؤقت، لأن قوة أخرى أكثر جبروتاً تستطيع بمرور الزمن أن تحطمه. لكن نصراً يتحقق من خلال الآلام والتضحية هو نصر خالد، يترك آثاراً دائمة في وعي الإنسان. نشأ الحسين في حضن مؤسس الإسلام، وورث حب أسلوب الحياة الإسلامية والإخلاص لها من والده. لقد أدرك الحسين أنه بمرور الوقت ثمة تغيرات

هائلة جرت بسرعة ضمن الأمة غاضّة النظر عن المشاعر الدينية والأخلاقية. وحلّ زمان الفعل ورد الفعل. وذلك، أن فعل محمد الإسلامي التقدمي نجح في قهر المحافظة conservatism العربية التي تجلت في ممارسات وفكر العرب في الجاهلية. لكن هذه المحافظة انتعشت بعد أقل من ثلاثين عاماً على وفاة محمد كرد فعل تتحدى ما قام به مرة أخرى. بدأت أقوى ردة الفعل هذه التحرك مع ظهور معاوية، لكن خلافة يزيد كانت علامة واضحة على أن هذه القوى حشدت طاقاتها وظهرت آنئذ بكل جبروتها. طاقة هذه القوى التي تجسدت في طبائع يزيد كانت قادرة على كبت أو على الأقل تشويه ما نجح فيه محمد. ورأى الحسين الإسلام في حاجة ماسّة لإعادة تنشيط عمل محمد ضد ردود أفعال العرب القديمة، وهذا ما تطلب صدمة قوية جداً. هذه الصدمة ما كانت لتكون مؤثرة جداً في أيام الحسن لأن منافسه معاوية الذي حاول –برغم ضآلة احترامه للدين– وعلى الأقل ظاهرياً أن يخفي طبعه القبلي الارتدادي: أما يزيد فلم يهتم حتى بهذه المداراة؛ فقد تباهى بانتهاك سنة محمد والمعايير القرآنية ومارس ذلك بكل جسارة. وهكذا صار الصراع بين ارتداد يزيد ونشاط محمد الإسلامي مباشراً وعلناً. ظهر ذلك مثلاً حين قدم يزيد إلى المدينة المنورة في موسم الحج وهناك ضبط سَكِراً بخمر شربه. وحصل أن مرّ به ابن عباس والحسين فأمر يزيد خادمه أن يقدم الخمر للحسين، واصرّ على الحسين أن يشرب الخمر. وعندما غضب الحسين ونهض مغادراً غنىّ يزيد منشداً:

الا يا صاح للعجب دعوتك ثم لم تجب

إلى القينات واللـــذا ت والصهباء والطرب

وباطيــــة مكللــة عليها ســادة العرب

وفيهــن التي تبلــت فؤادك ثــم لم تتــب

فأجابه الحسين: "بل فؤادك يا ابن معاوية."[٦٩]

الآن، هذا هو يزيد بن معاوية خليفة المسلمين يطلب من الحسين بن علي أن يقبل بسلطته. إن قبول الحسين بيزيد بموقفه الارتدادي عن المعايير الإسلامية كان لا يعني مجرد القبول بترتيبات سياسية كما كان الحال بين الحسن بن علي ومعاوية بن أبي سفيان، بل يعني الموافقة على طباع يزيد وسلوكه المشين أيضاً. لم يكن هذا أمراً يمكن أن يقبله أو يفكر به حفيد النبي وهو الآن رأس عائلة محمد وتجسيد سنته.

ولكي يواجه الحسين هذا الارتداد الأموي على العملية الإسلامية فقد أعد استراتيجيته الخاصة. وبرأي الحسين أنه يمتلك الحق، بفضل محتده العائلي وموقفه الخاص الناتج عن نسبه ليقود الناس ويتلقى تقديرهم واحترامهم. على كل حال، إذا كان حقه هذا موضع تحدٍ فإنه كان راغباً أن يضحّي ويموت في سبيل قضيته. وتأكد الحسين أن مجرد القوة المسلحة لن تنقذ القيم الإسلامية وتوقظ الضمير الإنساني. بل رأى أن ذلك يحتــاج إلى صدمة مشاعر ورجّة قلوب. وهكذا قرر أن ذلك يحتــاج إلى تضــحية فريدة وآلام هائلة. وليس هذا صعباً على فهم أولئك الذين يقــدّرون بشكل خاص الأعمال البطولية والتضحيات الرائعة لكل مــن ســقراط ويوحنا المعمدان، على سبيل المثال، وكلاهما احتضنا المــوت في ســبيل

مثلهما، وفوق كل ذلك، آلام وتضحية عيسى المسيح لفداء النوع الإنساني.

ومن هذه الزاوية وعلى ضوئها علينا أن نفهم إجابات الحسين لأولئك الناصحين الذي حاولوا ثنيه عن التوجه إلى العراق. وهذا يفسّر أيضاً هدف الحسين من أخذ نسائه وأطفاله معه، برغم أ ن عبد الله بْن عباس نصحه بأنه إذا أصرّ على تنفيذ خطته فعليه، على الأقل، ألاّ يصطحب أفراد عائلته معه. كان الحسين مدركاً لأبعاد الطبيعة الوحشية لقوى الارتداد وعرف أنه إذا قتل بيد الأمويين فإنهم سيأخذون نساءه وأطفاله أسرى على طول المسافة من الكوفة إلى دمشق. وهذه القافلة من أسرى عائلة محمد المباشرين ستعمم رسالة الحسين وتجبر قلوب المسلمين على التفكير ملياً بهذه المأساة. وستجعل هذه القافلة المسلمين يفكرون بأحوال الأمة كاملة وبالتالي توقظ ضمائرهم. وهذا ما حصل بالضبط. ونجح الحسين في تحقيق هدفه. إن من الصعب اليوم أن نثمّن بدقة آثار عمل الحسين على ضمائر المسلمين وطريقة تفكيرهم، لسعة وعمق تلك الآثار. فلو لم يوقظ الحسين ضمائر المسلمين ويصدم مشاعرهم، من يدري، لربما صارت طبيعة يزيد وسلوكه معيارين نموذجين لسلوك المسلمين إذا أيدهما ودعمهما حفيد نبي الإسلام. نعم، لقد ساد سلوك يزيد بعد انتهاء فترة ملكه وانتشر بين خلفائه، وكان كل منهم يزيد عصره، لكن تغيّر طريقة التفكير الذي أحدثته تضحية الحسين أدى دوره دائماً، بصفته خط تمييز بين المعايير الإسلامية الصحيحة وبين طباع الحكام (الخلفاء) الشخصية وسلوكهم.

امتدح المؤرخون والمؤلفون المسلمون دائماً ونوهوا بالعمل البطولي الذي قام به الحسين، عدا قلة من كتاب القرون الوسطى الذين التزموا بمصالح معينة. ومن المشجع في العصر الحالي أن يتزايد عدد الكتّاب المسلمين من جميع المذاهب والمدارس الفكرية الذين ينتجون أعمالاً موضوعية يفسّرون فيها فلسفة تضحية الحسين واستشهاده. ومن بين العديد من هؤلاء نذكر اثنين فقط ممن نشروا كتباً منذ عقود قليلة تزامنت مع يقظة العالم الإسلامي الأول هو الكاتب المصري المشهور عباس محمود العقاد وكتابه يدعى "أبو الشهداء الحسين بن علي"[٧٠] والثاني هو الأستاذ الشيخ اللبناني العظيم عبد الله العلايلي وكتابه "الإمام الحسين سمو المعنى في سمو الذات"[٧١] وفيهما دراسة شاملة لحياة الحسين وعصره واستشهاده. كلا الكاتبين العقاد وهو أستاذ علماني للتاريخ والفلسفة والثاني شيخ من مستوى رفيع وأستاذية متفوقة، ناقشا بدقة معاني وأهداف وفلسفة ومثل الحسين وعمله.

نتحول الآن لمناقشة النتيجة الثانية التي نستخلصها من الخطوط العريضة لسلسلة أحداث كربلاء التي رويناها سابقاً: ولتحديد المشاعر الدينية لأولئك الذين قدموا حياتهم راغبين مع الحسين. حين تصف مصادرنا المأساة تزودنا بروايات وفيرة عن المشاعر العقائدية التي ألزمت مؤيدي الحسين لاختيار الموت معه على الحياة السلمية والراحة، ذلك الخيار الذي ظل متاحاً أمامهم حتى اللحظة الأخيرة. ويمكن توضيح ذلك من خلال فحص الخطب وعهود الولاء التي قطعوها على أنفسهم في مناسبات عديدة. وكذلك من خلال الرجز المتبادل بين المتبارزين. كان من عادة

العرب عندما يتبارز متنافسان أن يعلن كل منهما عن هويته وقبيلته وأعمالها، ومنزلته فيها والقضية التي يقاتل من أجلها. ويكفينا هنا أمثلة قليلة من كل صنف من الأصناف الثلاثة لبيان أنه كان ثمة موقفٌ عقائديٌ خاص لأتباع الحسين وقد استشهدوا من أجله.

١- لقد مرّ معنا أن مبعوث الحسين قيس بن مشر الصيداوي الذي أرسله الحسين من حاجر إلى الكوفيين ليخبرهم بوصول الحسين، فأخذه الحصين بن تميم في القادسية، وبعث به إلى ابن زياد في الكوفة. فأمره ابن زياد أن يصعد إلى أعلى القصر ويسبّ الحسين إن رغب في السلامة. استغل قيس هذه الفرصة ليدعو إلى قضيته فخطب في الناس قائلاً: يا أهل الكوفة، أنا رسول الحسين، أشهد أمامكم أن الحسين حفيد النبي هو خير رجل في زمانه بين رجال الله في أرضه وله أفضل الحق عليكم أكثر من سواه، وإن واجبكم أن تجيبوه." ثم لعن قيس ابن زياد وأباه، وصلى على الحسين وأبيه.[٧٢] فألقي به من أعلى القصر. إذا قارنا موقف قيس بموقف حجر بن عدي الكندي قبل اثني عشر عاماً نجد استمرارية في التفكير تصل الاثنين بسلسلة الفكر الشيعي. فتقديم قيس للحسين بإشارة خاصة لصلته بالنبي وتصريحه بأنه أفضل رجال الله في زمانه على الأرض يعود إلى الأفكار التي صدرت عن مؤيدي علي منذ البداية.

٢- كما مرّ معنا سابقاً، ففي ذروة أحداث عاشوراء وليلة ٩ محرم أمر ابن سعد قواته بالتقدم نحو مخيم الحسين بعد أن تلقى أوامر ابن زياد بالهجوم الفوري عليه. ليلتها أرسل الحسين أخاه العباس بن علي مع

بعض قادة أتباعه ليطلب ليلة من الهدنة. وبعد بعض الجدل تمت الموافقة على الطلب، وعاد العباس لإعلام أخيه الحسين بذلك، لكن حبيب بن مظاهر وزهير بن القين الذين رافقا الحسين في رحلته بقيا في المعسكر الأموي محاولين إقناع هذا المعسكر بخطأ ما يقومون به من مهاجمة الحسين. حفظت لنا المصادر بعض الحوارات المفيدة بين الرجلين وخصومهما. تكلم حبيب أولاً لأعدائه قائلاً: "أما والله لبئس القوم عند الله غداً قوم يقدمون عليه وقد قتلوا ذرية نبيّه عليه السلام وعترته وأهل بيته صلى الله عليه وسلم وعبّاد أهل هذا المصر المجتهدين بالأسحار، والذاكرين الله كثيراً." فقال له عزرة بن قيس: "إنك لتزكي نفسك ما استطعت." مما يعني: لا تحاول إقناعنا. عندئذ ردّ عليه زهير بن القين قائلاً: "يا عزرة، إن الله قد زكّاها وهداها، فاتق الله يا عزرة فإني لك من الناصحين، أنشدك الله يا عزرة أن لا تكون ممن يعين الضلاّل على قتل النفوس الزكية." فقال عزرة بن قيس: "يا زهير ما كنت عندنا من شيعة أهل هذا البيت، إنما كنت عثمانياً." فأجابه زهير: "أفلست تستدل بموقفي هذا أني منهم، أما والله ما كتبت إليه كتاباً قط، ولا أرسلت إليه رسولاً قط، ولا وعدته نصرتي قط، ولكن الطريق جمع بيني وبينه، فلما رأيته ذكرت به رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكانه منه، وعرفت ما يقدم عليه من عدوّه وحزبكم، فرأيت أن أنصره، وأن أكون في حزبه، وأن أجعل نفسي دون نفسه، حفظاً لما ضيّعتم من حق الله وحق رسوله عليه السلام."[٧٣]

٣- بعد هدنة تلك الليلة، وبعد تلاشي كل الآمال، صار من المؤكد أن الصباح سيجلب معه دعوات الموت للحسين وأنصاره. عندها جمع الحسين أصحابه، وطلب منهم أن يغادروا ويدعوه وحيداً، ذلك لأن أعداءه لا يريدون سوى رأسه. عندئذٍ رفض كل القادة البارزين من أنصاره وكذلك أقاربه التخلي عنه، حتى يقتلوا جميعاً. وربما كان علينا أن نتجنب ذكر العهود التي قطعها أقاربه على أنفسهم مثل أخيه العباس وأبناء مسلم بن عقيل..[٧٤]، وذلك لأنها (هذه العهود) يمكن أن تفسّر على أنها ولاء طبيعي لكبير عائلة الهاشميين. وبالتالي، سنكتفي بذكر عهود أولئك الذين لا تقوم بينهم وبين الحسين رابطة الدم (القرابة) من أي نوع، إلاّ الرابطة الدينية أو الولاء العقائدي.

فمن بين أصحاب الحسين وقف مسلم بن عوسجة الرجل المتقدم في السن وكان في الخامسة والسبعين من عمره قائلاً: "أنحن نخلّي عنك ولمّا نُعذر إلى الله في أداء حقك! أما والله حتى أكسر في صدورهم رمحي، وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي، ولا أفارقك، ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به، لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك."[٧٥]

بعدها خاطب سعد بن عبد الله الحنفي الحسين قائلاً: "والله لا نخلّيك حتى يعلم الله أنّا حفظنا غيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيك، والله لو علمت أني أقتل ثم أحيا ثم أحرق حيّاً ثم أذرّ؛ يُفعل ذلك بي سبعين مرة، ما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك، فكيف لا أفعل ذلك، وإنما هي قتلة واحدة، ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً.

وفي كتاب البداية والنهاية تقرأ: "والله لو علمت أني أقتل دونك ألف مرة، وأن يدفع الله بذلك القتل عنك وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك لأحببت ذلك وإنما هي قتلة واحدة، ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً."[76]

بعد أن تذكر مصادرنا خطاباً مماثلاً قاله زهير بن القين، تلخص قول جميع أصحاب الحسين قراراً يؤكد ما قيل، ومعلنين ولاءهم الكامل للحسين قائلين كما يذكر الطبري: "وتكلم جماعة من أصحابه بكلام يشبه بعضه بعضاً في وجه واحد، فقالوا: والله لا نفارقك، ولكن أنفسنا لك الفداء، نقيك بنحورنا وجباهنا وأيدينا، فإذا نحن قُتلنا كنّا وفّينا، وقضينا ما علينا."[77]

إن جميع الخطب والتعهدات تؤكد نقاطاً مفيدة، فهي تؤكد أن الأحاسيس الدينية هي التي جعلت أصحاب الحسين ثابتين ومتحمسين جداً، حتى في لحظات الكارثة. والنقاط البارزة في هذه التعهدات هي:

أ- تأكيد صلة الحسين المباشرة بالنبي أكثر من صلته بأبيه علي؛

ب- خيانة الحسين هي خيانة النبي أو الإخلاص للحسين هو إخلاص للنبي محمد؛

ت- التخلي عن الحسين هو تخلٍ عن الإسلام، الذي أوحي للناس من خلال جده النبي؛

ث- إن خيانة الحسين في هذا اليوم (عاشوراء) ستهلكهم يوم القيامة وتحرمهم من شفاعة النبي.

إن جوهر كل هذه النقاط هو أنه كان في تفكيرهم عقيدة راسخة بضرورة وجود إمام أو سلطة مركزية هي محور جوهري يجسّد فكرة أن حب هذا الإمام هو بالتأكيد حب مباشر لشخص النبي نفسه.[78]

٤- صباح يوم عاشوراء، وقبل وقوع الكارثة الكبرى، اندفع الحر بن يزيد وهو قائد محترم في الجيش الأموي الذي كان أول من التقى بالحسين ومعه ١٠٠٠ فارس وأجبره أن يتوقف في كربلاء – كما ذكرنا سابقاً– وقع تحت تأثير صراع داخلي حين استيقظ ضميره وتحركت مشاعره. فكّر الحرّ ملّياً، ودار صراع في ذهنه بين أن يلوّث يديه بدم الحسين حفيد النبي وبين أن يتخلى عن مكانته وسلطته العسكرية التي كانت تؤهله لمكانة أرفع عند الأمويين. وربحت مشاعره الدينية أخيراً معركة ذلك الصراع، فتحول فجأة على فرسه نحو مخيم الحسين. ويروي الطبري ذلك فيقول: "وأخذ يدنو من الحسين قليلاً قليلاً، فقال له رجل من قومه يقال له المهاجر بن أوس: ما تريد يا ابن يزيد؟ أتريد أن تحمل؟ فسكت وأخذه مثل العُرَواء (كغلواء: الرعدة من الحمّى)، والله إن أمرك لمريب والله ما رأيت منك في موقف قط مثل شيء أراه الآن، ولو قيل لي: من أشجع أهل الكوفة رجلاً ما عدوتك، فما هذا الذي أرى منك! قال الحر: إني والله أخيّر نفسي بين الجنة والنار، ووالله لا أختار على الجنة شيئاً والو

قُطعت وحُرقت، ثم ضرب فرسه فلحق بالحسين عليه السلام فقال له: جعلني الله فداك يا ابن رسول الله! أنا صاحبك الذي حبستك عن الرجوع، وسايرتك في الطريق، وجعجعت (أقلقت) بك في هذا المكان، والله الذي لا إله إلا هو، ما ظننت أن القوم يردّون عليك ما عرضت عليهم أبداً، ولا يبلغون منك هذه المنزلة. فقلت في نفسي: لا أبالي أن أطيع القوم في بعض أمرهم، ولا يرون أني خرجت من طاعتهم، وأمّا هم فسيقبلون من الحسين هذه الخصال التي يعرض عليهم، ووالله لو ظننت أنهم لا يقبلونها منك، ما ركبتها منك، وإني قد جئتك تائباً مما كان مني إلى ربي، ومواسياً لك بنفسي حتى أموت بين يديك، أفترى ذلك لي توبة! قال الحسين: نعم، يتوب الله عليك، ويغفر لك، ما اسمك؟ قال: أنا الحر بن يزيد، قال الحسين: أنت الحرّ كما سمّتك أمك، أنت الحر إن شاء الله في الدنيا والآخرة؛ انزل، قال الحر: أنا لك فارساً خير مني راجلاً، أقاتلهم على فرسي ساعة، وإلى النزول يصير آخر أمري. قال الحسين: فاصنع يرحمك الله ما بدا لك."[79]

عندها تقدم الحر نحو الجيش الأموي فكلمهم بكلام طويل لصالح الحسين، وأدان أعمالهم تجاه حفيد النبي، ووبخهم، وذكرهم بالحساب يوم القيامة.[80] إن تحول الحر إلى جانب الحسين وفداءه بنفسه قبل بدء المعركة بقليل، وأن الجيش الأموي قتله هو حقيقة تاريخية كما هو حدث كربلاء أجمعت على ذلك جميع المصادر التاريخية.

إن تحول الحر كعمل مادي ليس هو المهم، وإنما المبدأ الديني الذي جسّده هذا التحول هو المهم وهو ما يجب التركيز عليه بجدية. فقد

كان هذا التحول أعظم نصر لقضية الشيعة التي ضحى من أجلها الحسين وأصحابه. وما كان تفكير الحرّ وما دار في ذهنه إلا ما كان يفكر به جميع أصحاب الحسين. وهذا أيضاً يؤيد الرأي القائل بأن ثمة طريقة للتفكير خاصة عزّزت العقيدة الشيعية.

٥- لا تقل أهمية الرجز الذي تبادله الطرفان عن أهمية الخطب. ومن أوضح ما قيل رجزاً:

أ- ما قاله الحرّ نفسه عندما برز للقتال، قال:

آليت لا أُقتلُ حتى أَقتلا	ولن أُصابَ اليوم إلا مقبلا
أضربهم بالسيف ضرباً مقصلا	لا ناكلاً عنهم ولا مهنلا
أضربهم في أعراضهم بالسيف	عن خير من حلّ منى والخيف.[81]
	(أي في مكة)

ب- وتقدم نافع بن هلال الجملي مرتجزاً: "أنا الجملي، أنا على دين علي."ومن الجانب الأموي تقدم نحو نافع رجل يقال له مزاحم بن حريث فقال: "أنا على دين عثمان" فأجابه نافع: أنت على دين شيطان.[82]

ت- عندما تقدم زهير بن القين للقتال قال:

"أنا زهير وأنا ابن القين	أذودهم بالسيف عن حسين

ثم تابع يقاتل بين يدي الحسين وهو يرتجز ويقول:

أقدم هُديت هادياً مهديا　　　فاليوم تلقى جدك النبيـــا

وحسناً والمرتضى عليا　　　وذا الجناحين الفتى الكميا

(جعفر بن أبي طالب)

وأسد الله الشهيد الحي."[٨٣] يقصد حمزة بن عبد المطلب الـــذي قتلـــه الأمويون في موقعة أحد.

إن الرجز الذي قاله المتقاتلون من الطرفين، وقد وصلنا في مصادر موثوقة، وسنفحصه لاحقاً يزودنا بقراءة مفيدة وبنقاط هامة. وقد اقتبسنا ثلاثة أمثلة فقط بغية الإيجاز. هذا الرجز يشير إلى أن تيار الفكر الشيعي كان ناشطاً تماماً بين أولئك الذين اختاروا التضحية بأنفسهم مع الحسين. إن عبارة الحر بن يزيد بأن الحسين أفضل من سكن مكة "إمام" وتصريح نافع وزهير بأنهما كانا على دين علي وعلى الصراط المستقيم هو تفسير كامل لعقيدتهم، ولا يحتاج إلى المزيد من الشرح. ومع ذلك، فإن تصـــريحات صحابة الحسين بأنهم كانوا على دين عليّ تفيد بالتأكيد بأن هذا المصطلح "دين علي" قد استعمل على أساس ديني عقائدي، وبما يناقض استخدام الذين كانوا مع علي في معركتي الجمل وصفين ومناسبات أخرى، علـــى أساس سياسي والذين تغيرت مواقفهم بتغير الظروف السياسية فالتحقوا بالأكثرية الذين يقدمون الآن على قتل ابن علي. ومن طرف ثانٍ عندما ننظر في هذه الاقتباسات نجد أنه خلال حدث كربلاء كان هناك إصراره وميل عقائدي متماسك بين أتباع الحسين، مؤســـس علـــى تصـــريحاتهم

بتفاصيل أكثر ليصبح عقائد شيعية طورت ذاتها في مجالي علـــم الكـــلام النظري وعلم الفقه بشكل مغاير لما لدى بقية المسلمين.

علق الأستاذ فيليب حتي على مأساة كربلاء فقال: "إن التشيع ولـــد في العاشر من محرم."[٨٤] لكن المعلومات المستقاة من مصادرنا، وكل البراهين التي قدمناها ترفض هذا الرأي كلية. وبدلاً عن ذلك، فإن دراسة متأنية للمواد التي وصلتنا من مصادر مختلفة الآراء والميول تؤكـــد حقيقـــة أن موقف العقيدة الشيعية ابتدأ منذ وفاة النبي، وكان موت الحسين بمثابـــة الخاتم على صيغة التشيع الرسمي.[٨٥] وبهدف تأكيد هذه الحقيقة ذهبنا إلى تفاصيل مطوّلة واقتبسنا من الخطب والتعهدات وشعر الحرب (الرجـــز) التي قيلت "قبل" استشهاد الحسين، وكلها توضح بجلاء طبيعـــة الميـــول القائمة والمنتشرة "قبل" حدوث المأساة. وما يصحّ أن يقال هو أن مأساة كربلاء قامت بدور هام وأكيد، لا في خلق التشيع، بل في تعزيز وتوطيد أركان الهوية الشيعية. إن قدر الحسين صُمم ليصبح العامل الأكثر تأثيراً في الدعوة إلى التشيع وفي سرعة انتشاره. وأضافت مأساة كـــربلاء إلى التشيع الإسلامي الإحساس "بالألم" الذي يؤثر في سيكولوجية الإنســـان ويجعل الإنسان أكثر استعداداً للتقبل من البراهين العقائدية النظرية وأي شيء آخر. وهكذا نجد أن جزئيات هذا الألم أصبحت علامات مميزة في الشيعة. نعم، نتج عن مأساة كربلاء ظهور حركة التـــوابين مباشـــرة، وجعلت ثلاثة آلاف منهم يضحون بأنفسهم توبة عن إخفاقهم في نصرة الحسين حفيد النبي. كما هيأت المناخ للمختار كـــي يبـــدأ حركتـــه.

وزودت العباسيين بشعار جذاب لإنهاء الحكم الأموي. وأخيراً، صار اسم الحسين وذكراه جزءاً أساسياً من أخلاق وحماس الشيعة المسلمين.[٨٦]

نورد الآن تعليقاً موجزاً عن مصداقية مصادر معلوماتنا عن كامل رواية كربلاء، بما في ذلك الخطب والتعهدات والرجز والتي تلفظ بها أصحاب الحسين بالترتيب. فالمصدر الأساسي لمعلوماتنا حول كربلاء هو أبو مخنف لوط بن يحي توفي ١٥٧هـ ٧٤٤م وهو أول من كتب رواية شاملة عن كربلاء، وكان عنوان كتابه "مقتل الحسين"، وقد ذكر هذا الكتاب عند جميع كتّاب التراجم.[٨٧]

وأبو مخنف هذا هو أحد أفضل المؤرخين العرب الأوائل، وقد درس آثاره دراسة نقدية مفصلة أساتذة مثل فلهوزن[٨٨] وآخرون ومؤخراً دَرَسَه أرسولا سيزن Ursula Sezgin في كتاب جدير بالإعجاب بعنوان "أبو مخنف" [٨٩] وقد وجده –بشكل عام– أكثر المؤرخين مصداقية ودقة فيما كتبه عن حوليات (التأريخ بحسب السنوات) الكوفة والعراق أثناء الحكم الأموي. وتأكد أنه لم يأخذ رواياته من مؤلفين سبقوه أو من مصادر بعيدة عن الأحداث، ولكنه جمعها بنفسه من خلال بحثه والسؤال عنها من جهات مختلفة ومن شخصيات عديدة قدّر أنها على دراية كاملة بالأحداث ممن لديه معلومات أوليّة first hand أو حضر فرأى وسمع بنفسه. إنها سلسلة رواية حقيقية وليست شكلاً من أشكال الكتابة الأدبية (أي التي يدخل فيها الخيال)، وهي دائماً مختصرة. ويقول عنه إن أبا مخنف كان يدون رواياته مباشرة بعد الأحداث، أو يأخذ عن رواة حضروا الحدث مباشرة.[٩٠] ويرى هاملتون جب Gibb أن أبا مخنف يمثل العراقيين أو

الكوفيين وليس وجهة النظر الشيعية حين كتب تاريخه.[٩١] وموقفه يمثل وجهة نظر العراقيين في مواجهة رأي السوريين، وموقف علي المضاد لموقف الأمويين. ومع ذلك يرى فلهوزن أنه لم يلاحظ من المحاباة ما يستحق معه الشك بروايات أبي مخنف.[٩٢]

وصلنا كتاب "مقتل الحسين" عبر مصادر متعددة. إنه الطبري، على كل حال، الذي استفاد من هذا الكتاب بالكامل ولأول مرة، وبالتالي صار مصدرنا الأساسي الذي اعتمدنا عليه. وفي معظم الحالات يقتبس الطبري أبا مخنف مباشرة، ولكن في روايات قليلة جداً يقتبس من هشام بن محمد الكلبي ومعظم روايات الكلبي مأخوذة من أبي مخنف نفسه. ويبدأ الطبري أحياناً روايته بقوله: قال أبو مخنف عن فلان عن فلان ...، وفي حالات أخرى يقول: قال هشام بن الكلبي عن أبي مخنف عن فلان عن فلان وهذا يعني أن الطبري في الحالة الأولى يقتبس أبا مخنف مباشرة، أما في الحالة الثانية فيقتبس أبا مخنف عبر نص نقحه ابن الكلبي. وإلى جانب أبي مخنف يقتبس الطبري أيضاً روايات قليلة جداً من رواة آخرين، يضيفون اختلافات قليلة، وفي معظم الحالات يؤكدون رواية أبي مخنف.

ثمة مصدر آخر استفاد من كتب أبي مخنف هو البلاذري توفي ٢٧٩هـ ٨٩٢-٨٩٣م حين دون كتابه "أنساب الأشراف"، والفصل الخاص بالحسين لم ينشر بعد، لكن فيشيا فغليري Vaglieri أطلعت عليه واستخدمته في مقالها المطوّل والدقيق عن الحسين والذي كتبته في الطبعة الجديدة من دائرة المعارف الإسلامية. وقد وجدت فغليري أن البلاذري استفاد من مصادر الطبري نفسها، لكنه أخذ خلاصتها غالباً، وبدأ روايته

بـ قالوا ثم أضاف بعض أبيات الشعر وعندما دققنا المخطوطة وجدنا أنفسنا نوافق ما قالته فغليري، لذلك رأينا أن اقتباس مخطوطة الأنساب ليس ضرورياً.[٩٣]

إلى جانب هذين المؤرخين (الطبري والبلاذري) الذين استفادا من أبي مخنف، ذكرنا ابن كثير توفي ٧٧٤هـ ١٣٧٢م وهو تلميذ ابن تيمية، وسني من المدرسة السورية ملتزم بمذهبه، وناقد حاد للشيعة، وغالبا ما يذكر الشيعة باسم "الروافض" واختار ابن كثير مراجعه، وغالباً ما تجاهل روايات أبي مخنف التي لا توافق مصالحه، مثل ما ذكره أبو مخنف عن عثمان؛ وفيما عدا ذلك فقد قبل بمعظم رواياته. ومن جهة أخرى، فإن الكتاب الشيعة، مثل الشيخ المفيد ٣٣٦هـ ٩٤٧م -٤١٣هـ - ١٠٢٢م في كتابه الإرشاد وغيره فقد روى مأساة كربلاء من مصادره الخاصة إلى جانب رواية أبي مخنف، وغالباً ما عاد إلى رواية علي بن الحسين. ابن الحسين هذا كان في الثالثة والعشرين من عمره حين كان حاضراً في كربلاء، ولم يستطع المساهمة في القتال بسبب مرضه الذي ألقذه من المذبحة الجماعية. وهذا ما يجعله الراوي الأساسي للمأساة. إن من المفيد بالفعل أن نلحظ أن الخطوط العامة للأحداث الرئيسية التي ذكرها الشيخ المفيد وهو شيعي ملتزم بشيعيته تتوافق مع ما رواه ابن كثير.

عند فحص كتاب أبي مخنف "مقتل الحسين" يجب أن نأخذ بالحسبان عامل الزمن وهو بالتأكيد لصالح أبي مخنف. فنحن لا نعرف ميلاده بالتحديد، ولكن عندما نهض ابن الأشعث على الحجاج ٨٠-٨٢هـ ٦٩٩-

٧٠٢م،[٩٤] كان أبو مخنف قد وصل سن النضج.[٩٥] وحدثت مأساة كربلاء عام ٦١هـ ٦٨٠م وهذا يعني أن أبا مخنف قد ولد في عام المأساة نفسه على الأغلب، وكان أيام ثورة ابن الأشعث ما بين الثامنة عشرة إلى الثانية والعشرين من عمره. ومن المؤكد أن العديد ممن اشترك في معركة كربلاء من الجانب الأموي كانوا على قيد الحياة، وبالتالي فقد استغل المؤلف الفرصة وقابل واستنطق هؤلاء الذين شهدوا الحدث شخصياً. لهذا السبب نجد أبا مخنف يتحدث بإصرار عندما يذكر رواته بقول الراوي: كنا قد شهدنا قتل الحسين. وكان أبو مخنف يستخدم الفعل حدثني؛ وحين كان يروي عمن لم يشهد المعركة، وهذا على العموم قليل- كان يذكر الناقل عمن شهد الحدث. وبالتالي، إن رواية ما اقتبسناه سابقاً من خطب وتعهدات ورجز يسير على النحو التالي:

١- أبو مخنف – محمد بن قيس شاهد عيان
٢- أبو مخنف – حارث بن حصيرة وعبد الله بن شريك العامري شاهدي عيان
٣- أبو مخنف – عبد الله بن عاصم والضحاك بن عبد الله شاهدي عيان
٤- أبو مخنف –أبو جناب الكلبي وعدي بن حرملة شاهدي عيان
٥- أبو مخنف –محمد بن قيس شاهد عيان.[٩٦]

ويقوّي أبو مخنف إسناد رواته بالأخذ عن أكثر من شاهد عيان، مثلاً في ١ و٢ و٤ أعلاه. فهو يقول عند ذكر تعهدات أصحاب الحسين ليلة

عاشوراء: أن علي بن الحسين قال: "كنت مستلقياً في فراشي، وسمعت خطاب أبي وما أجابه به أصحابه."

ومن المؤكد أن كتاب مقتل الحسين لأبي مخنف وجد رواجاً واسعاً، وجرى نشر العديد من نسخه. يدل على ذلك كثرة ذكره في المصادر التي كتبها لاحقوه. كان مصدر الطبري الرئيسي المباشر بدون شك هو هشام بن الكلبي. أما الشيخ المفيد وأبو الفرج (مقاتل الطالبيين) وابن كثير وغيرهم كثير فيذكرون مصادر وأسماء أخرى من الذين وصلهم "مقتل الحسين" مثلاً الشيخ المفيد يبدأ روايته بتعليق افتتاحي: "ماذا روى الكلبي والمدائني وآخرون أكثر من هؤلاء الاثنين من بين أصحاب السّير."[٩٧] كذلك اقتبس أبو الفرج أبا مخنف من ابن الكبي والمدائني ومصادر أخرى إضافية مثل حسين بن نصر ابن المؤرخ الشهير نصر بن مزاحم المنقري مؤلف كتاب "وقعة صفين" وعنوانه المؤرخ المشهور. ويستخدم أبو الفرج حوالي خمسة إسنادات مختلفة تعود في النهاية إلى أبي مخنف، وقليل منها إسنادات مستقلة تعود في النهاية إلى علي بن الحسين، ثم يلخص كالعادة رواياتهم. ومصدر أبي الفرج الأساسي هو المدائني الذي أخذ عن أبي مخنف.[٩٨] وأما ابن كثير فرواته رجعوا به إلى أبي مخنف.[٩٩]

أخيراً، ثمة ملاحظة عن المخطوطات الأربعة للكتاب "مقتل الحسين" فهي موجودة في جوتا Gotha رقم ١٨٣٦ وبرلين سبرنجر رقم ١٥٩–١٦٠ وليدن رقم ٧٩٨ وسان بطرسبورغ AM رقم ٧٨ ومن المخطوطتين الأولى والثانية نشر فرناند وستنفيلد ترجمة بالإلمانية عام ١٨٨٣ وبينما يؤكد وستنفيلد باكورية أصل المخطوطين Early origin فإنه يشك أن

المؤلف هو أبو مخنف. وحجته الأهم في شكه هي أن الكتاب يتضمن بعض القصص الإعجازية ذات الطابع غير المعقول، مثل ظهور الأسى في مظاهر الطبيعة: إحمرار السماء والرمل الدامي ...الخ. أرسولا سيزن Ursula Sezgin يناقش نقد وستنفيلد في نقاط عديدة فيقول قد تكون المخطوطات إعادة كتابة أو كتابة منقحة من طرف بعض الكتّاب اللاحقين لكن الحقيقة تبقى قائمة وهي أن سبيل الطبري الرئيسي إلى كتاب أبي مخنف هو ابن الكلبي.[١٠١]

على كل حال، فإن بعض هذه القصص الإعجازية أو الخيالية موجودة حتى في الطبري، مما يعني أن هذه القصص قد تكون بالأصل من تدوين أبي مخنف نفسه أو قد تكون أدمجت من طرف ابن الكلبي حين أعاد كتابة كتابه المعروف. ولكن، الشك بأن أبا مخنف هو مؤلف كتاب مقتل الحسين على أساس أنه يتضمن بعض الأحداث الإعجازية أو غير الواقعية كما يريد وستنفيلد أن يقول، فإن ذلك يعني تجاهل ميول معينة في طبيعة ذلك العصر. إن مما يؤسف له أن نتوقع من كتاب في أوائل القرن الثامن الميلادي عن شخصية دينية عظيمة لا يحتوي أحداثاً فوق طبيعية كمسألة عادية، خاصة عندما يكون الحدث الرئيسي مشحوناً بالعاطفة والألم. لقد انتج الشرق الأدنى، كما يقول الأمريكان أو الشرق الأوسط كما يقول الأوربيون، عدداً كبيراً من كتب معجزات الأولياء والرجال المقدسين. وسيكون من الغريب ألاّ يتبع المسلمون خطى أسلافهم في تمجيد أفعال نبيهم وعائلته، حتى على حساب عظمتهم البشرية. وأكثر من ذلك، وكما شرحنا في الفصل الأول. فإن العرب أعتقدوا دائماً بأن قوى فوق

بشرية مُنحت لبعض العائلات الكهنوتية. كما تضمن نظام الاعتقاد عند العرب القبول أو الإيمان بردود فعل معينة من بعض أجزاء الطبيعة ضمن شروط معينة. وبعد أن دخل العـــرب في الإســـلام زادت القصـــص الإعجازية منذ حياة النبي ويشهد على ذلك ما في سيرة ابن هشام مـــن أمثلة عديدة على ذلك.

تبع استشهاد الحسين المثير للاستغراب فوق العادي نشوء حركة التوابين التي كانت مليئة بتبكيت الضمير والعاطفة، وأنتجت الحملة الدعائية التي قام بها التوابون والمختار بشكل طبيعي بعض القصـــص الإعجازيـــة إلى جانب رواية المأساة. والآن صار بمقدورنا أن نختم هذا الفصل بالقول: إنه برغم ذكر بعض الأساطير والأحداث الفوق طبيعية ذات الصلة بالمأساة الكبرى في كتاب مقتل الحسين، فإن ذلك لا يعني نفي أن أبا مخنف هـــو مؤلفه أو أن الكتاب غير موثوق. إن ذكر بعض هذه القصص لا يغطّي على حقيقة أن الكتاب يحتوي على جهود مؤرخ عربي بارز جمع وحفـــظ أكثر الروايات مصداقية عن أحداث استشهاد الحسين التي توفرت لهـــذا الإسناد في وقت كان ما يزال كثير ممن اشتركوا في الأحداث على قيـــد الحياة، ووفروا معلوماتهم لبحث أبي مخنف.

مراجع وملاحظات الفصل ٧

١- لمعرفة شخصية وسلوك يزيد أنظر: رسائل الجاحظ، رسالة في بني أمية ص٢٩٤ وما يليها. والبلاذري أنساب الأشراف، والأغاني ج١٥ ص٢٣٢، والمسعودي مروج ج٣ ص٦٧ والدارمي: حياة الحيوان ص٢٦١ وما يليها، واليعقوبي ج٢ ص٢٢٨ ومن المدهش حقاً أن هنري لامنس في "خلافة يزيد" وبما يتعارض مع إجماع روايات المؤرخين المسلمين في كل العصور بذل جهداً مضنياً ليصور يزيد كشخصية مثالية. الاحترام الذي أبداه لامنس للأمويين جعله يقرأ النصوص بطريقة تناسب مقاصده.

٢- البلاذري ج٤ ص١٢٢، العقد الفريد ج٤ ص٢٢٦، الطبري ج٢ ص١٩٦ وما يليها، الدينوري ص٢٢٦

٣- البلاذري ج٤ ص١٢، اليعقوبي ج٢ ص٢٤١، الطبري ج٢ ص٢١٦، العقد الفريد ج٤ ص٢٢٧، البداية والنهاية ج٨ ص١٤٦ وما يليها.

٤- الطبري ج٢ ص٢١٩، البلاذري ج٤ ص١٥، الدينوري ص٢٢٨، البداية والنهاية ج٨ ص١٤٧

٥- الطبري ج٢ ص٢٢٣، البلاذري ج٤ ص١٣، الدينوري ص٢٢٩، المسعودي مروج ج٣ ص٥٥، البداية والنهاية ج٨ ص١٥١

٦- الطبري ج٢ ص٢٣٣، مقاتل ص٩٦

٧- الطبري ج٢ ص٢٣٤، الدينوري ص٢٩٩، البداية والنهاية ج٨ ص١٥١

٨- الطبري ج٢ ص٢٣٤ وما يليها، اليعقوبي ج٢ ص٢٤٢

٩- الطبري ج٢ ص٢٣٥، الشيخ المفيد، الإرشاد ج٢ ص٣٥ وما يليها.

١٠- الطبري ج٢ ص٢٤٠

١١- التفاصيل في الطبري ج٢ ص١٧٤ وما يليها.

١٢- الطبري ج٢ ص٢٣٧ وما يليها. المفيد الإرشاد ج٢ ص٣٦، البداية ج٨ ص١٥٢

١٣- الطبري ج٢ ص٢٦٤، المسعودي مروج ج٣ ص٥٤، الدينوري ص٢٣٥، البلاذري ج٢ ص٨٠، المفيد، الإرشاد ج٢ ص٣٨، البداية ج٨ ص١٥٢، والعقد الفريد يقدم تفاصيل أكثر ويقدر العدد بـ ٣٠٠٠٠ ج٤ ص٢٧٨

١٤- أرسل مسلم رسالته إلى الحسين يوم ١٢ ذي العقدة ٦٠هـ ١٥ آب أغسطس ٦٨٠م قبل ٢٧ يوماً من قتل مسلم. انظر الطبري ج٢ ص٢٦٤، المفيد الإرشاد ج٢ ص٦٧ و٧٢

١٥- الطبري ج٢ ص٢٢٠ وما بعدها، الدينوري ص٢٢٩ و٢٤٣، وما بعدها والعقد ج٢ ص٣٧٦ والمقاتل ص١٠٩ البداية ج٨ ص١٥٩ وما بعدها.

١٦- الطبري ج٢ ص٢٧٤-٢٧٦، البداية ج٨ ص١٦٦

١٧- الطبري ج٢ ص٢٧٤، البلاذري ج٤ ص١٤، الدينوري ص٢٢٩، المقاتل ص١٠٩، البداية ج٨ ص١٦٠-١٦٣.

١٨- نص أمر يزيد في الطبري ج٢ ص٢٢٨ و٢٤٠ وهناك تفاصيل رواية في الجهشياري الوزراء والكتاب تح. صدقة والإبياري والشبلي (القاهرة ١٩٣٨) ص٣١، والدينوري ص٢٣١ و٢٤٢، البداية ج٨ ص١٥٢، والمفيد الإرشاد ج٢ ص٤٠.

١٩- الطبري ج٢ ص٢٢٩ و٢٤١، والدينوري ص٢٣٢، والمسعودي مروج ج٣ ص٥٧ والمقاتل ص٩٦، والبداية ج٨ ص١٣٥، والمفيد الإرشاد ج٢ ص٤١.

٢٠- الطبري ج٢ ص٢٤٢، الدينوري ص٢٣٢، المقاتل ص٩٧، البداية ج٨ ص١٥٤ والمفيد الإرشاد ج٢ ص٤١.

٢١- الطبري ج٢ ص٢٦٧، والمسعودي مروج ج٣ ص٥٩ وما يليها، والدينوري ص٢٤٠ والمقاتل ص١٠٠-١٠٨ والبداية ج٨ ص١٥٣-١٥٧، والمفيد الإرشاد ج٢ ص٤٢-٦٧

٢٢- الطبري ج٢ ص٢٤٢ و٢٧٧، الـدينوري ص٢٤٥، والبدايـة ج٨ ص١٦٦

٢٣- الطـبري ج٢ ص٢٧٨، اليعقـوبي ج٢ ص٢٤٩، والبدايـة ج٨ ص١٦٧، وتقول المصادر الشيعية أن يزيد أرسل جنوداً بـزي حجـاج لاغتيال الحسين، بينما يكون الحسين بين الحجيج انظر المفيد الإرشاد ج٢ ص٦٩.

٢٤- الطبري ج٢ ص٢٤٢

٢٥- الطبري ج٢ ص٢٨٥ وما بعدها، الدينوري ص٤٣، المفيد الإرشـاد ج٢ ص٧١

٢٦- الطبري ج٢ ص٢٨٩، ٢٩٣، ٣٠٣، الدينوري ص٢٤٧، البدايـة ج٨ ص٢٧٤،٢٦٨، المفيد الإرشاد ج٢ ص٧٢

٢٧- الطبري ج٢ ص٣٠٣، البداية كما في المرجع السابق رقم٢٦

٢٨- الطبري ج٢ ص٢٩٤، الدينوري ص٢٤٨، البدايـة ج٨ ص١٦٩، المفيد الإرشاد ج٢ ص٧٧.

٢٩- الطبري ج٢ ص٢٩٦ وما بعدها، الدينوري ص٢٤٩، البدايـة ج٨ ص١٧٢، المفيد ج٢ ص٧٨ وما بعدها.

٣٠- المرجع السابق رقم٢٩

٣١- الطبري ج٢ ص٢٩٨، الدينوري ص٢٤٩، البدايـة ج٨ ص١٧٢، المفيد ج٢ ص٨١

٣٢- الطبري ج٢ ص٢٩٩-٣٠٧، الدينوري ص٢٤٩-٢٥١، البداية ج٨ ص١٧٢-١٧٥، المفيد ج٢ ص٨٤.

٣٣- الطبري ج٢ ص٣٠٨-٣١٦، والدينوري ص٢٥٣-٢٥٥، البدايـة ج٨ ص١٧٥ وما بعدها، المفيد ج٢ ص٨٥-٩١.

٣٤- الطبري ج٢ ص٣١٦، الدينوري ص٢٥٥، البداية ج٨ ص١٧٥

٣٥- الطبري ج٢ ص٣١٩، البداية ج٨ ص١٧٦، المقاتل ص١١٢، المفيد ج٢ ص٩٣

٣٦- الطبري ج٢ ص٣٢٤، البداية ج٨ ص١٧٧، الدينوري ص٢٥٦، المفيد ج٢ ص٩٧

٣٧- الطبري ج٢ ص٢٧٧، البداية ج٨ ص١٧٨،١٦٩، المفيد ج٢ ص٩٩

٣٨- الطبري ج٢ ص٣٢٨، المفيد ج٢ ص٩٩

٣٩- الطبري ج٢ ص٣٢٩، البداية ج٨ ص١٧٩، المفيد ج٢ ص١٠٠

٤٠- الطبري ج٢ ص٣٣٥ وما بعدها و٣٤٤-٣٤٦، البداية ج٢ ص١٨١ وما يليها.

٤١- الطبري ج٢ ص٣٤٧، ٣٥١-٣٥٥، البداية ج٨ ص١٨٤ وما بعدها، الإرشاد ج٢ ص١٠٩، الدينوري ص٢٥٦ وما بعدها.

٤٢- الطبري ج٢ ص٣٥٦- ٣٥٩، الدينوري ص٢٥٦ وما بعدها، البداية ج٨ ص١٨٥-١٨٩، الإرشاد ج٢ ص١١٠-١١٤، المقاتل ص٨٠-١١٣

٤٣- الطبري ج٢ ص٣٨٦، الدينوري ص٢٥٧، المقاتل ص٨٤، الإرشاد ج٢ ص١١٣

٤٤- الطبري ج٢ ص٣٦٠، الدينوري ص٢٥٨، الإرشاد ج٢ ص١١٢، اليعقوبي ج٢ ص٢٤٠، المقاتل ص١١٥

٤٥- الطبري ج٢ ص٢٦١-٢٦٣، البداية ج٨ ص١٨٧، الإرشاد ج٢ ص١١٤

٤٦- الطبري ج٢ ص٣٦٥، البداية ج٨ ص١٨٧، المفيد ج٢ ص١١٦

٤٧- الطبري ج٢ ص٣٦٦، البداية ج٨ ص١٨٨، الدينوري ص٢٥٨، المفيد ج٢ ص١١٧

٤٨- لمزيد من تفاصيل هذه الأعمال الفظيعة انظر الطبري ج٢ ص٣٦٧، البداية ج٨ ص١٨٨ وما بعدها، الدينوري ص٢٥٨ المفيد ج٢ ص١١٧ وما بعدها، المقاتل ص١١٧ وما بعدها.

٤٩- الطبري ج٢ ص٣٦٨، والمقاتل ص١١٩، والمفيد ج٢ ص١١٧

٥٠- الطبري ج٢ ص٣٦٨، والدينوري ص٢٦٠ والبداية ج٨ ص١٨٩

٥١- الطبري ج٢ ص٣٦٩، الدينوري ص٢٥٩، البداية ج٨ ص١٩٠، المفيد ج٢ ص١١٨

٥٢- الطبري ج٢ ص٣٧٠، البداية ج٨ ص١٩٣

٥٣- الطبري ج٢ ص٣٧١، الدينوري ص٢٥٩ وما بعدها، البداية ج٨ ص١٩٠

٥٤- انظر الملاحظة رقم ٥٣ السابقة.

٥٥- الطبري ج٢ ص٣٧٥، البداية ج٨ ص١٩١، المفيد ج٢ ص١٢٣

٥٦- البداية ج٨ ص ٢٠٣ ولمعرفة تبكيت الضمير عند يزيد انظر البداية ج٨ ص١٩١ وما بعدها والطبري ج٢ ص٣٦٧ وما بعدها.

٥٧- تاريخ انحدار وسقوط الإمبراطورية الرومانية. تح. Bury.B.J طبعة٢ لندن ١٩٠١ ج٥ ص٣٩١

٥٨- أخبار ص ٢٥٩

٥٩- إبصار العين في أحوال أنصار الحسين. النجف ١٣٤١هـ ص ٤٧ وما بعدها.

٦٠- الطبري ج٢ ص٣٨٦، أخبار ص٢٥٩

٦١- الطبري ج٢ ص٣٠٣ و٣٣٥

٦٢- البداية ج٨ ص١٧٠، العقد الفريد ج٤ ص٣٨٠.

٦٣- الطبري ج٢ ص٢٣٦

٦٤- برنارد لويس أصول الإسماعيلية (كمبردج ١٩٤٠) ص٢٧ E والنوبختي فرق الشيعة ص٤٥

٦٥- أفضل مثال على ذلك من بين العديد منها هو هنري لامنس خلافة يزيد ومقاله في دائرة المعارف الإسلامية الطبعة الأولى بعنوان "الحسين" وانظر أيضاً فلهوزن المملكةالعربية ص١٤٥-١٤٧

٦٦- الطبري ج٢ ص٢١٦-٢٥٩ ومصادر الملاحظة رقم ١٤ السابقة.

٦٧- الطبري ج٢ ص٣٠٤ وما بعدها.

٦٨- سابقه.
٦٩- الأغاني ج١٥ ص٢٣٣
٧٠- طبعة الثانية القاهرة بلا تاريخ
٧١- طبعة الثانية بيروت ١٩٧٢
٧٢- الطبري ج٢ ص٢٨٨ و٣٠٣، البداية ج٨ ص١٦٨ و١٧٤
٧٣- الطبري ج٢ ص ٣١٨ وما بعدها، البداية ج٨ ص١٦٧ ويعرض مختصر حبيب بن مظاهر.
٧٤- من أجل معرفة تلك التعهدات انظر الطبري ج٢ ص٣٢٢، والمفيد ج٢ ص٩٤، والبداية ج٨ ص١٧٦ والمقاتل ص١١٢
٧٥- الطبري سابقه، البداية ج٨ ص١٧٧ والمفيد ج٢ ص٩٥ ويقدم رواية أطول وأقوى
٧٦- الطبري ج٢ ص٣٢٢، البداية ج٨ ص١٧٧، المفيد ج٢ ص٩٥.
٧٧- سابقه
٧٨- آصف فيضي "نظرية الفقه الشيعي" القانون في الشرق الأوسط. تحرير ماجد خضوري ولسبسني J.H Lesbesny واشنطن ١٩٥٥ ص١١٣ E
٧٩- الطبري ج٢ ص٣٣٣، المفيد ج٢ ص١٠٣، البداية ج٨ ص١٨٠ ويلخص كلمات الحر.
٨٠- الطبري سابقه، المفيد سابقه، البداية ج٨ ص١٨٠ وما بعدها وينقل خطاب الحر عن الطبري.
٨١- الطبري ج٢ ص٣٥٠، البداية ج٨ ص١٨٣
٨٢- الطبري ج٢ ص٣٤٢ و٣٥٠، المفيد ج٢ ص١٠٦، البداية لا يذكر جواب نافع.
٨٣- الطبري ج٢ ص٣٥٠ البداية ج٨ ص١٨٣
٨٤- تاريخ العرب ص١٩١
٨٥- آصف فيضي ملاحظة رقم ٧٨ ص١١٣

٨٦- هدسن "كيف أصبحت الشيعة الأوائل فرقة" ص٣

٨٧- ابن النديم، الفهرست ص٩٣، الطوسي، الفهرست ورقة ٥٨٥،١٥٥، النجاشي، الرجال ص٢٤٥، أهل وردت ورقة رقم ٩٠٢٨، ٩٠٢٩، ٩٠٣١-٩٠٣٨؛ أرسولا سيزن، أبو مخنف مؤرخ بشاعة بني أمية ليدن ١٩٧١ ص١١٦-١٢٣ بالألمانية لمناقشة كتاب مقتل الحسين. وفي فهرست الطوسي انظر مقدمة سبرنجر لتحقيقه لهذا العمل في قائمة الكتب الهندية (كلكتا ١٨٥٣)؛ ومناقشة براون لأعمال المؤلفين في تاريخ إيران الأدبي (كمبردج ١٩٠٢-١٩٠٤) ج٤ ص٣٥٥-٣٥٨.

٨٨- انظر مقدمته كتاب مملكة العرب وسقوطها E

٨٩- انظر مراجع الملاحظة رقم ٨٧.

٩٠- فلهاوزن ذكر سابقاً.

٩١- مقال "أبو مخنف" في دائرة المعارف الإسلامية. E

٩٢- فلهاوزن ذكر سابقاً.

٩٣- في مخطوطة استنبول لأنساب الأشراف ذكر الحسين في المخطوطة رقم ٥٩٧ ورقة رقم ٢٩١ A - ٢٥١ B

٩٤- انظر من أجل ثورة ابن الأشعث مقال "ابن الأشعث" في دائرة المعارف الإسلامية الطبعة الثانية.

٩٥- فلهاوزن ذكر سابقاً.

٩٦- الطبري الفهرس

٩٧- الشيخ المفيد، الإرشاد ج٢ ص٢٩

٩٨- المقاتل ص٩٥

٩٩- البداية والنهاية، ابن كثير ج٨ ص٦٠-٦١

١٠٠- انظر مقدمة وستنفيلد (الحسين).

١٠١- سيزن، أبو مخنف ص١٩٠

الفصل الثامن

رد الفعل بعد كربلاء

كانت مأساة كربلاء واستشهاد الحسين ذات أهمية دينية بالغة العظمة، وتركت أثراً عميقاً عند محاسبة النفس التي أعقبتها لدى الشيعة، وأحدثت انعطافاً جديداً لمزاج وطبيعة الحركة الشيعية. لقد حرّك قدر الحسين المأساوي المشاعر الدينية والأخلاقية، وبخاصة ضمن أولئك الكوفيين أتباع البيت النبوي الذين سألوا الحسين بحماس بالغ أن يأتيهم إلى العراق ليقودهم على ما اعتبروه سبيل الله. ولكن عندما جاءهم لم ينصروه في وقت المحنة، أو لم يستطيعوا فعل ذلك. وسرعان ما أدركوا عجزهم أو ضعفهم الذي أدّى إلى تلك المأساة. وهاج فيهم إحساس عميق بالندم فأيقظ فيهم وعيهم الديني؛ ولكي يكفروا عن تقصيرهم، وينالوا مغفرة الله، اعتقدوا أن عليهم أن يضحّوا بأنفسهم كما فعل الحسين. وآمنوا أنهم يستطيعون البرهان على صدق ندمهم من خلال تعريض أنفسهم للموت فقط، بينما يطلبون الثأر لدم الحسين. فسمّوا أنفسهم "التوابين" وعرفوا في التاريخ الإسلامي بهذا اللقب الذي فرضوه على أنفسهم. وأثبتت هذه الحركة – كما سنرى لاحقاً– أنها خطوة هامة على طريق تعزيز وتقوية الإسلام الشيعي.

بدأت الحركة بقيادة خمسة من الرجال المتقدمين في العمر ومن أكثر مؤيدي علي ثقة، ولهم مئات المتحمسين المخلصين من شيعة الكوفة. وكان هؤلاء القادة جميعاً فوق الستين من العمر.[٢] وعامل الزمن هذا هو مما يجب أخذه بالحسبان، فهو يدل على النضج في التفكير الديني والسلوك.

وهؤلاء القادة وهم سليمان بن صرد الخزاعي والمسيّب بن نجبة الفزاري وعبد الله بن سعد بن نفيل الأزدي وعبد الله بن والٍ التميمي ورفاعة بن شداد البجلي، وكان هؤلاء دائماً في مقدمة جميع النشاطات الشيعية في الكوفة، وكانوا محترمين حازوا على ثقة أتباعهم بفضل صدق التزامهم وإخلاصهم الأكيد لقضية أهل البيت. وكذلك وصف أتباعهم الذين انضموا لهذه الحركة بأنهم " ومعهم أناس من الشيعة وخيارهم ووجوههم."[3] وقبيل نهاية عام ٦١هـ عقدوا أول اجتماعاتهم في بيت سليمان بن صرد.[4] وكانت تلك هي المناسبة الأولى كي يخرجوا علناً من مخابئهم ويجتمعوا، منذ فرض حالة الطوارئ العسكرية على الكوفة قبيل مذبحة كربلاء، تلك الحالة تراخت، وعادت الأمور إلى عادتها. وقد حفظت لنا المصادر التاريخية تفاصيل رواية هذا الاجتماع والخطب التي ألقاها هؤلاء القادة الخمسة. وكان أول المتحدثين هو المسيّب بن نجبة الفزاري الذي قال: "أما بعد، فإنا قد ابتلينا بطول العمر، والتعرض لأنواع الفتن، فنرغب إلى ربنا ألاَّ يجعلنا ممن يقول له غداً: "أو لم نعمرّكم ما يتذكّر فيه من تذكّر وجاءكم نذير." سورة فاطر٣٧؛ فإن أمير المؤمنين (علي بن أبي طالب) قال: العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة، وليس فينا رجل إلاَّ وقد بلغه، وقد كنّا مغرمين بتزكية أنفسنا، وتقريظ شيعتنا، حتى بلا الله أخيارنا فوجدنا كاذبين في موطنين من مواطن ابن بنت نبينا صلى الله عليه وسلم، وقد بلغتنا قبل ذلك كتبه، وقدمت علينا رسله، وأعذر إلينا يسألنا نصره عوداً وبدءاً، وسرّاً وعلانية، فبخلنا عنه بأنفسنا حتى قتل على جانبنا، لا نحن نصرناه بأيدينا ولا جادلنا عنه

بألسنتنا، ولا قوّيناه بأموالنا، ولا طلبنا له النصرة إلى عشائرنا، فما عذرنا إلى ربنا وعند لقاء نبينا صلى الله عليه وسلم وقد قتل فينا ولده وحبيبه، وذريته ونسله! لا والله، لا عذر دون أن تقتلوا قاتله والموالين له، أو تقتلوا في طلب ذلك، فعسى ربنا أن يرضى عنا عند ذلك، وما أنا بعد لقائه لعقوبته بآمن. أيها القوم، ولّوا عليكم رجلاً منكم، فإنه لا بد لكم من أمير تفزعون إليه، وراية تحفّون بها. أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم."[٥] ثم تحدث رفاعة بن شداد البجلي أحد القادة الخمسة مناشداً الأحاسيس الدينية لدى الحاضرين. وبعد أن أكد ما قاله المسيب اقترح قائلاً: " وإن رأيت –يقصد المسيب– رأي أصحابنا ذلك ولّينا هذا الأمر شيخ الشيعة صاحب رسول الله وذا السابقة والقدم سليمان بن صرد المحمود في بأسه ودينه والموثوق بحزمه."[٦] وتكلم القادة الثلاثة الآخرون بما يشبه ذلك وأكدوا على اقتراح رفاعة باختيار سليمان بن صرد قائداً للأسباب نفسها التي ذكرها رفاعة. ومن المهم أن نبيّن أن مؤهلات قيادة الحركة التي كانت بالفعل مكرسة للقضية الشيعية هي صحبة النبي والسابقة في الإسلام. وهذا، كما في أمثلة كثيرة أخرى، يعني أن تأكيد الشيعة الرئيسي هو لتدعيم المثال الإسلامي، الذي اعتقدوا أنه يمكن تحقيقه فقط من خلال أهل البيت النبوي.

قبل سليمان بن صرد مسؤولية قيادة الحركة وخاطب الحاضرين مؤكداً المعايير الصارمة المطلوبة من أولئك الذين أرادوا أن يساهموا في الحركة وأكد أن عليهم أن يكونوا جاهزين للتضحية بحياتهم لأشرف مهمة تنتظرهم.[٧] وقابله الحاضرون جميعاً بحماس مساو لحماسه. وتعهدوا أن

يطلبوا عفو الله عنهم بقتال قاتلي حفيد النبي حتى الموت. ولكي يؤكدوا صدق نواياهم فقد تصدق كثير منهم بكل ما يملك عدا سلاحه. وعين سليمان عبد الله بن وال التيمي خازناً للمال، يجمعه، ويصرفه في التحضير للعمل.[8] ولم يدع سليمان الوقت يمضي بل بادر فوراً في تنظيم الحركة. فكاتب قادة الشيعة في مدن أخرى وبالتحديد سعد بن حذيفة بن اليمان في المدائن والمثنى بن مخربة العبدي في البصرة. وتابعت الحركة عملها سرّاً حوالي ثلاث سنوات تزيد في أعداد المنتسبين إليها وتقوي نفسها بما يلزمها منتظرة الفرصة المناسبة.

وتطورت الظروف لصالح الحركة، بموت يزيد غير المتوقع عام ٦٤هـ ٦٨٣م، مما شجع التوابين على الظهور علناً. وحث بعض القادة البارزين سليمان على التحرك العلني لطرد عمرو بن حريث نائب عبيد الله بن زياد من المدينة ومتابعة قتلة الحسين، ودعوة الناس لتأييد أهل البيت النبوي. لكن سليمان اختار التريث مشيراً إلى أن قتلة الحسين هم أشراف القبائل الكوفيين الذين يجب أن يلقوا جزاء ما فعلوا بالحسين. وبالتالي فالتحرك السريع ضد هؤلاء والثورة عليهم في هذه الحالة لن تجدي شيئاً سوى الدمار وربما على الأرجح هلاك كامل الشيعة أنفسهم. وربما فُقدت فرصة الثأر لدم الحسين. ولذلك فإن من الأفضل في هذه المرحلة –كما رأى سليمان– تركيز حملتهم الدعوية ضمن الشيعة والآخرين في الكوفة، وتجنيد المؤيدين إلى أبعد قدر ممكن. وأضاف أنه نظراً لموت يزيد فإن الناس سينضمّون إلى الحركة الشيعية بسرعة وبتزايد مستمر.[9] وانتشر اقتراح سليمان و خرجت الحركة التي كانت تلك اللحظة سرية إلى العلن

وقامت بحملة واسعة ومركّزة لقضيتها. وبدأ العديد من المبعوثين دعوة الناس للانضمام إلى الحركة.

وحفظ لنا أبو مخنف خطبة أحد هؤلاء الدعاة وهو عبيد الله بن عبد الله المريّ. "قال رجل من مزينة ما رأيت من هذه الأمة أحداً كان أبلغ من عبيد الله المري في منطق ولا عظة وكان من دعاة أهل المصر زمان سليمان بن صرد، وكان إذا اجتمعت إليه جماعة من الناس فوعظهم، بدأ بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يقول: أما بعد، فإن الله اصطفى محمداً صلى الله عليه وسلم على خلقه بنبوته، وخصّه بالفضل كله، وأعزكم باتباعه، وأكرمكم بالإيمان به، فحقن به دماءكم المسفوكة، وأمّن به سبلكم المخوفة وكنتم على شفى حفرة من النار، فأنقذكم منها ، كذلك يبيّن الله لكم آياته لعلكم تهتدون." آل عمران ١٠٣ فهل خلق ربكم في الأولين والآخرين أعظم حقّاً على هذه الأمة من نبيها وهل ذرية أحد من النبيين والمرسلين أو غيرهم أعظم حقاً على هذه الأمة من ذرية رسولها؟ لا والله، ما كان ولا يكون. لله أنتم! ألم تروا ويبلغكم ما اجترم (اقترف) إلى ابن بنت نبيكم! أما رأيتم إلى انتهاك القوم حرمته، واستضعافهم وحدته، وترميلهم (القاؤه مدمى في الرمل) إيّاه بالدم، وتجرارهموه على الأرض، لم يراقبوا فيه ربهم ولا قرابة من الرسول صلى الله عليه وسلم، اتخذوه للنبل غرضاً، وغادروه للضباع جزراً، فلله عينا من رأى مثله! ولله حسين بن علي ماذا غادروا به ذا صدق وصبر، وذا أمانة ونجدة وحزم! ابن أول المسلمين إسلاماً، وابن بنت رسول رب العالمين، قلّت حُماته، وكثرت عُداته حوله، فقتله عدوّه،

وخذله وليُّه. فويل للقاتل، وملامة للخاذل! إن الله لم يجعل لقاتله حجة، ولا لخاذله معذرة، إلاّ أن يناصح لله في التوبة، فيجاهد القاتلين، وينابذ القاسطين؛ فعسى الله عند ذلك أن يقبل التوبة، ويقيل العثرة، إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه، والطلب بدماء أهل بيته، وإلى جهاد المحلّين والمارقين، فإن قُتلنا فما عند الله خير للأبرار، وإن ظهرنا (انتصرنا) رددنا هذا الأمر إلى أهل بيت نبيّنا" وكان يعيد علينا هذا الكلام في كل يوم حتى حفظه عامتنا.[١٠]

نجد في هذا الخطاب ومما سبق من فصول هذا البحث الذي يعالج التطورات منذ وفاة النبي وحتى وفاة الحسين، نجد أن موقف الشيعة وطموحاتهم الدينية –السياسية كانت تتكرر باستمرار. إذا استرجعنا المجادلات التي عرضها مؤيدو علي يوم السقيفة، والشورى (مجلس عمر بن الخطاب الستة لاختيار خليفته)، ومحتويات رسائل الحسن إلى معاوية، ورسائل الحسين إلى الكوفيين والبصريين، والخطب والتعهدات التي تفوه بها أصحاب الحسين في كربلاء، وخطب قادة التوابين في اجتماعهم الأول، وموعظة المريّ السابقة نرى شيئاً واحداً يتكرر، إنه لا شيء سوى صدى الطموحات والمثل الشيعية نفسها. ويكفينا القول أنه في موعظة المري نجد أن التوكيد الأساسي كان علاقة القرابة بين النبي والحسين عبر فاطمة. لقد ظهر اسم علي مرتين فقط: الأولى عند ذكر الحسين قال الحسين بن علي وهي العادة المتبعة في ذكر شخص ما، والثانية عند ذكر الحسين بصفته ابن أول المسلمين، ولكن حتى في هذه المرة ذكر مكانته

مباشرة من حيث هو ابن بنت النبي. وحتى في السقيفة والشورى كان التأكيد على قرابة وقرب علي من النبي.

وهكذا نرى التوابين يزيدون في تأكيد على فكرة خلافة النبي من خلال النسب أكثر مما يؤكدون خلافة علي لنفس السبب. فالقسم الرئيسي من موعظة المري هو الدعوة لقتل قتلة الحسين للثأر له، أو التضحية بالنفس للتكفير عن تقصيرهم في دعم الحسين، وبالتالي طلب المغفرة من الله وهذا بُعدٌ جديدٌ حتمته مأساة كربلاء. أخيراً، نجد في هده الموعظة دعوة إلى كتاب الله وسنّة النبي، -كما أشرنا سابقاً- وهذا رفض مبطّن لسوابق الخلفاء الثلاثة الأول، وبالتالي تخصيص علي والأئمة الآخرين من ذرية النبي بسلطة خاصة لتفسير أو إعادة تفسير سنّة النبي.

نجحت حملة التوابين في الحصول على تأييد ١٦٠٠٠ كوفي،[١١] وذلك لأن الوضع في الكوفة صار الآن أكثر ملاءمة لتحقيق النجاح. فلقد أضعف موت يزيد المفاجئ السيطرة الأموية على تلك الولاية. أما معاوية الثاني ابن يزيد المريض فقد خلف والده لفترة ستة أشهر فقط ثم توفي، ونجح العجوز مروان بن الحكم في الوصول إلى الخلافة الأموية. لكن هذا أدى إلى قيام صراع في سورية بين القبيلتين المتنافستين كلب وقيس، وهذا أدى إلى الفوضى في دمشق العاصمة الأموية، مما صعّب على الأمويين فرض سيطرتهم الكاملة على العراق المجاور.

أما في الحجاز فقد قام عبد الله بن الزبير وأعلن حقه في الخلافة مستغلاً موت يزيد والفوضى في سورية وضعف الأمويين، فنظّم وقوى موقفه واتخذ لنفسه لقب أمير المؤمنين. أما الوالي الأموي القوي عبيد الله بن

زياد حاكم الكوفة والبصرة فقد طرته ثورة سكان البصـــرة فهـــرب إلى مروان في دمشق. وطرد الكوفيون عمرو بن الحريث نائب الوالي ابـــن زياد على الكوفة.[١٢] في ظل فراغ السلطة في الكوفة كتـــب أشـــراف الكوفة بسرعة إلى عبد الله بن الزبير ليستغل الفرصة ويعيّن والياً علـــى الكوفة من قبله. مع خروج المجموعة الشيعية إلى العلن، وضعف السيطرة السورية، وجد رؤساء القبائل والبطون أن من صالحهم أن يتحالفوا مع ابن الزبير، الذي يمثل الهيمنة القرشية المكيّة القديمة. فأرسل ابن الـــزبير فوراً عبد الله بن يزيد الأنصاري والياً على الكوفة مسؤولاً عن الشؤون العسكرية وإبراهيم بن محمد بن طلحة مسؤولاً عن الخـــراج (مســـؤول مالي).[١٣]

الآن، بعد زوال العوائق، بدأ سليمان بن صرد قائد التوابين التحضيرات النهائية للعمل. فكتب إلى قادة الشيعة في المدائن والبصرة داعياً إيّـــاهم كي يكونوا على أهبة الاستعداد للثأر لدم الحسين، ولإصلاح الأوضـــاع الخاطئة ولإقامة العدل. وأمرهم أن يتجمعوا في النخيلة، خارج الكوفـــة في الأول من ربيع الثاني عام ٦٥هـــ ٦٨٤م. عندها دعا قائد الشيعة في المدائن سعد بن حذيفة بن اليمان شيعته وقرأ عليهم رســـالة ســـليمان فأجابوه بحماس بالغ. وكذلك قبل المثنى بن مخربة العبدي قائد الشيعة في البصرة الدعوة وحشد قواته. إن نص الرسالتين المطـــولتين[١٤] الـــذي حفظه لنا أبو مخنف المؤرخ المدقق هو نص مفيد جـــداً وواضـــح لفهـــم الأحاسيس والمشاعر الدينية والموقف العقائدي لشيعة تلك الفترة. وهذا النص مماثل تماماً لنص خطب التوابين وموعظة المريّ السابق ذكرها.

في هذه المرحلة بالذات ظهر في الكوفة المختار بن أبي عبيد الثقفي وهـو مؤيد مخلص لأهل البيت. وكانت رسالته مماثلة تماماً لرسالة التـوابين في الثأر لدم الحسين وإعادة الحق لأهل البيت، لكنه اختلف مع التوابين من حيث أنه أراد إنجاز السيطرة السياسية عبر قوة عسكرية أكثر تنظيمـا. وهكذا حاول المختار إقناع التوابين بعدم الإسراع في التحرك والإنضمام إليه من أجل حظ أوفر في تحقيق النجاح. رفض التوابون الانضـمام إلى المختار، حيث أنهم لم يرغبوا في المشاركة في أية مغامرة مشكوك بنجاحها أو الانحراف عن هدفهم الرئيسي وهو الـتكفير عـن خطيئتـهم عـبر التضحية. وقال التوابون أنهم يتبعون "شيخ الشيعة" فقط سليمان بـن صرد.[١٥] ثمة نقطتان في مجادلات المختار مع التوابين تستحقان الأخذ في الحسبان لأنهما توضحان الاختلاف بين الطرفين. الأولى: رأي المختار أن سليمان بن صرد لا يعرف كيف ينظّم القوة العسكرية للحرب، ولـيس لديه خبرة سياسية أو دبلوماسية؛ الثانية: ادعى المختار أن المهدي محمد بن الحنفيّة عينه نائباً له ومؤتمناً على أسراره ووزيراً للثأر لـدم الحسـين.[١٦] (كان محمد هذا ابن علي وثالث ابنائه من امرأة حنفية، ولم يكن من ذرية النبي.) ويشير رفض التوابين تأييد المختار إلى أنهم لم يكونوا مهتمين بمغامرة عسكرية محضة ولا بالشؤون السياسة، ولم يكونوا جاهزين لقبول حتى أكبر أولاد علي الأحياء إماماً، لأنه ليس من ذرية الـنبي مـن فاطمـة. وهكذا، فإن الخلاف بين الطرفين لم يكن على الاسـتراتيجية ولا علـى التكتيك، وإنما على الإمام.

برغم أن التوابين لم يصرحوا علناً بأي اسم لشخص من أهل البيت بصفته إمامهم، فثمة إشارات قوية إلى أنهم اعتقدوا بأن الإمام الحق هو يومئذ علي ابن الحسين الوحيد من بين أبناء الحسين الذكور، الذي بقي على قيد الحياة بعد مأساة كربلاء، والذي عرف فيما بعد بلقبه المشهور زين العابدين. وهناك عوامل كثيرة تؤيد هذا الرأي. الأول: إن الفكرة الأكيدة بأن القيادة مؤسسة على وراثة مقدسة، وهي التي جذبت ميل الشيعة العرب، كانت محصورة بذرية محمد من ابنته فاطمة؛ وأن هذه الوراثة انتقلت من الحسن إلى الحسين وليس لأي شخص آخر من الهاشميين. لقد تكررت الإشارة فيما مرّ معنا أن الحسن والحسين ابني علي وُصفا بأنهما "ابنا بنت رسول الله" الثاني: لم يذكر اسم محمد بن الحنفية مطلقاً عندما عقد التوابون اجتماعهم مباشرة بعد كربلاء عام ٦١ هـ ـ ٦٨٠م؛ أما المختار فوصل الكوفة بعد موت يزيد بما يزيد عن ستة أشهر وذلك عام ٦٤هـ ـ ٦٨٤م؛ وبدأ حملته باسم محمد بن الحنفيّة. وهكذا، فإن اسم ابن الحنفية ظهر لأول مرة بعد أربع سنوات، وحين كان التوابون على وشك بدء تحركهم. الثالث: المختار الذي كان أول من أظهر اسم ابن الحنفية ودعا لقيادته، كان قد حاول أولاً علي بن الحسين -كما سنناقش لاحقاً- وعندما رفض علي بن الحسين الاشتراك في أية حركة علنية، عندئذ فقط تحول المختار إلى ابن الحنفيّة وتودد إليه راغباً في السماح له بأن يرفع اسمه.

بما أن علي بن الحسين نفسه رفض الإعلان عن أي دعوى، كما رفض أن يستعمل اسمه نيابة عنه. فإن التوابين أحجموا عن ذكر اسمه. ومع ذلك،

فإن إشارات غامضة إلى حدٍّ ما ذكرها التوابون خلال حملتهم مثل أبيات الشعر التي نظمها شاعرهم عبد الله بن الأحمر وفيها تحدث عن الداعي "الداعي الذي يندبهم للخلاص."[١٧]، هذه الإشارات تدلّ على إمام، وبما أن اسم ابن الحنفيّة لم يذكر بأن له صلة بالإمامة إلى ما بعد ثلاثة أعوام، فإن ذلك "الداعي" الذي ذكره ابن الأحمر لابد أن يكون علي بن الحسين. وهذا الرأي مؤسس على حقيقة أن شيعة الكوفة أقاموا سابقة عندما أعلنوا الحسن بن علي خليفة لأبيه، وليس أي شخص آخر من الهاشميين. ويبدو أن التوابين، وبعد خبرهم المأساوية فيما يخص الحسين، قرروا ألاّ يعلنوا اسم إمامهم حتى يحققوا النجاح في إنهاء الحكم الأموي من الكوفة أو التضحية بأنفسهم في توبة عملية ناشطة تعويضاً لفشلهم بعدم القيام بواجباهم تجاه الحسين.

على كل حال، رفض القسم الأعظم من التوابين الانضمام إلى المختار رغم أن ألفين ممن احتشدوا مع سليمان بن صرد تحولوا إليه آملين باحتمالات سياسية أفضل.

ومع اقتراب موعد التحرك كان سليمان بن صرد وقادة التوابين الآخرون يؤكدون المرة تلو الأخرى بأنهم ليس لديهم أية طموحات بفتح سياسي أو غنائم مادية. أو، كما قال سليمان بن صرد: "يا أيها الناس، من كان إنما أخرجته إرادة وجه الله وثواب الآخرة فذلك منّا ونحن منه، فرحمة الله عليه حيّاً وميتاً، ومن كان إنما يريد الدنيا وحرثها فوالله ما نأتي فيئاً نستفيئه، ولا غنيمة نغنمها، ما خلا رضوان الله رب العالمين، وما معنا ذهب ولا فضة ولا خز ولا حرير، وما هي إلا سيوفنا في عواتقنا ورماحنا في أكفّنا،

وزادُ قدر البلغة إلى لقاء عدونا، فمن كان غير هذا ينوي فلا يصحبنا."
(هذا الاقتباس من طرف المترجم لتأكيد ما قاله المؤلف. وهو من الطبري ج٥ ص٥٨٥ من طبعة دار المعارف المصرية تح. محمد أبو الفضل إبراهيم ١٩٦٣ التي اعتمدها المترجم للنقل عنها). وبحسب خطة التوابين بدؤوا تحركهم مع بداية ربيع الثاني ٦٥هـ تشرين الثاني ٦٨٤م ونادوا "يا لثارات الحسين"، وانطلقوا مقدمين نحو النخيلة وهي إحدى ضواحي الكوفة. تجمع التوابون هناك للانطلاق نحو قوات عبيد الله بن زياد الوالي الأموي المسؤول عن مذبحة كربلاء. كانت المعايير التي وضعها سليمان بن صرد قاسية جداً على معظم مؤيديه وعددهم ١٦٠٠٠ رجل، لذلك خرج معه إلى النخيلة ٤٠٠٠ رجل منهم. حاول عبد الله بن يزيد والي ابن الزبير على الكوفة إقناعهم بعدم الخروج وتنفيذ خطتهم، واقترح على سليمان بن صرد أن ينتظره حتى يتم تحضيراته وينضم إلى التوابين. رفض التوابون طلب ابن يزيد بتغيير خطتهم أو قبول مساعدته، [١٨] لأنها ستعدّل خطتهم. كانت نيتهم الثأر لدم الحسين لإقامة الإمامة الشيعية أو الموت. وفضلوا الموت على قبول مساعدة ابن يزيد غير الشيعي. إن قبولهم لمساعدة ابن يزيد يعني أنهم انضموا لفريق سياسي آخر مؤيد لابن الزبير ضد الفريق الذي يؤيد بني أمية.

والآن مع تناقص عدد التوابين المتطوعين من ١٦٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ رجل ما عاد لهم من أمل سوى القتال حتى الموت طالبين التوبة والعفو. لقد صمموا على تنفيذ ما تعاهدوا عليه أمام أنفسهم.

أمضى التوابون ثلاثة أيام في النخيلة يصلون ويذكرون الله. لم يصل شيعة المدائن وشيعة البصرة، وأراد بعض المتجمعين في النخيلة انتظارهم، لكن سليمان بن صرد أصرّ على متابعة التحرك دون تأخير. قال: "أيها الناس، فإن الله قد علم ما تنوون، وما خرجتم تطلبون، وإن للدنيا تجّاراً، وللآخرة تجّاراً، فأما تاجر الآخرة فساعٍ إليها متنصّب بتطلابها، لا يشتري بها ثمناً، لا يُرى إلاّ قائماً وقاعداً، وراكعاً وساجداً، لا يطلب ذهباً ولا فضة، ولا دنيا ولا لذة. فعليكم يرحمكم الله في وجهكم هذا بطول الصلاة في جوف الليل، وبذكر الله على كل حال، إنكم لن تتوسلوا إلى ربكم بشيء هو أعظم عنده ثواباً من الجهاد والصلاة وإنا مدلجون من منزلنا هذا إن شاء الله فأدلجوا."[19]

يقول البلاذري: فأجابه الناس من كل صوب "إننا لا نطلب الدنيا، ولم نخرج لها"[20] ولكن في الصباح هرب ألف منهم. ولم يجبن سليمان بل قال: "ما أحبّ أن من تخلّف عنكم معكم، ولو خرجوا معكم ما زادوكم إلا خبالاً."

ورحل التوابون من النخيلة باتجاه كربلاء إلى قبر الحسين حيث أسلموا أنفسهم للأحزان وعبروا عن أساهم بالبكاء المنقطع النظير ومما قالوا: يارب إنّا قد خذلنا ابن بنت نبينا، فاغفر لنا ما مضى منّا، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، وارحم حسيناً وأصحابه الشهداء الصديقين، وإنا نشهدك يا رب أنّا على مثل ما قُتلوا عليه."[21] يشير ولهوزن إلى أنها كانت المرة الأولى التي يمجد فيها قبر الحسين وأنها عادة عربية في ملامحها

وطبيعتها حيث أن العرب اعتادوا تمجيد الحجر الأسـود الموجـود في الكعبة.[٢٢] وبعد أن أمضوا يوماً وليلة غادروا قبر الحسين.

ثم توجهوا نحو قرية قرقيسيا وهي خمس المسافة حتى الحدود مع سـورية، فأكرمهم شيخ القرية زفر بن الحارث وأخبرهم أن عبيد الله بن زياد ومعه ٣٠٠٠٠ رجلاً وصلوا عين الوردة. ثم زودهم بالمؤونة وقدم لهم نصائح كثيرة عن أحوال جيش ابن زياد، وأخبر سليمان بأسماء القادة مع ابـن زياد. وأخبر زفر سليمان أنه ورجاله سيقاتلون إلى جانب التوابين إذا بقوا في القرية واتخذوها قاعدة لهم. ولكن سليمان لم يوافق على ذلك.

وأخيراً وصل التوابون إلى عين الوردة واشتبكوا بعنـف مـع القـوات السورية، وهم ينادون الجنة! الجنة! للترابيين.[٢٣] واستمرت المعركـة ثلاثة أيام، وقاتل التوابون بإصرار لم يسبق له مثيل. ورغم تفوق عـدد القوات السورية فقد انتصر التوابون في اليوم الأول وكبدوا السـوريين خسائر كثيرة. ولكن في اليوم الثاني بدأ التوابون يفقدون قادهم الواحد تلو الآخر وأصابتهم خسائر جمّة. فكان أول القتلى من قـادة التـوابين سليمان بن صرد ثم المسيب بن نجبة فعبد الله بن سعد ابن نفيل ثم عبد الله بن وال التميمي، وكان هؤلاء يتوالون على قيادة المعركة حتى يقتل فيليه الثاني وهكذا. وفي نهاية اليوم الثالث كان التوابون قد وفّوا بما عاهـدوا أنفسهم عليه وهو التضحية بأنفسهم ثأراً للحسين. ولم يبق علـى قيـد الحياة من قادة التوابين سوى رفاعة بن شداد الذي انسحب مع بقية قليلة منهم، وفي طريق العودة تقابل مع شيعة المدائن والبصرة القادمين لنصرة شيعة الكوفة (التوابون) فعادوا جميعاً إلى قرقيسيا.[٢٤]

نجد في تحليلنا لحركة التوبين نقاطاً قليلة مميزة. الأولى: إن كل الثلاثة آلاف من التوابين الذين قاتلوا في عين الوردة كانوا من العرب، ولم يكن أحد من الموالي معهم.[٢٥] وإنما كان المختار هو أول من حرّك الفرس نحو مشاركة فعّالة مما وسّع جاذبية الحركة الشيعية. الثانية: برغم أن معظم التوابين الثلاثة آلاف كانوا من عرب الجنوب، إلاّ أن عرب الشمال والوسط من مضر وربيعة ساهموا أيضاً في معركة عين الوردة. فقد كان المسيب بن نجبة من مضر وكان نائب القائد العام سليمان بن صرد. وبالتدقيق في أسماء التوابين كما تذكرها المصادر نجد أن كثيراً من القبائل العربية الهامة من اليمنيين والتراريين قد تمثلت في عين الوردة،[٢٦] وهذا يؤيد أن المشاعر الشيعية لم تقتصر على جماعة بعينها. ثالثاً: ضم التوابون عدداً كبيراً من قرّاء الكوفة،[٢٧] ومنهم القادة الخمسة المذكورون سابقاً.

كل هذه الحقائق تشير إلى نقطتين جوهريتين. الأولى: هي أن الحركة الشيعية حتى زمن التوابين (٦٥، ٦٨٤) كانت عربية محضة في خصائلها ومميزاها، ولم تلتصق بها أية مكونات غير عربية، لا عقائدية ولا سواها. الثانية: إن حركة التوابين كانت حركة دينية كليّة. حين قابل الحسين جيش يزيد، كان مدركاً مترلته بصفته حفيد النبي وابن علي أيضاً، وكان التوابون بحركتهم يجمعون ولاءهم لعلي مع ولائهم للنبي نفسه، وكانوا يأخذون القضية على أساس ديني محض. أخيراً: إذا قارنا مشاعر وتعبيرات أصحاب الحسين في كربلاء مع مشاعر وتعبيرات التوابين الذين أجمعوا على التضحية بأنفسهم في سبيل قضيتهم نجد أن كل المجادلات والأحاسيس في الجماعتين كانت قائمة على المبادئ الدينية عينها.

ولكن هناك فرق كبير بين الجماعتين، ففي كربلاء فرض حضور الحسين نفسه التزاماً شخصياً على الشيعة الذين قاتلوا وقتلوا معه. أما في حالة التوابين فلم ينشأ أي التزام شخصي يجمعهم ويجعلهم يضحون بأنفسهم سوى الشعور القوي بالواجب وإحساس عميق بالالتزام الديني المحض. وهكذا، دفعت حركة التوابين التشيع خطوة أخرى نحو التميز وتحقيق الوجود المتماسك.

مراجع وملاحظات الفصل ٨

١- البلاذري ج٥ ص٢٠٤، الطبري ج٢ ص٤٩٧، المسعودي مروج ج٣ ص٩٣، ولهوزن كما ترجم عمله عبد الرحمن بدوي تحت عنوان "أحـزاب المعارضة السياسية والدينية في صدر الإسلام" القاهرة ١٩٦٨ ص١٨٩

٢- الطبري ج٢ ص٤٩٨ ولهوزن سابقه

٣- الطبري ج٢ ص٤٩٨، البلاذري ج٥ ص٢٠٤

٤- الطبري ج٢ ص٤٩٧، والبلاذري نفسه

٥- الطبري ج٢ ص٤٩٨، والبلاذري ج٥ ص٢٠٥

٦- الطبري ج٢ ص٤٩٩، والبلاذري نفسه

٧- الطبري ج٢ ص٤٩٩ والبلاذري ج٥ ص٢٠٥

٨- الطبري نفسه و البلاذري نفسه

٩- الطبري ج٢ ص٥٠٦ و٥٠٧

١٠- الطبري ج٢ ص٥٠٧-٥٠٨

١١- البلاذري ج٥ ص٢٠٨

١٢- البلاذري ج٥ ص٢٠٧

١٣- البلاذري ج٥ ص٢٠٨ والطبري ج٢ ص٥٠٩

١٤- الطبري ج٢ ص٥٠٢-٥٠٥

١٥- البلاذري ج٥ ص٢٠٧ و الطبري ج٢ ص٥٠٩

١٦- سابقتها

١٧- المسعودي مروج ج٣ ص٩٣

١٨- الطبري ج٢ ص٥٤٣، البلاذري ج٥ ص٢٠٩

١٩- الطبري ج٢ ص٥٤٥

٢٠- البلاذري ج٥ ص٢٠٩

٢١- البلاذري سابقه، الطبري ج٢ ص٥٤٦، ولهوزن أحزاب ص١٩٤

٢٢- أحزاب ص١٩٤، الطبري ج٢ ص٥٤٦، البلاذري ج٥ ص٢٠٩

٢٣- المسعودي مروج ج٣ ص٩٤، الترابيون نسبة إلى أبي تراب علي بن أبي طالب.

٢٤- لمزيد من معرفة ما جرى في عين وردة انظر البلاذري ج٥ ص٢١٠ وما بعدها، والطبري ج٢ ص٥٥٨ وما بعدها، والمسعودي مروج ج٣ ص٩٤

٢٥- ولهوزن أحزاب ص١٩٤

٢٦- انظر الطبري ج٢ ص٤٩٧ و٥٥٩، و٥٦٦، و٥٩٩ و٦٠١، البلاذري ج٥ ص٢٠٧ وما بعدها ولهوزن ص١٩٤

٢٧- ولهوزن ص١٩٤

الفصل التاسع

الكفاح من أجل الشرعية

إن ما قيل حتى الآن يكمل المرحلة الأساسية الأولى من تـاريخ تطـور الإسلام الشيعي. في هذه المرحلة ثمة اتجاه خاص، ونزعة فكرية محـددة جيداً، ونظام نموذجي، ومبدأ تحتي underling للتماسك العقائدي: أقرت وصار من السهل تميزها بصفتها التفسير الشيعي للإسلام. وربما حتى في هذه المرحلة المبكرة (من وفاة النبي ١٠هـ ٦٣٢م وحتى وفاة الحسين ٦١هـ ٦٨٠م) يستطيع المرء أن يميّز الاختلاف الأساسي بين الشـيعة وبقية الأمة الإسلامية، فبينما فضّل الشيعة قبول قيادة أولئـك الـذين يستمدون سلطتهم مباشرة من شخص النبي فقط، وبـذلك يتمتعـون بقداسة إلهية، فإن بقية الأمة الإسلامية قبلت سلطة الأمة بكاملها بحيـث هي التي تختار القيادة.

ودخل التشيع بموت الحسين المرحلة الثانية من تاريخه. فبينمـا بقيـت المبادئ الأساسية هي هي نفسها، طفت على السطح الاختلافات حـول المعايير الدقيقة التي تقرر من يكون القائد الملهم من الله، وهذا ما أدّى إلى الانقسام الداخلي ضمن المسلمين الشيعة. إن دراسة تاريخ الأديان تظهر أن هناك ظاهرة عامة في الأديان العالمية، ذلك أن الانقسـامات كانـت تحصل بسبب تفاصيل معينة حين يدخل الأتباع المرحلة الثانية من تاريخ دين ما. ولم يكن الإسلام استثناء، فقد حصل الانقسام بين السنّة والشيعة كما في جميع الأديان الأخرى في هذه المرحلة.

لقد رأينا في الفصل السابق أنه قبل تحرك التوابين بقليل ضد السوريين، وصل المختار إلى الكوفة وحاول أن يحصل على تأييد سليمان بن صرد وأتباعه لخطته الخاصة للنهوض ضد الأمويين. ورفض التوابون، على كل حال، الانضمام إليه. وقد خضعت شخصية المختار وطباعه لكثير من التناقضات في تاريخ الشيعة المبكر. فقد وصفته بعض المصادر بأنه مغامر طموح حاول الوصول إلى السلطة باسم أهل البيت. وتشكك بعض المصادر الأخرى فترى أن أعماله ناتجة عن حبه لعائلة النبي، لكن توجهه وتكتيكه كانا مختلفين عن تلك التي لحركة التوابين.

وبتدقيق شامل للمصادر التاريخية نجد أن المختار كان تابعاً مخلصاً لآل علي وداعماً قوياً لقضيتهم، ولكن الحقيقة تبقى وهي أنه بشكل عام لم ينل تعاطفاً من مختلف المصادر لأسباب متباينة. فمصادر الشيعة الأثني عشرية تصفه بشكل غير مفصل وذلك لأنه بدأ حملته الدعائية لمحمد بن الحنفية، وبالتالي خالف مبدأً أساسياً وهو أن الإمامة تكون فقط في ذرية فاطمة. أما المصادر غير الشيعية فقد وقعت تحت تأثير الدعاية المضادة للمختار التي قام بها المتعاطفون مع ابن الزبير أو الأمويين. ولم تتم أية دراسة جادة للمختار، بل هناك إشارات خفية عرضها الدارسون المعاصرون[1] متأثرين بمصادرهم دون تدقيق نقدي. ومؤخراً أشار هودسن إلى أن تسويد سمعة المختار ومحاولة التشكيك به انطلقا عقب وفاته.[2]

وتبقى الحقيقة كما هي، و هي أن المختار وبفضل سياسة الهدوء التي تبنّاها زين العابدين، وعلى أغلب الاحتمالات، كان مسؤولاً عن تحويل الإمامة من ذرية النبي عبر فاطمة إلى ابن علي الآخر محمد بن الحنفيّة، وبالتالي

سبب أول انفصال عن جسم الشيعة الشرعيّة. وربما كانت "شرعية" غير دقيقة ولكننا استعملناها لوصف الكتلة المركزية الشيعية، حيث بقيت الإمامة بعد الحسين تنتقل من والد لولده بموجب نص جلي، وغالباً ما كانت تنتقل من الوالد إلى ولده الأكبر حتى انتهت مع الإمام الثاني عشر. وهدفنا في الفصول التالية هو الاقتصار على هذه الكتلة المركزية الشيعية، التي تناهت إلى عدد غير هام تقريباً بعد الحسين، وذلك بسبب الفروع المهدوية الثورية التي انبثقت مجدداً عن الكتلة الشيعية المركزية. قد يبدو مصطلح "الكتلة المركزية الشيعية" استبدادياً ووصفاً غير ناضج للتطور اللاحق، ومع ذلك تبقى الحقيقة هي أن هذه الكتلة الشرعية عادت إلى الظهور فيما بعد بصفتها الأكبر، ولذلك بدت الكتلة المركزية وعرفت فيما بعد باسم الإمامية أو الأثني عشرية. وبالتالي فإن حركة المختار وفكرة المهدي التي أُلصقت بشخص محمد بن الحنفية وعقائدها الغالية والباطنية وانقسامات الشيعة الأخرى هي خارج نطاق هذه الدراسة.

وربما تجدر الإشارة هنا إلى أنه منذ الآن بدأ زمن الغموض يلّف القيادة الشيعية بعد وفاة الحسين. وستعالج هذه الدراسة قضيتين مختلفتين: الأولى، كيف حافظت الكتلة المركزية الشيعية الشرعية على هويتها المستقلة ولم تستوعبها التوليفة السنيّة التي ظهرت مجدداً؛ والثانية، كيف احتفظت بمميزاهًا الخاصة بعيدا عن الفروع الشيعية الثورية الغالية ضمن التشيع نفسه. فقد كانت مقاومة الذوبان في الحركات الشيعية الثورية أمراً صعباً بالفعل، وذلك لأن الأفكار الثورية الغالية هي عادة أكثر جاذبية من الأفكار المعتدلة.

حينما كان الحسين حيّاً بقيت الشيعة موحدة واعتبروه إماماً ورأس آل البيت النبوي. لكن موته المفاجئ والموقف الهادئ الذي اتخذه ولده الوحيد الذي بقي بعده على قيد الحياة علي زين العابدين ترك الشيعة في غموض وخلّف فراغا في قيادة أهل البيت النشطة. لذلك فإن الفترة التي أعقبت وفاة الحسين شهدت الصراع الأول على قيادة أتباع علي، ونتج عن هذا الصراع انقسام الشيعة إلى جماعات مختلفة.

كان علي زين العابدين هو الابن الوحيد من أبناء الحسين والذي لم يقتل في مذبحة كربلاء لأنه لم يشارك في القتال بسبب مرضه. وكان يبلغ الثالثة والعشرين من عمره يومها.[٣] وبعد عودته من كربلاء إلى المدينة المنورة عاش هناك معظم حياته متجنباً الانخراط في أي عمل سياسي بقدر ما استطاع ذلك. ولقد تركت مأساة كربلاء تأثيراً عميقاً عليه، وكان من الطبيعي جداً أن يحمل نقمة عميقة على الأمويين، معتبراً إياهم مسؤولين عن ذبح والده وأعضاء أسرته الآخرين. وبرغم ما في نفسه منهم، فإنه لم يعبّر عن أي موقف عدائي تجاههم. وبالمقابل فإن الأمويين حاولوا المحافظة على علاقات طيبة معه، وبخاصة مروان بن الحكم وابنه عبد الملك الذين حاولا إظهار تقديرهما ومحبتهما له.[٤]

عندما ثار أهل المدينة على يزيد بن معاوية عام ٦٢هـ ــ ٦٨١م غادر زين العابدين المدينة إلى بستان له خارج المدينة،[٥] ليؤكد حياده في الصراع ضمن الأمة الإسلامية، ويومها اضطر والي المدينة إلى تركها، وعندها أودع زوجته عند زين العابدين وسأله أن يحميها. وأظهر زين العابدين شهامة عظيمة بقبوله تلك المسؤولية، وأرسلها إلى الطائف بحراسة ابنه عبد

الله.[٦] وعندما دحر جيش يزيد بقيادة مسلم ابن عقبة أهـل المدينـة في موقعة الحرّة وسلب ونهب المدينة، لم يصب زين العابدين أو عائلتـه أي أذى. وأكثر من ذلك، فقد أجبر يزيد أهل المدينة على قبـول المذلّـة ومبايعة يزيد على أنهم عبيد له، لكن زين العابدين أعفي من ذلك.[٧] إذا كانت هذه المعلومات التي أوردها جميع المصادر صحيحة، ولا نسـتبعد ذلك، فإن هذا يظهر من طرف أول سياسة الحياد الـتي تبنّاهـا زيـن العابدين، ومن طرف ثانٍ تشير المعلومات إلى أن الأمويين، وبعـد قتـل الحسين، بدأوا يدركون مقدار الاحترام والتبجيل الذين تتمتع بهما عائلة النبي بين معظم المسلمين. كذلك بقي زين العابدين محايداً في الصراع بين عبد الله بن الزبير والأمويين. ولم يتلق زين العابدين أي أذى مـن ابـن الزبير، لكنه احتجزه في مكة تحت مراقبته. وهناك عامل آخر يذكر لزين العابدين وهو سياسة التحفظ تجاه المختار، الذي حاول جاهداً الحصـول على تأييد زين العابدين العلني، في محاولاته العديدة حين كان في الحجاز والرسالة التي كتبها له من الكوفة واعداً إياه بمبايعته.[٨] قتل المختار معظم أولئك المسؤولين عن مذبحة كربلاء ثأراً للحسين. وأرسل رأس عبيد الله بن زياد إلى زين العابدين، وليس إلى ابن الحنفية (الذي ادعى المختار القيام باسمه) وقدم الرأس لزين العابدين بطريقة درامية.[٩] وتـذكر المصـادر التاريخية أن ابن الحسين كان مسروراً جداً في تلك المناسـبة، وقيـل أن الناس لم تره أبداً فرحاً منذ مأساة كربلاء. ومع ذلـك، لم يغيّـر زيـن العابدين موقفه المتحفظ من المختار. حتى أن المصادر التاريخية تذكر أن زين العابدين استنكر أعمال المختار بكلام قاس وعلناً، وإن كان ذلـك

جديراً بفحص دقيق وجدي. إذا كان ذلك صحيحاً فإن ذلك يعود إلى أن المختار أعلن ولاءه لمحمد بن الحنفية وهذا ما اعتبره زين العابدين اعتداء على حقوقه الخاصة.

تورد المصادر الشيعية عدداً من الأحاديث تبيّن فيها أن الحسين عيّن بوضوح ابنه زين العابدين خليفة له. وأشهر هذه الأحاديث ذلك الذي يقول أن الحسين، وقبل أن يتوجه إلى العراق، أودع وصيته ورسائله عند أم سلمة أرملة النبي، طالباً منها تسليمها إلى أكبر أولاده الذكور سنّاً في حال عدم عودته. كان زين العابدين هو الولد الذكر الوحيد العائد إلى المدينة وقد سلمت أم سلمة الوصية والرسائل إليه فأصبح هو المرشح الوحيد لخلافة والده.[11] وهناك حديث آخر يقول أن الحسين عيّن زين العابدين خليفة له وإمام أهل البيت قبل خروجه لملاقاة الجيش الأموي في آخر مواجهة يوم عاشوراء في كربلاء.[12] وليس لدينا أي معيار تاريخي لقبول أو رفض مثل هذه الأحاديث. وربما كان المبدأ الجوهري الذي يمكن الاعتماد عليه هنا هو الميل العام في ذلك العصر وممارسة الناس الشائعة في تلك المرحلة. واعتماداً على ذلك ربما استعدنا ما قلناه في الفصل السابع، وهو أنه بفضل نسب الحسين وموقعه كحفيد للنبي اعتقد أن من حقه الخاص أن يكون إماماً للأمة. وبناءً على ذلك، فإن من الطبيعي أن يورث تركته لابنه كي يحافظ على تقاليد عائلته في حقها بقيادة الأمة. هذه القيادة النابعة من صلته بالنبي. ومع ذلك، فإن الحقيقة بقيت وهي أن غالبية الشيعة اتبعت محمد بن الحنفيّة، وليس زين العابدين، رغم أن التوابين –كما مرّ معنا– اتخذوا من زين العابدين إماماً بعد

الحسين. وحتى البقية الباقية من التوابين الذين نجوا من معركة عين الوردة اجتذبهم المختار إلى جانب ابن الحنفية.[13] وكان السبب واضحاً، وذلك أن شيعة الكوفة وبخاصة من الموالي أرادوا حركة ناشطة تستطيع تحريرهم من سيطرة الأمويين. ولم يجدوا متنفساً سوى قيادة المختار، وهناك بدا لهم بعض الأمل في دور المهدي ذلك الدور الذي روجه المختار عن ابن الحنفية.

ولم يتنصل ابن الحنفية من دعوى المختار إلى إمامته ومهدويته، لكنه لم يلتزم علناً، ولم يدّع ميراث الحسين.[14] إن من الصعوبة الأكيدة إثبات أن ابن الحنفية لم يعلن أي حق له بقيادة الشيعة، لما قد تجلب عليه مثل هذه الدعوى، أو أنه عرف أن ليس له حق في مثل هذه الدعوى لأنه لا ينحدر من النبي، وأن هذه القيادة مقصورة على تلك الذرية فقط. لقد أشرنا تكراراً في هذا الكتاب أنه منذ حدث السقيفة وحتى حركة التوابين إلى أن التأكيد الجوهري فيما يخص القيادة عند الشيعة كان على صلة القائد الإمام بالنبي. وقد جرى ذلك في حالة الحسن والحسين بشكل خاص حين ذكرا بقرابتهما للنبي أكثر مما ذكرا بصلتهما مع علي أبيهما. إذا كان للروايات التاريخية أي اعتبار عندئذٍ يبدو أن من الغريب بالفعل أنه بعد موت الحسين تغير الوضع مباشرة ليصبح التأكيد على ذرية علي بدلاً من ذرية النبي. وبالتالي، فإن ابن الحنفية، وعلى الأغلب، إلى جانب المخاطر السياسية، وكونه لا ينحدر من النبي، كان متردداً بإدعاء الإمامة لنفسه. وهذا ما يوضح إصرار المختار أولاً على كسب تأييد زين العابدين؛ وأنه فقط حين فقد كل أمل بتأييده توجه إلى ابن الحنفية. أما الجانب الثاني من

المشكلة، وهو تغير موقف شيعة الكوفة وقبولهم إمامة ابن الحنفية الذي لا ينحدر من النبي، في الوقت الذي توفر هذا الشرط في زين العابدين، فإن ذلك يستدعي البحث عن إجابة ما. ربما كان الجواب الوحيد لذلك اللغز يكمن في حقيقة أن معظم الشيعة الأصيلين الذين اتخذوا من مفهوم القيادة موقفاً عقائدياً أبيدوا أولاً في مذبحة كربلاء وثانياً في معركة عين الوردة بقيادة سليمان بن صرد الخزاعي. ولم يكن أولئك العمود الفقري ذا المثل الشيعية الحقيقية فقط، بل كانوا المفكرين والقادة الدينيين، وقادة جموع الشيعة في الكوفة. بعد كربلاء وعين الوردة لم يبق من الشيعة سوى العوام من العرب والموالي، الذين في ظل ذلك الظرف الصعب لم يكونوا قادرين على تقرير الشأن العقائدي والتمييز بين ابن علي من فاطمة وابن علي من سواها. وعندهم أن علي كان ابن عم النبي وزوج ابنته وفرداً في العائلة المقدسة بني هاشم. وأن القداسة انتقلت بعد النبي لعلي خاصة، وليس لأي فرد آخر من الهاشميين كما فهمها الشيعة الأصليون، ولكنها غمت على البقية من عوام الشيعة بعد كربلاء وعين الوردة. وهكذا تحولوا بفضل بلاغة وطلاقة المختار ونجاح دعوته لابن الحنفية بصفته "المهدي" وبالتالي "المنقذ" لهم من طغيان السيطرة الأموية. وبالتالي، لم تكن قضية حق ابن الحنفية في الإمامة أو شخصيته، بل قَبِل عوام شيعة الكوفة به بصفته الإمام –المهدي– بسبب توقهم "لمخلص" يحررهم من طغيان الأمويين. إن فحصاً دقيقاً لدعوة المختار إلى إمامة ابن الحنفية تظهر أن التأكيد الطاغي فيها هو الدعوة إلى دور "المهدي" أكثر

مما هي دعوى لدور الإمام. وهذا ما يفسِّر العامل الأساسي في اجتذاب عوام شيعة الكوفة لقبولها.

وعلى كل حال، بعد أن غرس المختار فكرة المهدي، وجدت هذه الفكرة أرضية وطريقة لاجتذاب معظم عوام شيعة الكوفة ممن لم تتمكن في نفوسهم فكرة الإمامة العقائدية، بقدر ما كانوا شيعة سياسية استهوتهم فكرة المهدي. وبعد أن صارت حركة شعبية بآمال محددة، مال إليها حتى البقية الباقية من الشيعة الأصلية. وبالفعل، إن من الصعوبة بمكان مقاومة ما ندعوه دعوة ذات جاذبية جماهيرية، وبخاصة في وضع كحال العراق يومئذٍ، فحتى بعض المؤمنين حقاً بقيادة آل النبي لم يستطيعوا مقاومة أثر تلك الدعوة. وبالتالي، صارت مهدوية ابن الحنفية هي النظام السائد بين شيعة الكوفة. وبمضي الوقت، انتشرت تلك الدعوة ولاقت رواجاً وقبلها الناس، وصاغت عقائدها ونظريتها الخاصة وأساطيرها وإيمانها. ثم أنتجت شعراءها مثل كُثَيِّر وسيد الحميري وآخرين. وصار معظم الشيعة في ذلك الوقت أتباع المهدي-الإمام (وليس الإمام فقط) العقيدة التي ربطها المختار وأعوانه بمحمد بن الحنفية، وطغت لفترة قصيرة على إمامة ذرية الحسين.

لم يستطع زين العابدين بن الحسين الأكبر والوحيد من ذرية محمد الباقي على قيد الحياة أن يتسامح مع هذا الوضع لفترة طويلة. وبرغم أنه حافظ على سياسة الهدوء ولم ينخرط في أية حركة سياسية -دينية، فإنه قاوم عقيدة قبول محمد بن الحنفية كإمام، وصمته الذي بدا لزين العابدين أنه يتضمن موافقته على دعوى المختار. والروايات التي نقلتها المصادر

الشيعية عنه فيما يخص ذلك[١٥] قد تكون صحيحة وقد لا تكون كذلك، لكنها تظهر أن زين العابدين لم يدع علناً حقه في ميراث آل البيت كفعل مضاد للدعوة التي نشرت نيابة عن عمّه ابن الحنفية. هذا الاستنتاج مبني على حقيقة أن بعض الشيعة البارزين الذي صاروا أتباعاً لابن الحنفية مثل أبي خالد الكابلي[١٦] وقاسم بن عوف[١٧] وآخرين تخلوا عن ابن الحنفية، وعادوا لاتباع زين العابدين. لكن تجمع أتباع زين العابدين لم يتم تنظيمه قبل عام ٧٣هـ ـ ٦٩٢م ذلك العام الذي شهد موت ابن الزبير، ونهاية طموحات الحجازيين والعراقيين السياسية. مع ذلك بقيت معظم الشيعة تتبع إمامة ابن الحنفية ومن بعده ابنه أبي هاشم عبد الله.

يبدو أن زين العابدين استطاع أن يجمع حوله وقبيل وفاته جماعة صغيرة ممن تمسك بإمامته ضمّت بعض الشخصيات البارزة ممن سبق لهم التمسك بإمامة أهل البيت، ومن أبرز هؤلاء يحي بن أم الطويل[١٨] ومحمد بن جبير بن مطعم[١٩] وأهمهم جابر بن عبد الله الأنصاري[٢٠] صحابي النبي الجليل ومؤيد علي المخلص. استطاع جابر، بفضل موقعه كصحابي جليل وأحد الذين بايعوا النبي في العقبة وبيعة الرضوان أن يقدم خدمة جليلة لزين العابدين حين اقرّ بإمامته. وهناك أيضاً شخصية أخرى بارزة هي سعيد بن الجبير[٢١] الكوفي مولى بني أسد الشجاع المتحمس الذي رفض إخفاء علاقته وموالاته لأهل البيت النبوي. كان سعيد محدّثاً معروفاً ومتحدثاً شخصياً باسم زين العابدين استطاع أن يجتذب كثيراً من المحدثين (رواة الحديث النبوي)، وبخاصة من أصحاب علي بن أبي طالب الكبار. وضمت شيعة زين العابدين شابين يافعين من الكوفيين لكنهما فعّالان: أبو

حمزة ثابت بن دينار[22] من قبيلة الأزد وفرات بن أحنف العبدي.[23] وكان هذان الشابان مؤيدين مخلصين لذرية الحسين، وكلاهما صارا من أصحاب محمد الباقر بن زين العابدين المقربين، يؤكد ذلك أن معظم الأحاديث الشيعية نقلت عنهما. من الواضح أن محدثي الشيعة الاثني عشرية ما كانوا ليقبلوا إسناد الأحاديث الخاصة بهم إلى هذين لو لم يكونا من أتباع أئمتهم. وبالتالي، فإنه لا داعي للشك بأن هذين الشخصين شكلا العمود الفقري للجماعة التي دعمت إمامة زين العابدين.

ربما كانت أهم شخصية دعمت جلال زين العابدين هي الشاعر المشهور الفرزدق. فلقد نظم الفرزدق مجموعة من القصائد التي تدعو إلى قضية زين العابدين، وأشهرها القصيدة التي مدح فيها الإمام، والتي قالها عندما أظهر الحجاج تبجيلهم لزين العابدين الذي طغى على الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك. فقد أفسح الحجاج الطريق لحفيد النبي كي يصل إلى الحجر الأسود في الكعبة، حين كان الخليفة يكافح كي يصل إليه. وهذا ما أزعج هشام بعمق، فحاول السخرية بالسؤال عن ذلك الشخص الذي يجلّه الناس فأفسحوا له الطريق. وكان الفرزدق حاضراً تلك الواقعة، وحين سمع سؤال هشام ارتجل قصيدته وألقاها أمام هشام. ويجدر بنا اقتباس أبيات قليلة من هذه القصيدة التي تعتبر من أروع ما قال الفرزدق ومن أفضل الشعر العربي.

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحلّ والحرم

هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقي النقي الطاهر العلم

هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله ... بجده أنبياء الله قد ختموا

وليس قولك مـــن هذا بضائره   العرب تعرف من أنكرت والعجم

مشتقـــه مـــن رسول الله نصبته   طابـــت مفارسه والخيم والشـــيم
مـــن معشر حبهم دين وبغضهم   كفر وقربهـــم منجـــا ومعتصـــم
مقدم بعـــد ذكر الله ذكرهـــم   في كـــل بـــدءٍ ومختوم به الكلم
إن عدّ أهل التقـــى كانوا أئمتهم   أو قيل من خير أهل الأرض قيل هم[٢٥]

أما صحة هذه القصيدة ونسبتها للفرزدق والمناسبة التي قيلت فيها فلـــم يشك بها أحد البتة. ولذلك يجب أخذها وثيقة صادقة ومفيدة في كونها تصف زين العابدين بتأكيد خاص على محتده ونبل مولده بصفته حفيـــد النبي ومتميزاً عن محمد بن الحنفية. ومما تجدر ملاحظته أن الشاعر ذكر في آباء زين العابدين النبي وفاطمة ولم يذكره كحفيد لعلي بن أبي طالب.

نال الفرزدق جزاء مديحه الإمام، فقد حبسه هشام. وعندما علم زيـــن العابدين بذلك، أرسل له ١٢٠٠٠ درهم هدية، لكن الفرزدق رفضـــها قائلاً أنه لم يمدحه لقاء هدية وإنما مدحه تعبيراً عـــن مشـــاعره الدينيـــة. ومكث الفرزدق في السجن ولكنه بدأ يهجو هشاماً. وخـــاف الأمـــير الأموي سطوة لسان الشاعر فأطلق سراحه.[٢٦]

كل الروايات التي وصلتنا عن أنصار زين العابدين تظهر أن ذرية الحسين بقيت مركز الاهتمام والولاء والتبجيل الخاص، رغم أن هؤلاء الأنصـــار كانوا أقلية من الشيعة تحلقوا حول زين العابدين متمسكين بإمامته بصفته الإمام الشرعي الوحيد من أهل بيت النبي. ومع ذلك فإن هذا لا ينفي

أن الفترة ما بين وفاة الحسين عام ٦١هـ ٦٨٠م ووفاة ابن الزبير عام ٧٣هـ ٦٩٢م، لم تظهر أية نشاطات لأتباع زين العابدين.

اعتبر التوابون زين العابدين إمامهم –كما يبدو، ولكنهم لم يعلنوا ذلك أبداً، ولكن البقية التي نجت من معركة عين الوردة تحولت إلى المختار، وبالتالي قبلت إمامة ابن الحنفية. وهذا ما أكده حديث الإمام محمد الباقر الذي نقله إلينا الكشّي، ولابد من قبول صحة هذا الحديث. قال الباقر: "بعد موت الحسين مرق الناس جميعاً عدا أبي خالد الكابلي ويحي بن أم الطويل وجبير بن مطعم، ولكن عاد إليهم بعضهم وكَثُر العدد."[٢٧] لم يكن لزين العابدين دور مهم بصفته إماماً وقائداً لمجموعة معروفة حتى عام ٧٣هـ ٧٩٢م، وهذا الوضع واضح من حقيقة أنه لم يجر ذكره من بين ذرية علي بما فيهم ابن الحنفية ا لذي حبسه عبد الله بن الزبير في سجن عارم. وهذا يعني أن زين العابدين لم يشكّل أي خطر على ابن الزبير، فقد بقي هادئاً ولم يظهر أي دعوى بإمامته علناً. ولكن صمته لم يعنِ غياب الفكرة تماماً، لأن التعبير عن ذلك علناً، يخضع للظروف السائدة والفرص المناسبة.

إلى جانب مجموعة الأتباع الصغيرة التي تحلقت حول زين العابدين باعتباره إمامهم والمرجعية الدينية الوحيدة في ذلك الوقت، فإن زين العابدين حاز على احترام وتبجيل عظيمين من طرف علماء المدينة بعامة. هذا ما جرى في فترة تم فيها تزايد احترام وتعاطف المسلمين مع ذرية النبي، رغم أن ذلك كان مختلفاً عن مشاعر وعقائد الشيعة كما شهدت تلك الفترة اهتماماً خاصاً في المدينة بأحاديث النبي وبخاصة من طرف الفقهاء. وقد

رعى هذا الاهتمام فقهاء المدينة السبعة الذين ذكرناهم في الفصل الثاني من هذا الكتاب، وقد ظهر زين العابدين باعتباره المحدث الأبرز في المدينة. وأبرز الفقهاء الذين بجلوا زين العابدين هو سعيد بن المسيّب.[٢٨] وتذكر المصادر الشيعية سعيداً بصفته أحد أتباع الإمام، وليس ذلك صحيحاً. والحقيقة هي أنه رغم احترام سعيد لزين العابدين وكونهما صديقين، فإن هناك تبايناً واضحاً في آرائهما الفقهية. وعلى كل حال، كانت المدارس الفقهية يومئذٍ في مراحلها الجنينية، وبالتالي كانت الاختلافات في الآراء الفقهية غير واضحة تماماً، أو أنها غير جدّية في حال سعيد وزين العابدين. ومع ذلك فإن من المحتمل أن زين العابدين وعمه ابن الحنفية تمسّكا بالأحاديث النبوية التي رواها الإمام علي فقط.

وهناك فقيه كبير ومحدث آخر هو الزهري الذي كان صديقاً حميماً ومعجباً جداً بالإمام زين العابدين. فقد كان الزهري أول من أطلق لقب زين العابدين على علي بن الحسين.[٢٩] ويبدو من الروايات الوفيرة في المصادر الشيعية والسنيّة على السواء،[٣٠] أن زين العابدين كان محترماً من قبل جميع المسلمين بالنظر لميزاته الفائقة، مثل إطالته الصلاة، وتقواه، وكرمه. وتميز بتقواه الفريدة فلم يكن يظهر أيّاً من فضائله الجمّة. فحين كان يسافر مع جماعة لا تعرفه، كان يخفي هويته كيلا يميز نفسه عنهم بحقيقة كونه حفيد النبي.[٣١]

توفي زين العابدين عام ٩٤هـ ٧١٣م ودفن في مقبرة البقيع. وهكذا يكون قد عاش أربعة وثلاثين عاماً بعد أبيه الحسين، وهي مدة كافية كي يبرز نفسه بصفته وريث والده ويترك أثر شخصيته على أتباعه.

ولقد عين زين العابدين ابنه الأكبر محمد الباقر وصيّاً ووارثاً لمقامه وهذا ما تجمع عليه المصادر الشيعية.[٣٢] قد يشك المرء بوجود وصية صريحة من الحسين بتسمية زين العابدين خليفة له، ولكن علينا أن نقبل بحديث أن زين العابدين عيّن صراحة ابنه الباقر –على الأقل ضمن دائرة أتباعه المخلصين– والعامل الأكيد الذي يؤيد مصداقية هذا الحديث هو أن غالبية الشيعة تخلت عن ذرية الحسين وذهبت إلى ابن الحنفية، وقبلت إمامة ابنه أبي هاشم من بعده؛ وفكر زين العابدين أن دعوى إمامة أبي هاشم بن محمد بن الحنفية اغتصاب لحقوقه، وبدون أية صعوبة تذكر، نجح في استعادة مجموعة من هؤلاء إلى جانبه على أساس أن مبدأ الإمامة الشرعية هو في ذرية النبي عبر فاطمة، أي في ذرية الحسين وليس في سواه. وبالتالي، كان من الطبيعي أن يعيّن ابنه الأكبر لحمل مهمة العناية بأتباعه بصفته الإمام الشرعي الوحيد.

فالإمام زين العابدين ومن خلال تأكيده شرعية الإمامة في ذرية فاطمة فقط وبتجميع الأتباع حول نفسه، وضع الأساس المتين للشيعة الشرعية؛ وتابع خليفته وابنه محمد الباقر تطوير مبادئ الشرعية لمفهوم الخلافة. (خلافة الإمام في ذريته وشرطها: الفاطمية). يشكك بعض الأساتذة[٣٣] فيما إذا كان الباقر قد حقق درجة ما من النجاح خلال حياته، أو أنه ادعى الإمامة إدعاءً. ثمة بالفعل احتمال أن كثيراً من الأحاديث المنسوبة له ذات الصلة بهذا الموضوع قد تكون من اختراع بعض أتباعه الذين عاشوا بعد وفاته. ومع ذلك، وفي غياب معيار محدد لقبول أو رفض هذه الأحاديث، علينا –وبقدر ما تسمح البراهين السائدة يومئذٍ– قبول هذه

الأحاديث بالشكل الذي وصلتنا في مصادر جمع الحديث الشيعية مثل أصول الكافي للكليني. وأكثر من ذلك، فإن شهادة الأئمة الذين توالوا بعد الباقر من ذريته ورفضهم كثيراً من الأحاديث (الخاصة بقضية شرعية الإمام، والتي لم يرفضها الأئمة اللاحقون) أقوى وأكثر قبولا

برغم أن محمد الباقر ورث أتباع أبيه، لكنه اضطر لمواجهة مشاكل أكثر خطورة من تلك التي واجهها أبوه. فقد واجه زين العابدين دعوى المختار لإمامة ابن الحنفية، واستطاع بسهولة دحضها على أساس أنه الوحيد من ذرية النبي وفي الوقت ذاته ابن عليّ. أما بعد وفاة زين العابدين فإن العديد من أحفاد فاطمة، يحفزهم طموحهم الشخصي أو كرهوا فكرة أن يكون الإمام مجرد قائد ديني، وهي الفكرة التي تبناها زين العابدين، أدّعوا حقهم في ميراث النبي. وهكذا لم تكن المشكلة المباشرة التي واجهها الباقر من خارج عائلته، ولكنها من داخلها. وسوف نناقش حركتي منافسيّه عبد الله المحض الذي كان يعمل لصالح ابنه محمد النفس الزكية، وأخيه غير الشقيق زيد بن علي زين العابدين في الفصل القادم. ويكفينا القول هنا سريعاً أن حركة زيد ونشاطاته جذبت كثيراً من الشيعة فشكلت تحدّياً خطيراً لإمامة الباقر. في خضم هذه المنافسات، وحين تحرك زيد بن علي وانضم إليه معظم الشيعة، تحولت أنظار الناس عن الباقر وأتباعه، مما قاد الباقر إلى المزيد من التأكيد على أهمية الشرعية ضمن الحركة الشيعية. فقد لجأ الباقر لتأكيد إمامته إلى مبدأ "النص الجلي"، هذا المبدأ الذي سنناقشه بالتفصيل في الفصل ١١ فقد قال الباقر أن والده زين العابدين عينه لخلافته في محضر من أخوته وائتمنه على

تابوت يحتوي على صحائف دينية سرية وسلاح النبي.[٣٤] وقــد أوردت المصادر الشيعية العديد من أحاديث الباقر التي شرح فيهــا دور الإمــام الذي ينطوي على مواصفات خاصة يرثها من خلال "النص" من الإمــام السلف. وبذلك أدخل الباقر جملة من الأفكار التي شرحها ابنه جعفــر الصادق بالتفصيل. توضح هذه الأحاديث بجلاء تام أنه عمل على تدعيم موقعه بصفته الإمام معلناً أنه ممثل Representative الله في الأرض والملهم الذي يؤول كلمته (القرآن).

فالقضية الأكثر أهمية وحيوية والتي تهمنا الآن هي كيف نجح البــاقر في تأسيس مبدأ شرعية مفهوم الإمامة، وبالتالي هل استطاع تحقيق أي نجاح ديني خلال حياته. إن فحصاً دقيقاً متأنياً لسيَر الأدباء وأدبهم في المصادر السنيّة والشيعية سيساعدنا في العثور على جواب لهذا السؤال. ولعل من المهم والمفيد جداً أن نلاحظ أن أسماء أتباع الباقر كما دونتها المصــادر الشيعية وترجمتها بتفاصيل دقيقة، هذه الأسماء لم يشك أو يجادل بها أي من كتاب السير السنّة. (كتب السير نقصد بها ما هو معــروف في التــراث الإسلامي باسم كتب الرجال). وبالفعل، فإن الكتّاب الســنّة وحــين يذكرون أتباع الأئمة الشرعيين يعقبون الاسم مباشرة بوصف صــاحب الاسم بأنه رافضي أو غالي أو شيعي. وبالإضافة إلى كتب الرجال يصف كتاب الفرق أمثال البغدادي في كتابه الفرق بين الفِرَق وابن حــزم في كتابه الفصل بين الملل والنحل والشهرستاني في كتابه الملل والنحل هؤلاء يصفون أتباع الأئمة بعلامات مشينة. أخيراً، يجب ملاحظة أن الكتّــاب الشيعة يشيرون بشكل خاص أن فلاناً غيّر ولاءه في وقت ما إلى زيد أو

النفس الزكية بغض النظر عن السبب. وأكثر من ذلك، فإن كتّاب الزيدية والإسماعيلية الذين انتجوا العديد من الكتب الدينية الخاصة بهذه الفرق لم يدّعوا أن أتباع الباقر كانوا من أعضاء هاتين الجماعتين. نعم لقد حصلت تحولات في التبعية ما بين أتباع هؤلاء القادة العلويين (الباقر وزيد والنفس الزكية) مثل بيان بن سنان والمغيرة بن سعيد العجلي وسرعان ما أدان هؤلاء كتّاب الشيعة الاثنى عشرية. هذه الحقائق تؤيد فكرة أن قائمة أتباع الباقر التي سنرصدها هنا ليست قائمة خيالية. وبغض النظر عن التعديلات النهائية التي أجراها كتّاب الرجال الشيعة الاثنا عشريون على هذه القائمة بأتباع الباقر بقصد التمييز بين هؤلاء القادة العلويين (الباقر وزيد والنفس الزكية) لتأكيد من هو الإمام الشرعي، فإن هذه الروايات مبنيّة على حقائق محددة. فبالفعل، لم يكن زين العابدين والباقر والصادق مهمين على المستوى السياسي لأنهم تجنبوا الانخراط في أية مغامرة سياسية، لكن ذلك لا يعني أنهم لم يدعوا أي دور ديني بصفتهم أئمة. والحقيقة أن سياسة التهدئة السياسية التي تبنوها دفعتهم إلى الظل مقابل نشاط زيد والنفس الزكية السياسي، ولكن في الوقت ذاته، ومن خلال هذه السياسة عينها، وفي النهاية ظهروا على أنهم الأئمة والقادة الشرعيون المعترف بهم من طرف غالبية الجماعات الشيعية.

إنها حقيقة لا يخالطها شك، ذلك أنه عقب وفاة زين العابدين بدأ صراع على القيادة بين الباقر وأخيه غير الشقيق زيد بن علي، وأن عدداً كبيراً من الشيعة فضلوا الالتحاق بزيد بفضل سياسته الناشطة وموقفه الجسور. ومع ذلك، ومع مرور الزمن نجح الباقر في استعادة بعض الشيعة الذين

التحقوا بزيد، كما نجح في جذب مؤيدين جدد. وكان الأكثر أهمية من بين هؤلاء زراره بن أعين وأخوه حمران وحمزة بن محمد بن عبد الله الطيار. كان زرارة المكسب الأهم، ذلك لأنه صار المتكلم والمحدّث الأبرز في ذلك الوقت، حيث جمع حوله جماعة كبيرة في الكوفة.[٣٧] أما أخوه حمران فكان سابقاً من الأصحاب المقربين من زين العابدين، ثم صار من الأتباع المخلصين المتحمسين للباقر الذي بشّره بالجنة وأعلن قائلاً: "حمران من شيعتنا في هذا العالم وفي العالم التالي."[٣٨] أما حمزة بن الطيار فكان في أول حياته معارضاً للباقر، ولكن بعد تردد ما بين مختلف مدعي الحق في القيادة اختار أخيراً أتباعه.[٣٩]

ومن أتباع الباقر الهامين إلى جانب زرارة والذين أصبحوا مراجع في فقه المدرسة الشيعية الاثنى عشرية عند تأسيسها فيما بعد معروف بن خرّبوذ،[٤٠] وأبو بصير الأسدي،[٤١] وبُريد بن معاوية،[٤٢] ومحمد بن مسلم بن رياح الطائفي،[٤٣] وفضيل بن ياسر.[٤٤] وكان الأبرز من بين هؤلاء هو محمد بن مسلم بن رياح مولى ثقيف في الكوفة، كان يعمل طحاناً وعرف بلقب الأعور. فقد وصف بأنه "الأكثر ثقة بين الرجال" وعرف بأنه أعظم فقيه في الكوفة معاصر للفقيه ابن أبي ليلى وأبي حنيفة صاحب المذهب السني والقاضي شريح. ويبدو أنه كان نظيراً لزرارة المعروف بأنه محدّث وفيلسوف متكلم، بل مؤسس "علم الكلام الشيعي"، وجمع محمد بن مسلم علم الحديث والفقه العملي واشتهر بإجاباته الجريئة والسريعة. وكان زاهداً معروفاً.

من بين أتباع الباقر أبو بصير ليث البختاري المرادي الذي كان فقيهاً شيعياً عظيماً ومحدثاً ثقة. كان أبو بصير مولى بني أسد، وصار صاحب الباقر المقرب وبعده ابنه جعفر الصادق. قيل أن جعفر الصادق قال: "أبو بصير وبُريد، وزراره ومحمد بن مسلم هم أركان العالم، ولولاهم لكان الحديث النبوي ضاع."[٤٥] لقد كانوا السباقين والأصحاب المقربين للأئمة. وكان أبو حمزة الثمالي شخصية مثيرة شغلت مركزاً مرموقاً بين أصحاب الباقر، وروي عنه أحاديث كثيرة ذات ميول غالية، وعلى الأخص تلك التي تتعلق بالمعجزات.[٤٦]

وكان الشاعر المعروف يومئذ الكميت بن زيد الأسدي[47] أحد أهم مؤيدي الباقر الهامّين جداً. وقد خدم الكميت قضية الإمام أكثر من أي شخص آخر من خلال قصائده الشعرية الأصيلة. عبّر الشاعر عن إخلاصه من خلال مواهبه الشعرية، ونشر اسم الباقر في كل مكان. لكن مجموعته الشعرية في مدح أهل البيت المعروفة "الهاشميات" سببت له بعض المتاعب الجدّية. فقد أخبر والي العراق خصم العلويين يوسف بن عمر الخليفة عبد الملك.[٤٨] وتدبر الشاعر أمره مع الخليفة بأن نظم بعض القصائد في مدح الأمويين.[٤٩] ومع ذلك، بقي الكميت الشاعر المفضل عند الأئمة الشرعيين من ذرية الحسين، وقد قال فيه الإمام جعفر الصادق: "لم يزل الكميت مؤيداً بروح القدس"[٥٠]

وبرغم أن البصرة كانت على الجملة مدينة معادية للعلويين، فإن الباقر استطاع أن يجد مؤيدين عديدين هناك أيضاً، مثل محمد بن مروان

البصري[٥١] ومالك بن أعيان.[٥٢] كما ربح الباقر قلة من المؤيدين المتحمسين في مكة.

ولكن وعلى كل حال، فإن حركة زيد بن علي زين العابدين طغت على جهود الباقر في تأسيس الإمامة الشرعية، ومع ذلك حصر الباقر اهتمامه في مهاجمة اتباع وأصدقاء زيد فقط. وعندما حانت الفرصة المناسبة لم يتردد الباقر في منافسة ودحض حقوق زيد في الإمامة بحدّة. فعندما سأله سعيد بن منصور وهو أحد قادة الحركة الزيدية: "ما قولك في النبيذ، فقد رأيت زيد يشربه؟" أجابه الباقر قائلاً: "لا أظن أن زيداً يشربه، ولكن إذا فعل فهو ليس نبيّاً، ولا وصي نبي، وهو ليس أكثر من فرد في عائلة محمد، وهو يخطئ ويصيب."[٥٣] وهذا القول يبّين رفضه لحق زيد في الإمامة، وإعلان غير مباشر عن مقامه هو نفسه بصفته وصي النبي. وكانت أم الباقر هي فاطمة بنت الحسن،[٥٤] وبذلك فهو سليل النبي وعلي من خلال أبويه وبالتالي فهو يتفوق على زيد ابن الأمة السندية،[٥٥] ولكن الباقر لم يظهر أية رغبة في تأسيس أية حركة ناشطة، وإنما حافظ على سياسة أبيه السلمية. ومن طرف آخر، كان زيد صاحب المعتزلي واصل بن عطاء وتأثر بأفكاره لذلك أخذ يؤكد مبدأ "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" ويحض على ضرورة التغيير حتى بالقوة. وكان يعلن أن الإمام هو الذي يدافع عن حقه وسيفه بيده.[٥٦] وقد تشاجر الباقر وزيد على هذه القضية، وبما أن زيد رفع شعار حرب المغتصبين، أجابه الباقر: "معنى ذلك أنك تنفي إمامة أبيك، فهو لم ينهض بهذه القضية."[٥٧] عندما سأل أبو بكر بن محمد الحضرمي وأخوه علقمة وكلاهما من شيعة الكوفة زيداً عن علي

بن أبي طالب إن كان إماماً قبل أن يلجأ إلى السيف، رفض زيد الإجابة على السؤال، مما جعلهما يتخليان عنه ويعودان للإقرار بإمامة الباقر.[٥٨]

وكان السؤال الخطير هو عن حق أبي بكر الصديق وعمر بالخلافة. وانسجاماً مع رأي المعتزلة تمسك زيد بأن أبا بكر وعمر كانا إمامين شرعيين انتخبا بصورة شرعية، رغم أن علياً كان مرشحاً أفضل منهما، وهذا ما أثار عليه المحدّثين الشيعة. وفي الوقت ذاته رفض زيد عقيدة المعتزلة "بالمنزلة بين المنزلتين"، ولكنه لم يرفض رأي واصل عن الصراع بين علي وخصومه، بأن أحد الطرفين كان بالتأكيد خاطئاً، رغم أن واصلاً لم يحدد أيّاً منهما،[٥٩] بينما أكد زيد فضائل علي وقال بتفوقها، ولكن فكرته هذه لم تكن كافية كي تقبلها الشيعة.

على كل حال، إن تأكيد زيد بن علي على قبول خلافة أبي بكر وعمر واتساع شعبيته ضمن دوائر المعتدلين يظهر من طرف أول، أن خلافة أبي بكر وعمر كانت موضوع مناقشة جديّة في الدوائر الشيعية في ذلك الوقت، ومن طرف آخر إن نجاح زيد في موقفه من هذا الموضوع أحدث وضعاً معقداً ومعيقاً للباقر. فزين العابدين لم يتحدث أبداً ضد هذين الخليفتين، لكن في زمن الباقر بدأ بعض المغالين من شيعته يثيرون هذه القضية. وبالتالي صار الباقر من وقت لآخر يتعرض للسؤال عن رأيه بخلافة أبي بكر وعمر، ولكنه لم يدنهما علناً، بل كان يؤكد أنهما خليفتان.[٦٠] ومع ذلك أعلن أفراد معينون من شيعة الكوفة أنه أدانهما، ولكنه أخفى رأيه الحقيقي والتجأ في ذلك إلى مبدأ التقية.[٦١] هذه الدعاية من طرف شيعة الكوفة أتباع الباقر أكسبته بلا شك تعاطفاً كثيراً من

الغلاة وأنصاف الغلاة في الأوساط الشيعية، ولكنها من طرف آخر أحبطت أولئك الذين رغبوا في حركة عملية ناشطة لإعادة أهل البيت إلى السلطة، وكانوا غير راضين عن سياسة الباقر السلمية. لذلك فضل هؤلاء المعتدلون أن ينضموا إلى حركة أخيه زيد،[٦٣] الذي أكد قبوله بالخليفتين الأولين من أجل تحقيق مصالح محددة، ورفض في الوقت نفسه مبدأ التقية. وأغضب موقف زيد وحركته الباقر فقال: "حتى ولو أقام هؤلاء الجهلة Butrites خط قتال ما بين الشرق والغرب فإن الله لن يحقق المجد في العالم على أيديهم.

وكان من بين شيعة الكوفة الحكم بن عتيبه الكندي أحد أبرز الفقهاء في مدينته.[٦٤] فضّل الحكم هذا علي بن أبي طالب على أبي بكر، ولكنه مع ذلك بقي معتدلاً في ولائه الشيعي مما جعله موضع احترام كبير بين اتباع زيد. وقد ترك الحكم من موقعه كقاضٍ في الكوفة تأثيراً كبيراً على سكانها، وبالتالي قدم خدمة جليلة لحركة زيد.[٦٥] وكان من الطبيعي أن الباقر الذي اعتبر أنه الأحق بالإمامة من أخيه، والذي اعترض على هذا الموقف المساوم لزيد أن يتحدث بمرارة عن كلٍ من أبي بكر وعمر، وعبّر عن عدم رضاه قائلاً: "إن الحكم وجماعته من الزيدية ضللوا الناس. إنهم يقولون أنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر؛ ولكنهم لا يؤمنون."[٦٦] وتابع خليفة الباقر ابنه الصادق الموقف ذاته، واتهم الحكم بالتحديف ضد الباقر،[٦٧] حتى أنه سمّى الزيديين بالنصّاب الذين يكرهون علي.[٦٨]

إن التساؤل عن صحة خلافة أبي بكر وعمر في هذه المرحلة يلفت نظرنا إلى قضية أخرى: إنها الممارسة الدينية. فقد تمسك الباقر بالتقاليد المستقاة

من علي ومؤيديه. وهذا يعني أنه كان هناك تباين حتى ضمن أهل البيت، فقد مال زيد لقبول ممارسة "أصحاب الحديث الكوفيين" الذين أسسوا فكرهم على أحكام عمر بن الخطاب. ومن هنا نرى أن الباقر هو الذي أسس مذهب أهل البيت. يورد الكشي حديثاً هاما جداً يقول: "قبل إمامة الباقر ما كان الشيعة يعرفون الحلال والحرام عدا ما تعلموه من الآخرين؛ حتى صار أبو جعفر إماما وعلمهم وشرح لهم علوم الفقه عندها بدأوا يعلمون الآخرين الذين كانوا يتعلمون منهم."[٦٩]

يشير هذا الحديث بوضوح إلى أنه حتى زمن الباقر لم يكن هناك تباين واضح في الفقه بين الشيعة وأصحاب الحديث في المدينة والكوفة وسواهما. والواقع أن الفرق بين هاتين المدرستين كان في الفروع ضئيلاً.[٧٠] فمثلاً حرّم الباقر النبيذ،[٧١] وأباحه المحدثون، وأباح زواج المتعة، وحرّمه المحدثون، واستند الشيعة في ذلك إلى تقليد علي، في حين استند المحدثون إلى تقليد عمر.[٧٢] وقالت الشيعة إذا حق لعمر تغيير حكم نبوي، حقّ لعلي تغيير حكم عمر.

على كل حال،، يبدو أن ما قلناه سابقاً يجعلنا نرى أن محمد الباقر دافع عن إمامته بصفته وريث أبيه زين العابدين، وأن الجماعة الصغيرة الموالية لزين العابدين بدأت تتطور تحت قيادة الباقر إلى أن صارت الفريق الشيعي الشرعي ضمن الحركة الشيعية. وإذا كان علينا ألا نقبل بهذا، فإننا عندئذ لنخالف كثيراً من الحقائق التاريخية وأهمها الروايات العديدة التي تحدثت عن المنازعات ما بين الأخوين الباقر وزيد. ومع ذلك، إن تواريخ وفاة أتباع الباقر المقربين تشير إلى أن هذه التطورات كانت لصالح موقف

الباقر الذي نجح في أواخر حياته في استمالة أكثر المحدثين والفقهاء، ومعظمهم عاش بعد وفاة الباقر لسنوات.

عند وفاة الباقر كان الفريق الشيعي الشرعي محدود العدد، ولكنه أسس قواعد له في كل من الحجاز والعراق، وامتلك الأسس الضرورية لنموه في المستقبل ليصبح عقيدة قوية وواسعة الانتشار. فقد امتلك الأسس النظرية –مع أنها كانت ما تزال وليدة وغير محددة بدقة– وبرغم أن هذه الأسس لم تتميز تماماً عن الأفكار السائدة بين اتباع مذهب أصحاب الحديث، فإنها مع ذلك كانت متميزة كفاية كي تعتبر عقيدة قائمة بذاتها. لقد وجدت هذه الأسس في فكر زرارة وأتباعه مدرسة كلامية نظرية، ومدرسة فقهية جنينية. كما وجدت في شعر الكميت وسيلة لنشر أدبها وإعلامها الذي نشرها في كل مكان.

لقد أوردت المصادر الكثير عن شخصية محمد الباقر وفضائله غير العادية، ومعظم ذلك ورثه عن أبيه. فقد كان جواداً وتقياً ومسالماً بطبعه، ولم يفكر قط بتنظيم ثورة أو عصيان لتأكيد حقوقه.[٧٣] ولكنه بدلاً من ذلك كافح للتأثير في الناس من خلال علومه الدينية، والحقيقة أنه نال تبجيلاً واسعاً بصفته أعلم أهل زمانه. ولذلك فقد دعي الباقر –كما يذكر اليعقوبي– أي الذي ينشر المعرفة: أي الذي يمحص العلم وينفذ إلى أعماق الفكر.[٧٤] أما ابن خلكان فيرى أنه نال لقب الباقر لأنه جمع العلم من أطرافه.[٧٥] وقد جذب فقهه معظم الفقهاء حيث تعودوا الرجوع إليه لمناقشة القضايا الفقهية. ومن هؤلاء محمد بن منكدر وأبو حنيفة النعمان

وقتادة بن دعامة وعبد الله بن معمر الليثي ونافع بن الأزرق الخارجي.[76]

لم يحدد تاريخ وفاة الباقر بالضبط. وأبكر تاريخ لوفاته هو عام ١١٣هـ ٧٣٢م،[77] وآخر تاريخ هو ١٢٦هـ ٧٤٣-٧٤٤م.[78] والتاريخ الأكثر قبولاً هو ١١٧هـ ٧٣٥م كما ذكر اليعقوبي.[79] لا نشك في أنه توفي قبل ثورة زيد في الكوفة ولم يكن قد مات منذ زمن بعيد يومها، حين كان موقف الصادق لم يثبت بعد.

يخبرنا الشهرستاني أن جماعة من أتباع الباقر رفضت الإقرار بموته، وقالت برجعته.[80] وهؤلاء كانوا من أتباع الكيسانية تخلوا عن أبي هاشم بن محمد بن الحنفية، وقبلوا بإمامة الباقر. وهذا يعني ويؤكد أن الباقر أحرز نجاحاً في توطيد شرعية إمامته. ويذكر النوبختي شيعة الباقر باسم الباقرية،[81] وبعد وفاته عرفت باسم الجعفرية نسبة إلى ابنه الصادق وخليفته.[82] ولا يجب أخذ هذه الألقاب حرفياً والتي أطلقها كتاب الفرق التي أريد بها ذكر أتباع أشخاص بعينهم وليس الفريق. أي التركيز على شخص الزعيم وليس الجماعة.

ويكون الإمام الباقر يوم توفي قد أمضى تسعة عشر عاماً إماماً. وترك وراثته لابنه وخليفته جعفر الصادق، الذي نتحول الآن لمناقشة إمامته.

مراجع وملاحظات الفصل ٩

١- ويلهاوزن، أحزاب ص١٩٨-٢٣٤، ك. أ. فارق، حكاية الدبلوماسية العربية (نيودلهي ١٩٦٧)

٢- هودسن، كيف أصبحت الشيعة المبكرة طائفة. مقال في Jaos ١٩٥٥ ص ٣ E

٣- ابن سعد ج٥ ص٢١٢

٤- ابن سعد ج٥ ص٢١٢-٢٢٠؛ الطبري ج٢ ص٢٠٩

٥- الطبري ج٢ ص٢٢٠

٦- سابقه

٧- المسعودي، مروج ج٣ ص٧٠، المبرد، الكامل ج١ ص٢٦٠، الدينوري ص٢٦٦

٨- البلاذري ج٥ ص٢٧٢، المسعودي، مروج ج٣ ص٧٤

٩- اليعقوبي ج٢ ص٢٥٩

١٠- البلاذري ج٥ ص٢٧٢؛ ابن سعد ج٥ ص٢١٣

١١- محمد بن يعقوب الكليني، أصول الكافي (كراتشي ١٩٦٥ ج١ ص٣٥٣، المجلسي بحار ج١١ ص٧ الآملي، أعيان ج٤ ص٣٣٢،المسعودي، مروج ج٣ ص٢٢٥

١٢- الكليني من سابقه

١٣- ابن خلدون، الاعتبار (القاهرة ١٨٦٧) ج٣ ص١٧٢

١٤- البلاذري ج٥ ص٢١٨

١٥- الكليني ص٣٥٢

١٦- الكشي، اختيار معرفة الرجال (طهران بلا تاريخ) ص١٢١

١٧- سابقه

١٨- سابقه

١٩- سابقه

٢٠- سابقه ص٤، ابن عماد الحنبلي، شذرات الذهب (القاهرة ١٣٥٠هـ) ج١ ص٨٤

٢١- الكشي، رجال ص١١٩

٢٢- سابقه

٢٣- سابقه

٢٤- الكليني، الكافي، يتكرر في صفحات عديدة

٢٥- ديوان الفرزدق ج١ ص٨٤٧، الأغاني ج٢١ ص٤٠٠، ابن خلكان، الوفيات ج٤ ص٩٥ البيهقي، كتاب المحاسن والمساوئ، تح سكوالي (جيزن ١٩٠٢) ص١٣١، أبو نعيم، حلية الأولياء (القاهرة ١٩٣٨) ج٣ ص١٣٩، الكشي، رجال ص١٣٠، أبو نصر السبكي، طبقات الشافعية تح. أحمد بن عبد الكريم (القاهرة بلا تاريخ) ج١ ص١٥٣، ابن كثير، البداية ج٩ ص١٠٨

٢٦- انظر مراجع الملاحظة السابقة ٢٥

٢٧- الكشي، رجال ص١٢٣

٢٨- ابن سعد ج٥ ص٢١٦، الكشي، رجال ص١٥٥

٢٩- ابن سعد ج٥ ص٢١٦

٣٠- المراجع السنّية انظر ابن سعد ج٥ ص٢١٦-٢٢٢؛ ابن خلكان ج٣ ص٢٦٦،المبرد، الكامل ج١ ص٢٦٠ وج٢ ص١٣٨ وج٣ ص١٢٠، ابن كثير، البداية ج٩ ص١٠٣-١١٥ المراجع الشيعية انظر اليعقوبي ج٢ ص٢٤٧، المسعودي، مروج ج٣ ص١٦٠، الكليني ج١ كتاب الحجة متكرر، الشيخ المفيد، الإرشاد ج٢ ص١٣٨-١٤٥، الآملي، أعيان ج٤ ص٣٠٨-٤٦١

٣١- المبردي، الكامل ج٢ ص١٣٨

٣٢- الكليني ج١ ص٣٥٤، المجلسي، بحار ج١١ ص١٠٠، القاضي النعمان، شرح الأخبار مخطوط ورقة ٣٢

٣٣- مونتغمري واط (الشيعة تحت الحكم الأموي) ص١٦٨، هودسن المقال السابق E

٣٤- انظر مراجع الملاحظة ٣٢

٣٥- انظر بشكل خاص الكليني كتاب الحجة متكرر

٣٦- مونتغمري واط، ملاحظة ٣٣

٣٧- الكشي، رجال ص١٣٣

٣٨- الكشي، رجال ص١٦١-١٦٧

٣٩- سابقه

٤٠- سابقه ص٢٣٨،٢١١، الحائري، منتهى المقال (طهران ١٣٠٢هـ) ص٣٠٤-٣٠٥

٤١- الكشي، رجال ص١٦٩ و٢٣٨

٤٢- سابقه

٤٣- سابقه ص١٦١، ٢٣٨، الحائري ص٢٤٣

٤٤- الكشي، رجال ص٢١٣، الحائري ص٢٤٣، النجاشي، رجال ص٢١٩

٤٥- الكشي، رجال ص١٧٠، الحائري ص٢٤٩-٢٥٠

٤٦- الكشي، رجال ص٢٠١، الحائري ص٧٣

٤٧- الأغاني ج١٦ ص٣٣٠، الجاحظ البيان ج١ ص٤٦

٤٨- الأغاني ج١٦ ص٣٣٣

٤٩- الكشي، رجال ص٢٠٦، الأغاني سابقه

٥٠- الكشي، رجال ص٢٠٦

٥١- الكشي، رجال ص٢١٤، الحائري ص٢٩٣

٥٢- سابقه

٥٣- الكشي، رجال ص٢٣٢

٥٤- ابن سعد ج٥ ص٢١١ و٣٢٠ و٣٢٥

٥٥- مقاتل ص١٢٧، ابن سعد ج٥ ص٢١١ و٣٢٥

٥٦- الشهرستاني، الملل والنحل ج١ ص١٥٤

٥٧- سابقه

٥٨- الكشي ص٤١٦

٥٩- الشهرستاني، الملل ج١ ص٤٩

٦٠- ابن كثير، البداية ج٩ ص٣١١، الذهبي، تاريخ الإسلام ج٤ ص٣٠٠، ابن الجوزي صفة الصفوة ج٢ ص٦١ أبو نعيم، حلية ج٣ ص١٨٥

٦١- الروايات التي تذكر الشاعر الكميت مقتبساً الباقر وهو يدين أبا بكر وعمر انظر الكشي ص٢٠٥ مع ذلك لم يعبر الكميت عن رأيه صراحة فيما يخص الخليفتين انظر الهاشميات ص١٥٥

٦٢- النوبختي، فرق الشيعة ص٥٢، الكشي ص٢٢٩

٦٣- الكشي ص٣٢، أما المضللون فهم الذين لم يميزوا بين مدعي الإمامة من العلويين وأيدوا أقرب علوي إليهم متمرد.

٦٤- الذهبي ج٤ ص٢٤٢، ابن حجر، التهذيب ج٢ ص٤٣٤

٦٥- ابن عماد، شذرات ج١ ص١٥١

٦٦- الكشي ص٢٠٩

٦٧- الكشي ص٢٠٩ الحائري ص٢٦٣

٦٨- الكشي ص٢٠٩ و٢٢٩

٦٩- الكشي ص٢٨٩

٧٠- سكاتش، أصول ص٢٦٢ E

٧١- الكليني، فروع الكافي ج٢ ص١٩٣، الذهبي، تاريخ الحفاظ ج١ ص١٦٠، القاضي النعمان شرح ورقة ٤٦

٧٢- سكاتش، أصول ص٢٦٦، مالك بن أنس، الموطأ ج٣ ص٢٣، المرتضى بن داثي تذكرة العوام ص٢٧٠-٢٧١

٧٣- ابن سعد ج٥ ص٣٢١، الكليني، الكافي ص٢٩٩، القاضي، شرح ورقة ٣٢،الآملي أعيان ج٤ ص٢٦٢، ابن خلكان ج٤ ص١٦٧، المجلسي، بحار ج١١ ص١٠٠

٧٤- اليعقوبي ج٢ ص٣٢٠، البيهقي، المحاسن ج٣ ص٢٩٨، القاضي النعمان، شرح ورقة ٣٣

٧٥- ابن خلكان ج٤ ص١٦٧

٧٦- القاضي النعمان، سابقه، الآملي، أعيان ص٤٩٠، المجلسي، بحار ج٦ ص١٠٠، الكليني، الكافي ص٢٩٩، الخلنجي، نور الإبصار ص١٦٠

٧٧- ابن سعد ج٥ ص٣٢٤، ابن خلكان ج٤ ص١٧٤، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة ج١ ص٢٧٣

٧٨- المسعودي، مروج ج٣ ص٢١٩

٧٩- اليعقوبي ج٢ ص٣٢٠، الذهبي، تاريخ ج٤ ص٣٠٠

٨٠- الشهرستاني، الملل ج١ ص١٦٦

٨١- النوبختي، الفرق ص٢٥

٨٢- الجعفرية هنا لا تعني مذهب جعفر الذي يطلق على فقه الاثنى عشرية حالياً.

الفصل العاشر

إمامة جعفر الصادق

الإمام السادس أبو عبد الله جعفر الابن الأكبر لمحمد الباقر، ولد في المدينة إما عام ٨٠هـ -٦٩٩-٧٠٠م أو ٨٣هـ -٧٠٣-٧٠٤م.[١] ومن جانب والده كان بالطبع حسينياً فهو من ذرية النبي، ومثل والده كان علوياً من ناحيتين: فمن ناحية أبيه الباقر هو علوي وكذلك من ناحية أمه فهو علوي مضاعفاً.[٢]

أما من جهة أمه كان جعفر ابن حفيد أبي بكر،[٣] فأمه هي أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر.[٤] فالقاسم تزوج ابنة عمه عبد الرحمن بن أبي بكر وبالتالي كانت أم فروة حفيدة أبي بكر من جهة أبيها وأمها.

تربى جعفر تحت رعاية جده زين العابدين حتى بلغ الرابعة عشرة من عمره. وبالتالي عايش وشهد كرم وتقوى وكثرة عبادة جده وكذلك انسحابه من العمل السياسي. كما شهد في الوقت ذاته دعوى جده الناس لإمامته وجهوده، برغم محدوديتها وضعفها، ليجمع حوله بعض الأولياء الذين رفضوا وقاوموا جاذبية إمامة محمد بن الحنفية وولده أبي هاشم. وشهد جعفر الاحترام الذي حظي به جده من طرف علماء المدينة وغيرهم.[٥] وفي بيت أمه شهد الطفل جعفر جده القاسم بن محمد بن أبي بكر الذي نظر إليه أهل المدينة بصفته محدثاً عظيماً وبالتالي نال احترامهم.[٦]

أما خارج البيت فقد شهد جعفر الاهتمام المتنامي في المدينة للبحث عن علوم الحديث، والبحث عن تفسير آيات القرآن الكريم. وفي صباه شهد قمة الحكم الأموي، وتأسيس إدارهم الإمبريالية، وفترة السلام والوفرة المادية، وندرة الاهتمامات الدينية، كما سنبيّن لاحقاً. مما جعل من المحتمل أن تلك الخلفية قد تركت أثرها على يافع في الرابعة عشرة من عمره وبصمت فكره وشخصيته ومنحت أعماله القادمة اتجاهاً معيناً.

وحين توفي جده زين العابدين كان جعفر قد بلغ بداية سن النضج، وأمضى حوالي ثلاث وعشرين سنة تحت عناية والده الباقر. وخلال هذه السنين لم يشهد جعفر جهود والده لتأصيل شخصيته بصفته إمام أهل البيت فحسب، بل ساهم في هذه الجهود بصفته الابن الأكبر لوالده. وعندما توفي الباقر كان جعفر قد بلغ الرابعة والثلاثين أو السابعة والثلاثين من عمره، وقدِّر له أن يعيش لمدة ثمانية وعشرين عاماً بصفته إمام الشيعة التابعين الخط الحسيني، وهي فترة أطول من إمامة أي من الأئمة السابقين عليه.[٧]

عرف جعفر بعلومه الدينية التي فاقت علوم والده وأي إمام آخر عدا الإمام علي بن أبي طالب نفسه. و ربما كان أقدم مرجع تاريخي يبرز الصادق بصفته أكثر شخصية محترمة ومبجلة في عصره، وبصفته حاز علماً عميقاً هو اليعقوبي الذي ذكر أنه كان من المعتاد لدى العلماء الذين رووا عنه أي شيء أن يقولوا: "أخبرنا العالم"[٨] وحتى قيل أن عالم المدينة المشهور مالك بن أنس كان يقول حين يروي عن الصادق: "أخبرني الثقة جعفر بن محمد."[٩] وكذلك هناك ما يشبه ذلك روي عن أبي حنيفة

النعمان،[١٠] الذي روي أنه كان أحد تلاميذ الصادق. وقال الشهرستاني عن جعفر: "وهو ذو علم غزير في الدين، وأدب كامل في الحكمة، وزهد بالغ في الدنيا، وورع تام عن الشهوات."[١١]

شهدت إمامة جعفر الصادق أكثر فترات التاريخ الإسلامي أهمية وخطورة في المناخين السياسي والعقائدي. فقد حصل فيها أحداث غيرت وأثرت في مجرى التاريخ: حركات عنيفة ونتائج طبيعية لنشاطات سرية متنوعة، ومحاولات ثورية، وفوق كل شيء مواقف تصالحية بين "أهل الحديث" و"المعتزلة" في جهود الجماعتين لتنظيم مجموعة من العقائد المكتوبة توحّد الأمة الإسلامية، أو "الجماعة" وجود هذا الوضع المعقد المتعدد الجوانب سهل ارتقاء إمامة جعفر إلى موقع بارز ومتميز لم يصل إليه والده أو جده (الباقر وزين العابدين). لذلك فإن القضية الجوهرية التي سنعرض لبحثها هي كيف حققت إمامة جعفر هذا التفوق العظيم كما شهد لها كلٌّ من الشيعة والسنّة، بعد أن تدنت الشيعة إلى مجرد قلة من الأتباع غير المهمين، بسبب تحول غالبية الشيعة عن الإمامة الشرعية المسالمة واقتناعهم باتباع الحركات الشيعية المغالية والثورية. ولا يمكن الإجابة على هذا السؤال ما لم نفحص سلسلة من الأحداث ونتائجها الأخيرة –النتائج التي آلت إلى نجاح البيت العباسي وخسارة الحركات الشيعية وتنصل كثير من الشيعة من آرائهم السابقة والإحباط الذي أصاب القضية الشيعية. فلقد أصاب مسقطي حين لاحظ أن العباسيين بعد وصولهم إلى الخلافة وحدّوا المسلمين ودفعوا الشيعة إلى القيام بدور المعارضة، مع العلم أنهم وصلوا إلى الحكم بجهود وقوة الفريق الشيعي.[١٢] إننا لا نريد أن نذهب إلى التفاصيل

الدقيقة، ولا يمكننا ذلك الآن، لكل هذه الأحداث ذات النتائج البعيدة التي حصلت قبل وخلال إمامة الصادق، والتي وصفناها سابقاً بأنها هامة وخطيرة وغيرت مجرى التاريخ الإسلامي. ومع ذلك فإن من الضروري ذكر الخطوط العريضة لهذه الأحداث.

عندما أحبطت سياسة الاتوقراطية الأموية وأسلوب حياتهم في المجون والخلاعة توقعات المسلمين، وبخاصة بعد كارثة كربلاء، فإن كثيراً من المسلمين تعلقوا بفكرة "المهدي" القائد الذي اعتبروا أن الله يقوده مباشرة. وبرغم أن مصطلح المهدي استخدم بشكل رئيسي من طرف الشيعة، إلا أن الفكرة جذبت العديد من غير الشيعة أيضاً. إن أول من ادعى المهدوية هو ثالث أولاد علي محمد بن الحنفية[١٣] أما أهم الأحداث التي ساعدت على قبول فكرة المهدوية فهي: مذبحة كربلاء،[١٤] وتدمير الكعبة، وحصار المدينة، واضطهاد شيعة علي في الكوفة وغيرها، لكن أهم هذه الأحداث بلا شك كان قتل حفيد النبي الوحيد الحسين بن علي.[١٥] إن امتناع ابن الحسين الوحيد الذي نجا من مذبحة كربلاء زين العابدين عن الانخراط في أية مغامرة سياسية جعل شيعة الكوفة المتحمسين يتحولون لدعم أي علوي يتوقعون منه رفع معنوياتهم. وبالتالي، لم تكن شخصية محمد بن الحنفية هي التي أثّرت في الكوفيين، وإنما حاجتهم الأساسية إلى شخصية بارزة يستخدمون اسمها لبدء تحركهم. والحقيقة هي أن ابن الحنفية كان متردداً في دعوة نفسه "المهدي" أو يدّعي القيام بهذا الدور.[١٦]

فهم المختار هذا الوضع وأحسن استغلاله. فقد جمع شيعة الكوفة في بيته وأعلن أمامهم: "فإن المهدي ابن الوصي محمد بن علي بعثني إليكم أميناً

ووزيراً ومنتخباً وأميراً، وأمرني بقتال الملحدين، والطلب بدماء أهل بيته، والدفع عن الضعفاء."[17] (والنقل عن الطبري. المترجم)

ومن المهم أن نلاحظ أن التأكيد في هذه الرواية لم يكن على محمد بن الحنفية، بل على "المهدي" وعلى "ابن الوصي" قد يكون ابن الحنفية قد وافق على اقتراح المختار، أو هذا ما يمكن فهمه من قول المختار لابن الحنفية: "صمتك هو موافقتك"؛ لكن مع ذلك، حافظ ابن الحنفية على موقف غير ملزم بما اقترح المختار. وفي جميع الأحوال، ربما كان هذا ما فهمه المختار من تصرف ابن الحنفية، كما شرحه أمام الكوفيين.

لاقت دعوى المختار إلى مهدوية ابن الحنفية تأييد الغالبية العظمى من الشيعة لم يسبق له مثيل، وضمّت العرب ومعظم الموالي من الفرس الذين زاد عددهم على عدد العرب. وسمّى الموالي الذين انضموا إلى المختار أنفسهم شيعة المهدي أو شيعة الحق.[18] ونتيجة لهذا ظهر فريق شيعي مستقل، وكان حسن التنظيم وناشطاً ومزوداً بأفكار متطرفة، ودعي هذا الفريق "الكيسانية" نسبة إلى كنية المختار نفسه أو على الأغلب نسبة إلى شخصية غامضة هي أبو عمر كيسان مولى المختار.[19]

وبرغم انتهاء حكم المختار سريعاً حين قتل هو ومعظم أتباعه، إلا أن أتباعه نشروا مذهب الكيسانية في مناطق عديدة، مما صعّب القضاء عليه. واستمر هؤلاء الكيسانية، وبعضهم كان يعيش في مناطق بعيدة مثل خراسان، في الإقرار بابن الحنيفة بصفته إماماً– مهدياً وخدموا أفكارهم بطريقة مبالغ فيها. وبعد وفاة ابن الحنفية عام ٨١هـ ـ ٧٠١م[20] اعتقد الغلاة من الكيسانية بغيبته ورجعته، بينما قبلت أكثرية الكيسانية

ابنه الأكبر أبا هاشم عبد الله بصفته إماماً عينه مباشرة والده.[٢١] ومثل الجناح المغالي الشاعر أبو الطفيل عامر بن وائلة كُثيّر وسيد الحميري؛[٢٢] لكن الأخير عاد إلى موالاة جعفر الصادق.

يورد الكشي خبراً هامّاً عن رجلين من أصحاب الصادق المقربين هما: السرّاج ومحمد بن عيسى كانا قبلا يعتقدان بأن ابن الحنفية ما يزال حيّاً. فقد وبّخهما الصادق وأوضح بأن هناك من شهد دفن ابن الحنفية، وتقسيم أملاكه، وأن أرملته تزوجت.[٢٣] ومع ذلك بقيت فكرة "الرجعة" عندئذ عقيدة رئيسية مميزة لدى معظم فروع الشيعة.

وأثّرت توقعات الكيسانية الخلاصية Messianic في العديد من المسلمين شيعة وغير شيعة على السواء. وأصبحت المهدوية الخلاصية وسيلة عامة للتعبير عن المشاعر العامة في تلك المرحلة التاريخية المفصلية، وجرى استخدامها وسيلة فعّالة في المغامرات السياسية.

انتشر السخط بين المسلمين على الناحيتين السياسية والاجتماعية لأسباب عديدة. فقد عارض العراقيون العرب هيمنة السوريين. وسخط الموالي على التعالي الذي أبداه الحاكمون العرب عليهم، وزاد عدد العرب المستحقين العطاء من بيت المال مما أدى إلى زيادة التكاليف المالية على الشعوب المغلوبة. وبفضل انتشار الشعور الديني وسيطرته على كل نواحي الحياة هيجت المعارضة ضد النظام القائم واستخدمت تعابير دينية لتأكيد حقوقها. لم يكن السخط موجهاً مباشرة ضد الأسس الدينية أو الفقهية للدولة الإسلامية.[٢٤] فأحكام القرآن والسنّة هي أحكام إلهية وأحكام نبوية ألهمها الله لنبيه، وبالتالي لا يمكن أن تكون خاطئة. لكن

الحكام المطالبين بتطبيق هذه الأحكام وتحقيق العدالة هم المسؤولون عن الانحرافات وإهمال هذه الأحكام الإلهية والسنن النبوية. وبالتالي، فقد كان الأمل بالتحرر وتغيير النظام السياسي والاجتماعي لا يعني تغيير الأسس الفقهية وإدخال أسس قانونية جديدة، وإنما الإخلاص في تطبيق هذه الأحكام الإلهية.[٢٥]

وهكذا وجدت الدعاية المضادة للأمويين تعابير تلقائية في مصطلحات دينية. كان اهتمام الأمويين الرئيسي، كما يذكر شاخت Schacht "ليس في الدين والأحكام الدينية، وإنما في إدارة سياسية، وهنا نرى الأمويين يجسدون ميلاً إلى البيروقراطية المركزية المنظمّة المتزايدة في الإدارة. واهتموا بقضايا دينية –سياسية ونظرية بقدر ما تخدم الولاء لهم أنفسهم.[٢٦] وإلى ذلك يمكن إضافة الملاحظة الهامة التالية. إن قرب فترة الحكم الأموي من فترة الحكم النبوي وبعده مباشرة حكم الراشدين، والفرق الكبير بين الفترتين من حيث تصرف الحاكمين جعل الناس يلاحظون باهتمام واندهاش أسلوب حياة الأمويين المتمثل بتعاطي الخمر والاستماع لغناء القيان. وبالتالي، ومن خلال التأكيد على فسق الأمويين، وبعدهم عن الاهتمامات الدينية، صار المسلمون ينظرون إليهم كغاصبين لحقوق أهل بيت النبي ومضطهديهم.[٢٧] كما كان حصار المدينة وإحراق الكعبة نقطة سوداء في تاريخ السلالة الأموية.[٢٨]

هذه العلامات الخاصة بالأمويين قادت المسلمين إلى ذمهم وتصوير حكمهم بأنه فترة ظلم، وفي الوقت نفسه أبرزوا أملاً لجماهير المسلمين بالتحرير ويتمثل هذا الأمل بانتصار العدالة التي هي أحد أعمدة الدين

والتقوى من خلال تطبيق الأحكام الدينية بدقة تحت إدارة قائد يلهمه الله مباشرة. فالمهدي يجب أن يكون أحد ذرية النبي، أو من عائلته. ومما يجب ملاحظته بشكل خاص أن فكرة الخلاص لا تعني انتظار الخلاص من خلال السلبية في المواقف والقيادة الروحية وهي السياسة التي تبناها وتميز بها خط الإمامة الشرعية أي جعفر الصادق وآبائه الباقر وزين العابدين. فمبدأ أو مفهوم الجهاد الذي يعني أن يعرض المؤمن نفسه وممتلكاته لخدمة الدين لا يسمح بموقف سلبي.

وكان أول العلويين الذين ثاروا على الأمويين هو زيد الولد الثاني لزين العابدين. فحين توفي زين العابدين خلفه ابنه الباقر بصفته الإمام الشرعي في سلالة علي، تبنّى الباقر سياسة أبية السلمية وقصر دوره على القيادة الدينية، عندها نهض زيد بن علي وادعى أنه يريد إقامة العدل من خلال تطبيق مبدأ "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" بالقوة عند الضرورة. وقال زيد إن الإمام هو الذي يدعو إلى حقوقه وسيفه في يده. وكان هذا تعبيراً عن مشاعر عميقة لا عند شيعة الكوفة فقط بل عند أهل المدينة وكثير من المسلمين وهذا ما عوّل عليه زيد. وهكذا تحول كثير من اتباع زين العابدين عن الباقر إلى زيد. وانضم إلى هؤلاء كثير من الكيسانية اتباع ابن الحنفية ثم ولده أبي هاشم، لكن آراء زيد المعتدلة لم تلق موافقة غلاة الكيسانية. فحين تمسك زيد بأفكار واصل بن عطاء وعقائده جذب تأييد المعتزلة، وبقبوله خلافة أبي بكر وعمر ربح تعاطف المحدّثين. ويكشف هذا الخليط الفكري عن نقطتين هامتين. الأولى، رفض زيد وأصحابه الأفكار المنتشرة بين الجماعات الشيعية (الكيسانية والباقرية).

فالزيديون لا يقبلون إمامة إمام مسالم أو متروٍ مثل الباقر وابن الحنفية؛ بل الإمام في نظرهم هو سليل علي وفاطمة الذي يعلن إمامته علناً. الثانية: عرف زيد أنه كي يصل إلى الخلافة عليه أن يضمن وقوف رأي غالبية المسلمين خلفه، وبالتالي أعلن قبوله لما تقبل به الأغلبية. وهكذا أعلن قبوله خلافة أبي بكر وعمر واعتبرهما شرعيتين؛ وإلى جانب ذلك حافظ على عقيدة الشيعة في أفضلية علي؛ وصاغ ذلك في مبدئه المشهور وهو "قبول إمامة المفضول بوجود الفاضل"، وذلك كي تتحقق المصالح العامة.[٢٩]

وبعد وفاة الباقر حافظ الصادق على سياسة والده تجاه زيد وحركته فبقي مجرد مراقب سلبي تجاهها. وبما أن زيد كان عم الصادق وبالتالي له مقام خاص عند جعفر، فإن جعفر لم يدن سياسة عمه وفضائله علناً. لكن هذا لا يعني أن جعفر لم تكن له دائرته الخاصة من الأتباع المخلصين ورثها عن أبيه، حيث كان الصادق يؤكد لهؤلاء الأتباع رفضه لآراء زيد. وفوق ذلك، أن تنازل زيد وقبوله بشرعية خلافة أبي بكر وعمر سببت له رفض الشيعة لهذا الموقف وبالتالي تخلى عنه معظم الشيعة المتحمسين وتحولوا إلى موالاة الصادق.[٣٠]

قيل أن زيد خاطب الذين تخلوا عنه قائلاً: "رفضتموني" ولذلك سمى الشيعة المتحمسون "الرافضة"[٣١] وذهبت جماعة من شيعة الكوفة إلى المدينة وأخبرت الصادق بأفكار زيد ونشاطاته. فأجابهم الصادق محافظاً على سياسة احترام عمه: "زيد أفضلنا وسيدنا."[٣٢]

بدأت ثورة زيد في صفر ١٢٢هـ كانون الأول ٧٤٠م وفشلت. فقد قتل زيد وذبح الكثير من أتباعه.[٣٣] وأمر الخليفة هشام الطالبيين البارزين بالابتعاد عن الزيدية وإدانتها،[٣٤] ومن بين هؤلاء أبو عبد الله معاوية وأبو عبد الله المحض،[٣٥] ولكن اسم جعفر الصادق لم يذكر أبداً. وهذا يظهر أن جعفر الصادق ميز شخصه بمعارضته لحركة الزيدية ونشاط بعض أفراد عائلته (المذكورين أعلاه بالتحديد. المترجم)

هذا الوضع يذكرنا بما حصل لجده زين العابدين مع يزيد بن معاوية، حين أخمد يزيد ثورة أهل المدينة، وأجبر بني هاشم على مبايعته وإعلان أنفسهم عبيداً للخليفة بينما أعفى زين العابدين من ذلك.[٣٦] والآن أعفي الصادق من حالة مماثلة، مما يعني استمرار سياسة زين العابدين نفسها في خط الإمامة الشرعية.

تابع يحي بن زيد سياسة والده ونشاطاته وفرّ إلى خراسان كي يجمع حوله شيعة الكوفة الذين نفاهم الحجاج والولاة الأمويون على العراق إلى أماكن قصيّة. ولكن في عام ١٢٥هـ ٧٤٣م وبعد ثلاث سنوات من العمل الفاشل لقي يحي مصيراً كمصير والده.[٣٧] وفي الحقيقة لم تستطع حركة زيد أن تنال قبول الجماعات النشطة لأن زيد لم يدّع أنه المهدي – الفكرة التي سادت يومها في أوساط الجماهير الشيعية. كما حرمته سياسته الفكرية المعتدلة من تأييد عامة الشيعة. ولكن حركته تركت أثراً بالغاً على تطور الحركة الشيعية بكاملها. فقد أيد أو تعاطف مع حركة زيد العديد من الشخصيات البارزة بين الفقهاء والمحدثين ومنهم: أبو

حنيفة النعمان وسفيان الثوري والأعمش قاضي المدائن وهلال بن حباب وآخرون من القادة في المدن الأخرى.[٣٨]

برغم أن حركة زيد انتهت إلى الفشل إلاّ أنها مهدّت الطريق أمام مدعين آخرين، وقدّمت أرضية جاهزة لثورة أخرى أكثر تأثيراً. موت زيد ومن بعده ولده يحي ترك فراغاً في القيادة الناشطة، ودعم توقعات المستقبل أمام اثنين من أقاربهما ومنافسيهما حتى اللحظة وهما: جعفر الصادق ومحمد النفس الزكية. وبما أن الصادق التزم بسياسة الهدوء التي سنّها جده وأبوه فلم يكن ميّالاً لقيادة حركة ناشطة ذات ميول سياسية. ويجب أن نلاحظ أن الشيعة في هذه المرحلة كانت منقسمة عقائدياً إلى ثلاث مجموعات. الأولى هي الشيعة الغالية ذات الرسالة الخلاصية التي انبثقت عن الكيسانية؛ والثانية هي الشيعة المعتدلة التي تبنت أفكار زيد بن علي ودعمها المعتزلة والمحدثون في المدينة والكوفة؛ أما الثالثة والأخيرة فهي شيعة الصادق التي كانت تنشر وتعبّر بهدوء عن آرائه ونظرياته في الإمام ودوره، والتي لم تتبن الادعاءات الخلاصية ولا النزعة الزيدية التصالحية المعتدلة، كما سنرى لاحقاً.

إلى جانب هذه المجموعات الثلاث ظهر إلى العلن مجموعة أخرى هي محمد النفس الزكية وهو من السلالة النبوية وأتباعه، وقد استطاعت هذه الحركة أن تجذب بقايا الزيدية والمعتزلة المؤيدين للشيعة وكذلك عدداً من الغلاة على أساس أن محمد النفس الزكية تبنى الدعوات الخلاصية. وبرغم أن ثورة النفس الزكية بدأت فيما بعد إلا أن من المهم أن نذكّر بأن حركته الخلاصية بدأت، في الواقع، منذ هذا المنعطف.

كان محمد النفس الزكية قد عُيّن منذ طفولته للقيام بدور المهدي من طرف والده عبد الله بن الحسن المثنّى بن الحسن بن علي بن أبي طالب المعروف بلقب "المحض" عرف محمد بن عبد الله (النفس الزكية) بأنه رجل الفضائل واشتهر بعلومه الدينية وفصاحته.[39] وحين بلغ سن النضج لم يدخر والده عبد الله جهداً لتعظيم الدور المتوقع من ابنه النفس الزكية. فقد انتشر حديث نبوي رواه عبد الله بن مسعود قال فيه النبي: "لا تقوم الساعة حتى يملك الأرض رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي يملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً."[40]

وبما أن هذا الحدث يمكن أن ينطبق على محمد المهدي بن المنصورالعباسي،[41] فقد ظهر حديث آخر يؤكد أن دور الخلاص هو من حق النفس الزكية، ونسب هذا الحديث إلى أم سلمة أرملة النبي وفيه: "وسمعت رسول الله يقول: المهدي من ذرية فاطمة."[42]

لم يؤيد ترشيح النفس الزكية لدور المهدي أقاربه فقط، بل دعمه أيضاً الغالي المتطرف المغيرة بن سعيد العجلي.[43] اشتهر المغيرة بأنه من غلاة الشيعة، وقد حذر الصادق أتباعه مراراً من قبول أحاديث المغيرة.[44] بقي أتباع المغيرة حتى بعد إعدامه أوفياء للنفس الزكية.[45] كما ناصره المحدثون المعتدلون والمعتزلة بقيادة عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء،[46] واعترف هؤلاء بأن هذا العلوي اليافع محمد النفس الزكية هو الشخص المناسب ليرث دور زيد بن علي وابنه يحي.[47]

على كل حال، بعد وفاة الوليد بن يزيد ظهر التفسخ في السلالة الأموية، وبعد تمرد عبد الله بن معاوية الذي صادف نجاحاً محدداً في خراسان قرر

عبد الله المحض وبعض مؤيدي القضية العلوية التحرك.[48] فقد دعى عبد الله المحض أثناء الحج أقاربه وأتباعه لمبايعة ولده النفس الزكية. وتم ذلك أولاً في الكعبة ثم أعيد في الأبواء قرب المدينة.[49] وبحسب أبي الفرج، فإن من بين الذين بايعوا النفس الزكية كان العباسيون الأخوة الثلاثة: إبراهيم الإمام وأبو العباس السفاح وأبو جعفر المنصور محمد بن علي بن عبد الله بن العباس إلى جانب أعضاء آخرين من العباسيين. وليس لدينا ما يؤكد هذه الرواية وأن هؤلاء الثلاثة حضروا بيعة الأبواء. وإن يكن اسم أبي جعفر قد ورد في مصادر تاريخية أخرى.[51] وهذا يبدو مقبولاً باعتبار أن أبا جعفر المنصور كان في صباه معتزلياً[52] صاحب عمرو بن عبيد[53] الذي يحتمل أن يكون قد اقنع أبا جعفر المنصور بمبايعة النفس الزكية. والمعارضة الوحيدة لبيعة الأبواء جاءت من طرف جعفر الصادق،[54] الذي اعتبر نفسه الوحيد صاحب الحق في الإمامة، كما عارض أية منظمة عسكرية.

على كل حال، برغم شعبية النفس الزكية فلا هو ولا والده تحركا بطاقة كافية، بل تركا الساحة للعباسيين كي يبادروا. وكان الاثنان (النفس الزكية ووالده) مجرد متفرجين سلبيين على الانقلاب الهائل وهو سقوط الخلافة الأموية. لقد تهيأت كل مكونات نجاح الثورة ولم ينقصها سوى ضربة صاعقة وتحرك مستمر بعدئذٍ. وكان الوضع هو من يضرب أولاً يربح الجائزة.

كانت فكرة تصنيف من هو من أهل البيت ومن هو من غير أهل البيت كانت بلا شك مشوشة جداً في ذلك الوقت. فكل مدع علوي ومؤيديه

تبنوا نظرية خاصة مختلفة عما تبناه العلويون الآخرون لتأييد وتبرير دعواه. تمسك فريق شيعي واحد بأنه بعد علي فإن الحق في الإمامة وميراث النبي يعود إلى أولاد فاطمة وذريتهم، وحيث أن الحسين ورث الحسن بموجب وصية صريحة، فإن هذا الميراث انتقل إلى الحسين وذريته وبالتالي استبعد الفرع الحسني. هذا الفريق الذي نذكره بصفته الفريق الشيعي الشرعي، ورغم أنه لم يتوقف أبداً عن الدعوى إلى اعتبار نفسه صاحب الحق الشرعي الوحيد الموجود على الساحة فإن عدد اتباعه تناقص ليصبح الأقلية الشيعية في ذلك الوقت بعد انتهاء حركة التوابين. وهناك آخرون اعتقدوا أن فرداً من ذرية علي وفاطمة سواء من ذرية الحسن أم الحسين يحق له قيادة الأمة الإسلامية. وضم هذا الفريق اتباع زيد بن علي واتباع النفس الزكية. أما الفريق الثالث فضم غالبية الشيعة وهم الكيسانية أتباع محمد بن الحنفية ومن بعده ابنه أبي هاشم. كان هذا التصنيف مفهوماً جيداً لدى المتكلمين والفقهاء من سكان المدينة والكوفة. أما جماهير الشعب الممتلئة بكره الأمويين والحقد عليهم والشعور بالقرف من حكمهم فكانت جاهزة لتجتمع حول أي قائد علوي يتوقع منه أن يحررهم من معاناتهم.

كانت الغالبية العظمى من سكان الكوفة، وبخاصة من الطبقات الدنيا جاهزين لتأييد أية حركة مناهضة للأمويين. وهكذا حصل حين منحت هذه الأغلبية تأييدها لعبد الله بن معاوية،[٥٥] ابن حفيد أخي علي جعفر بن أبي طالب. يذكر الطبري أن معظم مؤيدي عبد الله بن معاوية كانوا من العبيد والعوام من سكان الكوفة وسوادها (ريفها).[٥٦] بعد فشل عبد الله

بن معاوية في الكوفة فرّ إلى إيران وسيطر على منطقة واسعة هناك حتى أُغتيل على يد أبي مسلم على الأغلب.[٥٧] من المحتمل أن يكون ابن معاوية حقق نجاحاً في إيران بفضل دعواه بأنه رسول أبي هاشم. وسهّلت دعاية ابن معاوية في خراسان مهمة قائد آخر لتنظيم ثورة منظمة وقوية.

بعد كل الحركات السابقة والتمرد أصبح الوقت جاهزاً لتحرك ناجح لم يكن، في الحقيقة، لصالح أي علوي، وإنما للعباسيين الذين كانوا منذ بعض الوقت يحيكون الخطط سرّاً وينتظرون الفرصة المناسبة. كان علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب أول شخص في البيت العباسي يأمل بتحقيق طموحات سياسية، ولكنه لم يكن لديه أي حجة تدعمه من الناحية الشرعية. فجده العباس عم النبي لم يدع الحق في الخلافة أبداً. وأكثر من ذلك، إن تأخره في اعتناق الإسلام وسياسة الانتهاز[٥٨] التي تباها لطخت سمعته بين المسلمين. أما ابنه عبد الله فبرغم شهرته كعالم فلم يكن لديه طموحات سياسة، وإنما كان بطل قضية ابن عمه علي بن أبي طالب.[٥٩] فقد كان واليه على البصرة وممثلة الشخصي الملازم لحكمه أبي موسى الأشعري.[٦٠] ومن المحتمل أن علي بن عبد الله قد حلم بحقوق سياسية معينة مبنيّة على أسس العادات القبلية فالفرع المكّي الذي يحوز على صفة الكاهن – السيد يضم كل ذرية عبد المطلب، ومن هذه الزاوية الشرعية فإن دعواهم كانت في وضع أفضل من دعاوي بني أمية التي أُسست على عوامل سياسية محضة. أما بنو أمية من جهتهم فقد حاولوا جاهدين للتأكيد بأن هذه الحقوق تشمل كل ذرية عبد المناف لقيادة قبيلة قريش.[٦١] مع ذلك، ورغم أن العباس استلم في فترة ما حجابة الكعبة

وذريته كان لديهم بعض الحق في الإدعاء بالقيادة كعلي بن أبي طالب (من هذه الزاوية)، فإن العباسيين تجاهلوا هذا الحق لصالح العلويين لفترة طويلة. وأكثر من ذلك، إن إسلام علي المبكر بالمقارنة مع قبول العباس بالإسلام في وقت متأخر، وذلك أثناء فتح مكة، حسم وضع العباسيين في نظر المسلمين. ومن ثم فإن الشيعة وطدوا أنفسهم على عقيدة أن الحق في الخلافة يعود إلى العلويين فقط. وهكذا صار من الواضح أنه يستحيل على العباسيين إدعاء الحق بالخلافة مباشرة.

رأى علي بن عبد الله الفرصة المناسبة من خلال ضمّ أبي هاشم بن محمد بن الحنفية ووريثه، الذي لم يعقب، وكان رهينة لدى الأمويين في دمشق إلى دعواه، وبالتالي يصبح من حق العباسيين الإدعاء بوراثته في الإمامة. وهكذا وجهّ ابنه اليافع محمد كي ينال ثقة أبي هاشم ورضاه. وحين أطلق الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك سراح أبي هاشم، وفي طريق عودته إلى الحجاز وضع له السمّ -كما قيل- من طرف الخليفة سليمان أو محمد نفسه.[٦٢] توفي أبو هاشم في الحميمة، التي كانت مركز قيادة العباسيين بعد أن نزل ضيفاً عليهم. وقبل وفاته عيّن محمد بن علي وصيّاً له وحمّله رسائل إلى قواعد مؤيديه في خراسان.[٦٣] وهكذا صار محمد إماماً قبلته شيعة أبي هاشم، وصار من حقه وراثة حزبه ومنظمته وحقوقه.[٦٤]

برغم أن الحركة العباسية نظمت أولاً في الكوفة وفيها نشأت مراكز القيادة يبدو أن العباسيين لم يتأكدوا من ولاء الكوفيين لهم، وذلك للتعاطف الذي أبداه الكوفيون تجاه العلويين، وبالتالي كان العباسيون يخشون أن العراقيين لن يقبلوا بدعواهم الإمامة. وبرغم أن معظم أتباع

أبي هاشم قبلوا إمامة العباسيين، إلا أن بعضهم رفض تحويل الحق في الخلافة من العلويين إلى فرع آخر من الهاشميين. وكان هذا موقف الكوفيين الشيعة الموالين لآل البيت. وثمة قسم آخر من أتباع أبي هاشم رفض قبول موت أبي هاشم، وقال بغيبته، وأنه هو المهدي. وقسم آخر قبل بموت أبي هاشم إلا أنه قال بأن أبا هاشم عين أخاه علي للإمامة، ومن ثم ساق الإمامة في ذريته.[٦٥]

من طرف آخر، كانت خراسان أرضاً بوراً (عذراء) فيما يخص الصراع الطائفي. وكانت غالبية الشيعة في تلك المنطقة النائية غير مهتمة بالخلاف بين فروع أهل البيت، ولكنها جاهزة لمناصرة أي قائد من آل البيت يتحرك ضد الأمويين.[٦٦] وبقي أبو مسلم الخرساني القائد المنظم للحركة والذي عينه إبراهيم رأس العائلة العباسية[٦٧] يدعي أنه يعمل نيابة عن الإمام من أهل البيت الذي لم يجر تعيينه بعد. وبالتالي حاز أبو مسلم على تأييد الكثير ممن ما كانوا ليؤيدونه لو عرفوا بأن الإمام من بني هاشم سيكون من ذرية العباس.[٦٨] وربما كان تأييد بقايا أنصار المختار قد يقوّي هذا الافتراض.

على كل حال، اعتقل إبراهيم بأمر من الخليفة مروان بن محمد، وأحضر إلى دمشق، ثم أرسل إلى حرّان وسجن هناك حيث توفي إما بالطاعون أو -كما صرّح العباسيون- قتل بأمر الخليفة.[٦٩] تحرك أبو العباس السفاح وأبو جعفر المنصور أخوا إبراهيم ومعهما أربعة عشر من أفراد العائلة العباسية من الحميمة إلى الكوفة بناءً على توجيه من إبراهيم الإمام.[٧٠] كان ممثل العباسيين في الكوفة هو أبو سلمة حفص وكان كيسانياً من

أتباع أبي هاشم. في هذا المنعطف الخطير قيل أن أبا سلمة فكّر بفك ارتباطه بالعباسيين حيث أنه مرتبط بإبراهيم الإمام وليس بأخويه.[٧١] أسكن أبو سلمة العباسيين الفارين في بيت وحاول إخفاء ذلك عن القادة الخراسانيين في الكوفة.[٧٢]

وعندما وصلت أخبار وفاة إبراهيم الإمام إلى الكوفة ذكر الجهشياري والطبري أن أبا سلمة رغب في تنصيب علوي في الخلافة، وذلك بناء على "اقتراح ونصيحة البعض من شيعة الكوفة"،[٧٣] وبالتالي، كتب رسائل إلى جعفر الصادق وعبد الله المحض وعمر بن زين العابدين، وطلب فيها من كل واحد منهم أن يقدم على الكوفة، حيث يؤيدهم أبو سلمة في طلبهم الإمامة. وأمر أبو سلمة رسوله أن يتصل أولاً بجعفر الصادق، فإذا رفض، يذهب إلى عبد الله المحض، فإذا رفض، يذهب إلى عمر بن علي. وعندما عرض الرسول الرسالة على جعفر الصادق، طلب جعفر شمعة وأحرق الرسالة، وقال للرسول: "أخبر سيدك بما رأيت".[٧٤] يروي المسعودي القصة بطريقة أخرى قائلاً: "كان أبو سلمة لما قتل الإمام خاف انتقاض الأمر وفساده عليه، فبعث بمحمد بن عبد الرحمن بن أسلم وكان أسلمُ مولىً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وكتب معه كتابين على نسخة واحدة إلى أبي عبد الله جعفر بن محمد، وإلى أبي محمد عبد الله بن الحسن، يدعو كل واحد منهما إلى الشخوص إليه ليصرف الدعوة إليه، ويجتهد في بيعة أهل خراسان له، وقال للرسول: العَجَل العَجَل، فلا تكونن كوافد عاد، فقدم محمد بن عبد الرحمن المدينة على جعفر بن محمد فلقيه ليلاً، فلما وصل إليه أعلمه أنه رسول أبي سلمة، ودفع إليه كتابه، فقال له أبو

عبد الله: وما أنا وأبو سلمة؟ وأبو سلمة شيعة لغيري، قال: إني رسول، فقرأ كتابه وتجيبه بما رأيت، فدعا أبو عبد الله بسراج ثم أخذ كتاب أبي سلمة فوضعه على السراج حتى احترق، وقال للرسول: عرِّف صاحبك بما رأيت ثم أنشأ يقول متمثلاً بقول الكميت بن زيد.

أيا موقِداً ناراً لغيرك ضوؤها ويا حاطباً في غير حبلك تحطب.[٧٥]

هذه القصة عينها تخبرنا أن عبد الله المحض قبل العرض وسُرّ جداً بمساعدة أبي سلمة. أما جعفر الصادق -- كما تقول جميع المصادر التي أوردت هذه القصة- فقد حذّر عبد الله، وطلب منه عدم تعريض نفسه وذريته للخطر في هذه المباراة لنيل السلطة، وحذره خيانة أبي سلمة لكونه "لا هو من شيعتنا، ولا الخراسانيون أولياؤنا" لكن عبد الله المحض رفض نصيحة الصادق قائلاً: "والله ما يمنعك من ذلك إلا الحسد."[٧٦] هذه القصة والحادثة بين الصادق والمحض تلقي الضوء على سياسة الصادق الحذرة وبقائه خارج المناورات السياسية. أما فيما يخص أبا سلمة فيشير مسقطي إلى موقفه المتأرجح فيقول: "ويستطيع المرء أن يرى نتيجة الغموض المتعمد فيما يتعلق بحقوق آل بيت النبي، الذي كانت تنشره الدعاية الثورية.[٧٧]

وتطورت الأحداث سريعاً في الكوفة لصالح العباسيين. فقد استغل أبو حميد الطوسي أحد قادة الخراسانيين وجود العباسيين في الكوفة،[٧٨] وكان يعسكر مع جماعته خارجها وأخذ معه من قادة الخراسانيين أبا الجهم وموسى بن كعب وكان زعيمهم وسابق الخوارزمي في غفلة من أبي سلمة

وبايعوا أبا العباس[79] بالإمامة والخلافة، وبايعه وجوه القواد وعلم أبو سلمة بذلك فبايعه.[80]

وتوجه أبو العباس فوراً إلى قصر الإمارة ثم مسجد الكوفة حيث ألقى أول خطبة له. ولقب نفسه بالسفاح وربط مجد الله بنفسه وبأهل بيته. وسمى العباسيين أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس، وأنكر حقوق العلويين بالخلافة.[81]

وتبع خطاب السفاح عمه داود بن علي الذي أكد حق العباسيين بالخلافة قائلاً: "إنه والله ما كان بينكم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم خليفة إلا علي عليه السلام وأمير المؤمنين هذا الذي خلفي -يقصد السفاح- ثم نزل الاثنان عن المنبر" وأكد داود أن الخلافة ستبقى في يد العباسيين حتى يسلموها إلى عيسى بن مريم.[82]

تبع تسلم العباسيين الحكم مباشرة انفجار أول نزاع مع الشيعة الغلاة. فقد سمحت وصية أبي هاشم زعيم الغلاة الكيسانية ببدء دعاية العباسيين لأنفسهم من خلال شيعة أبي هاشم في خراسان، وهناك بدؤوا أول خلية في حزبهم السياسي -الديني. وفور وصول العباسيين إلى الخلافة قدموا مبررات عديدة لشرعيّة حقوقهم من غير أي ذكر لوصية أبي هاشم. فقد رأوا أنه من الضروري ترك تلك الوصية تذهب وتضيع في طي النسيان، لأن ربط العباسيين أنفسهم بغلاة الكيسانية من خلال هذه الوصية يمكن أن يجلب لهم الخطر أو الخجل. لذلك كان همّ السفاح الأول التخلص من أولئك الغلاة الذين أيدوه على أساس طائفي. وكان أول من دفع ثمن ذلك هو أبو سلمة إما بسبب علاقته بالغلاة الكيسانية وإما بميله للعلويين

وتوجهه لتأييد حقهم بالخلافة كما ذكرت القصة التي تعرضنا لها سابقاً. وهناك سبب ثانٍ للتخلص من أبي سلمة ذلك أنه عقب بيعة السفاح وقبل أن يعلم برسائل أبي سلمة إلى القادة العلويين سمى أبا سلمة "وزير آل رسول الله"،[٨٣] ولكنه حين علم بتأرجح ميول أبي سلمة دبر قتله. وهذا السبب ذكره المسعودي والطبري.[٨٤] والواقع أن السفاح أراد التخلص من القوى الثورية وعلى رأسها وأقواها أبو سلمة.

استمر حكم السفاح أربع سنوات كان العلويون خلالها في المدينة مشتتين ويائسين لضياع آمالهم،[٨٥] ولكن عندما تسلم أبو جعفر المنصور الخلافة عام ١٣٦هـ ٧٥٣م بدأ العلويون رفع أصواتهم متذمرين لاغتصاب حقوقهم من طرف العباسيين. وفيما عدا شيعة العباسيين الذي رأوا في السفاح لا إماماً وخليفة فقط بل والمهدي أيضاً. عبّرت جماهير الشيعة عن سخطها، وظهر هذا السخط حتى في زمن السفاح،[٨٦] ولكنه تطور ونمى حين استلم المنصور الخلافة. وأحسّ الشيعة أن ملك المهدي لم يتجسد، وإنما ذهب حكم سيء ليحل محله مثيله.

عندما تولى أبو جعفر المنصور الخلافة رفض محمد بن عبد الله المحض الملقب بالنفس الزكية مبايعته، وهو الذي ادعى دور المهدي منذ أمد بعيد، وبدأ حملته بنشر دعاية خلاصية. وهذا ما أغضب المنصور العباسي، وفي عام ١٤٠هـ ٧٥٨م قرر إجبار النفس الزكية وأخيه إبراهيم على البيعة. فأمر بإلقاء القبض على عبد الله المحض وبعض العلويين الآخرين وعرّض بعض المحتجزين لمعاملة قاسية جداً محاولاً إجبارهم على إفشاء سرّ المختفين وتحديد مكان وجودهم، ولكن رفضوا وفشل المنصور في محاولته.[٨٧] من

المهم أن نلاحظ أن النفس الزكية حاول أن يحوز على تأييد أجزاء من بلاد المسلمين،[88] وكان مجال حركته الرئيسي في الحجاز وليس في الكوفة، حيث تلقى تأييداً حماسياً، ومع بعض الاستثناءات القليلة، بويع هناك.[89] وناصر المحدثون في المدينة بقوة، وأيدوا دعوته؛ وأعلن مالك بن أنس أن بيعة العباسين باطلة لأنها أُخذت قسراً.[90] وكان زيدية ومعتزلة الكوفة والبصرة جاهزين لتأييده.[91] وفي رمضان ١٤٥هـ كانون الأول ٧٦٢م جرت معركة حامية نتج عنها خسارة واضحة لأهل المدينة وقتل فيها النفس الزكية، وربح جيش العباسيين. وترك موت النفس الزكية آثاراً تجلت في بعض الأحاديث المنسوبة إلى جعفر الصادق وفيها تنبأ الصادق بمصير النفس الزكية.[92]

وتبع فشل حركة النفس الزكية حركة قادها أخوه إبراهيم في البصرة، حيث كان يحاول جمع الأنصار لأخيه، وبالفعل نال إبراهيم تأييد الزيدية والمعتزلة في البصرة والكوفة جميعهم.[93] وكتب له أبو حنيفة النعمان وسفيان الثوري ومسعود بن كدامة رسائل تأيد ودعوه ليقدم عليهم، وأعلنوا فتاوى تأيد لدعوته.[94] أرسل العباسيون جيشاً مؤلفاً من ١٥٠٠٠ جندي إلى البصرة فاضطر إبراهيم إلى التوجه نحو الكوفة لجمع مناصريه ولكنه التقى جيش العباسيين في بخرمه، وهناك لقي حتفه.[95] وكانت حركة إبراهيم آخر تمرد علوي وتلاشت الدعاوي الخلاصية التي نشرها العلويون أو انتشرت باسمائهم. ووجد بعض بقايا أنصار النفس الزكية متنفساً لهم في أفكار غير طبيعية supernatural فقد رفضوا موته وقالوا أن الذي قتل هو شيطان اتخذ شكله، أما النفس الزكية

فاختفى في جبل من جبال نجد.[٩٦] وأنهى قتل إبراهيم أي أمل للمدنيين بإقامة خلافة من اختيارهم. واحبط كل أمل للشيعة الغلاة المتطرفين.

كل هذه الأحداث والظروف شكلت خلفية إمامة جعفر الصادق. ولكن قبل البحث في تفصيل وضع الصادق وموقفه السياسي- الديني، هناك وجهة نظر حيوية تحتاج إلى تفصيل.

رأينا حتى الآن كيف تجزأ أنصار العائلة الهاشمية في الحقبة الأموية إلى علويين وعباسيين. لذلك اتخذ الصراع شكلاً جديداً. فلم يعد الصراع بين مغتصبين(الأمويين) وأصحاب حق شرعي، وإنما بين فرعين من الهاشميين وكلٌ منهما يدعي الحق لنفسه مقصياً الفرع الآخر كلية: بين أولاد عم النبي العباسيين وذرية النبي من ابنته وابن عمه فاطمة و علي. والتعقيد الأبشع ظهر في ذرية علي الذين انقسموا إلى ثلاثة طوائف: ذرية الحسين، وذرية ابن الحنفية، وذرية الحسن التي ظهرت مؤخراً مع عبد الله المحض وابنه النفس الزكية وأخيه إبراهيم. وبالتالي ظهرت جهتان الأولى، عباسية والثانية، علوية مؤلفة من ثلاثة أقسام.

أدرك الخليفة العباسي الأول السفّاح الموقف كاملاً، فبدأ منذ البداية مهمة تبرير حقوق عائلته في الخلافة لإكسابه الشرعية، وقد بدا ذلك واضحاً منذ خطابه الافتتاحي الأول. وبهذا الأسلوب وضع الأساس لسياسة عائلته تجاه الصراع المقبل وأراد بذلك اجتثاث دعوى العلويين بحقوقهم في قيادة الأمة. ولكن بفضل قصر فترة حكم السفاح، لم يظهر العلويون بأي معارضة خطيرة وعلنية، لذلك بقيت الأمور غامضة وهادئة.

وجاء دور المنصور الذي توجب عليه مواجهة معارضة مخيفة من طرف العلويين لسلطة العباسيين الناشئة مجدداً. وبالتالي، ولكي يقوّي المنصور خلافته ويدعمها ركزّ جهوده على هدفين أساسيين وجوهريين. الأول هو تبرير حقوقه بالخلافة على أسس دينية مشروعة. وتضمّن تحقيق هذا الهدف اقتلاع جذور دعوى العلويين من خلال جدل فقهي. وكان الهدف الثاني هو جعل خلافته مقبولة في نظر الجماعة الإسلامية. وتطلب ذلك قطع علاقته بالجماعة الغالية والثورية. وتحقق المنصور بشكل جيد أن التشيع الكيساني والغلو الراوندي،[٩٧] وثورية أبي مسلم الخراساني وأتباعه (الذين كانت عقائدهم خليطاً من التشيع الكيساني والمانوية) أو الشيعة العباسية لا تخدم الأسس الدينية للخلافة العباسية. وبعد أن تخلص من جميع هذه الجماعات تطلع إلى دوائر المحدّثين (أهل الحديث) وأقرّ بأنهم يمثلون الأمة الإسلامية، ومؤيدي "الجماعة" ونرى أن الأفضل تأخير بحث هذا الموضوع حتى ننتهي من بحث جهود المنصور لتبرير حقوق عائلته بالخلافة.

إن الرسائل المتبادلة بين المنصور والنفس الزكية المعارض والمنافس الأخطر على المنصور تمثل أفضل وربما أكثر البراهين مصداقية بصفتها وثائق. ولكي يتضح لنا أسلوب جدل المنصور وتوجهه لحل هذه المشكلة ننظر أولاً في رسالة النفس الزكية إليه، وفيها: "إن أبانا عليّاً كان الوصي وكان الإمام، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء! ثم قد علمت أنه لم يطلب هذا الأمر أحد له مثل نسبنا وشرفنا وحالنا وشرف آبائنا؛ لسنا من أبناء اللعناء ولا الطرداء ولا الطلقاء، وليس يمتّ (يتوسل) أحد من بني هاشم

بمثل الذي نمتُّ به من القرابة والسابقة والفضل، وإنا بنو أم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة بنت عمرو في الجاهلية، وبنو بنته فاطمة في الإسلام دونكم. إن الله اختارنا واختار لنا، فوالدنا من النبيين محمد صلى الله عليه وسلم، ومن السلف أوّلهم إسلاماً علي، ومن الأزواج أفضلهن خديجة الطاهرة، وأول من صلى القبلة، ومن البنات خيرهن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة، ومن المولدين في الإسلام حسن وحسين سيدا شباب أهل الجنة، وإن هاشماً ولد علياً مرتين، وإن عبد المطلب ولد حسناً مرتين، وإن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولدني مرتين من قبل حسن وحسين، وإني أوسط بني هاشم نسباً، وأصرحهم أباً، لم تعرّق فيّ العجم، ولم تنازع فيّ الأمهات، فما زال الله يختار لي الآباء والأمهات في الجاهلية والإسلام حتى اختار لي في النار؛ فأنا ابن أرفع الناس درجة في الجنة، وأهونهم عذاباً في النار، وابن خير أهل النار، ولك الله إن دخلت في طاعتي، وأجبت دعوتي أن أؤمّنك على نفسك ومالك، وعلى كل أمر أحدثته وأنا أولى منك بالأمر وأوفى بالعهد، لأنك أعطيتني من العهد والأمان ما أعطيت رجالاً قبلي؛ فأي الأمانات تعطيني! أمان ابن هبيرة، أم أمان عمّك عبد الله بن علي، أم أمان أبي مسلم!"[٩٩] (النقل عن الطبري)

يتضح من هذه الرسالة أولاً أن النفس الزكية يدّعي حقوقه على أساس أن جده علي بن أبي طالب كان الوصي والإمام، ثم يدعم هذا بتأكيده ظروف مولده من جهتي أبيه وأمه: الشرف من طرف أبيه والرفعة من طرف أمه. ثم يشير إلى طبيعة العباسيين الخائنة. ومن المهم بشكل خاص

ملاحظة أنه برغم إشارته إلى علي بصفته وصياً وإماماً، وإلى نسبه من فاطمة،[100] فإن الحجاز أجمعت على تأييد قضية النفس الزكية.

ومن المفيد جداً أن نرى كيف جادل أبو جعفر المنصور منافسه العلوي وكيف برر حقوقه في قيادة الأمة العليا (الخلافة). لقد أجاب المنصور على النفس الزكية قائلاً: "قد بلغني كلامك، وقرأت كتابك... ولقد علمت أن مكرمتنا في الجاهلية سقاية الحجيج الأعظم وولاية زمزم، فصارت للعباس من بين أخوته، فنازعنا فيها أبوك، فقضى لنا عليه عمر، فلم نزل فيها في الجاهلية والإسلام. وإذا جلَّ فخرك بقرابة النساء[101] لتضل به الجفاة والغوغاء؛ ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء، ولا كالعصبة والأولياء وأما قولك إنكم بنو رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن الله يقول في كتابه: "ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم الأنبياء"[102] ولكنكم بنو ابنته؛ وإنها لقرابة قريبة، ولكنها لا تحوز الميراث ولا ترث الولاية، ولا تجوز لها الإمامة... ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بني عبد المطلب بعد النبي صلى الله عليه وسلم غير العباس، فكان وارثه من عمومته. ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بني هاشم فلم ينله إلا ولده. فالسقاية سقايته وميراث النبي له والخلافة في ولده، فلم يبق شرف ولا فضل في جاهلية ولا إسلام في دنيا ولا آخرة إلاّ والعباس وارثه ومورثه."[103]

هذه الرسالة هي وثيقة هامة جداً لفهم مسار الجدل الذي تبناه المنصور ضد منافسه العلوي. إذا حلّلنا محتويات هذه الرسالة. فسنجد النقاط الواضحة التالية. أولاً، عاد المنصور إلى العادة القبلية القديمة التي تقضي

بأنه عند وفاة الأب يأخذ العم مكانه. ثانياً أكد حكم عمر بن الخطاب لصالح العباس، وبالتالي أكد سلطة عمر كخليفة بما يطابق رأي أصحاب الحديث. ثالثاً أكد أن العباس بصفته عم النبي كان أحق بوراثة النبي من ابن عمه وصهره علي. رابعاً، رفض كل دعوى حق يعود إلى فضل الانتساب لفاطمة، هذا الفضل الذي كان حقاً خاصاً لا مثيل له لنيل احترام الشيعة بخاصة والمسلمين جميعاً بعامة. أخيراً، أكد فشل العلويين في الحصول على الخلافة بسبب ضعف شرعية حقوقهم، وقلّة همتهم، بينما نجح العباسيون في ذلك بفضل شرعية دعواهم وهمتهم ومقدرتهم. ومن المهم أن نلاحظ أن كلاً من المنصور والنفس الزكية يعودان في جدلهما إلى أعراف الجاهلية، ويؤكدان حقوقهما الخاصة المؤسسة على تلك الأعراف التي تشرّفهما ويمكن تطبيقها في الحقبة الإسلامية.

ومن الواضح من التأييد الذي تمتع به النفس الزكية وأخوه إبراهيم بعد هذه المراسلات أن أهل الحديث من المرجئة وسواهم ما كانوا مهتمين بالحجج التي عرضها المنصور لتأكيد حقوق العباس؛ واستمروا في تأكيد أن المرشح الحقيقي الوحيد للخلافة يجب أن يكون علوياً. لقد أشرنا سابقاً إلى فتوى مالك بن أنس حين أعلن أن بيعة العباسيين لم تكن شرعية، لأنها فرضت بالقوة.[١٠٤] وكذلك عندما ثار إبراهيم أخو النفس الزكية أعطى الفقهاء أمثال أبي حنيفة وسفيان الثوري والأعمش وآخرون من أهل الحديث في ا لكوفة تأييدهم له وشجعوا من أراد الانضمام إليه.[١٠٥]

بعد إعادة فتح المدينة وقمع ثورة إبراهيم، أمر أبو جعفر المنصور بجلد مالك بن أنس، وأعتبر أبا حنيفة عدواً شديد الخطر، وحبسه حتى

مات.[١٠٦] وفيما عدا الإجراءات الخاصة بهذين الشخصيتين القويتين والمعاندين والمعارضين، لم يهاجم المنصور المحدثين أبداً. بل بالعلكس، نظر إليهم باعتبارهم مكونات أساسية لبناء أسس دولته الدينية وعلى رأسها خليفة الله (ويقصد نفسه)، وجعل طاعتهم له فرضاً.[١٠٧] وبالتالي، حين قال المنصور في خطبته: "أنا سلطان الله في الأرض"[١٠٨] لم يكن يعلن عن نفسه بصفته حامياً ومدافعاً عن الدين. لقد حدد اهتمامه بالدين الإسلامي وتعامل مع إرادة الله كرديف ومؤيد لأهدافه نفسه.

وعلى كل حال، وبالتدريج، انضم معظم أهل الحديث وفقهاء والكوفة إلى المصالحة مع الخلافة وذلك إما بسبب حقيقة أنه ما من قائد علوي قوي كان مستعداً لقيادة تمرد، وإما بسبب سياسة المنصور الناجحة في الوعد والوعيد. وفي النهاية تخلى الفقهاء والمحدثون عن القضية العلوية راغبين أو كارهين وانضموا إلى طاعة المنصور.

والآن، بعد أن تحدثنا عن الوضع السياسي-الديني الراهن والأحداث المرافقة، أصبحنا أكثر قدرة على فحص عودة الإمامة الشرعية الحسينية بقيادة الصادق إلى الظهور، والدور الذي قام به الصادق في خضم هذه الظروف.

من بين كل الأحداث والأفكار التي حللناها سابقاً، بدت قضية جوهرية ورئيسة واحدة مؤكدة. هذه القضية هي أن كل العلويين المطالبين بقيادة المسلمين والذين ظهروا على الساحة الإسلامية أسسوا دعواهم على مبدأ أنهم الأئمة الحق بفضل ظروف مولدهم ورفعة نسبهم، وأن الإمامة والخلافة لا ينفصلان: أي أن من حقهم الخاص تولي الإمامة الشرعية،

وبالتالي من واجبهم استعادة الخلافة من مغتصبيها الأمويين أو العباسيين. وبكلام آخر، فكّر العلويون أن دور الإمام الحق أن يدير شؤون الخلافة، وهذا يعني إقامة العدل والمساواة، وبالتالي يصبح من الضروري للإمام أن يكون خليفة. وقَبِلَ هذا المبدأ ممثلو "الجماعة" الإسلامية من المعتزلة والمرجئة وأهل الحديث وفقهاء المدينة والكوفة – وهذا واضح من التأييد الكامل الذي منحه هؤلاء إلى القادة العلويين الذين قادوا حركات ثورية. ومن جهة أخرى تبنى العباسيون المبدأ ذاته، وهو عدم التفريق بين الإمامة والخلافة، ولكنهم في الوقت ذاته جادلوا العلويين ورفضوا دعاواهم بالحق في القيادة، وأكدوا أن العباسيين وحدهم هم القادة (خليفة/إمام) الشرعيون. ونجح أبو جعفر المنصور في سحق الثورات العلوية وربح تسليم ممثلي "الجماعة" له.

إن ذلك عني انهيار وفشل المدعين العلويين بالإمامة، لأنهم ربطوا الإمامة بالخلافة التي عجزوا عن الوصول إليها. هذا الوضع الخطير تطلب تفسيراً جديداً وتوضيحاً لمفهوم الإمامة بالكامل.

عند هذا المنعطف الصعب ظهر الإمام جعفر الصادق بتفسير شامل لدور الإمامة. وعدّل بشكل حاسم الرأي السائد حتى تلك اللحظة والذي يفترض أن الإمام يجب أن يكون خليفة أيضاً، وعرض فكرة جديدة تقضي بالفصل بين الإمامة والخلافة ليصبحا مؤسستين مستقلتين حتى يقضي الله بنصر الإمام. هذا الإمام الذي يشترط فيه أن يكون سليل النبي عبر عليّ وفاطمة يستقي سلطته حصراً لا من خلال دعاوي سياسية، وإنما بالنص، أي من خلال تعيينه صراحة من طرف الإمام السابق، ويرث علماً دينياً

خاصاً يتحدّر إليه جيلاً بعد جيل. وبالتالي، يصبح مجال سلطة هذا الإمام هو القيادة الدينية، ونشر الهداية الروحية في الأمــة، ولــيس الســلطة الدنيوية. وسنرى في الفصل القادم كيف فصّل الصادق شرح نظريته عن الإمامة وطبيعة ودور الإمام. ولكن يجب أن نوضح هنا أن الصــادق لم يؤكدهذه النظرية عن الإمامة. فقد رأينا أن فكرة الإمام الشرعي صاحب المعرفة الخاصة نظرية تبناها زين العابدين، ثم طوّرها ابنه الإمام الباقر. أما مع الصادق فقد جاء الوقت المناسب والظروف السائدة فزوداه بــأكثر الفرص الملائمة لتفصيل وتفسير الأفكار التي طرحها أبوه وجده. وهذه الفرصة العظيمة هي التي جعلت من إمامة الصادق حرجة وحاسمة بــآن واحد.

وقبل أن ننهي هذا الفصل نرى أنه يجب ملاحظة نقطتين بشكل ســريع. الأولى، هل فكّر الصادق بنشر نظريته في الإمامة وأفكار والده أن يؤسس فريقاً أو جماعة أو حزباً خاصاً به منفصلاً عن بقية المسلمين، أم أنه أراد أن تكون إمامته مع ما ذكرنا من حقوق خاصة بها مقبولة لدى جميع المسلمين وأن تعترف بها الأمة الإسلامية؟ إن أصحاب الصادق المقربين وجمهــور المسلمين الذين حاول الصادق إقناعهم يؤكدون أن جعفر نفسه لم ينــو تأسيس فريق مستقل يتبع وحده عقيدته في الإمامة. ولكــن اضــطراد الأحداث أثبت أن أولئك الذين كانوا ذوي خلفية وميول شيعية من نوع ما هم وحدهم الذين قبلوا عقيدة الإمامة كما شرحها الصادق وتطوروا فيما بعد ليشكّلوا فريقاً مسلماً مميزاً عن بقية الأمة.

والنقطة الثانية هي أن عقيدة الإمامة ودور الإمام كما فصّلها الصادق خلال حياته وفي هذا المفصل التاريخي حدّدا المرجعية الأساسية للمتكلمين الاثني عشريين (علماء الكلام هم ما يطلق عليهم المسيحيون علماء اللاهوت، أو Theologians) والمنظرين لتفسير وحل العديد من مشاكل فترة ما قبل الصادق. لقد قام هؤلاء بتفسير وتبرير أعمال الأئمة الذين سبقوا الصادق من خلال العقيدة والمبادئ التي صاغها الصادق نفسه مثلاً: قبول علي بخلافة الخلفاء الراشدين الثلاثة، وتخلي الحسن، وموقف الحسين غير الفعّال وسياسة زين العابدين الهادئة وكذلك الباقر. كل هذه المسائل حُلّت على ضوء ما طرحه الصادق من أن الإمام الشرعي لا يشترط فيه أن يكون خليفة يحوز على السلطة الدينوية أو حتى يدعيها، إذا لم تسمح له الظروف بذلك. ومن جهة أخرى، يمكن القول أن نظرية جعفر هي نتيجة طبيعية لازمة لتاريخ عائلته وخبراتها.

مراجع وملاحظات الفصل ١٠

١- عن التاريخ السابق انظر اليعقوبي ج٢ ص٣٨١؛ ابن خلكان ج١ ص٣٢٧؛ ابن الجوزي صفوة ج٢ ص٩٣؛ العاملي أعيان ج٤ ص٥٤؛ محمد بن طلحة، مطالب السؤال ص٨٩ أما التاريخ الأخير انظر المسعودي مروج ج٣ ص٢١٩؛ سعد الأشعري المقالات ص٧٩ ومن الصعب ترجيح أي التاريخين أصح، و إن كنا نميل إلى أن التاريخ الأول محتمل أكثر حيث أن ابن خلكان وآخرين حيث يضعون تاريخ ميلاده عام الجحاف وهو عام فيضان في مكة الذي حصل كما ذكر الطبري ج٢ ص١٠٤٠ عام ٨٠هـ ٦٩٩م.

٢- ابن سعد ج٥ ص٣٢٠؛ اليعقوبي ج٢ ص٣٢٠؛ القاضي النعمان شرح الأخبار مخطوط ورقة ٣٢

٣- ابن خلكان ج١ ص٣٢٧؛ النعمان سابقه

٤- الطبري ج٣ ص٢٥٠٩؛ اليعقوبي ج٢ ص٣٨١؛ سعد الأشعري مقالات ص٧٩ ابن خلكان سابقه؛ الكليني الكافي ص١٩٤؛ العاملي أعيان ج٤ ص٤٥٢

٥- ابن سعد ج٥ ص٢١٦؛ ابن العماد الحنبلي شذرات الذهب ج١ ص١٠٤؛ اليعقوبي ج٣ ص٤٦؛ الكشي رجال ص٧٦-٧٩؛ أبو نعيم حلية الأولياء ج٣ ص١٣٥

٦- ابن سعد ج٥ ص١٨٩ الطبري ج٢ ص١١٨٣؛ ابن عماد شذرات ج١ ص٦٢

٧- انظر الكليني الكافي حيث يقول أن إمامته دامت ٢٨ عاماً على أساس أن تاريخ ميلاده هو ٨٣هـ ٧٠٣م أما إذا كان ميلاده ٨٠ هـ ٦٩٩م فتكون إمامته دامت ٣١ سنة.

٨- اليعقوبي ج٢ ص٣٨١

٩- القاضي النعمان شرح ورقة ٤٢

١٠- سابقه

١١- الشهرستاني الملل ج١ ص١٦٦

١٢- المسقطي تاريخ الشيعة مقال في مجلة RSO ١٩٥٥ ص٢٥١

١٣- برنارد لويس أصول الإسماعيلية ص٢٥ E

١٤- دعي الحسين بالمهدي بن المهدي ولكن هذا اللقب لم يكن يتضمن أية فكرة خلاصية messianic انظر الطبري ج٢ ص٥٤٦

١٥- البلاذري ج٥ ص٢١٨؛ الطبري ج٢ ص٦٠٦ و٦٣٣

١٦- ابن سعد ج٥ ص٩٤

١٧- البلاذري سابقه

١٨- الطبري ج٢ ص٦٧٢-٧١٠؛ البلاذري ج٥ ص٢٥٣ من أجل ألقاب أخرى انظر الطبري ج٢ ص٦٩١؛ البلاذري سابقه

١٩- بخصوص اسم الكيسانية هناك آراء عديدة أما بخصوص شخصية أبو عمر كيسان فهي مشكلة تاريخية. من أجل ذلك انظر الشهرستاني الملل والنحل ج١ ص١٤٧؛ البغدادي الفرق ص٢٦؛ البلاذري ج٥ ص٢٢٩، لويس أصول ص٢٧

٢٠- ابن سعد ج٥ ص١١٥

٢١- ابن خلدون ج٣ ص١٧٢ حيث يذكر أن أبا هاشم صار قائد هذا الجناح الشيعي. انظر دي خويه "أنساب الأشراف، البلاذري" ZDMG ١٨٨٤ ص٣٩٤

٢٢- انظر بيت كثير في الأغاني ج١٦ ص١٤ ومدائح ابن الحنفية عند السيد الحميري في الأغاني ج٧ ص٢٢٧

٢٣- الكشي رجال ص٣١٤

٢٤- أيفانوف، الحركة الشيعية المبكرة مقال في مجلة JBBRAS ص، ٣ E

٢٥- نفسه

٢٦- سكاتش، مدخل إلى الفقه الإسلامي ص٢٣ E

٢٧- المبرد، الكامل ج١ ص٧١٠

٢٨- الجاحظ كتاب فضل بني هاشم ص٩٩؛ رسالة في بني أمية ص٦٦ وانظر تفسير القرآن للآية ١٧ سورة ٥٠ في مختلف التفاسير.

٢٩- مونتغمري واط "الشيعة تحت بني أمية" مجلة JRAS ١٩٦٠ ص ١٦٩ وما يليها E

٣٠- الطبري ج٢ ص١٧٠٠

٣١- الطبري نفسه. بخصوص معنى كلمة "رافضة" انظر وات مقال "الرافضة" مجلة المشرق عدد ١٦ ص١١٦ E

٣٢- الطبري سابقه

٣٣- الطبري ج٢ ص ١٧٠٩؛ الاصبهاني مقاتل ص١٤٠

٣٤- الجاحظ البيان والتبيين ج١ ص٣١١-٣١٢

٣٥- نفسه

٣٦- المبرد، الكامل ج١ ص٢٦٠

٣٧- الطبري ج٢ ص١٧٧٤؛ مقاتل ص١٥٢ وما يليها

٣٨- مقاتل ص١٤٥ وما يليها

٣٩- الجاحظ، البيان ج١ ص٣٣٥، مقاتل ص٢٣٣

٤٠- سنن أبي داود ج٢ ص١٣٥

٤١- الأغاني ج١٢ ص٨٥

٤٢- سنن أبي داود ج٢ ص١٣٥؛ ابن ماجه سنن ج٢ ص٢٦٩

٤٣- سعد الأشعري مقالات ص ٧٤ و٧٧؛ النوبختي فرق ص٥٩

٤٤- سعد الأشعري مقالات ص٧٧؛ النوبختي، فرق ٤٣

٤٥- النوبختي فرق ص٥٢؛ البغدادي، فرق ص٣٦، سعد الأشعري، مقالات ص٧٤

٤٦- مقاتل ص٢٠٩ و٢٩٢

٤٧- نفسه

٤٨- الطبري ج٣ ص١٤٣؛ مقاتل ص٢٠٦ و٢٥٣

٤٩- الطبري ج٣ ص٥٢؛ مقاتل ص٢٠٩ و٢٥٦ وعن الأبواء انظر ياقوت معجم البلدان ج١ ص٧٩. وفي مصدر آخر تمت هذه البيعة في سويقة انظر المقاتل ص٢٩٣؛ دائرة المعارف الإسلامية مقال "محمد بن عبد الله" طبعة١

٥٠- المقاتل ص٢٠٨ و٢٥٣ و١٧٨

٥١- الطبري ج٣ ص١٥٢

٥٢- الطبري ج٣ ص١٤٣، ١٥٢؛ دائرة المعارف الإسلامية سابقة

٥٣- مقاتل ص٢٠٩

٥٤- مقاتل ص٢٠٧، ٢٥٤ ودائرة المعارف الإسلامية سابقه

٥٥- الأغاني ج١٢ ص٢١٣؛ الطبري ج٢ ص١٨٧٩ و١٨٨١؛ وات سابقه ص١٧٠

٥٦- الطبري ج٢ ص١٨٨١ و١٨٨٣ و١٨٨٧

٥٧- وات سابقه ص١٧٠

٥٨- وات مقال دائرة المعارف الإسلامية طبعة٢ "العباس بن عبد المطلب" E

٥٩- الكشي رجال ص٥٦

٦٠- الكشي رجال ص٢٧ فيشيا فيغليري مقالها في دائرة المعارف الإسلامية طبعة٢ بعنوان(عبد الله بن عباس)E

٦١- المبرد، الكامل ص١٨٠

٦٢- مقاتل ص١٢٦، الكامل ج٥ ص٣٢-٣٩؛ مسقطي "وصية أبي هاشم مقال مجلة RSO العدد ٢٧ /١٩٥٢/ ص٤٢-٤٨ E

٦٣- المسعودي مروج ج٣ ص٢٣٨؛ مقاتل سابقه، الكامل سابقه؛ مسقطي سابقه، لويس مقال في دائرة المعارف الإسلامية "الهاشمية" طبعة٢

٦٤- لويس سابقه ومقال "العباسيون"

٦٥- النوبختي فرق ص٢٨-٢٩؛ نشوان الحميري حور العين ص١٥٩-١٦٠

٦٦- لمعرفة جاهزية الخراسانيين لاتباع أي فرع من الشيعة انظر ابن قتيبة عيون الأخبار ج١ ص٢٠٤؛ ياقوت معجم البلدان ج٢ ص٣٥٢

٦٧- تبني إبراهيم الإمام العباسي أبا مسلم الخراساني كواحد من أهل البيت. انظر الطبري ج٢ ص١٩٣٧ و١٩٤٩ أما عن أبي مسلم الخراساني نفسه انظر ابن خلكان ج٣ ص١٤٥-١٥٥؛ المسعودي مروج ج٣ ص٢٣٩؛ ابن قتيبة معارف ص١٤٥؛ الدينوري ص٣٣٧؛ الطبري ج٢ ص١٩٤٩ و R.N. Frye "دور أبي مسلم" مجلة العالم الإسلامي، كانون الثاني ١٩٤٧ E

٦٨- ويلهاوزن مملكة العرب ص٤٩٢-٥٦٦؛ لويس مقال "العباسيون" دائرة المعارف الإسلامية طبعة٢

٦٩- الطبري ج٣ ص٢٥؛ الدينوري ص٣٥٧؛ المسعودي مروج ج٣ ص٢٤٤

٧٠- الطبري ج٣ ص٢٧، المسعودي مروج ج٣ ص٢٥٣

٧١- جهشياري الوزراء والكتاب ص٨٣؛ المسعودي مروج ج٣ ص٢٥٣؛ ابن خلكان ج٣ ص١٤٨؛ الطبري ج٣ ص٢٧؛ اليعقوبي ج٢ ص٣٤٥ و٤٤٩

٧٢- المسعودي سابقه، الطبري سابقه، ويلهاوزن مملكة العرب ص٢٤٤؛ مسقطي مقال في دائرة المعارف الإسلامية طبعة٢ "أبو سلمة"

٧٣- الجهشياري ص٨٦، الطبري ج٣ ص٢٧

٧٤- الجهشياري سابقه؛ ابن الطقطقي تاريخ الفخري ص١٠٩

٧٥- المسعودي مروج ج٣ ص٢٥٣

٧٦- اليعقوبي سابقه المسعودي سابقه، الجهشياري سابقه

٧٧- مسقطي مقال د.م.س طبعة ٢ "أبو سلمة"

٧٨- اليعقوبي ج٢ ص٣٤٥ يقول إن الغيبة دامت شهرين؛ الطبري ج٣ ص٢٧ يجعلها أربعين يوماً، ولم تذكر المصادر الأخرى فترة محددة.

٧٩- لويس مقال في د.م.س. طبعة٢ "العباسيون"

٨٠- الطبري ج٣ ص٢٨ الجهشياري ص٨٦؛ اليعقوبي ج٢ ص٢٤٥؛ المسعودي مروج ج٣ ص٢٥٥

٨١- الطبري ج٣ ص٢٩؛ اليعقوبي ج٢ ص٣٥٠ ويقول أن أبا العباس لم يخطب بسبب حمى أصابته. المسعودي مروج ج٣ ص٢٥٥ ويذكر ملخص الخطبة في سطرين فقط.

٨٢- تذكر معظم المصادر خطبة داود انظر الطبري ج٣ ص٣١؛ اليعقوبي ج٢ ص٣٥٠؛ المسعودي مروج ج٣ ص٢٥٦ تلخيصاً

٨٣- الطبري ج٣ ص٦٠ اليعقوبي ج٢ ص٣٥٢؛ المسعودي مروج ج٣ ص٢٧٠ ابن خلكان ج٢ سابقه

٨٤- الطبري ج٣ ص٥٨؛ المسعودي مروج سابقه

٨٥- لويس مقال د.م.س. طبعة٢ "العباسيون"

٨٦- الطبري ج٣ ص٧٥ و٨٥؛ المقريزي النزاع ص٥٢

٨٧- اليعقوبي ج٢ ص٣٦٩؛ المسعودي مروج ج٣ ص٢٩٥؛ الطبري ج٣ ص١٥١

٨٨- الطبري ج٣ ص١٤٩

٨٩- الطبري ج٣ ص١٩٩؛ مقاتل ص٢٧٧

٩٠- الطبري ج٣ ص٢٠٠

٩١- مقاتل ص٢٩١

٩٢- الطبري ج٣ ص٢٤٨ و٢٥٢ و٢٥٤؛ مقاتل ص٢٤٨ و٢٧١؛ الشهرستاني الملل ج١ ص١٥٦

٩٣- الطبري ج٣ ص٢٩١-٣٠٠؛ ومن أجل الأسماء والتفاصيل انظر المقاتل ص٣٦٠ و٣٦٥

٩٤- مقاتل ص٣٦٥

٩٥- سابقه

٩٦- البغدادي فرق ص٣٦ و١٤٨؛ سعد الأشعري مقالات ص٧٦

٩٧- لقب الروائدية هو اسم منح لاتباع أبي مسلم الخراساني وهم يعتقدون أن أبا مسلم أورث الإمامة لمحمد بن علي العباسي. انظر لويس أصول الإسماعيلية ص٢٨ E

٩٨- كان أبو جعفر المنصور ابن أمة لذلك يبدو أن هذا السبب جعل إبراهيم الإمام يعيّن السفاح خلفاً له وليس المنصور رغم أن المنصور أكبر سناً.

٩٩- المبرد، الكامل ج٤ ص١١٤؛ الطبري ج٣ ص٢٠٩؛ ابن الطقطقي، الفخري ص٢٢٥

١٠٠- الطبري ج٣ ص١٨٩

١٠١- مثلاً: فاطمة والدة أبي طالب، وفاطمة أم علي بن أبي طالب، وفاطمة بنت محمد، وفاطمة بنت الحسين والدة عبد الله المحض، وأخيراً هند بنت أبي عبيدة حفيد عبد المطلب والدة النفس الزكية. انظر مقاتل ص٢٠٢ وقد استهزأ المنصور بهذا الشرف النسائي لأنه ابن أمة.

١٠٢- القرآن الكريم سورة ٣٣ آية ٤٠

١٠٣- الطبري ج٣ ص٢١١؛ المبرد الكامل ج٤ ص١١٦

١٠٤- الطبري ج٣ ص٢٠٠

١٠٥- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد ج٨ ص٣٨٠؛ مقاتل ص٣٦٦، ٣٦٥

١٠٦- البغدادي تاريخ بغداد ج٨ ص٤٢٢؛ الشهرستاني الملل ج١ ص١٥٨؛ مقاتل ص ٣٦٧ و٣٦٨ ويذكر أن أبا حنيفة مات بالسم بأمر الخليفة.

١٠٧- الطبري ج٣ ص٤٢٦ وانظر أيضاً أرنولد، الخلافة ص٥١. وقد تم تأكيد هذا المبدأ من طرف الخلفاء العباسيين المتأخرين انظر الطبري ج٣ ص١٥٦٥

١٠٨- الطبري ج٣ ص٤٢٦

الفصل الحادي عشر

عقيدة الإمامة

لقد شرحنا في الفصول السابقة وبالتفصيل كيف جرى إخماد نشاطات ذرية علي، ويبدو أن حركاتهم الشعبية آلت إلى التوقف، وأصبح العباسيون هم السلطة الوحيدة، وأعلنوا أنفسهم سادة الدين والدنيا. ثم قام العباسيون بسلسلة متواصلة من التحركات لاستيعاب الجماعات السياسية-الدينية، أو الدينية-السياسية، وبالتدريج تم وضع هذه الجماعات تحت سيطرة الدولة من خلال "توليفة" عرفت فيما بعد باسم "الجماعة"، التي أمل العباسيون بتأيدها لهم، كما قاموا هم بدعمها.

وهكذا صار دور الإمام جعفر الصادق الاستراتيجي هو إنقاذ الطموح الشيعي الأساسي (إيصال الإمام إلى سدّة الخلافة) من الذوبان في التوليفة الناشئة مجدداً برعاية الخلفاء العباسيين، وتطهير التشيع من الغلو والميول العنيفة داخله. وهكذا فإن الظروف المحيطة بإمامة جعفر وفّرت له فرصة فريدة لم تتح لوالده أو جده لكي يثبت ويشرح مبادئ الشرعية. لقد تمّ تقديم مفهوم ودور الإمام في خطب الإمام علي ورسائل الحسن إلى معاوية ورسائل الحسين إلى شيعة الكوفة والبصرة، وقد ناقشناها في الفصول السابقة. فقد تم تركيز مفهوم الشرعية على أنه مقصور على ذرية النبي محمد، وأن دور الإمام هو في الهداية الدينية الروحية التي يقدمها للمسلمين وقد قام بهذا الدور والتفسير كلا الإمامين زين العابدين ومحمد الباقر. والآن، بعد أن انزاح كل الطامحين بالإمامة من ذرية محمد عن

المشهد، تمتع الصادق بموقع استراتيجي متقدم، وأصبح دوره توضيح عقيدة الإمامة وتفصيلها في شكل محدد معرّف.

ومن أجل ذلك أكد الإمام جعفر مبدأين أصليين. الأول: هو النص، مما يعني أن الإمامة حق خاص prerogative يمنحه الله لشخص معيّن من ذرية النبي، الذي يقوم قبل وفاته وبهداية من الله بنقل الإمامة لآخر بموجب نص جليّ. وهذا يعني أنه بفضل النص تتحدد شخصية الإمام مهما كانت الظروف السياسية، بفرد معين من ذرية علي وفاطمة، سواء أكان هذا المنصوص عليه حاكماً دنيوياً أم لا. ومن الطبيعي أن لا تصح الإمامة بالنص وحده ما لم يتوفر النسب إلى علي الذي عينه النبي محمد لهذا المقام. وهكذا صار النص الذي أوضحه النبي متسلسلاً من علي إلى الحسن فالحسين وبقي فيما بعد ذلك حصراً في ذرية الحسين حتى وصل إلى الصادق. هذه النظرية المبدئية ميّزت – كما سنرى – إمامة الصادق من دعاوي المدعين الآخرين الذين لم يحوزوا على نص من أسلافهم. زيد بن علي نفى وجود نص من النبي على عليّ[١] أو أي نص من الأئمة الآخرين من أسلافهم. كما أن محمد النفس الزكية وأخاه إبراهيم لم يقولا بوجود نص البتة من السلطات السابقة. وفي المقابل أشار الأشعري[٢] إلى أن فكرة النص هي الأساس عند الروافض[٣] في معارضتهم لحركة زيد بن علي والنفس الزكية من بعده. ورواية الأشعري تتفق مع إجماع الكتّاب الاثنى عشرين أمثال النوبختي وسعيد الأشعري والكشّي من أتباع محمد الباقر الذين أيدوا إمامة الباقر ضد زيد بصفته الإمام العلوي الشرعي الوحيد على أساس سيادة مبدأ النص برغم أن فكرة النص لم تكن قد

وضحت وفُصّلت أيام الباقر. وبالمقارنة مع الروايات المنسوبة إلى الباقر والروايات المنسوبة للصادق يتضح لنا أن الصادق هو الذي أكد وشرح مبدأ النص. وبالتالي وبالمقارنة بين أتباع الباقر وأتباع الصادق نجد أن أتباع الصادق أصبحوا أكثر تماسكاً بفضل توكيد مبدأ النص. وهذا واضح من موقف جماعة من شيعة الكوفة حيث اتبعوا الزيدية عقب وفاة الباقر، لكنهم تراجعوا سريعاً وعادوا لموالاة الصادق الذي وجدوه الممثل الشرعي لفكر الباقر.[٤] وقد اقتبس هودسن قول شتروطمان: "بأن شيعة الكوفة تخلوا عن إمامة زيد لأنهم اعتقدوا بأن الإمامة تكون بالوراثة."[٥] وأصبحت فكرة الإمامة بالنص وسيلة شائعة معروفة حتى أن بعض الغلاة أمثال بيان وأبي منصور والمغيرة[٦] ادعى وراثة إمامة الباقر، وهذا ما سنناقشه لاحقاً، ولاقوا بعض النجاح القصير المدى. ولدينا العديد من الروايات التي تذكر أن الصادق أدان ولعن هؤلاء الغلاة وحذّر أتباعه منهم ومن دعاواهم ورواياتهم.

المبدأ الثاني الأساسي الذي جسده وأكده الصادق فيما يخص الإمامة هو "العلم" وهذا يعني أن الإمام ملهم من الله بعلم يخصّه به فيما يتعلق بالأمور الدينية، وهذا العلم يورثه الإمام لخلفه قبل وفاته. وبذلك يصبح الإمام الحاضر مصدر العلم الديني المعتمد، وبدون علمه فإنه ما من أحد يستطيع الثبات على الصراط المستقيم.[٧] وهذا العلم يتضمن علمي الظاهر والباطن أي علم القرآن.[٨] وبتدقيق الروايات المأخوذة عن الباقر وأغلبها عن الصادق نجد هذه الروايات تؤكد أن الإمامة تقوم على هذين المبدأين: النص والعلم، وهما غير مترابطين أو مضاف أحدهما للآخر، بل

هما منصهران وموحدان في رؤية دينية لدى الإمام ويستحيل فصل أحدهما عن الآخر. وهكذا فإن النص في حقيقته عملية نقل ذلك العلم الخاص بأمور الدين الذي احتواه الإمام المختار إلهياً من ذرية النبي عبر عليّ والذي يمكن نقله من إمام إلى خلفه فقط وضمن العائلة (أهل البيت) المختارة. وهكذا، فإن أتباع الصادق لم ينظروا له بصفته إماماً ومن ذرية علي فقط بل رأوا فيه فرداً مميزاً من ذرية النبي عيّنه والده الباقر وبالتالي ورث مقامه في قيادة المؤمنين في المسائل الدينية.

وكما سنرى في هذا الفصل، إن تراث الباقر والصادق في تأكيد مفهوم "العلم الخاص" الذي يورثه الإمام لخلفه من ذريته وبالتالي من ذرية النبي، إنما هو نتيجة طبيعية واستجابة حتمية للوضع وللميول السائدة في ذلك العصر. فقد ساد في ذلك العصر البحث والتقصي لجمع الحديث النبوي، وجرت محاولة جادّة لتأسيس نظام شامل لحياة التقوى في الإسلام. وقد أثمرت هذه الجهود في تشكيل لنظام جامع للقانون الشرعي. إنه عصر مالك بن أنس وأبي حنيفة النعمان (إماما الفقه اللذان عملا علي تأسيس نظام قانوني كلٌّ في بلده: مالك في المدينة وأبو حنيفة في الكوفة). أما الإمام جعفر الصادق بصفته سليل النبي ومعروفاً بعلمه ومعرفة عائلته بالقضايا الدينية، فقد نظرت إليه الجماعة المسلمة عامة على الأقل بصفته إمام الفقه مثل مالك وأبي حنيفة فقد اهتم بإيجاد نظام تفصيلي يساعد المؤمنين في حلّ القضايا المختلفة في المجالات العلمية التي يواجهونها. لذلك نجد المصادر السنيّة تروي آراءه الفقهية – كما ذكرنا سابقاً أن أبا حنيفة النعمان كان أحد تلاميذه. ولكنه لم يكن في نظر أتباعه مثل مالك أو أبي

حنيفة مجرد إمام في الفقه، بل فإنه بفضل موقعه إماماً بالنص له القول الفصل في المسائل الدينية، أما غير الشيعة فقد أقرّوا بأنه رغم تفوقه لم يكن أكثر أهمية من أيّ من أئمتهم.[٩]

"ربما كانت دعواه مبدئياً بحقه بالعلم الخاص الذي ورثه من والده أقل أهمية من قدرته على استخدام علمه كسلطة نهائية، أو بكلام آخر سيادته الموروثة لإصدار الأحكام النهائية في القضايا الدينية. إن أي صاحب سيادة (سلطة) يجب أن يتمتع بالقدرة على إصدار القرارات النهائية في أية قضية قانونية؛ وهكذا فإن دعوى الحاكم بالسيادة تعطيه الحق تلقائياً بالقرارات النهائية، وفي هذه الحالة في كل القضايا الدينية. والدعوى بهذا الحق يمكن نقلها من شخص إلى آخر ذي طبيعة علمية فوق عادية يقبلها كثير من العقول. لكن في حالة الإمام الشيعي حيث إنه لا يتمتع بأية سلطة زمنية دنيوية يبقى علمه الخاص على مستوى النظرية (بدون قوة فعلية)، فإن دعواه بأن علمه الخاص يهديه في اتخاذ القرارات، تكسب علمه قداسة خاصة ويصبح هذا العلم هبة فريدة من إمام إلى إمام يخلفه. وعلى المستوى نفسه، وبصفته سلطة خاصة مميزة بأنها مصدر المعرفة في كيفية أن يعيش الإنسان حياة تقوى، فإن للإمام دوراً فائق الأهمية سواء أكان حاكماً أم لا "[١٠]

ومع إمامة مؤسسة على مبدأي النص والعلم كما أسسها وشرحها جعفر الصادق، يجب ألا نجد أية صعوبة لفهم كيف تميز الصادق بموقع خاص رغم كل الصراعات على السلطة التي حدثت خلال حياته. إن تأسيس عقيدة الإمامة كما شرحها الصادق لم يعد من الضروري لإمام يتمتع بحق

إلهي (النص) أن يثور على الحكام (الخلفاء) كي يصبح حاكماً. فالإمام بموجب تفسيره صار فوق الحاكم الدنيوي الذي أصبح من واجبه تنفيذ ما يقرره الإمام بصفته سلطة دينية عليا. وهكذا، وعلى هذا الأساس لم يعترض الصادق على دعاوي زيد، بل امتدحه أمام وفد شيعة الكوفة. وفي الوقت عينه صرح الصادق لفضيّل بن راسان بأن زيداً إذا صار ملكاً فلن يعرف كيف يتصرف ولن ينجز واجباته.[11] وبهذه الطريقة أقر الصادق بما يشبه ذلك حين ثار محمد النفس الزكية. كما أكد الصادق أنه ليس لأولاد الحسن بن علي أي حق في القيادة الدينية (الإمامة).[12] بل إن الإمامة تورث فقط في ذرية الحسين. هناك روايات عديدة بهذا الخصوص تؤكد أن الباقر نص على الصادق ليخلفه في الإمامة. لقد قال عنه: "إنه أفضل شخص في زمانه" و"قائم آل محمد"، وائتمنه على كتب وصحف وسلاح النبي محمد التي كانت بحوزته.[13] هذه الكتب تتضمن علم الدين الخاص أما سلاح النبي فيجب أن يبقى في حوزة الإمام الحقيقي المعين بنص جليّ من والده. وعندما أعلن الصادق أن هذه الأشياء في حوزته فإنه تلقائياً رفض حق النفس الزكية في الإمامة رغم أنه ادّعى أن سيف النبي عنده.[14] وسواء أكانت هذه النفائس في حوزة الصادق أم في حوزة الثائرين من أولاد الحسن (محمد النفس الزكية وأخوه إبراهيم) فإن الصادق بقي القائد الوحيد لجماعة المؤمنين على أساس المبدأ ذاته الذي أقره الباقر وبالتحديد "النص"

قال الصادق إن الإمامة تورّث من الأب إلى أحد أولاده وليس شرطاً أن يكون الولد الأكبر سناً، كما اختار دانيال سليمان من ذريته، وهكذا

فالإمام يختار من أولاده من يراه جديراً بهذا المقام. وبـــذلك اســـتطاع الصادق أن يبطل نصه على إسماعيل ولده الأكبر الذي توفي في حياته ولم يعين ولده الثاني عبد الله، بل نقل الـــنص إلى ولـــده الثالـــث موســـى الكاظم.[15] وفي شرحه لمقام الإمام أكد الصادق مراراً وبصورة مطلقة أن الإمامة ميثاق بين الله والناس جميعاً، وإن ولاية الإمام هي واجب مطلـــق على كل مؤمن.[16] قال: "من مات ولم يعرف إمام زمانه مـــات ميتـــة جاهلية."[17] والأئمة حجج الله في الأرض، وكلامهم كلام الله وأمـــرهم أمره، وطاعتهم طاعته، ومعصيتهم معصيته. وهم في جميـــع أحكـــامهم ملهمون من الله ولهم حق الولاية على الناس. وإن الله أمر بطاعتهم."[18]

وأعلن الصادق أن الإمام هو الشاهد على الناس وأنه باب الله وســـبيله والدليل إليه وناشر علم الله ومفسِّر وحيه. والإمام معصوم عن الخطـــأ والضلال. والأئمة هم أولئك الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهـــرهم تطهيراً، وهم أصحاب المعجزات والدلائل، وأمان الناس على هذه الأرض كما أن النجوم أمان لأهل السماء، وهم كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها هلك، وبهم تقبل توبة التائبين.[19] وفي رواية أخـــرى "إن الله خصّ الأئمة بالقيادة الروحية فوق جميع البشر، وبالتالي لابد من بقـــائهم قادة وهداة. حتى لو لم يبق في عمر الأرض إلا رجلان فإن أحدهما هـــو الإمام ما دام الناس في حاجة لهداية الله."[20]

والواقع أنه بحسب شرح الإمام الصادق فإن هناك دائماً إمامين: الإمـــام المستقر(الناطق) وابنه —خلفه وهو الذي يبقى خلال حياة والده صامتاً.[21] ولا يعرف الإمام الصامت (الابن) موقعه السامي حتى وفاة والده، وعندها

فقط يؤتمن على الكتب المقدسة وأسرار الدين. وعند وفاة الوالد–الإمام يرتقي المنصوص عليه عرش الإمامة ويصبح حجة للبشر.[٢٢]

وكما أشرنا سابقاً فلكي يبرهن الإمام على حقه في الإمامة لابد من التأكيد على النص وبالتالي يجب التأكيد على حق علي بقيادة الأمة الروحية بصفته المختار من الله باعتباره وصيّ الرسول. وليس هذا أمراً جديداً. فقد أكد علي هذا الحق مراراً منذ وفاة النبي وحتى استشهاده، وكذلك فعل الحسن والحسين وزين العابدين ومحمد الباقر وكلهم أكدوا حق علي وذريته وسموّهم في وراثة النبي. وبذلك كانت فرصة الصادق أفضل حيث جرى تأسيس حق العلويين في الإمامة منذ زمن بعيد، ولم يكن دوره في ذلك سوى إعادة تأكيد وشرح وتوضيح هذا الحق. وبالتالي فإن الصادق اقتفى أثر والده واقتبس العديد من الآيات القرآنية التي رأى أنها تبيّن مصداقية تعين عليٍ للإمامة. والآيات العديدة المقتبسة والمذكورة في العديد من المصادر الشيعية[٢٣] هي كما يراها جميع المسلمين من الآيات المتشابهات، وبالتالي فهي تتطلب التأويل على عكس الآيات المحكمات الواضحات المعاني. ومن هذه الآيات: "هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كلٌ من عند ربنا، وما يذكر إلا أولوا الألباب."[٢٤]

وحدث أن تأويل هذه الآيات لم يجر حتى أيام الصادق. وكان جعفر بفضل ميلاده وخلفية عائلته هو الأقدر على تفسير القرآن من بين

المفسرين الآخرين، وبالتالي كان من الطبيعي أن يفضِّل فريق من المسلمين (الشيعة) الموالين لذرية النبي تفسير الصادق على تفسير الآخرين الذين يحصلون على علمهم بعد تلمذة طويلة الأمد.

ومثل النص فإن العلم الديني الخاص الذي نسبه الصادق لنفسه يجب إرجاعه لعليّ، هذا العلم الذي انتقل منه إلى خلفه إماماً بعد إمام حتى آل إلى جعفر نفسه. ولذلك قال جعفر إن النبي "ائتمن علياً على اسم الله الأعظم وآثار النبوة."[٢٥] وهذه إحدى الروايات من بين العديد من أمثالها التي سجلتها المصادر الشيعية وكلها تتحدث عن علم فائق تميّز به علي من بين أصحاب النبي جميعاً. ومن المؤكد، أن هذه الروايات تحمل مصداقية كبيرة نظراً لشهرة علم علي وانتشاره بشكل لا نجد له مثيلاً، فلم تكن المصادر الشيعية وحيدة في نقل ما اشتهر عليّ به من علم بل نجد في ا لمصادر السنيّة مثيلاً لذلك وكتب الحديث السنيّة سجلت العديد من الأحاديث التي تنسب لعلي علماً سامياً غير عادي.[٢٦] وكما أشرنا سابقاً، فإن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب قال مراراً: "علي أقضى القضاة بين أهل المدينة وزعيم قراء القرآن."[٢٧] ولعل أشهر احاديث علم عليّ مما دونته المصادر السنيّة هو قول النبي: "أنا مدينة العلم وعلي بابها."[٢٨] ونظراً لكثرة الأحاديث التي تنسب علماً خاصاً لعلي وقد سجلتها مصادر الفرقاء فما عاد هناك مجال للشك بعلم علي الخاص، وقد أقرّ معاصروه هذه الحقيقة. ولذلك صار هذا العلم الموروث في ذرية علي حجة لأثبات حقوق الإمام الشرعي من بين هذه الذرية.

هناك معضلة أخرى ذات صلة بدعوى الصادق بنص وعلم خاص موروث هي قضية صحة الانتساب لأهل البيت. فمن جهة أولى فإن جميع ذرية علي سواء من فاطمة أم من سواها أدّعو الانتساب إلى "البيت المقدس" ومن جهة أخرى فإن العباسيين المنتمين إلى هاشم جد النبي أدّعو حقاً خاصاً بانتسابهم لأهل البيت، وقد جلّهم أتباعهم باعتبارهم أئمة ملهمين من الله ومهديين. لذلك أكد الصادق مرة بعد أخرى على حديث نبوي يحدد أن المقصود بأهل البيت المطهرين المذكورين في القرآن هم علي وفاطمة وذريتهما. هذا الحديث معروف بأهل الكساء أو حديث أصحاب الكساء. وهو كما يلي: "أدخل النبي علياً وفاطمة والحسن والحسين تحت عباءته في بيت أم سلمة، وقال: لكل نبي أهل وثقل وهؤلاء عائلتي وثقلي، وعندما سمعت أم سلمة ذلك سألت النبي ألست من أهل بيتك؟ فأجابها النبي: لا لكنك على خير. إن هؤلاء الداخلين تحت العباءة هم وحدهم أهل بيتي وثقلي."[29]

هذا الحديث طويل. لكن الجزء الهام منه هو نزول الملاك جبرائيل ليبلغ محمداً بقوله تعالى: "إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً."[30] والمقصود بأهل البيت يتجلى من دعوة النبي جبرائيل ليخبرهم قائلاً: "إن فاطمة وزوجها علي وطفليهما الحسن والحسين تحت العباءة."[31] ومن الواضح أن التركيز في هذا الحديث لم يكن على عليّ بل على فاطمة مع الإشارة إلى علي والحسن والحسين. وتقاليد ما قبل الإسلام لا تخلو من أمثلة حيث نجد شخصيات عرفت بأمهاتهم أو زوجاتهم. وفي حالة فاطمة رأينا كيف أشار محمد النفس

الزكية في رسالته إلى الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور إلى نفسه بوصفه حفيد فاطمة. وكذلك فعل الأئمة الزيديون حيث رأوا أن الإمامة حق لأولئك المنحدرين من علي وفاطمة فقط. ولكنه جعفر الصادق بامتياز هو الذي أكد هذه النقطة بنجاح. وهذه الميزة تنطوي على قبول كبير لدى جماهير المسلمين وبالتالي تشكل قضية محورية في إثبات شرعية إمام ما. وهذا ما أدى لأن تصبح فاطمة في التراث الاثني عشري شخصية جليلة جداً.

استطاع الصادق خلال حياته ومن خلال هذه الأحاديث أن يؤسس قداسة خاصة للأئمة من سابقيه ولا حقيه من أهل البيت، وأن هذه القداسة محدودة بأولاد وأحفاد الزهراء، وبالتالي رفض كل دعوى قام بها أي من الهاشميين سواء أكان علوياً أو عباسياً.

عرّضت دعوى الإمامة المؤسسة على النص والعلم الخاص كما شرحها الباقر والصادق كل مطالب بها إلى خطر الملاحقة والاضطهاد من طرف العباسيين الذين أدّعوا قيادة الأمة الإسلامية الروحية. وهكذا ظهرت إلى الوجود عقيدة "التقية" التي صاغها وأكدها الصادق نفسه، وجعلها تقريباً أحد شروط الإيمان. ومن المهم أن نلاحظ أنه ما من حديث عن التقية قبل الباقر، وهذا يعني أن التقية كانت عقيدة من إنتاج فكر الباقر وقد شرحها وأكدها الصادق، وكانت في الحقيقة حاجة فرضها الزمن والظروف التي مرّ بها كلاهما حين كانا ينظمان عقيدة أتباعهما. ربما يرى المرء أن نظرية التقية تناسب جداً نظرية العلم غير العادي المتجسد في الأئمة والذي يجب أن يقتصر على أفراد قلة وهم الذين يرثون هذا العلم

من خلال النص. ولهذا قال الصادق: "هذا الأمر (الإمامة) وعلم باطن الدين مستور ومحجوب بميثاق وكل من يكشفه يلعنه الله."[٣٢]

في حديث مع المعلّى بن خنيس أحد غلاة الكوفة والذي لعنه الصادق قال له الصادق: "اكتم أمرنا ولا تذعه، فإنه من كتم أمرنا ولم يذعه أعزّه الله به في الدنيا وجعله نوراً بين عينيه في الآخرة، يقوده إلى الجنة، يا معلّى من أذاع أمرنا ولم يكتمه أذلّه الله في الدنيا ونزع النور من بين عينيه في الآخرة وجعله ظلمة تقوده إلى النار. يا معلى إن التقية من ديني ودين آبائي، ولا دين لمن لا تقيّة له، يا معلّى إن الله يحب أن يعبد في السر كما يحب أن يعبد في العلانية يا معلّى إن المذيع لأمرنا كالجاحد له."[٣٣]

إن أسرار الدين الباطنة هي ولاية الله، والله ائتمن جبرائيل على هذه الأسرار وهو بدوره أحضرها لمحمد. ثم نقلها النبي إلى علي، ثم صارت إرثاً يتوارثه الأئمة الملزمون بحفظها.[٣٤] وبالتالي فمن واجب المؤمنين ألاّ يذيعوا عقيدتهم إلا لمن يشاركهم العقيدة ذاتها. وقد اتهم الصادق الكيسانية بالضلال حين أذاعوا أسرار الدين لدى العامّة. قال الصادق: "مازال سرّنا مكتوماً حتى صار في يدي ولد كيسان فتحدثوا به في الطريق وقرى السواد."[٣٥]

إن فحص التطورات في مفهوم وعقيدة التقية يكشف حقيقة أن التقية كانت نتيجة طبيعية للظروف المحيطة في ذلك الزمان، وضرورة فرضها الخطر الناتج عن الصراع السياسي والمذهبي. إن إعلان أن أشخاصاً محددين ملهمون من الله باعتبارهم أئمة، وهم وحدهم الذين فرض الله طاعتهم كان تحدياً مباشراً لسلطة الخلفاء العباسيين الذين ادّعوا لأنفسهم

السلطتين الزمنية والدينية. ولهذا كان على التشيع أن يوجد وسيلة لحماية نفسه في ذلك الوضع الصعب. وكانت التقية هي الوسيلة الناجحة، لكن العرف السائد يومئذٍ هو تبرير كل شيء بموقف ديني وذلك باقتباس سابقة من القرآن أو الحديث النبوي وهذا ما فعله الصادق. فقد أشار جعفر إلى أن النبي يوسف وإبراهيم تحولا إلى التقية وأخفيا الحقيقة: الأول حين اتهم أخاه بالسرقة، والثاني حين ادعى أنه كان مريضاً.[٣٦] وكذلك فإن النبي محمد لجأ إلى التقية في بداية بعثته حتى جاءه الوحي يأمره بإعلان نبوته قال تعالى: يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس."[٣٧] والآية الأخرى التي تؤكد عقيدة التقية تقول: "من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان."[٣٨]

تم تأسيس عقيدة التقية أيام الباقر، ويمكننا أن ننسب أصولها له. ولكن الصادق هو الذي وضع اللمسات الأخيرة عليها وجعلها شرطاً مطلقاً لصدق الإيمان. قال الصادق: "اتقوا على دينكم فاحجبوه بالتقية، فإنه لا إيمان لمن لا تقية له."[٣٩] ويرى جولدزهير Goldzihr أن تاريخ التقية يعود إلى محمد بن الحنفية وأنه التجأ إليها، لكنه يعود فيقول أن جعفر شرح هذه العقيدة على أساس أنها أحد مبادئ الشيعة الناتجة عن حاجات الظرف السياسية.[٤٠]

وعلى كل حال، فإن من الصعب الجدل في عقيدة التقية، التي جعلها الصادق جزءاً ضرورياً من الإيمان، وبأنها خدمت الشيعة بصفتها وسيلة مفيدة لحفظ إيمانهم خلال كل الظروف غير المواتية لهم أو بالأحرى

المعادية سياسياً. ويوضح ذلك حديث رواه الصدوق عن جعفر قال فيه: "خالطوا الناس ظاهراً ولكن عارضوهم مادامت المسألة قضـــية رأي."[٤١] وفي مناسبة أخرى وحين كان زكريا بن صادق يعدد الأئمـــة في مجلـــس الصادق وحين وصل إلى الباقر قاطعه الصادق قائلاً: "هذا يكفيك، لقـــد ثبت الله لسانك وهدى قلبك."[٤٢] ولعلنا نختم بعد عـــرض كـــل هـــذه الروايات بالقول: إن المعنى الحقيقي للتقية هو ليس قول الكذب أو الزور، كما يقال أحياناً، بل هي وسيلة لحماية الدين الصادق وأتباعه من الأعداء من خلال التستر في ظروف مخيفة حين يتعرضون للقتل أو الاعتقـــال أو الإهانة.

هناك قضية أخرى تستدعي مناقشة سريعة. وهي أن هناك مجموعة مـــن الأحاديث في المصادر الشيعية المبكرة بخاصة مثل الكافي تصف الأئمة بأنهم بشر فوق عاديين supernatural. فما هو مصدر هذه الأحاديث، وإلى أي مدى يعتبر الأئمة مسؤولين عنها؟ إن جميع هذه الأحاديث رويـــت ودونت بصفتها مجموعة أحاديث شيعية، ونسبت لأحد الأئمة وبخاصـــة للباقر والصادق. ولكن هل من الصحيح أن الأئمة مسؤولون عن هذه الأحاديث؟ وفي الجواب على هذه التساؤلات نرى أن أول مـــا تجـــب ملاحظته هو أن هذين الإمامين عاشا في المدينة ومعظم أتباعهم عاشوا في الكوفة. هذه الحقيقة تقودنا إلى معضلة صعبة. فالكوفة كانت لفتـــرة طويلة موطن الغلاة ومركز نشاطاتهم. وسواء كان عبد الله بن ســـبأ[٤٣] الذي ينتسب إليه تاريخ الغلاة شخصية حقيقيـــة أم لا فـــإن مصـــطلح السبئية[٤٤] استخدم مراراً لوصف غلاة الكوفة الذين اعتقدوا بمواصفات

فوق طبيعية في عليّ. فبحسب روايات كتاب الفرق، فإن ابن سبأ هو أول من بشر بعقيدة الوقف (أي التوقف عن التصديق بموت علي)، والأول الذي سبّ الخليفتين الأولين إضافة إلى عثمان.[٤٥]

يقول البغدادي أن السبئية تتكون من بقايا السبأيين سكان سبأ في جنوب الجزيرة العربية نجوا من تقلب الأيام حتى أيام المختار وشكلوا مجموعة قدست كرسيّه.[٤٦]

يبدو أن المجموعة الأولى من الغلاة ذابت في الكيسانية أتباع محمد بن الحنفية وهم يعتقدون بمهدويته ومن ثم اتبعوا ابنه أبا هاشم عبد الله. وقد كانت وفاة أبي هاشم نقطة تحول خطيرة في تاريخ الغلاة، لأنها أدت إلى انقسام الغلاة إلى مجموعتين متميزتين. إحداهما تابعت خلفاء أبي هاشم وهم يعتقدون بالتقية وبالرجعة وهم الذين استوطنوا إيران. وقد نمت هذه المجموعة وعرفت بحركة الخرّميّة الثورية أواخر العهد العباسي. والأخرى تجاوزت الكيسانية، وبقيت في الكوفة، وبطريقة ما ربطت نفسها بالأئمة الحسينيين. وأشهر أسماء هذه المجموعة الذين اتبعوا الباقر ثم الصادق هي حمزة بن عمارة البريدي وبيان بن سمعان وسعيد النجدي والمغيرة بن سعيد العجلي وابن قبيلة أبو منصور العجلي ومحمد بن أبي زينب مقلص بن الخطاب. ويطول بنا البحث لو استطردنا في بحث أفكارهم ودعواهم هنا؛ ويكفينا القول بأنهم اعتقدوا بأن الإمام هو تجسد إلهي حيث أن جزءاً من الله تجسد في علي بن أبي طالب مكّنه من معرفة الغيب وأقدره على الإخبار عن المستقبل ومقاتلة الكفار وذلك أن قوة

عالم الملائكة الخفيّة كانت في علي مثل المصباح في مشكاة في حائط وأن نور الله كان في علي مثل ضوء في لهب الشمعة.[47]

وفيما يتصل بهؤلاء الغلاة وأفكارهم فإننا سنذكر فقط أنه منذ عهد الباقر وما بعده لعن الأئمة الغلاة مراراً وحذروا المؤمنين من الأخذ برواياتهم التي نسبوها للأئمة.[48] ينقل الكشّي تذمر الصادق من المغيرة ووصفه له بأنه أساء تمثيل شيعة الباقر وأضاف أن الغلو المنسوب إلى الباقر يعود كله إلى المغيرة.[49] ولم يقصّر الصادق وخلفاؤه الأئمة في لعن الغلاة والتبرؤ من أفكارهم.

وكان في الكوفة مجموعة أخرى نشطة في الدعاية لإمامة الباقر والصادق. وأهم رجالها جابر بن يزيد الجعفي وأبو حمزة الثمالي ومعاذ بن فرّا النحوي. وهؤلاء ترددوا على مجلس الأئمة في المدينة وعملوا كصلة وصل بين الأئمة وغلاة الكوفة. وقد جادل هؤلاء الغلاة نيابة عن الأئمة حول الأفكار الغالية، وعارضوهم وسفهوا آراءهم وبخاصة فيما يتعلق بشخصية الأئمة ودورهم. وبقي هؤلاء أمناء على أتباع الأئمة، بينما تجاوز الغلاة أوامر وأفكار الأئمة. ومع ذلك، حين ننظر إلى الأحاديث التي رواها جابر وأصحابه من هذه المجموعة يبدو لنا أنهم تأثروا إلى حدٍ ما ببعض الأفكار التي دعا إليها الغلاة وبخاصة أفكار بيان بن سمعان والمغيرة بن سعيد.

ربما لم يكن من بين أتباع الأئمة من تجرأ كما فعل جابر. ونروي هنا الأحاديث التي رواها جابر التي تظهر تطرفه semi ghluao. روى جابر أن الباقر قال: "يا جابر إن الله أول ما خلق خلق محمداً صلى الله عليه

وآله وسلم وعترته الهداة المهديين، فكانوا أشباح نور بين يدي الله، قلت: وما الأشباح؟ قال: ظلُّ النور أبدان نورانية بلا أرواح وكان مؤيّداً بروح واحدة وهي روح القدس، فبه كان يعبد الله وعترته ولذلك خلقهم حلماء علماء بررة أصفياء يعبدون الله بالصلاة والصوم والسجود والتسبيح والتهليل ويصلّون الصلوات ويحجون ويصومون."[53]

إذا قارنا فكرتي الغلاة المتعلقتين بنور الله في علي كما أشار جابر مع المواصفات التي نسبها للأئمة بصفتهم أبداناً نورانية وظل النور فيبدو لنا أن ثمة ميلاً عاماً في التفكير بين الحالين.

وربما كان لهذا السبب أن مجموعة الغلاة المتأخرين قبلوا جابر بصفته سابقهم. ويبدو هذا واضحاً من إعلان أبي الخطاب وخلفائه الذين ادعوا أن جابراً هو أستاذهم وسابقهم.

ولذلك قيل أن "أم الكتاب" تحتوي على تعليم الباقر وجابر بن عبد الله الأنصاري وجابر الجعفي.[54] وهناك كتابة دينية أخرى هي رسالة الجعفي وهي تحتوي على عقائد إسماعيلية مؤسسة بشكل رئيسي على عرض جابر برواية عن الباقر.[55] ويظهر أن لا أم الكتاب ولا رسالة الجعفي تمثّل آراء الباقر وربما القليل مما نسب إلى جابر نفسه. ومع ذلك فإن اعتباره الأب الروحي كما ادعى خلفاء أبي الخطاب من الغلاة هي مسألة هامة.

وعلى كل حال، وبرغم الإدانات المتكررة التي أعلنها الباقر والصادق والأئمة الحسينيون للغلاة، فإن عدداً من الروايات التي تحمل أثر الغلو تسربت إلى كتب الحديث الشيعية. ومعظم هذه الروايات مأخوذة عن

جابر. ومن الصعب اليوم التأكيد بأن هذه الأحاديث رواها جابر، أو أنها من اختراع الغلاة المتأخرين ونسبوها لجابر، وجرى تداولها في بعض أوساط الشيعة. وفي علم الحديث سواء عند السنة أو الشيعة فإن موضوع وصلب الحديث قلما جرى التدقيق فيهما، وإنما تم قبول أو رفض الحديث بناء على مصداقية الرواة. وعند الشيعة تم قبول أحاديث كل من أثبت صدق ولائه لإمام زمانه. وأما بالنسبة لجابر وبرغم ميوله الغالية ومبالغاته بقي مخلصاً للباقر والصادق. وعندما صنف محمد بن يعقوب الكليني المتوفي ٣٢٨هـ ٩٣٩م أول كتاب شيعي جامع للأحاديث وهو الكافي في علم الدين كان همه تدوين كل ما وصل إليه عن الأئمة من أولئك المعروفين بولائهم لأحد الأئمة. وبهذه الطريقة تسرب إلى التراث الشيعي كثير من الروايات التي تنسب للأئمة مواصفات فوق بشرية وغير طبيعية لأن هذه المواصفات كانت متداولة بين مجموعات الغلاة في الكوفة.

وعلى كل حال، يتضمن الكافي العديد من أحاديث الباقر والصادق والتي تنفي بوضوح أنهما يتمتعان بقوى غير طبيعية ويقللان من أهمية المعجزات التي نسبت إليهما.[٥٦] ولهذا السبب يمكن اعتبار الصادق غير مسؤول شخصياً عن الصفات غير الطبيعية التي نسبها الغلاة من شيعة الكوفة للأئمة. والواقع أن الصادق لم يلعنهم ويطردهم كما فعل مع أبي الخطاب، وكما فعل الباقر مع بيان وأبي منصور والمغيرة. كما يوجد في الكافي العديد من أحاديث الباقر والصادق وفيها يعلنان أنهما كانا ببساطة يخشيان الله، وميزا نفسيهما عن الآخرين لأنهما كانا من سلالة النبي،

وبالتالي فهما وصيّان وحاميا رسالته. وبفضل تقواهما وحقيقة أن معرفة الله جاءتهما من خلال النص والعلم، فإنهما استطاعا أن يعيشا حياتهما مطيعين لإرادة الله.[٥٧] وأما ما يخص الأحاديث التي تنسب للأئمة صفات غير عادية، فإن حديث الصادق الحاسم بهذا الخصوص هو قوله: "إذا ورد عليكم حديث فوجدتم له شاهداً من كتاب الله أو من قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وإلاّ فالذي جاء به فهو أولى به. وقوله: كل شيء مردود إلى الكتاب والسنّة، وكل حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف"[٥٨] ومن الجدير بالملاحظة أن الصادق عاش قبل البخاري ومسلم بقرن من الزمان ونجده قد وضع معياراً حاسماً لتبيّن صدق الحديث (مقارنته بما في القرآن)، هذا المعيار المبدأ الأهم لضبط الحديث.[٥٩]

وزيادة على ذلك، فإن حقيقة أن الغلاة وأنصاف الغلاة نسبوا تصوراتهم إلى الأئمة، وأن الأئمة لم يكونوا مسؤولين عن ذلك فتضح من رواية الكشّي، وهي أن أحد أتباع الإمام علي الرضى قرأ مرة في مجلسه أحاديث نقلها من مدونات شيعة العراق الذين أخذوا عن الصادق والباقر؛ عندها رفض الرضى بقوة صحة هذه الأحاديث وأعلن أن أبا الخطاب وأتباعه عملوا جاهدين كي يدون كذبهم في المدونات.[٦٠] وكذلك لاحظنا كيف تذمر الصادق من إساءة المغيرة في إبراز علم الباقر.

لقد ناقشنا حتى الآن مجموعة الغلاة وشبه الغلاة من بين أتباع الصادق الذين زعموا للأئمة مواصفات مبالغاً فيها؛ ولكن لم يكن جميع شيعة الصادق من الغلاة أو متطرفين. كان معظم الشيعة مميزين عن المسلمين الآخرين فقط بولائهم لذكرى عليّ وقناعتهم بأنه كان أفضل مسلم لتولي

قيادة الأمة الإسلامية دينياً ودنيوياً. ولذلك اعتبروا الإمامة حقاً خاصاً بعلي وذريته وأن هذا كان أمراً من الله. وأفضل مثال على هؤلاء هم الذين عرفوا فيما بعد باسم الإثني عشرية وخير من يمثلهم هو عبد الله بن أبي يعفور الكوفي. فقد عارض مواطنه المعلّى بن خنيس الذي قال بأن الأئمة أنبياء. فقد رفض ابن أبي يعفور ذلك، وقال أن الأئمة كانوا مطهرين يخشون الله ومتكلمين (من علم الكلام) وأوصياء الله لقيادة الأمة على الصراط المستقيم.[61] كان ابن أبي يعفور مستقيماً في تدينه وتمتع باحترام الصادق له.[62] كما تمتع بثقة أهل الحديث المعتدلين، وعندما توفي في حياة الصادق تبع جنازته العديد من المحدثين والمقربين من الشيعة وهم المرجئة.[63]

وكان ثمة مجموعة أخرى ضمن أتباع الصادق شغلوا أنفسهم بنشاط فكري أو المسائل الجدلية في تلك الأيام، بالتوازي مع أفكار المعتزلة. جمّع الصادق حوله رجالاً ساندوا قضية التشيع وتمتعوا بمواهب ومواقف صلبة جادلوا المفكرين المسلمين الذين كانوا يتأملون ويفكرون بالقضايا الفلسفية السائدة يومئذٍ. هذه المجموعة من الرجال شكلت أول المتكلمين الشيعة ودعمت بأفكارها عقيدة الإمامة، وظهرت في بداية أمرها من بين صفوف الشيعة المتطرفة في مناخ معادٍ وترددت أسماء أشهرهم في كتب الفرق. وقد أهتم بهذه المجموعة أبو الحسن الأشعري،وميزهم بوضوح عن الغلاة وأشباه الغلاة من بين أتباع الصادق. وربما ساعدتنا دراسة متأنية ونقدية لكتب الفرق للتفريق والتميز بين الأفكار الشيعية والسنيّة المتشابكة في المراحل الأولى لتطور المدرستين. وعلى كل حال، فإن قرب

هذه المجموعة من الصادق ساعدت إلى حد بعيد على تطور التشيع بعيداً عن أي تأثير جانبي. وقد أُعتبر هؤلاء المتكلمون المفكرون نخبة المتكلمين الشيعة برغم أن الكلام لم يكن قد أخذ شكله النهائي كعلم خاص وكان هؤلاء متكلمين وفلاسفة ومحدثين في الوقت عينه.

وأول من يستحق ذكره من بين هؤلاء هو أبو الحسن بن أعيان بن سوسن الذي اشتهر بكنيته زرارة. كان زرارة مولى لبني شيبان في الكوفة، وحفيد راهب يوناني دخل في الإسلام.[٦٤] وقد أيد زرارة في بداية أمره زيد بن علي، وكان مع أخيه حمران بن أعين والطّيار تلاميذ الحكم بن عتيبة الزيدي أحد مفكري المعتزلة أيضاً. وهذه التلمذة تشير إلى أن زرارة بتأثير من أفكار معلمه طوّر اهتمامه بالتأمل الفكري. بعدئذ غير حمران ولاءه واتبع الإمام الباقر ثم تبعه في ذلك أخواه وأخيراً زرارة.[٦٥]

وبعد وفاة الباقر لازم زرارة الصادق الذي امتدحه قائلاً: "أحب أربعة من الرجال أحياءً وأمواتاً: بُريد بن معاوية العجلي، وزرارة، ومحمد بن مسلم والأحول."[٦٦] وقال عنه ابن أبي عمير[٦٧] بأنه كان إلى جانب معاصريه عند زرارة مثل الأطفال حول معلمهم.[٦٨] وقد واجه زرارة مصاعب بل مخاطر بسبب نشاطه الفعّال لصالح قضية الصادق. ولكي يجنبه الصادق المخاطر لجأ الصادق إلى عقيدة التقية حتى أنه تنكر علناً من زرارة بل وحتى لعنه. ولتبرير ذلك قال الصادق أنه فعل ذلك أسوة بالخضر الذي أغرق السفينة كي لا يأخذها الملك الجبار.[٦٩]

كان زرارة الذي عاش في الكوفة يزور الصادق من وقت لآخر والتقى به أحياناً في مكة، وفي الكوفة جمع حوله مجموعة كبيرة من التلامذة. واشتهر

زرارة باهتمامه بعلم الحديث والفقه والكلام ومن الكلام كسب شهرته الواسعة. والواقع أنه كان المؤسس لعلم الكلام الشيعي بمعناه الدقيق، وأول أساتذة هذا العلم،[٧٠] ضمن أتباع الصادق.

وكان من بين تلامذة زرارة المخلصين للتشيع أبناؤه حسن[٧١] وحسين[٧٢] وعبيد الله[٧٣] وأخوه حمران النحوي ومن أكثر المقربين من الباقر[٧٤]؛ وحمزة بن حمران[٧٥] وبكير بن أعين[٧٦]، وابنه عبد الله[٧٧]، ومحمد بن الحكم،[٧٨] وحميد بن رباح[٧٩] ومحمد بن النعمان الأحول وهشام بن سالم الجواليقي.[٨٠] وعرفت مجموعة زرارة بالزرارية أو التميمية،[٨١] وقد أدى نشاطها في حقل علم الكلام إلى دعم التشيع وبخاصة أتباع الصادق ومن بعده موسى الكاظم.[٨٢] وقد طورت هذه المجموعة بقيادة زرارة ومتكلمين آخرين نظرية أن معرفة الله واجب على كل مؤمن، وأن هذه المعرفة غير ممكنة بغير إمام منصوب من الله، وبالتالي فإن طاعة الإمام التامة هي فرض ديني. وأن الإمام بالضرورة موهوب علماً خاصاً. وأن ما يحصل عليه الناس الآخرون بالتفكر والنظر يعرفه الإمام بعلمه الخاص الموهوب وأن علمه لا مثيل له. ونظّم زرارة وأتباعه آراءهم في مختلف القضايا التي نعرفها اليوم باسم الفلسفية الحرفية scholastic philosophy مثل: صفات الله وذاته وأفعاله وإرادته ومقدرة الإنسان.[٨٣]

والانطباع الذي نكونه عن زرارة من المصادر وبخاصة الكشّي هو أن زرارة قام بدور هام جداً في تطوير الفكر الشيعي الشرعي legitimate وساهم إلى حد بعيد في تشكيل عقيدة الإمامة. وهو أحد المصادر التي يتكرر الاقتباس منها في الكتب الشيعيّة الرئيسية.

كما كان أبو جعفر محمد بن النعمان الأحول شخصية بارزة أخرى بين شيعة الكوفة وبرز نشاطه في مجال علم الكلام، وقد ربط قضية الإمامة مع الأسس النظرية الأخرى. وقد وصف كتاب الفرق مجموعة الأحول التي تمركزت حوله باسم النعمانية، وقد ميز الأحول شخصيته من بين شيعة الصادق بمهارته في الجدل الكلامي، وبسلاطة إجاباته على تحدي خصومه. وكان الأحول في بدايته من المقربين من الإمام الباقر، وقد تبنى الأحول مناصرة قضية الباقر ضد دعوى أخيه زيد بن علي. ثم تبع بعد ذلك الصادق ثم موسى الكاظم.

لكن معظم نشاط الأحول في تدعيم معتقداته جرى خلال إمامة الصادق. وقد عدّ الأحول بين الشخصيات المقربة من الصادق، وقبل إمامة الكاظم فور وفاة الصادق دون التفاف لأي من أولاده الآخرين.[٨٤] ونقل عنه أنه أدار حوارات متعددة حامية مع الفقيه المشهور أبي حنيفة النعمان صاحب المذهب الفقهي السني، وقد وبخ الأحول أبا حنيفة واتهمه بالإرجاء. وقد بادله أبو حنيفة الازدراء والاتهام.[٨٥] وقد وصف الأحول بالشجاعة والصراحة المتناهية في عرض قناعاته فيما يخص حقوق الأئمة الشرعية على أسس عقلية.[٨٦] وبصفته مؤيداً متحمساً للأئمة الشرعيين فقد تمسك بنظرية أن الله فرض طاعة الأئمة الكاملة، وبأن الإمام يحوز علماً خاصاً وضرورياً لهداية الناس. وقيل أنه كان كاتباً غزير الإنتاج، وقد ذكر مؤلفاته العديد من المصادر. ومن بين مؤلفاته: كتاب الإمامة وكتاب الرد على المعتزلة في إمامة المفضول، وغيرها مما له طابع الجدل.[٨٧] ومن عناوين كتبه نستشف أن موضوع الإمامة كان مدار جدل بين المعتزلة

والمفكرين الشيعة في ذلك الوقت. ويذكر الكشّي مجموعة من المجادلات التي أدارها الأحول تأييداً للصادق، ويقتبس قول الصادق: "الأحول من أحب الناس إليّ حياً وميتاً."[٨٨]

وكان من بين رجال هذه المجموعة هشام بن سالم الجواليقي، وأصله عبد من جرجان ثم أصبح مولى بشر بن مروان. وعاش في الكوفة، يبيع العلف. وجمع حوله مجموعة من التلاميذ كما فعل الأحول، وطوّر علم الكلام الشيعي وبخاصة في مجال صفات الله.[٨٩]

وربما كان من بين أهم مفكري شيعة الصادق أبو محمد هشام بن الحكم[٩٠] وعلي بن إسماعيل الميثمي.[٩١] كان هشام بن الحكم في بداياته تابعاً وتلميذاً للجهم بن صفوان المجبر (القائل بالجبرية)، ولكنه تحول للعقيدة الشيعية وصار أكثر أتباع الصادق إخلاصاً له. ويبدو أنه تشيع وهو يافع، فقد عاش حتى أيام علي الرضى وأصبح أحد المقربين منه.[٩٢]

إن علم الكلام الشيعي الذي أسسه وطوّره هؤلاء المفكرون الخمسة أيام الصادق واسع جداً لا يمكن فحصه هنا. وما يهمنا الآن هو مساهماتهم في تطوير عقيدة الإمامة، التي ربطوها بأصول الدين. وثمة حقيقة مدهشة وهي أن هؤلاء المفكرين الخمسة غالباً ما اختلفوا فيما بينهم حول قضايا عديدة لكن أفكارهم وتعليمهم عقيدة الإمامة كانت متفقة تماماً.

وخلاصة عقيدة الإمامة عندهم أن النبي نصب علياً إماماً بنص جلي ثم خلفه ولداه الحسن والحسين بالطريقة عينها. وأن الإمامة ضرورية لهداية البشرية كما أن العقل ضروري لتنسيق نشاطات جسم الإنسان وقيادته.

ولكي يهدي الإمام البشرية ويردهم عن الضلال يجب أن يكون معصوماً. ذلك لأن الإمام الذي هو دون النبي لا يتلقى وحياً من الله. وبالتالي وحيث أن الإمام قائد معصوم معين بنعمة من الله، فإن طاعته هي طاعة الله، وعصيانه كفر.[٩٣]

وبينما كانت مجموعة من أتباع الصادق مهتمة بعلم الكلام فإن مجموعة أخرى ركزت اهتمامها على القضايا الفقهية. وقد بيّنا سابقاً أنه يصعب التمييز بين المحدثين والفقهاء يومئذ خاصة بين الشيعة منهم. ومع ذلك، كان هناك اختلاف بين اهتماماهم. فقد اهتم بعضهم بأحاديث تخص العقائد (الأصوليون)، واهتم الآخرون بأحاديث تخص الفقه (النقليون أو الفقهاء). وهكذا فإن معظم الأحاديث التي تخص المسائل الفقهية رواها جميل بن درّاج وعبد الله بن مسكان وعبد الله بن عثمان.[٩٤] وجميع هؤلاء كانوا من المقربين من الصادق واعتبرهم الشيعة الأثنا عشرية موثوقين وفقهاء كبار بين أتباع الصادق. وقد وصفهم الكشّي بأنهم من أكثر أتباع الصادق موثوقية في المسائل الفقهية؛ وكذلك قال عنهم الشيعة عامة.[٩٥] ووافق الكشّي على قوله أصحاب الكتب الصحاح الأربعة: الكافي للكليني، ومن لا يحضره الفقيه للصدوق، والاستبصار وتهذيب الأحكام للطوسي، وتحوز هذه الكتب الأربعة على المصداقية عينها التي تحوزها كتب الصحاح الستة عند السنة.

ويجب أن نضيف إلى قائمة هؤلاء الفقهاء الذين عاشوا في أيام الصادق اسم أبان بن تغلب بن رياح[٩٦] فهو فقيه ومحدث مشهور ومهم وقد عاصر الإمامين زين العابدين والباقر. وقيل أنه عندما توفي عام ١٤٠هـ

٧٥٧م قال الصادق: "أحب أن تكون شيعتي مثل أبان بن تغلب." و"لقد أحزن موته قلبي."[٩٧] ويظهر اسم أبان راوية للحديث وبخاصة الأحاديث التي تتعلق بالمسائل الفقهية.

ولعل من المهم ملاحظة أن معظم هؤلاء المحدثين – الفقهاء الذين لازموا الصادق عاصروا ثلاثة أو على الأقل اثنين من الأئمة الشرعيين إما زين العابدين والباقر والصادق أو الباقر والصادق والكاظم، والبعض الآخر ممن لازموا الصادق فقد خدموا عقيدة الإمامة حتى زمن علي الرضا.

بعد هذه الخلاصة الموجزة لنشاطات الأفراد أو المجموعات العامة تحت قيادة الإمام جعفر الصادق في مختلف العلوم الدينية، صار بإمكاننا أن نستخلص نتيجتين. الأولى: في تلك المرحلة التأسيسية للفكر الإسلامي والمنظمات الإسلامية ساهم هؤلاء تحت رعاية الصادق بقسط وفير في إشادة أساس متين لتفسير أصول العقيدة الدينية، ونظام فقهي إمامي شيعي للمفكرين والفقهاء والمتكلمين من الشيعة الاثني عشريين المتأخرين. الثانية: حقيقة أن مجموعة كبيرة من الأفراد الذين عملوا في مختلف مناحي الحياة الدينية، واختاروا الالتفاف حول الصادق راضين بإمامته على أساس مبدأ "النص" وهذه الحقيقة وضعت عربة الإمامة الشيعية على طريق متميز المواصفات ضمن الإسلام.

وثمة الكثير من العقائد التي حفظتها لنا المصادر المبكرة التي تفسر عقائد الشيعة الإمامية خلال حياة جعفر الصادق. وإحدى هذه العقائد نطق بها عمر بن حريث أمام الصادق وهي كما يلي: "أحب أن أعرض عليك ديني وعقيدتي لتشهد على إيماني. إن ديني هو أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأن

محمداً عبده ورسوله. وأشهد أن اليوم الآخر آت لاريب فيــه، وأن الله يبعث من في القبور، وأشهد أن الصلاة فرض وكذلك الزكاة وصيام شهر رمضان والحج إلى بيت الله لمن استطاع إليه سبيلاً. وأقر بولاية علي بن أبي طالب أمير المؤمنين بعد رسول الله عليهما السلام وولايــة الحســن والحسين وعلي بن الحسين ومحمد بن علي وبعدهم ولايتك، وأقر بأنكم الأئمة، أحيا على هذا الدين وعليه سوف أموت وبه أعبد الله." وبعد أن سمع الصادق ذلك، قال: "هذا والله فعلاً ديني ودين آبائي الذي عبدوا الله به سراً وجهراً؛ فاخش الله، واحفظ لسانك عن قول إلا الحق."[٩٨]

وثمة إعلانات مماثلة نقلها الكشّي عن داوود بن يونس وخالد بن بجلة.[٩٩] وهناك رواية تفصيلية لعقائد الشيعة الاثني عشرية تتعلق بأصول الــدين وفروعه دونها الشيخ ابن بابويه القمي المشهور باسم الشيخ الصــدوق (توفي ٣٨١هـــ ٩٩١م) في كتابه "رسالة الاعتقادات". ويقر الشــيعة الاثنا عشرية عامة بأن الشيخ الصدوق ثقة معتمدة، ورســالته مقبولــة بصفتها من أبكر كتب العقائد المخطوطة ويقرون بصحة ما فيهــا مــن عقائد. وبمقارنة عقيدة الشيعة مع عقائد السنة مثل الفقه الأكبر الأول والفقه الأكبر الثاني ووصية أبي حنيفة فإن المرء يجد أن باستثناء الإمامة فإن الاختلافات بين السنة والشيعة لا تتعدى الاختلافات بــين الأشــاعرة والمعتزلة. وإن الآراء الشيعية تماثل إلى حدٍّ بعيد آراء المعتزلة، الذين كانوا جزءاً من المسلمين السنة، برغم أن آراءهم العقلانية رفضت مؤخراً من طرف "الجماعة"

وإن موضوع القرآن يوضح قضية هذه الوحدة الأساسية. يقول الشيخ الصدوق: "إن عقيدتنا بالقرآن أنه كلمة الله، ووحيه الذي أنزله، وكلامه وكتابه وأن الباطل لا يأتيه من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد." سورة فصلت ٤١ وأن الله تعالى خالقه وموحيه وسيده وأن النبي بلغه. ونقر بأن القرآن الذي أوحاه الله تعالى لنبيه محمد هو ما بين الدفتين وما هو بين أيدي الناس جميعاً، وأنه ليس أكثر من ذلك. وأن سوره كما يعرفها الجميع مئة وأربع عشرة."[١٠٠]

ثمة نقطتان تستلفتان النظر في تصريح الشيخ الصدوق هذا. الأولى: إن الشيعة مثل المعتزلة يعتقدون بأن القرآن كلمة الله المخلوقة، وليست غير مخلوقة وأزلية كما يقول الأشاعرة وقبلها كذلك الإسلام الرسمي. الثانية: أن القرآن هو هو كما يتداوله الناس جميعاً من سنة وشيعة. وهذا يعني أن ما يقال من أن جزءاً من القرآن حذف هوخطأ لا يقره الشيعة.

ليس من اهتمامنا هنا متابعة التطورات التفصيلية التي طرأت على عقيدة الشيعة في الأزمنة المتعاقبة، كما حصل فعلاً لعقيدة السنة. ولم يكن القصد من هذا الكتاب بحث مساهمة الأئمة الستة بعد الصادق، حيث صار الشيعة يعرفون بالشيعة الأثني عشرية. بل كان همنا هو بحث أصول التشيع والتطور المبكر للميول الدينية التي من خلالها ميز الشيعة أنفسهم عن المسلمين الآخرين.

بعد ما بحثناه في هذا العمل وبنظرنا إلى نشاطات أولئك الذين تجمعوا حول جعفر الصادق الذي توفي عام ١٤٨هـ ٧٦٥م نستطيع أن نختم بالقول أن الشيعة صار لها ميزات محددة. وإن الاختلافات الفعلية بين

السنة والشيعة سواء في العقائد أو الفقه لم تكن هامة بقدر الروح الخفية خلف هذه الاختلافات اليسيرة. هذه الروح نشأت منذ البداية الأولى منهم وتفسير الإسلام، كما عرضنا في الفصل الأول، وتطورت من خلال مفهوم الشيعة لقيادة الأمة بعد النبي. إن هذا المفهوم حول القيادة هو الذي يميز الشيعة عن السنة ضمن الإسلام؛ وعلى هذا المفهوم كان تركيزنا خلال هذه الصفحات.

مراجع وملاحظات الفصل ١١

١- انظر مناقشة ابن حزم لـ فردلاندر "فروق الشيعة كما يعرضها ابن حزم" مجلة Jaos العدد ٢٨، ١٩٠٧ ص٧٤ E

٢- الأشعري، مقالات الإسلاميين، تح. هيلموت رتر، استنبول ١٩٢٩ ص١٧،١٦E

٣- هو اللقب الذي أطلقه كتاب الفرق السنة لوصف الشيعة الاثنى عشرية. ولتفصيل أكثر انظر وات "الرافضة" دراسة أولية oriens عدد ١٦، ١٩٦٣ E

٤- الطبري ج٢ ص١٧٠٠

٥- هودسن (كيف صار الشيعة فرقة) Jaos ١٩٥٥ ص١٠

٦- من أجل دعاوى الغلاة انظر النوبختي كتاب الفرق ص٢٥ و٣٠ و٣٩ و٥٢ - ٥٥ وسعيد الأشعري المقالات ص٣٣ و٣٥ و٣٧، والشهرستاني الملل والنحل ج١ ص١٧٦ و١٧٨ ويقول سعيد الأشعري ص٣٧ أن بيان ادعى الإمامة خلفاً لأبي هاشم ولم يقل بإمامة البافر.

٧- الكليني، الكافي ج١ ص٢٠٨

٨- نفسه ص٢٦١

٩- هودسن، السابق ص١١

١٠- نفسه

١١- الكشي، رجال ص٢٨٥

١٢- الكليني، الكافي ج١ ص٢٧٤

١٣- الكليني، الكافي ج١ ص٣٥٦

١٤- نفسه ص٢٦٥ والكشي، رجال ص٤٢٧

١٥- الكليني، الكافي ج١ ص٣١٨

١٦- الكليني، الكافي

١٧- الكليني، الكافي ج١ ص٤٦٢

١٨- الكليني، الكافي ص٢١٤-٢٢٠
١٩- الكليني، الكافي ص٢٠٥ و٢٠٧ ورسالة الاعتقادات للصدوق
٢٠- الكليني، الكافي ج١ ص٢٠٥، ٢٠٧، ٣٠٤ وما بعدها
٢١- نفسه ص٢٠٥
٢٢- نفسه
٢٣- الكليني، كتاب الحج، والشيخ المفيد، الإرشاد ج١ ص٣٠٤-٣١٣
٢٤- القرآن سورة ٣ أية٦
٢٥- الكليني، الكافي ج١ ص٢٩٢
٢٦- وينسنك wensinck التراث المحمدي تحت عنوان علي، لسيدن ١٩٦٠
٢٧- ابن سعد ج٢ ص١٠١
٢٨- نفسه
٢٩- الكليني، الكافي ج١ ص٣٣٠ وما بعد.
٣٠- "إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً"
٣١- انظر تفسير الثعالبي ص٤٠٢
٣٢- الكليني، الكافي ج٢ ص٤٨٨
٣٣- نفسه
٣٤- نفسه ص٤٨٧
٣٥- نفسه ص٤٨٦
٣٦- الكليني، الكافي ج١ ص٤٨٣
٣٧- القرآن سورة ٥ آية ٦٧
٣٨- القرآن سورة ١٦ آية ١٠٦
٣٩- الكليني، الكافي ج١ ص٤٨٣
٤٠- مبدأ التقية في الإسلام، LX, ZDMG (١٩٠٦)
٤١- الصدوق، رسالة الاعتقادات ص١١٠
٤٢- الكشّي، رجال، ص٤١٩

٤٣- دائرة المعارف الإسلامية طبعة ٢ مقال "عبد الله بن سبأ" E
٤٤- سعد الأشعري، مقالات ص ٢٠، النوبختي: الفرق ص٢٢
٤٥- نفسه
٤٦- النوبختي، الفرق ص٣٢
٤٧- الكشي، رجال ص٢٩٦، الشهرستاني، الملل ج١ ص١٥٢، الأشعري، مقالات ص٦-٩
٤٨- الكشي، رجال ص١٤٨، النوبختي: الفرق ص٣٤
٤٩- الكشي، رجال ص٢٢٣
٥٠- انظر أنساب السمعاني ص ١١٣، الكشي، رجال ص١٩١ وما بعدها، النجاشي، رجال ص٩٣
٥١- انظر الفصل التاسع من هذا الكتاب
٥٢- الحائري، منتهى ص٢٠٢، ابن النديم، الفهرست ص٦٦
٥٣- الكافي ج١ ص٢٧٩
٥٤- انظر ايفانوف "ملاحظات على أم الكتاب" RE ١٩٣٢ بالإلمانية
٥٥- انظر EE. Salisbury ترجمة "رسائل لم تنشر، رسائل عربية" Jaos ١٨٥٣ ص١٦٧-١٩٣
٥٦- الكافي ص٣٦٥، الكشي، رجال ص٣٢٤
٥٧- الكافي ج١ ص٣٠٨ شائع
٥٨- اليعقوبي ج٢ ص٣٨١، الكشي، رجال ص٣٢٤
٥٩- انظر دونالدسن "المذهب الشيعي" ص١٣٥ E
٦٠- الكشي، رجال ص٢٢٤، وهودسن ص١٣
٦١- الكشي، رجال ص٢٤٧
٦٢- نفسه
٦٣- نفسه
٦٤- الطوسي، الفهرست، ص١٤١، الحائري، منتهى ص١٣٥-١٣٦، والحلي، رجال ص٧٦

٦٥- الحائري، منتهى ص١٢٠

٦٦- الكشي، رجال ص١٣٥، الطوسي، الفهرست ص١٤٦، الحائري، منتهى ص١٣٦

٦٧- أبو أحمد محمد بن أبي عمير زيد بن عيسى محدث وصاحب موسى الكاظم وعلي الرضا. قيل أنه كتب أربعة كتب. انظر النجاشي ص٢٢٨، والحائري،منتهى ص٢٥٤

٦٨- الكشي، رجال ص١٣٥

٦٩- الكشي، رجال ص١٣٨ لمرجع عن الخضر انظر القرآن سورة الكهف

٧٠- ابن النديم ص٢٢٠، الحائري ص١٣٦

٧١- الحائري ص٩٣ ابن النديم ص٦٦

٧٢- الحائري ص١١٠ ابن النديم ص٦٦

٧٣- الحائري ص٩٩ ابن النديم ص٦٦ الطوسي الفهرست ص٢٠٢ ويسميه عبيد بن زرارة

٧٤- ابن النديم ص٦٦، الكشي ١٧٦

٧٥- الحائري ص١٣١، الطوسي ص١١٧

٧٦- الكشي ص١٨١، الحائري ص٦٨ ابن النديم ص٦٦

٧٧- الطوسي ص١٨٨، الحائري ص١٨٢

٧٨- هو أخو هشام بن الحكم. الحائري ص١٨٢

٧٩- الأشعري، مقالات ج١ ص٤٣

٨٠- بخصوص الأخيرين الجواليقي: متكلم عاش في الكوفة، كتب في الإمامة تفصيلاً عرفت جماعته باسم النعمانية وعرف بجدله. الأحول: عاصر الباقر وناصره ضد أخيه زيد توفي في عهد الكاظم.

٨١- مقالات الأشعري ج١ ص٢٨ ويشير إلى التميمية

٨٢- لتفاصيل أكثر عن زرارة راجع رجال الكشي ص١٣٣-١٦١

٨٣- لتفاصيل أكثر انظر مقالات الأشعري ج٢ ص٣٦، والبغدادي، الفرق ص٤٣، والشهرستاني الملل ج١ ص١٨٦

٨٤- الكشي ص١٨٥، النجاشي، رجال ص٢٢٨، سعيد الأشعري، مقالات ص٨٨، الطوسي الفهرست ص٢٢٣

٨٥- النجاشي ص٢٢٨، الكشي ص١٨٧

٨٦- الكشي ص١٣٥، ابن عبد ربه، العقد ج٢ ص٤٦٥، الشهرستاني الملل ج١ ص١٨٧

٨٧- ابن النديم ص١٧٦، النجاشي ص٢٢٨، الشهرستاني ج١ ص١٨٧

٨٨- الكشي ص١٨٥

٨٩- الكشي ص٢٨٠، النجاشي ص٣٠٥، الطوسي ص٣٣٤، الحائري ص٣٢٣

٩٠- مولى بني كندة ولكن غالباً ما يوصف بأنه صاحب بني شيبان، الكشي ص٤٧٥، الطوسي ص٣٥٣

٩١- مولى بني أسد، عاش في البصرة وتردد على المعتزلة المتكلمين.

٩٢- الكشي ص٢٢١٤

٩٣- الأشعري ج١ ص٤٨، الشهرستاني ج١ ص١٨٤

٩٤- الكشي ص٣٧٥ ورجال الكشي والنجاسي والحائري

٩٥- الكشي ص٣٧٥

٩٦- الكشي ص٣٣٠، الحائري ص١٧، النجاشي ص٧-١٠، الذهبي،الميزان ج١ ص٤-٥

٩٧- الكشي ص٣٣٠

٩٨- الكشي ص٤١٨

٩٩- الكشي ص٤١٩

١٠٠- عقائد الصدوق ص٨٤ وما بعدها.

المراجع

أ- المصادر الأولية

أبو داوود سليمان بن الأشعث، سنن المصطفى. القاهرة، بدون تاريخ

أبو الفرج الاصفهاني، كتاب الأغاني، بيروت ١٩٧٣ مقاتل الطالبيين، طهران، ١٩٤٩

أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، القاهرة ١٩٢٩

أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء، القاهرة ١٩٣٣

أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم، كتاب الخراج، القاهرة ١٩٣٣

علي المتقي، كنز العمال، حيدر أباد ١٣٦٤هـ

الأنباري أبو بكر محمد بن قاسم، شرح القصائد السبعة الطوال الجاهلية، تح. عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٦٣

الأشعري أبو الحسن علي بن إسماعيل، مقالات الإسلاميين، تح. هلموت ريتر، استنبول ١٩٢٩

الأشعري محمد بن أبي بكر. التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان، تح. محمد زياد، بيروت ١٩٦٤

الأشعري سعد بن عبد الله القمي، المقالات والفرق، تح محمد جواد مشكور، طهران ١٩٦٣

الأزرقي محمد بن عبد الله، أخبار مكة، تح رشدي الصالح، مكة ١٣٥٢هـ

البغدادي أبو منصور عبد القاهر، الفرق بين الفرق، تح. الكوثري، القاهرة ١٩٤٨

أصول الدين، استنبول ١٩٢٨

البلاذري أحمد بن يحي بن جابر، أنساب الأشراف ج١، تح. محمد حميد الله، القاهرة ١٩٥٥ ج١-٦ تح. ماكس شلسنجر، القدس، ١٩٣٦

فتوح البلدان ترجمة فيليب حتي، أصل الدولة الإسلامية، نيويورك ١٩١٦
البيضاوي عبد الله بن عمر، أنوار التنزيل، تح. فلشر، ١٨٤٦-١٨٤٨
البيهقي محمد بن إبراهيم، كتاب المحاسن والمساوئ. تح. فريدرك شوالي، جسن ١٩٠٢
البخاري محمد بن إسماعيل، جامع الصحاح، القاهرة ١٩٣٢
الداميري كمال الدين، حياة الحيوان، بولاق ١٢٨٤هـ
الذهبي أبو عبد الله محمد، تأريخ الإسلام، القاهرة ١٣٦٧هـ
تذكرة الحفاظ، حيدر أباد ١٣٣٣هـ، وميزان الاعتقاد بلا تاريخ
الدينوري أبو حنيفة أحمد بن داؤد، كتاب الأخبار الطوال، القاهرة ١٩٦٠
الديار بكري حسين بن محمد، تاريخ الخميس، القاهرة ١٣٠٩هـ
الفرزدق، الديوان،تح. عبد الله الصاوي، القاهرة ١٩٣٦
الحائري محمد بن إسماعيل، منتهى المقال، طهران ١٣٠٢هـ
الحلي حسن بن يوسف، الباب الحادي عشر، ترجمة ميلر، لندن ١٩٢٨
منهج الكرامة في معرفة الإمامة، طهران ١٨٨٠
كشف اليقين في فضائل أمير المؤمنين، طهران ١٨٨٠
الرجال، تح. محمد صادق، النجف ١٩٦١
ابن عبد البر، كتاب الاستيعاب، القاهرة بلا تاريخ
ابن عبد ربه أحمد بن محمد، العقد الفريد، تح. أحمد أمين، القاهرة ١٩٢٥-١٩٥٦
ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٥٩
ابن عساكر علي بن الحسن، تبيين كذب المفتري، دمشق ١٣٤٧هـ
التاريخ الكبير، دمشق ١٣٤٧هـ
ابن الأثير أبو الحسن علي بن كريم، الكامل في التاريخ، بيروت ١٩٧٥

ابن الأثير علي بن محمد، أسد الغابة في معرفة الصحابة، القاهرة بلا تاريخ
ابن دريد محمد بن الحسن، كتاب الاشتقاق، تح فرديناند وستفيلد – كوتنجن ١٨٤٥
ابن الحبيب محمد بن حبيب، كتاب المحبّر، تح. لستنستاتر، حيدر أباد ١٩٤٢
ابن حجر أحمد بن محمد الهيثمي، الصواعق المحرقة، تح. عبد الوهاب، القاهرة ١٣٧٥هـ
ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، حيدر أباد ١٣٢٩هـ
تهذيب التهذيب، حيدر أباد ١٣٢٥هـ
ابن حنبل أحمد بن محمد، المسند، القاهرة، ١٨٩٥
ابن حزم أبو محمد علي بن أحمد، الفصل في الملل والأهواء والنحل، القاهرة ١٣٤٧هـ
ابن هشام أبو محمد عبد الملك، سيرة رسول الله، تح. مصطفى السقا، القاهرة ١٩٣٦
ابن عماد الحنبلي، شذرات الذهب، القاهرة ١٣٥٠هـ
ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن، كتاب صفوة الصفوة، حيدر أباد ١٣٥٥هـ
تلبيس إبليس، القاهرة ١٣٤٠هـ
ابن كثير إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، القاهرة ١٩٣٢
تفسير القرآن العظيم، القاهرة بلا تاريخ
ابن خلدون عبد الرحمن، العبر، القاهرة ١٨٦٧
المقدمة، تح. علي عبد الواحد وافي.
ابن خلكان أحمد بن محمد، وفيات الأعيان، تح. إحسان عباس، بيروت ١٩٧٢
ابن النديم محمد بن إسحاق، الفهرست تح. غوستاف فلوجل، ليزبن ١٨٧١

ابن نشوان الحميري، حور العين،تح. كميل مصطفى، القاهرة ١٩٤٨
ابن قتيبة محمد بن عبد الله، عيون الأخبار، القاهرة ١٩٢٥
كتاب المعارف، القاهرة بلا تاريخ
الإمامة والسياسة (منسوب له) القاهرة ١٩٥٧
ابن الصبّاغ نور الدين المالكي، الفصول المهمة في معرفة الأئمة، إيران ١٨٨٦
ابن سعد محمد، الطبقات الكبرى، بيروت ١٩٥٧
ابن الطقطقي محمد بن علي، الفخري في أدب السلطانية، القاهرة، ١٩٢١
الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تح. عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٦٠
رسائل الجاحظ، تح حسن السندوبي، القاهرة ١٩٣٣
الجيلاني عبد القادر، غنية الطالبين، دلهي ١٣٠٠هـ
الكلبي هشام بن محمد، كتاب الأنساب، تح. أحمد زكي باشا، القاهرة ١٩١٤
الكشي عمر بن محمد، معرفة أخبار الرجال، مشهد بلا تاريخ
خليفة بين خياط، تاريخ، تح. سهيل زكار، القاهرة ١٩٦٧
الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، القاهرة ١٩٣١
الخياط بعد الرحيم، كتاب الانتصار،تح. نيبورغ، بيروت ١٩٥٧
الكليني محمد بن يعقوب، الأصول الكافي، كراتشي ١٩٦٥
الكليني الفروع الكافي، طهران ١٨٩١
الكميت – الهاشميات، الصيداوي، القاهرة ١٩٥٠
المعري أبو العلاء، رسالة الغفران، القاهرة ١٩٥٠
المجلسي محمد باقر، بحار الأنوار، إيران ١٣٠١ – ١٣١٥هـ
مالك بن أنس، الموطأ، القاهرة ١٨٦٢

المقريزي أحمد بن علي، النزاع والتخاصم بين بني أمية وبني هاشم، النجف ١٣٦٨هـ
المسعودي علي بن حسين، مروج الذهب، بيروت ١٩٦٦
كتاب التنبيه والأشراف، ليدن ١٨٩٤
المنقري نصر بن مزاحم، وقعة صفين، القاهرة ١٣٦٥هـ
المبرد محمد بن يزيد، كتاب الكامل، القاهرة بلا تاريخ
المفضل بن محمد، المفاضليات، تح. تشارلز جمس ليال، اكسفورد ١٩٢١
المفضل بن عمر الجعفي، كتاب الهفت والأظلة، منسوب له، تح. عارف تامر، بيروت ١٩٦٠
المفيد محمد بن محمد، الأمالي، النجف ١٣٥١هـ
كتاب الإرشاد، طهران ١٣٤٤هـ
محمد الخطيب، مشكاة المصابيح، لوكناو ١٩٢٤
مرتضى بن داعي، كتاب تبصرة العوام، طهران ١٣١٣هـ
مسلم أبو الحسين، الصحيح، القاهرة بلا تاريخ
النابغة الذبياني، الديوان، تح. شكري فيصل، بيروت ١٩٦٨
النجاشي أحمد بن علي، كتاب الرجال، طهران بلا تاريخ
النسائي أحمد بن شعيب، السنن، القاهرة ١٨٩٤
النوبختي حسن بن موسى، فرق الشيعة، النجف ١٩٥٩
القاضي النعمان أبو حنيفة، شرح الأخبار، مخطوطة مدرسة الدراسات الإفريقية والشرقية جامعة لندن رقم٢٥٧٣٢
دعائم الإسلام تح. آصف فيضي، القاهرة ١٩٥١-١٩٦١
الرازي فخر الدين، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، القاهرة ١٣٣٨هـ
مفتاح الغيب،القاهرة بلا تاريخ
الصدوق الشيخ ابن بابويه القمي، من لا يحضره الفقيه، إيران ١٣٤٢هـ

رسالة الإعتقادات، ترجمة آصف فيضي، عقيدة الشيعة، كلكتا ١٩٤٢
عيون أخبار الرضى، إيران ١٨٥٨
السمعاني عبد الكريم بن محمد، كتاب الأنساب، ليدن ١٩١٢
الشهرشوب محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب، النجف ١٩٥٦
الشهرستاني محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل، تح محمد سيد الكيلاني، القاهرة ١٩٦١
شمس الدين محمد طولون، الأئمة الاثني عشر، تح. صلاح الدين المنجد، بيروت ١٩٥٨
السبكي أبو نصر عبد الوهاب، طبقات الشافعية، تح أحمد بن عبد الكريم، القاهرة بلا تاريخ
السيوطي جلال الدين، تاريخ الخلفاء، ١٣٥١هـ
الطبري أبو جعفر، تاريخ الرسل والملوك، تح. دي غوي ليدن ١٨٧٩ – ١٩٠١
المختصر من كتاب الزيل المزيّل، القاهرة ١٩٢٩
جامع البيان في تفسير القرآن، القاهرة ١٣٢٨هـ
الطبرسي فضل بن حسن، الاحتجاج، طهران ١٣٠٢هـ
الطوسي نصير الدين محمد بن حسن، الاستبصار، النجف ١٩٥٦
تهذيب الأحكام، النجف ١٩٥٩
كتاب الفهرست تح. سبرانجر، كلكتا ١٨٥٥
اليعقوبي أحمد بن علي يعقوب الوضاح، التاريخ، بيروت ١٩٦٠
ياقوت الحموي شهاب الدين، معجم البلدان، بيروت ١٩٥٥
زيد بن علي، مجمع الفقه، تح. جريفني، ميلان ١٩١٩

ب- المصادر الثانوية

آبوت نبيا، دراسات في الأدب العربي، شيكاغو ١٩٥٧ -١٩٧٢ E
آغا بزرغ الطهراني، الذريعة لتصانيف الشيعة، النجف ١٩٣٦ وما بعدها
علي الوردي، واعظ السلاطين، بغداد ١٩٤٥
أمير علي سيد، القانون المحمدي، لندن ١٩٣٦ E
العاملي محسن بن عبد الكريم الحسيني، أعيان الشيعة، دمشق ١٩٣٥ وما بعدها
ارنولد سير توماس، الخلافة، اكسفورد ١٩٢٤ مترجم إلى العربية
بروكلمان دارل، الأدب العربي، ليدن ١٩٣٧ بالألمانية، مترجم
تاريخ الشعوب الإسلامية، لندن ١٩٥٩
دونالدسن، المذهب الشيعي، لندن ١٩٣٣ E
عبد العزيز الدوري، دراسة في بداية الكتابات التاريخية في الإسلام، BSOAS عدد ٢١، ١٩٥٧ E
إقبال عباس خانداں، نوبخت، طهران ١٣١١هـ فارسي
دائرة المعارف الإسلامية الطبعة الأولى ١٩١٣-١٩٣٨ الطبعة الجديدة ١٩٦٠ وما بعدها
فريد لاندير، انحرافات الشيعة كما عرضها ابن حزم JAOS عدد ٢٧ E
فري ريتشارد، دور أبي مسلم في الثورة العباسية، مجلة عالم الإسلام عدد ٣٧، ١٩٤٧ E
آصف فيضي، نظرية الفقه الشيعي، القانون في الشرق الأوسط، تحرير مجيد خدوري وليبسني واشنطن ١٩٥٥ E
جيبون ادوارد، تارخ انحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية، تحرير بري، لندن ١٩٠١ E

جولد زيهر، دراسات محمدية، ترجمة سترن وباربر، دراسات إسلامية،
لندن ١٩٦٧-١٩٧٢
حميد الله محمد، الدولة المدنية في مكة، IC عدد١٢، ١٩٣٨
صحيفة همام بن منبه، حيدر آباد ١٩٦١
حسن الصدر، تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام، كاظمان ١٩٥١
حتي فيليب، تاريخ العرب، لندن ١٩٤٩ E مترجم
هودسن مارشال، كيف صارت الشيعة المبكرة طائفة، JAOS ١٩٥٥
نظام القتلة، مونتن ١٩٥٥ E
ايفانوف W ، الحركات الشيعية المبكرة JBBRAS ١٩٣٩ E
المرشد إلى الأدب الإسماعيلي، لندن ١٩٣٣ E
ملاحظات على أم الكتاب RE١ ١٩٣٢ بالألمانية
كحالة عمر رضا، معجم قبائل العرب، دمشق ١٩٤٩
خليف يوسف، حياة الشعر في الكوفة، القاهرة ١٩٦٨
خدا بخش، السياسيات في الإسلام، لاهور ١٩٣٢ E
لسين .W.E، معجم عربي- إنكليزي، لندن ١٨٦٣
لويس برنارد، العرب في التاريخ، لندن ١٩٥٠ E
أصول الإسماعيلية، كمبردج ١٩٤٠ E
ماسينيون. .L شرح خطة الكوفة بيروت ١٩٦٣ ترجمها تقي المصعبي،
خطط الكوفة، صيدا ١٩٣٩
المودودي أبو الأعلى، الخلافة والملوكية، لاهور ١٩٦٦
مور سير وليم، الخلافة، ادنبرة ١٩١٥ E
نيكلسون .R.A، تاريخ العرب الأدبي، كمبردج ١٩٥٦ E
يترسون .E.L، علي ومعاوية في الروايات العربية الأولى، كوبنهاجن
١٩٦٤ E
القزويني معز الدين، أنساب القبائل العراقية، النجف ١٩١٨
رمضان لاوند، الإمام الصادق، بيروت بلا تاريخ

روسكا، تاريخ قضية جابر، ic عدد ١١، ١٩٣٧ E
شاخت جوزيف، مقدمة للقانون الإسلامي، اكسفورد ١٩٦٤ E
أصول القانون المحمدي، اكسفورد ١٩٥٠
سيرجنت .R.B، الحرم والحوطة المحمية المقدسة في شبه الجزيرة العربية
بالتعاون مع طه حسين، تحرير عبد الرحمن بدوي، القاهرة ١٩٦٢
أسياد حضر موت، محاضرة افتتاحية BSOAS لندن ١٩٥٧ E
سيجن ارسولا، أبو مخنف ورعاية الأمويين لكتاب الفرق، ليدن ١٩٧١
بالألمانية
الشهابي محمود، أدوار الفقه، طهران ١٣٢٩هـ
وات مونتغمري، الإسلام وتكامله الاجتماعي، لندن ١٩٦١ E
الفكر الإسلامي السياسي، ادنبره ١٩٦٨
محمد في مكة لندن ١٩٥٣
محمد في المدينة لندن ١٩٥٥
حنين المسلمين لنقد: وجهات نظر الشيعة في العهد العباسي، تحرير
براندون، اكسفورد ١٩٦٣
الرافضة: دراسة أولية، مجلة أورينت عدد ١٦، ١٩٣٦ E
الشيعة أيام الأمويين JRAS ١٩٦٠ E
ويلهاوسن جوليس، الدولة العربية وسقوطها، كلكتا ١٩٢٧ E
السياسة الدينية الأحزاب المعارضة في الإسلام ترجمها عبد الرحمن بدوي،
الخوارج والشيعة،
القاهرة ١٩٥٨
وينسنك .A.J كتيب عن أحاديث محمد، ليدن ١٩٦٠ E
العقيدة الإسلامية، كمبردج ١٩٣٢ E

الفهرس